

رسالة الإسلام

مجلة إسلامية عالمية

تصدر عن دار البقريتين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً
وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ
”قرآن كريم“



رسالة الإسلام

مجلة إسلامية عالمية

تصدرها دارالتقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

تنشر الطبعة الثانية بإذن خاص من

المهندس القمى نجل المغفور له العلامة القمى، السكرتير العام

لدار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

تصدي لنشرها

مجمع البحوث الإسلامية للآستانة الرضوية المقدسة

و

مجمع التقريب بين المذاهب الإسلامية

١٤١١هـ / ١٩٩١م

الأمر الفتي والطبع

مؤسسة الطبع والنشر في الآستانة الرضوية المقدسة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كتاب النور

الحمد لله الذى تسمى باسمه الحق ، وخلق السموات والأرض بالحق ،
وأرسل رسوله بالهدى ودين الحق .

نحمده تعالى ونشكره ونثني عليه بما هو أهله ، ونستعين به ، ونتوكل عليه ،
ونسأله العصمة من الزلل ، فى القول والعمل ، ونجدد له - جل جلاله - عهدنا الذى
عاهدناه عليه ، منذ أول كلمة خطها القلم على القراطيس فى هذه المجلة : أن نكون له
سراً وعلاية ، وألا نؤثر على رضاه أحداً مما خلق ، وأن نعمل للحق جاهدين ،
وأن نسير على سنن الإصلاح دائبين .

ونصلى ونسلم على سيدنا محمد النور المبين ، والرحمة المهداة للعالمين ، وآله الذين
حملوا لواءه ، وبلغوا نداه ، وورثوا أنواره ، واقتفوا فى العلم والعمل آثاره ،
وأصحابه الذين ساروا على سنته ، ودعوا بدعوته .

أما بعد :

فهاهى ذى - رسالة الإسلام - تبدأ على بركة الله بمجموعتها الثانية بعد أن
انتهت مجموعتها الأولى التى تكون منها عشرين وأربعون عدداً ضخماً فى عشرين
عاماً ، تمثل موسوعة كاملة تتحدث عن أصوار الدين وفروعه . ومبادئ ومنه ،
وأفكار أهله ، وأحوال بلاده ، وآراء علمائه ، وتدسوا إلى الألفه والوحدة ونسيان
الأحقاد ، وتقويات الفرضة على الذين يهمهم أن تسود الهيبة بين المسلمين ، وأن
تبقى نيران الحرب مستعرة بينهم ، لا مدد لها إلا منهم ، ولا خسارة بها إلا عليهم .
إن الزمان قد استدار كهيئته يوم كان محمد بن عبد الله يرجع أرجاء الجزيرة
العربية بدعوته ، ويبعث منها إلى مختلف أنحاء العالم بنور رسالته .

إن محمداً قد جاء والناس فوضى ، والعالم يضرب بعضه بعضاً ، والقوى يأكل الضعيف ، والغنى يهضم الفقير ، والطفافة يستبدون بالعباد ، ويعيشون في الأرض الفساد ، وكان العرب وهم أهل قرياء وقومه الأذنون يتقاتلون على التافه من الأمر فتظل الحرب بينهم مستمرة الأوار سنوات وسنوات ، وكان الأوس والخزرج ما يزالون يجرثون عفونات الماضي بين الحين والحين ، فيتكدر الصفو في مجتمع المدينة ، وتعود الجروح - التي ما كادت تندمل - سيالة بما تشمئز منه النفوس ، ولم يكن لهذه المدينة التي قدر الله لها أن تنبعث منها الدعوة الإسلامية في أوج عظمتها أن تبقى متقطعة الأوصال ، منطوية على الأحقاد والأضغان ، فظهر الله بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم نفوساً ، وألف بين قلوب ، فصار عام أو عامان حتى استقام المسلمون على الخطأ الراشدة ، والمظهر الهلیم ، والمنهج المستقیم .

ثم رُفع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من بينهم ، فارتكس المسلمون بعد حين قريب ، وعادوا فرقا وأحزاباً وطوائف ، يستريب بعضهم بعض ، ويلعن بعضهم بعضاً ، ونسوا الفضل بينهم ، وتمكن منهم أعداؤهم ، وصاروا هم الفئة المستضعفة في الأرض بعد أن جعلهم الله أئمة يهدون بأمره ، ويعلون كلمته ، ويعيشون في العالم دعوته .

والآن ، وقد أدركوا ماضيهم في استقامته يوم كان مستقيماً ، وفي عوجه يوم كان معوجاً ، عاد إليهم صوابهم ، فأخذوا يُجمعون أمرهم كما جمع بينهم نبيهم .

وبذلك استدار الزمان كهيئته على عهد النبوة ، في نشدان الألفة ، ونسيان الضغينة ، والالتفاف إلى ما هو أولى بهم من حل لواء الدعوة ، وأداء حق الرسالة .

وإن لهذه الجماعة ، التي تصدر عنها هذه الرسالة ، لفضلاً يُذكر ويُشكر في جمع الكلمة ، ولم الشمل ، والتحذير من الأخطار ، وتهذئة الخواطر .

وأى شيء أفضل من اقتفاء أثر الرسول الكريم في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وفي تذكير المؤمنين بما بينهم من روابط الأخوة ، وأواصر

القربي في دين الله ؟

محمد محمد المديني

نَفْسِ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ

لمضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود مكنون
شيخ الجامع الأزهر

سُورَةُ التَّوْبَةِ

- ١ -

تذكير بموضوعات السور السابقة - سورة التوبة - هدفان أصليان -
قانون الإسلام في معاملة المعركين وأهل الكتاب - شرح نسيات
القوم عند غزوة تبوك - مهمتها التاريخية مع الأتقال وحكمة
اقتراحهما - مراحل الدعوة والجهاد السابقة - الدعوة بمكة -
الهجرة - حالة الحرب بين المسلمين والمعركين - غزوة بدر -
غزوة أحد - غزوة الأحزاب - صلح الحديبية - فتح مكة -
غزوة ثقيف وهوازن - اليهود بالمدينة - الروم - المنافقون -
سورة التوبة ترسم الطريق .

تذكير بموضوعات السور السابقة :

تحدثنا فيما سبق عن سورة الفاتحة ، وهي سورة مكية ، وبقينا وجه تسميتها
بأم الكتاب ، من أنها اشتملت إجمالاً على كل ما فصل في القرآن الكريم من عقائد
وعباداة ونظام للحياة وترغيب وترهيب ، ثم تحدثنا عن سور: البقرة ، وآل عمران ،
والنساء ، والمائدة ، وكلهن من السور المدنية التي عاجلت شئون المسلمين بعد أن
تركزت لهم - بهجرتهم إلى المدينة - وحدة مستقلة ، لها شعارها الخاص في العقيدة
والعبادة ، ولها منهاجها الخاص في الحياة ، وبعد أن صار لهم بذلك جوار جديد غير
جوارهم الذي كان لهم بمكة ، ومن ذلك عُنيت هذه السور على وجه عام ببيان

الأحكام التي اختارها الله للمسلمين في عباداتهم ومعاملاتهم فيما بينهم بعضهم مع بعض وفيما بينهم وبين غيرهم ممن لا يدينون بدينهم ، وعنت على وجه خاص ببيان الحق فيما كان بينهم وبين أهل الكتاب من اليهود والنصارى من خلاف في مسائل الألوهية ، ورسالة محمد ، وحلال الأطعمة وحرامها .

ثم تحدثنا عن سورتي : الأنعام والأعراف ، وهما أطول السور المكية في القرآن الكريم ، عالج الله فيهما أصول الدعوة الإسلامية بالبراهين العقلية والوجدانية والتذكير بعاقبة الأمم التي كذبت رُسُلها وأعرضت عن دعوتهم ، والتذكير باليوم الآخر وما أعد فيه للصدقين والمكذبين من ثواب وعقاب .

ثم تحدثنا عن سورة الأنفال . وهي سورة مدنية عرضت لأول غزوة من غزوات النبي صلى الله عليه وآله وسلم للشركيين ، وهي غزوة بدر ، وهذه المناسبة أرشدت إلى ما تستدعيه حالة الحرب من أحكام تتعلق بنفس القتال ، والإعداد له ، كما عرضت لأحكام الغنائم والأسرى ، وربطت بين المؤمنين على اختلاف ألوانهم بولاية الإيمان ، كما ربطت بين الكفار بولاية الكفر ، وقطعت بذلك ما بين المؤمنين والكفار من موالاة ، إن الذين آمنوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض ، ، والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير ، .

سورة التوبة :

وهذه « سورة التوبة » ، وهي السورة التاسعة في الترتيب المصحفي ، وهي من السور المدنية ، وقد نزلت في أواخر السنة التاسعة ، والسنة التاسعة هي السنة التي خرج فيها النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالمسلمين إلى تبوك بقصد غزو الروم ، وخرج في أواخرها أبو بكر على رأس المسلمين لحج بيت الله الحرام .

هدفان أصليان :

وقد كان للسورة بحكم هذين الحادئين العظيمين في تاريخ الدولة الإسلامية ، هدفان أصليان :

قانون الإسلام في معاملة المشركين وأهل الكتاب :

أحدهما : تحديد الروح المعنوى ، أو القانون الأساسى الذى تشاد عليه دولة الإسلام ، وذلك بالتصفية النهائية بين المسلمين ومشركى العرب بإلغاء معاهداتهم ، ومنعهم من الحج ، وتأکید قطع الولاية بينهم وبين المسلمين ، وبوضع الأساس فى قبول بقاء أهل الكتاب فى جزيرة العرب ، وإباحة التعامل معهم .

شرح نفسیات القوم عند غزوة تبوك :

ثانيهما : إظهار ما كانت عليه نفوس أتباع النبی صلى الله عليه وآله وسلم حينما استنفرهم ودعاهم إلى غزوة الروم ، وفى هذه الدائرة تحدثت السورة عن المتثاقلين منهم والمتخلفين والمثبطين ، وكشفت الغطاء عن فتن المنافقين وما انطوت عليه قلوبهم من أحقاد ، وما قاموا به من أساليب النفاق وألوانه .

وقد عرضت السورة من أولها للهدف الأول ، واستغرق ذلك إلى الآية السابعة والثلاثين منها ، ففى نبد عهود المشركين وبيان أسباب ذلك النبد ، وما يجب على المسلمين بعد إعلانهم به جاء قوله تعالى : « براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين ، الآية الأولى إلى الآية الثامنة والعشرين . « يأياها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء . »

وفى تحديد الأساس الذى تُبنى عليه علاقة المسلمين بأهل الكتاب جاء قوله تعالى : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدینون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، الآية التاسعة والعشرون إلى الآية الرابعة والثلاثين « يأياها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله . »

وعرضت السورة للهدف الثانى : شرح نفسیات المسلمين بمناسبة موقفهم من دعوة الرسول إلى غزو الروم والخروج إلى تبوك ابتداء من قوله تعالى : « يأياها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقم إلى الأرض أرضيتكم

بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل ، الآية الثامنة والثلاثون إلى الآية السابعة والعشرين بعد المائة في أواخر السورة ، وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون .

ثم يكون ختام السورة بهاتين الآيتين : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم » .

هذان هما الهدفان الأصليان اللذان استدعيا نزول « سورة التوبة » وقد عرضت السورة في تضاعيف الحديث عنهما إلى بيان كثير من الأحكام والإرشادات التي تحتاج إليها الدولة الناشئة الفتية في علاقاتها الخارجية مع غيرها ، وعلاقاتها الداخلية فيما بين أفرادها بعضهم مع بعض ، وفيما بينها وبينهم .

مهمتها التاريخية مع الأنفال وحكمة اقترانها :

والواقع أن سورة التوبة في الوقت الذي ترشدنا فيه إلى هذه الأحكام وتلك الأسس التي لا بد منها للسليين في حفظ كياناتهم الداخلي والخارجي من حربي واجتماعي - تعطينا في الوقت نفسه مع سورة الأنفال ما يشبه أن يكون صورة تاريخية بحملة لدعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وجهاده ، إلى أن أقر الله عينه بشجرة ذلك الجهاد وتبليغ تلك الدعوة .

ومن اليسير أن نقرأ سورة الأنفال فنرى أنها تضع أولاً الأوصاف التي بها تتحقق إجابة الدعوة ، ثم تشير إلى حالتهم قبل الهجرة ، واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض ، تخافون أن يتخطفكم الناس فأواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ، ثم تشير إلى تدبيرهم الذي كان سبباً مباشراً للهجرة « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ، ثم تذكر غزوة بدر وما بدا من اليهود في نقض العهود ، ولما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء ، ومن المنافقين في التهمك بخروج المؤمنين إلى بدر مع قلتهم ، إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم » .

وبينما نرى سورة الأنفال تشير إلى هذه الأحداث الأولى ، نرى سورة التوبة تشير إلى مشاهد النصر وتخص منها يوم حنين بالذكر ، لقد نصركم الله في موطن كثيرة ويوم حنين ... الآيات ، كما تذكر صراحة حادث الهجرة ، إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الفار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ، الآية ، ثم تصف مواقف المشركين وأهل الكتاب ، وتصف بالتفصيل مواقف المنافقين ، وتذكر غزوة تبوك التي ترشد إلى واقعة مؤتة ، هذه الواقعة التي تذكر بعهد كتب الدعوة التي وجهها النبي إلى الملوك بعد صلح الحديبية .

ولعل قيام السورتين بالإرشاد إلى هذه المراحل كان هو الحكمة في وضعهما مقترنين في الترتيب المصحفي ، ولعل قيام سورة التوبة بمهمة التصفية النهائية بين المؤمنين والطوائف المعارضة مع وضع أسس الحياة الفاضلة العزيزة للمسلمين يحقق أنها آخر سورة أحكامية نزلت من القرآن الكريم ، وأنه لم ينزل بعدها سورة كاملة إلا سورة النصر التي سجلت نصر الله لعباده ، وأوجبت عليهم تسبيحه بحمده ، وإذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسيح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً .

وقد صح أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يلبث بعد نزولها إلا قليلا حتى التحق بالرفيق الأعلى مطمئناً قلبه ، طيبة نفسه بما أدى من رسالة ، وبما قام من دعوة وجهاد .

مراحل الدعوة والجهاد السابقة :

ولمعرفة الوضع التاريخي الذي نزلت في جوه سورة التوبة والذي يعين على فهم المقصود منها ، نرى أن نعرض سراعاً للمراحل العملية للدعوة والجهاد من وقت بعثة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى الوقت الذي نزلت فيه ، لنعرف منها كيف تدرجت حالة المسلمين إلى ما يستدعي هذا العلاج الذي قامت به تلك السورة ، ووضعت أحكامه ومبادئه فيما يختص بالأساس النهائي الذي يستقر عليه الأمر في معاملة المشركين وأهل الكتاب في جزيرة العرب ، وفيما يختص بالتنبيه واليقظة بالنسبة لما يتخلل الدولة من عناصر التخذيل والنفاق في كل وقت وفي كل مكان .

الدعوة بمكة :

بدأ النبي صلى الله عليه وآله وسلم دعوته في مكة بأنه رسول الله ، يدعو الناس إلى الإيمان بالله واليوم الآخر ، والعدل والإحسان وسائر العمل الصالح ، وقد تدرج في دعوته من السرية إلى الجهرية فقابلته قومه بالإنكار ، وساوموه على ترك العبادة بما يطيّب له ، ثم انتقلوا معه إلى العنف والاضطهاد ، وقبّدوا التاريخ من حوادث التعذيب والإيذاء له ولمن لبى دعوته ما تشعّر من ذكره الجلود ، وظل بمكة ثلاث عشرة سنة يعاني فيها هو وصحبه ما يعاني من ألوان العذاب وصور التشكيل .

الهجرة :

وأخيراً اعترموا قتله بطريقة تفرق دمه في القبائل ، فهياً الله له سبيل الهجرة إلى المدينة التي انتقلت دعوته إليها بواسطة الوفود ، وأخذت تسرى في القلوب بما تحمل من جلال وجمال ، حتى كوّنت لها من شباب المدينة أنصاراً أرباب قوة وفتوة ، عاهدوا الرسول على الموت في سبيل نصرته ، ونشر دعوته ، وبهذه الهجرة سُقِطَ في أيدي المشركين وتضاعف حقدهم على محمد وأصحابه الذين نجوا من الفتك بهم بعد أن هيئوا فرصته واتخذوا عدته .

سُقِطَ في أيديهم ، وطاشت عقولهم ، وأخذوا يعيشون عيونهم للتجسس على محمد وأصحابه ، ومعرفة ما عساه أن يكون منهم بعد أن خرجوا من مكة والتقوا مع أنصارهم بالمدينة ، وبذلك صار شأن محمد شغلهم الشاغل الذي لا ينامون عنه ولا يطمثون إليه ، وبخاصة حينما علموا أنه استقر بالمدينة التي تأخذ عليهم طريقهم بأموالهم إلى الشام .

هاجر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولم يكن في مكة طالب سلطان ومُلك حتى يكتفى بسلطان المدينة ومُلكها ، وإنما كان صاحب الدعوة الإلهية العامة التي تهدف - من أول رسول بعثه الله إلى خلقه - إلى إقرار توحيد الله في القلوب ، والقضاء على الشرك ، وتركيز عناصر الخير والعدل بين الناس جميعاً .

هاجر إلى المدينة وهذه دعوته ، فتلقاه أنصار بايعوه على النصرة ، وعلى السمع والطاعة ، وترك هو وأصحابه ديارهم وأموالهم ابتغاء مرضاة الله بنشر دعوته على

عباد الله ، وخلفوا في مكة بين المشركين أرباب القلوب القاسية ، إخواناً ملأ الإيمان قلوبهم ، ولكن قعد بهم ضعفهم المادى عن الهجرة مع إخوانهم في الله ، حتى صارت دعوتهم الوحيدة : « ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً » .

حالة الحرب بين المسلمين والمشركين :

وبحكم هذا الوضع لا يمكن أن تكون الحالة بينه وبين مشركى العرب إلا حالة حرب وتربص ، لا يألوفها أحد الطرفين جهده عن الفتك بصاحبه والقضاء عليه ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

ومن هنا نشأت تحرشات واستطلاعات وتكتلات جزئية ، هى أشبه في وقتنا الحاضر بالكتائب التى تبعث لأغراض خاصة ليس من مهمتها أن تشتبك في حرب حقيقية مع العدو .

غزوة بدر :

وظل الأمر كذلك حتى هيا الله بهذه المناوشات للمسلمين في السنة الثانية من الهجرة غزوة بدر التى زلزلت عناصر الشرك ، ووضعت حجر الأساس في بناء الدولة الإسلامية ، وقد نزلت في هذه الغزوة أول سور الغزوات ، وهى سورة الأنفال التى تلتها مباشرة في الترتيب المصحفي « سورة التوبة » التى تضمنت - كما قلنا - إعلان آخر الأمر ، وبذلك جاءت السورتان المتواليتان تصوران - كما قلنا - مبدأ عزة المسلمين ، وإقرار عناصر تلك العزة .

غزوة أحد :

وبغزوة بدر استمرت رحى الحرب دائرة بين المشركين والمسلمين ، وكان من أهم الوقائع بعدها غزوة أحد التى أوقد المشركون نارها في السنة الثالثة أخذاً بشأراً بدر ، وقد ابتلى الله فيها المؤمنين ، وألقى عليهم بها درساً نافعاً في حروبهم التالية ، وبهذا الاعتبار كانت نصراً في معناها ، وإن كانت هزيمة في صورتها ، وقد تحدثت عن هذه الغزوة سورة « آل عمران » اقرأ فيها قوله تعالى : « ولقد صدقكم الله وعده

إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتهم من بعد ما أراكم ما يحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين ، الآيات إلى قوله تعالى : « إن الذين تولوا منكم يوم التقي الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حلیم » ، وإلى قوله تعالى : « وما أصابكم يوم التقي الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين ، وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا فقاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا : لو نعلم قتالا لاتبعناكم ، هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون ، الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قُتلوا ، قل فادروا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ، ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون » .

غزوة الأحزاب :

ومرت السنة الرابعة وجاءت بعدها السنة الخامسة ، وفيها تحالف مع قريش عدة قبائل من المشركين وبعض طوائف اليهود على حرب رسول الله ، وكانت غزوة الأحزاب ، أو « غزوة الخندق » ، وقد جاء الحديث عنها في سورة من القرآن تعرف بسورة « الأحزاب » ، وما جاء فيها تصويراً لنعمة الله على المسلمين بالإنقاذ ورد كيد الأعداء في نحورهم قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً إذ جاءكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً » .

وقوله تعالى : « ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خير وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً » ، وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً ، وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطئوها وكان الله على كل شيء قديراً » .

صلح الحديبية :

وما يروى في هذا المقام أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال في نهاية تلك

الغزوة: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا»، وقد كان ذلك من نور النبوة الذي كان يخبر به عليه الصلاة والسلام عن أحداث المستقبل، فقد جاءت السنة السادسة تحمل في جوفها صلح الحديبية، وذلك حينما قصد النبي ومعه المسلمون مكة لأداء العمرة، فنعمهم المشركون من دخولها، ودارت بين الفريقين مفاوضات انتهت بالصلح على وضع الحرب بين المسلمين والمشركين عشر سنوات، وبشروط: أن يرد المسلمون إلى قريش من يحجهم منهم مسلماً دون أن يلزم المشركون برد من يجهلونهم من المسلمين وأن يرجع المسلمون عن دخول مكة في هذا العام إلى العام المقبل، وأن من أراد أن يدخل في عهد أحد الطرفين من العرب دخل فيه، فدخلت بهذا الشرط خزاعة في عهد الرسول، ودخلت بكر في عهد قريش، وعلى هذه الشروط رجع المسلمون وفي قلوبهم ما فيها من قسوة هذه الشروط عليهم، ولكن الله قد شرح صدورهم وطمأنهم على مستقبلهم، وأنزل عليهم في هذا الصلح «سورة الفتح»، «لما فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً»، وقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: «ما كان فتح في الإسلام أعظم من فتح الحديبية، ولكن الناس قصر رأيهم عما كان بين محمد وربه، والعباد يعجلون، والله لا يعجل لعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد».

ومضت السنة السابعة، وقضى المسلمون فيها العمرة وطافوا بالبيت آمنين محلقين رهوسهم ومقصرين، وبذلك تحققت رؤياه عليه الصلاة والسلام، وعرف المؤمنون نعمة الله عليهم «لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رهوسكم ومقصرين لا تخافون فاعلم ما لم تعلموا فافعلوا من دون ذلك فتحاً قريباً».

فتح مكة:

وما كادت تنتهي السنة الثامنة حتى عدا البكريون حلفاء قريش على الخزاعين حلفاء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، واستعانوا في حربهم بأوليائهم من قريش، فأمدتهم قريش سرّاً بالعدة والرجال، وهنا استنجد الخزاعيون بحلف رسول الله، رأى الرسول أن ذلك من قريش نقض للعهد، وبذلك عادت حالة الحرب بينهم وبين المسلمين، فجهز النبي جيشه، وأخذ عدته لفتح مكة، وفي زلة حاطب بن بلثمة

قبل خروج الجيش من المدينة : وقد بعث بخطاب إلى قريش مع طعيبة مسافرة إليهم يخبرهم بما أجمع عليه النبي أمره من نجدة الخزاعين وفتح مكة ... نزل أول سورة الممتحنة : يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلى وابتغاء مرضاتى تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلمتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل ، .

غزوة ثقيف وهوازن :

وبفتح مكة قلمت أظفار الشرك ، وخضعت قريش لمحمد وأصحابه ، ولكن لا يزال للشرك في جزيرة العرب دعاة وأنصار تزعمهم ثقيف وهوازن من قبائل العرب ، هالم أن يفتح محمد مكة ، وخشوا عاقبة ذلك على أنفسهم ، وعقدوا أمرهم بينهم على غزو المسلمين قبل أن يغزوهم ، وجعوا لهم من كل صوب ، فخرج النبي إليهم بجيش جرار فيه ألفان من أهل مكة حتى وصل بنيينا ، واديا قريباً من الطائف ، وقد داخل بعض جيش المسلمين شوء من الغرور بكثرة عددهم فأصيب بهزيمة ثبت فيها الرسول ، شأنه في كل المواقع الحربية ، وثبت معه بعض الأنصار المهاجرين ، وأخذ النبي يسترد بقوته الروحية جماعة المنهزمين ، وحلوا على الأعداء حملة واحدة تفرق بها المشركون شذر مذر ، وتم النصر لأولياء الله . وفى ذلك يقول الله تعالى في سورة التوبة : د لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ، ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم ، .

وبالقضاء على ثقيف ومن معهم من هوازن في غزو الطائف اتى أعالي غزوة حنين هذه ، تمت الكلمة في جزيرة العرب لدين الله .

اليهود بالمدينة :

هذا هو وضع المشركين بالنسبة لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه من وقت

البعثة إلى وقت الفتح الأكبر ، بل إلى ما بعده ، كما أرشدت إليه حوادث ما بعد الفتح وهو - كما قلنا - وضع المحاربين الساكنين ، الشامتين ، العاملين على هزيمتهم في كل وقت وبكل مناسبة .

وإذا كان هذا هو وضع المشركين بالنسبة لمحمد وأصحابه ، فقد كان وضع أهل الكتاب بالنسبة للؤمنين من يوم أن استقرت أقدامهم في المدينة لا يقل عن وضع المشركين إن لم يكن أشد منه ظلماً وأعظم طغياناً وأبعد خيانة .

فقد عاهدهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم من يوم أن دخل المدينة على حرية الدين ، وعلى الأمن والاستقرار ، وعلى أن لا يعينوا عليه عدواً ، ولكن ما لبثوا أن نقضوا العهد ، وظاهروا المشركين في حروبهم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وكان بنو قينقاع أول طائفة منهم نقضت العهد ، وأظهرت البغي والعنوان بانتهاك حرمة سيدة مسلمة من نساء الأنصار ، كان ذلك في السنة الثانية عقب غزوة بدر ، ونزل فيهم قوله تعالى من سورة الأنفال : « ولما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين » .

فدعا النبي رؤسائهم وحذرهم عاقبة البغي إن استمروا ، فقالوا يا محمد : « لا يفرك ما آتيت من قومك ، فإنهم قوم لا علم لهم بالحرب ، ولو لقيتنا لعلت أننا نحن الناس » وقد تشبث بحلفهم ابن أبي وقال : « إني رجل أخشى الدوائر ، وفي تحذير المسلمين عن مثل صنيع ابن أبي نزل قوله تعالى في سورة المائدة : « يأبى الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منهم فإنه منكم » إن الله لا يهدي القوم الظالمين ، فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصيبوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين ، وقد انتهى أمر حصارهم بجلائهم إلى أذرعات « قرية بالشام ، كما انتهى أمرهم بالهلاك العام .

ثم تلا بنى قينقاع في نقض العهد بنو النضير حينما دبوا اغتيال النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو في ديارهم ، فطلب منهم الرسول الجلاء عن المدينة ، كما جلا عنها بنو قينقاع ، وقد أرسل إليهم ابن أبي يشجعهم على البقاء ، فنزلوا على وعده ،

وأبوا أن يخرجوا حتى دهمهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وشتت شملهم ، كان ذلك في ربيع الأول من السنة الرابعة ، وقد نزلت فيهم سورة الحشر ، وذلك حيث يقول الله تعالى : « هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ، ما ظننتم أن يخرجوا ، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب ، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار ، ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار » .

كما تناولت السورة موقف ابن أبي منهم ونكوصه على عقبيه ، ومثلته بالشیطان ، إذ قال للإنسان أكفر فلما كفر قال إني برىء منك إني أعاف الله رب العالمين . .
وصنع مثل صنيع هؤلاء وهؤلاء بنو قريظة ، وقد قبلوا حكم سيدهم سعد ابن معاذ فيهم ، لحكم بقتلهم ؛ وهكذا تتبع المسلمون بقية اليهود في الجزيرة حتى أبادوا منهم من أبادوا ، وشتتوا من شتتوا ، وبذلك نكست في جزيرة العرب راية اليهود ، كما نكست فيها راية المشركين .

الروم :

وبعد ذلك توجه المسلمون للقصاص من الروم ، إذ قتلوا الرسول الذي أرسله النبي صلى الله عليه وآله وسلم بكتاب إلى ملك الروم يدعو به إلى الإسلام ، ويحمله - إن تولى - لاثم الرعية .

لجهاز النبي صلى الله عليه وآله وسلم جيشه وأنفذه إليهم ، وكانت موقعة حامية هي موقعة « مؤتة بالشام » ، استشهد فيها ثلاثة من قواد المسلمين ، ولولا مكيدة حربية ألهم الله بها خالد بن الوليد ما نجا من الجيش أحد ، وكان ذلك في السنة الثامنة قبل فتح مكة ، كما كانت هذه الغزوة أول الغزوات بين المسلمين والروم .

وفي السنة التاسعة تابعت الأخبار بأن الروم جمعوا للمسلمين الجموع واعتزموا غزوهم ، فتجهز النبي صلى الله عليه وآله وسلم وخرج بجيشه قبل أن يفاجئوه في بلده ، ولما وصل إلى « تبوك » وجدهم قد عدلوا عن فكرتهم ، فأقام هناك عدة أيام عاهد فيها بعض الأمراء ، بقصد تأمين الحدود بينه وبين الروم .

ثم عاد إلى المدينة وهو يفكر في أمر الروم اعتقاداً منه أنهم لا يعدلون عن غزو المسلمين ، فجهز الجيش الذي أنفذه من بعده صلى الله عليه وآله وسلم خليفته الأول أبو بكر رضى الله عنه .

المنافقون :

وقد منيت الدعوة بجانب هؤلاء وهؤلاء بطائفة ثالثة فاحت رايحتها الكريمة عقب أن استقرت قدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه بالمدينة ، وهم المنافقون فقد استجاب لدعوته من أهلها من لم تكن لهم مصلحة دينوية تحجب عن بصائرهم نور الإسلام ، أما الذين لهم هذه المصالح فقد تظاهروا بالدخول في الإسلام ، وكانوا نواة لجماعة المنافقين ، وظل الخوف على هذه المصالح يشعل نار الحقد في قلوبهم ، حتى بدا ذلك في ميولهم إلى المشركين لأول موقعة حربية ، وهي غزوة بدر ، وقد أشارت سورة الأنفال إلى ذلك حيث تقول : « إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم ، تهكموا من أن يخرج المؤمنون مع قاتهم وضعف عدتهم إلى المشركين مع كثرتهم في العدد والعُدَد ، ثم توالى الوقائع بين المسلمين والكفار مشركين وأهل كتاب ، ولم يترك المنافقون فيها فرصة يلحقون فيها الأذى بالمسلمين إلا انتهزوها ، كما لم يفهم أن يكون لهم مع الكفار ضد المسلمين ضلع في كل موقعة منها ، فكان لهم مع المسلمين شأن عام يشيرون به الفتن عليهم ، وكان لهم شأن خاص في غزوة أحد ، وتحدثت عنهم فيه سورة آل عمران ، وكان لهم شأن خاص وأى شأن في غزوة الأحزاب ، وتحدثت عنهم فيه سورة الأحزاب ، وكان لهم شأن كذلك في بنى النضير ، وتحدثت عنهم فيه سورة الحشر ، وهكذا استمر شأنهم مع المؤمنين ، وتحدثت عنهم كثير من سور القرآن ، وقد يكون ما جاء عنهم في السورة التي سميت باسم « المنافقون » ، أقل مما جاء عنهم في غيرها ، واستمر شأنهم هكذا إلى أن استنفر النبي أصحابه إلى غزو الروم ، فتجلت نياتهم الفاسدة ، وظهرت في أقبح صور العداوة .

سورة التوبة ترسم الطريق :

في هذا الجو ، ولعلاج هذا الوضع الذي صار إليه المسلمون ، وتخليصه من آثار

الشرك والمشركون ، ومفاسد أهل الكتاب ، وذبيحة المنافقين - نزلت سورة التوبة ، ترسم للمؤمنين ما يتخذونه أساساً لدولتهم ، ومنهاجاً لحياتهم حتى تستمر عزتهم ، ويتركز سلطانهم بقوى الخير الخالصة والإيمان القوى .

والواقع أن من يتدبر هذه السورة يجدها ترسم للمؤمنين الصادقين خطط حياتهم بالنسبة للمشركون ، وبالنسبة لأهل الكتاب ، وبالنسبة للمنافقين ، وترسم لهم المثل الأعلى ليكون هدفهم فيما يختص بأنفسهم وقيامهم بالإصلاح الإلهي للعالم كما هو مقتضى الإيمان .

ففي علاقتهم بالمشركون ما جاء في أول السورة ، ومنه قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استجبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منهم فأولئك هم الظالمون ، قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله ، وجهاد في سبيله ، فاربصوا حتى يأتي الله بأمره ، والله لا يهدي القوم الفاسقين » .

وفي تنبيههم على الطغيان المالى لأهل الكتاب تقول : « يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم : هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تسكنزون » .

وفي حثهم على الجهاد وسبيل العزة : « يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم أنفروا في سبيل الله أثاقلتم ... ، الخ ، وفي ولاية بعضهم لبعض : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ... ، الخ ، وفي بعثهم على الجهاد في سبيل الله : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ... ، الآيتين » .

رحم الله امراً عَرَفَ قَدْرَ نفسه

لمضرة صاحب السعادة العالم الجليل الأستاذ محمد نقي القمي
السكرتير العام لجماعة التقريب

من الحكم النبوية المأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله :
« رحم الله امراً عرف قدر نفسه » .

وكثير من الناس حين يسمعون هذا القول النبوي المأثور يفهمونه على معنى
أنه نهى عن الغرور بالنفس ، فإن الغرور يردى النفوس ويهلكها ، ويحول بين
المرء وما ينبغي أن يتعرض له من نفحات الرحمة الإلهية التي لا يستحقها إلا
المتواضعون ، ولا يناهاها أهل الكبر والغطرسة والاستعلاء بغير الحق .
ويؤيدون ذلك بمعان وآثار كثيرة :

منها : غرور إبليس ، بنفسه ، إذ قال مخاطباً رب العزة حين أمره بالسجود
لآدم : « أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين » .

فكان هذا الغرور سبباً في حلول غضب الله على هذا المخلوق ، وسبباً في احتماله
أعباء الإضلال والإفساد على عاتقه إلى يوم يعيشون .

ومنها : غرور فرعون الذي أرداه وجعله مثلاً في الأولين والآخرين ،
إذ أرسل الله إليه نبياً هادياً ، فأراه الآية الكبرى فكذب وعصى ثم أدير يسمي .
فحشر فنأدى فقال أنا ربكم الأعلى ، فأخذ الله نكال الآخرة والأولى .

بل دعاه الغرور بنفسه إلى ما هو أبعد من ادعاء الألوهية ، حيث أراد أن يصل إلى إله موسى ليحاربه فقال :

« يا هامان ابن لي صرحا لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذبا ، وكذلك زين لفرعون سوء عمله ، وصد عن السبيل ، وما كيد فرعون إلا في تباب » .

إلى هذا الحد يفعل الغرور بالنفس ! .

وإذا كانت هذه المثل قد وردت في كتاب الله الذى يتلى على الناس بكرة وعشيا ، فإن هناك أمثالا كثيرة تفيض بها صفحات التاريخ في هذا الكون . فكم من ملك طغى ، وذى سلطان اغتر بنفسه ، فأساء تقدير أمره ، فأفك من الزمام ، وانحسر عنه ظل الأمان ، وجانبته رحمة الله فصار من المهلكين .

هذا معنى يفهم به الحديث الشريف كثير من الناس . وهو فهم صحيح مقبول .

ولكنه ليس هو المعنى الوحيد الذى يمكن أن يؤخذ من هذا الحديث .

فنحن نستطيع أن نفهم من هذا التوجيه النبوى الحكيم معنى آخر .

ذلك : أن الإنسان عليه أن يدرك قيمة نفسه ، وأن يعلم أنه مخلوق له رسالة يجب عليه أن يحتمل أعباءها ويقوم بحققها ، فإن كثيرا من الناس ربما هربوا من معنى الغرور بالنفس إلى معنى احتقار النفس ، والاستهانة بها ، والشعور بأنهم ليسوا شيئا مذكورا ، فزاهم ينزويون عن كل عمل صالح ، ولا يشاركون الناس فى أمر من أمورهم ، شعورا منهم بالنقص فى أنفسهم ، والقصور عن ملازمة كرائم الأعمال ، وبذل كرائم الجهود ، فيعيش الواحد منهم ما عاش كما مهملا لا يحس بنفسه ولا يحس به أحد ، يعيش عالة على غيره ، يحمله مجتمعه الخاص ومجتمعه العام ، كما تحمل الأثقال التى تنوء بها الكواهل دون أن يكون لها نفع ، أو يرجى منها خير .

إن هؤلاء لم يعرفوا قدر أنفسهم ، ولم يدركوا أن الله حين وهبهم الوجود ، وهبهم لحوض غمرات الحياة بأسلحة من العقل المفكر ، والجسم المجهز بكل ما يصلحه ، قد خلقهم ليعملوا ، كلٌّ على شاكلته ، وكل بنصيبه وجهده كي يحققوا خلافة الإنسان في الأرض ، فيعمروها ويستكشفوها ويعرفوا به الله الذي خلق ورزق وهب وأمات وأحيا وأغنى وأقنى ، فيعبدوه ويمثلوا أمره ، ويكونوا رحمة مهداة إلى إخوانهم الأقربين والأبعدين ١ .

إن هؤلاء لم يدركوا قيمة ابن آدم كما ينبغي لها أن تدرك :
إن ابن آدم لا ينبغي أن يكون نسخة واحدة متكررة في الشرق والغرب ، والشمال والجنوب ، وفي القرن الأول والقرن الأخير ، وفيما بينهما .
بل يجب على كل إنسان أن يحاول بجهد وصدق أن يكون له وجود كريم .
وما وجوده الكريم إلا بأن يكون له «وحدانية» أو امتياز وتفرد في ناحية ما ، حتى يكون - ما عاش - محتاجا إليه من الناس احتياجا خاصا ، منظورا إليه نظرا خاصا ، وحتى يحس المجتمع إذا ذهب أنه فقد شيئا كان له كيان ، وكان له وجود ١ .
وكما يقال هذا في الأفراد ؛ يقال في الجماعات والشعوب والأمم .
فلكل جماعة هدف ، ولكل شعب طابع وغاية ، ولكل أمة رسالة .
فإذا تكررت النسخ رخصت القيم ، وخفت الأوزان ، وهان وجود الهيئات والشعوب والأمم ١ .

ونحن هنا في التقريب لنا وجود خاص ورسالة خاصة والحمد لله رب العالمين .
إننا نعلم قيمة أنفسنا ، وأهمية دعوتنا ، نعلم ذلك في غير غرور ولا خيلاء .
ونعرف أن المسلمين أمة واحدة ، إلهها واحد ، ورسولها واحد ، وكتابتها واحد ، وأصولها واحدة .

وأنه لم يعد يصلح أمرهم على اختزان الحزازات ، واجترار العداوات .
ولم يعد العالم يطبق خلافا يبيح للأخ أن يقطع أخاه ، وقد ربط الله بينهما برباط الإيمان .

وأن ما كان يجد رحابة في الصدور ، وتقبلا من العقول بالأمس البعيد ، حيث كان الناس يتناظرون ويتخالفون ويتعارضون ويتقارضون ويقضون في ذلك أوقاتا ثمينة ، ويبدلون في سبيله جهوداً مضنية : لم يعد هو ذلك الغذاء الفكري أو الديني الذي تصلح عليه أمور المسلمين في عصر العلم والذرة والفضاء والكواكب .
فمن واجب المسلمين :

أن ينسوا ما كان من جدل .

وأن ينزعوا عما ألفوا من خلاف ونضال .

وأن يأخذوا الحياة أخذاً جديداً على أساس أنهم إخوة ، وأصحاب رسالة هادفة ، وقيادة بصيرة عارفة .

هذه هي دعوة التقريب :

ليست نسخة تشبه غيرها ، أو يغني عنها سواها ، فلها وجود حقيقي ووحداني ذاتي .. ولو لم توجد لكان على المسلمين أن يوجدوها .

وإن في بقائها وجهادها وارتفاع لوائها ، وانبعاث دويها ، واشتغال العقول بها للخير كل الخير للمسلمين ؟

فالشَّيْخُ

حضرة الطالب الفاضل الأستاذ أحمد محمد بربرى

مقدمة من المحرر :

فى هذا العام اختار الله تعالى إلى جواره قطباً ربانياً من أقطاب الدعوة إلى الله بالقدوة الصالحة ، والمثل العملى ، ومفكراً من كبار ذوى العقول الثاقبة ، والبصائر النيرة ، والعلم الغزير الذى لم تفسده الفروض السقيمة ، ولا المجادلات العقيمة ، وإنما جلته الفطرة السليمة ، والسليقة المستقيمة .

ذلكم هو الرجل البار التقي النقي ، السيد أبو الوفا الشرقاوى ، طيب الله ثراه ، ورضى عنه وأرضاه .

عزف هذا الرجل الكبير عن الدنيا عزوف الزاهد فيها ، لا العاجز عنها ، فقد كان يستطيع أن يكون من أعظم رجال المادة لو أراد ، ولكنه آثر ما اختاره الله له : أن يكون روحاً هادياً ، قبل أن يكون جسماً رانحاً وغادياً ، فعاش ما عاش معتكفاً متفكراً ، يرسل شعاعه إلى الناس من خلال وصاياه ونصائحه ودعوته ، ولا يلتقى به إلا الذين يراهم جديرين بلقائه ومودته ، وما كان يبدو إلا فى الحين بعد الحين ، ليفعل خيراً ، أو ينشر براً ، أو يأمر بإصلاح بين الناس .

فكان الناس إذا رأوه استبشروا بطلعته ، وتسابقوا إلى حضرته ، واجتمعوا على حديثه يتلقفونه تلقفاً ، ويتزاحون عليه نزاحاً ، كأن كل امرئ منهم يريد من نفسه فقط ، حتى إذا عاد إلى معتكفه راحت الألسن تروى عنه ، والعقول تنفهم مقالاته ، وتزن كلماته ، وتدرس إشاراته .

تلك كانت منزلة الشيخ أبي الوفاء ، وإنما لنحتسب على الله أن ينزله منازل الصديقين والشهداء .

ولسنا ننسى ما كان منه يوم زاره سماحة أخيه العلامة الجليل السيد محمد تقي القمي السكرتير العام لجماعة التقريب - وكان له نعم الأخ الذي يعرف قدره ، ويؤمن بدعوة التقريب التي ينادى بها - وكان ذلك في اليوم الحادى والعشرين من شهر شعبان المبارك سنة ١٢٧٦ من هجرة خاتم المرسلين صلوات الله عليه وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين .

لقد استقبل القطب الرباني ، ضيفه المجاهد في الله استقبالا يدل على مكانته في نفسه ، وعرفاته بحقه ، فخرج يومئذ من معتكفه ، وراه الناس بعد غيبة طالت عنهم يتنقل معه من مكان إلى مكان ، ويبالغ في الحفاوة به وإكرامه ، ثم لم يلبث أن اعتكفا ليلتين فرغا فيهما إلى ذكر الله تفكرا وتدبرا. ودعاء وقضرا .

لقد سمعت العلامة د القمي ، يتحدث عن هذه الأيام ، قبل وفاة هذا الإمام ، فكان حديث الأخ الوفي عن أخيه الوفي ، وكأنما كان هذا الاجتماع رمزا إلى المؤازرة والتعاون بين القطبين الحبيين ، الداعيين إلى الله ، كل بأسلوبه ، وكأنما تم ذلك في شهر شعبان تهيؤا لاستقبال رمضان ، وما رمضان إلا شهر الصفاء ، وشهر النور ، الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان .

ولو كان سماحة العلامة الأستاذ القمي بمصر الآن لاستزدناه من حديثه ، أو استكتبناه عن تاريخه .

فحسبنا أن نقدم نفحة من نفحات روحه ، استوحاها مرید من خاصة مریدیة هو الأستاذ الكبير أحمد محمد بريرى... قال :

[المحرر]

أما الشيخ أبو الوفاء الشرفاوى قطباً صوفياً ربانياً ، فأنا أغلظ نفساً وأكثف من أن أعرض له ... غير أنى أشهد أنى رأيت د كبار القوم ، بين يديه مریدین لا یزیدون ، وكذلك كبار العلماء - أهل الظاهر - تراهم فی حضرة أبی الوفاء

« طلبة علم ، غير منكرين ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته .

وأما الشيخ الشرقاوى عالما قرآنيا فقه كتاب الله ، وفقه كل العلوم التى تمت إليه بسبب قريب أو بعيد ، فلقد قال لى هو - غير مرة - إني أحسن الاستماع إليه والرواية عنه ، وأن منهجى فى الكتابة هو منهجه حين كان شابا وكهلا صحيح الجسم لا يعيبه أن يكتب فكرته : ولقد كان - رضى الله عنه - إذ يقول هذا - يعلم أنه يرهقنى من أمرى عسرا ، وأنى أود لو وجدت نفقا فى الأرض أو سلبا فى السماء كيما أهرب عما أسمع وأرى .. فلقد كان له نظرة إذا تناولتكم فى البطشة الكبرى .. أعلم أنى أكتب غير متكلف إذا استقامت الفكرة فى ذهنى عبرت عنها بأول لفظ يردنى .. أفترأه منهج الشيخ سلكته دون أن أشعر ؟ .

قال لى مرة : نحن مالكية أليس كذلك ؟ وكان يبدو ناسيا حقيقة ، إذ كان يسأل عن مذهبنا الموروث ، وفى صعيد مصر تجد القرية الصغيرة مقسمة بين مذهبين أو ثلاثة ، وهذه القسمة ليست نتيجة الدراسة فى الأزهر ، بل قد تجد « العشيرة » أمية كلها ، أو تغلب فيها الأمية ، وهى مع هذا شافعية أو مالكية أو حنفية ، ولم يكن نادرا أن تسمع رجلا أميا يقول فعلت كذا على مذهب الأحناف أو الشافعية ، يعنى على غير مذهبه بالنظر إلى يسر المذهب الآخر فى تلك المسألة .. وكذلك ترى فى الحياة العاملة اختلاف أئمة المسلمين رضى الله عنهم أجمعين رحمة للعالمين ، كما أرسل خاتم النبيين والمرسلين ، إنه لوضع فطرى طبعى لو تتلذذ فيه العلماء للعامة لكان خيرا وأهدى سبيلا ، ما فى ذلك أدنى ريب .

ولم يكن سرا أن الشيخ أبا الوفاء الشرقاوى فى عبادته ومعاملته إنما يرجع إلى « الأصول » لا إلى هذا المذهب أو ذاك ، فليس عجيبا أن ينسب المذهب الذى ولد فى رحابه ، وبخاصة لأنها كانت تتسع لمذاهب متعددة متجاوزة متعاونة كما أسلفت .

قال : إن صورة الاختلاف المذهبي اللطيفة التى تراها هنا فى القرية كانت تنقلب إلى النقيض إذا يمت الأزهر وحلقات الدرس ، لقد تغيرت الحال متدرجة

منذ الحرب العالمية الأولى ، أما قبل هذا التاريخ ، وقبل إنشاء المعاهد الدينية حين كان طلبة العلم كلهم يقصدون إلى الأزهر في القاهرة ، فقد كان الاختلاف المذهبي يعنى عداوة تشتد أحيانا فلا يفتى فيها ما كانوا يسمونه « السلاح الأحمر » ، فلا يكون بد من الرجوع إلى المراءات الغليظة يحكمها طلبة العلم فيما شجر بينهم من خلاف ، فنكون « المواقع » ، و « الأيام » ، فيوم كذا كانت الدائرة للمالكية على الحنفية ، والأيام دول ، فهؤلاء المنهزمون يتربصون الدوائر لعدوم ، وهم لا بد نازرون منتصفون .

قلت : ولكنى كنت أسمع إخواننا بمعهد أسبوط - وكان فيهم مخضرمون أدركوا القديم - يقولون : إن المالكية لم يذوقوا الهزيمة قط ، وإن الحنفية على العكس لم يكونوا غير منهزمين قط ، ذلك بأنهم كانوا مترفين ناعمين لا يعينهم إلا المظهر ، فهم يتيثون ليكونوا قضاة شرعيين على خلاف المالكية الذين كانوا لا يعينهم إلا الجوهر ، فهم يطلبون العلم للعلم لا لحطام الدنيا الذى هو عرض زائل ، فأما الحنفية فما تحنفوا إلا ابتغاء الحياة الدنيا أو المال أو كما قال الشاعر المالكي :

تحنفتمو للمال تبغون جمعه فمما قريب تسحبون لمالك

لقد أعرضوا عن مذهب صاحب دار الهجرة ، جار الرسول ، مالك الذى لا يفتى وهو بالمدينة ، فهم - جزاء وفاقا - مجرورون مسحوبون على وجوههم إلى مالك آخر لا يجدون عنده علما ولا فتيا : إنه مالك خازن النار .

قال : أصحابك بمعهد أسبوط لا بد مالكية وأنت مالكي ، وقد جمعتكم العvisية البدائية الساذجة ، وإلا أفتراكم عند الله أوجه وأكرم وآثر من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ فلقد عرف الهزيمة وذاقها شر مذاق ... إنك لو كنت وكان أصحابك حنفية لكان لك حديث آخر تجمع فيه للحنفية إلى جمال المظهر صدق الخبر أو الجوهر ، إنه لعجب حقا أى عجب ذلك الذى تمخض عنه اختلاف أئمة المسلمين ، فهو - أصلا وحقيقة - توسيع وتيسير وفرج من حرج ، يقول لك بعضهم : فى شرح « علماء أمتى كآنياء بنى إسرائيل » ، إن علماء أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم

أنبياء بل رسل من حيث إن أقوالهم تشريعات أو قوانين من التزم أحدها فلا حرج عليه ، وإن كان مناقضا لمجتهد آخر . والمجتهد مصيب أبدا لا يجوز عليه الخطأ . فإذا اعترضت بأن المصيب له أجران وللمخطئ أجر واحد أجابك بأن الخطأ هنا ليس فى عين الاجتهاد أو الحكم أو الرأى ، بل فى السند أو الدليل ، فهو له أجر واحد لأنه قصر فى البحث والاستقصاء ، ولو أنه جهد أو اجتهد أكثر مما فعل لم بخطئ . السند ، فهو موجود على كل حال ، وقد يجده غيره - أحد تلاميذ الشيخ المجتهد الذى لم يوفق الى أصل رأيه مثلا - فرأى صاحب هذا الرأى أن المجتهد - من حيث الاجتهاد ذاته والحكم الذى ينجم عنه - مصيب حتما . ثم هو يزيدك أنه معنى وسطية الشريعة المحمدية تلك الخضيضة العجيبة حقا ، فهى ذات مصادر سابقة ، وأخرى لاحقة ، فالرسالات والكتب السماوية التى جاء القرآن مصدقا لها مصادر تشريعية لنا ، وأقوال العلماء من أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم كذلك هى مصادر تشريعية ، فالملة السمحة لها ما قبلها : ما جاءت مصدقة له فهى منه وهو منها ، إنه دين الله واحد منذ أرسل أول رسول حتى جاء سيدنا وآخرهم عليه الصلاة والسلام ، ولها ما بعدها مما جاء به أبناؤها الذين نشأوا تحت ظلها . على أنه مهما يكن الرأى فى هذا الذى وسع على المسلمين بقدر ما أدى إليه اجتهاده ، فإن الذى لاشك فيه أن اختلاف الرأى بين المسلمين إلى حد التضاد والتناقض تيسير ورحمة ، ولكن ضيق العطن - أو كما يقال الآن : ضيق الأفق - والعصية وسوء النية وما شاء الله مما ابتلى به المسلمين قلب الفرج حرجا .

قلت : لقد أتى على المسلمين حين من الدهر كانوا يستطيعون خلاله أن يتحللوا من ربق كثرة المذاهب فيدجوها مذهبا واحدا يلزمه المسلمون جميعا . .

قال : كالمستجير من الرمضاء بالنار ! فهذه أسوأ من تلك . . لقد أراد أحد الخلفاء العباسيين مالكا رضى الله عنه على أن يلزم المسلمين مذهب مالك ، وهو حسبهم فيما يرى الخليفة ، ولكن مالكا رضى الله عنه كان باتا فى رفض هذا الذى عرضه الخليفة . ذلك بأنه لم ينس كما نسيت أنت الآن ، وكما نسى الخليفة حين ذاك

أن اختلاف الأئمة رحمة ، وأن الخير في أن تبقى المذاهب كلها متعاونة على البر والتقوى، هذا على أن مارضيه المنصور قدياًباه المتوكل، ولن يكون توحيد المذاهب إلا الفتنة الدائمة ، في حين أن بقاءها معاً تتنافس في الصالح العام وتستبق الخيرات هو الغاية التي ليس وراءها غاية إذا صلحت حال المسلمين ، إن المعونة التي تتلقاها من مذهب غير مذهبك تكون أحياناً ضرورة اجتماعية ، وأن صورة الاستعارة المذهبية البسيطة التي تراها في القرية يمكن أن تستغل في حيز أوسع . ولقد تم هذا بالفعل في حياتنا العملية ، فلقد ظللنا هنا في مصر ألف سنة نقرر في الأزهر وغير الأزهر أن قوله سبحانه وتعالى في الوصية المفروضة : « كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين فنن بدلّه بعد ما سمعنا فإنما إثمهم على الذين يبدّلونه إن الله سميع عليم . فنن خاف من موص جنفاً أو إثمنا فأصلح بينهم فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم ، نسخته آيات الميراث فلا وصية مفروضة بعد على ما ترى من سمات التوكيد والتشديد والتهديد والوعيد لمن خالف عن أمر الله هذا الذي فرضه ، أو كما قال كتبه حقاً على المتقين يأثمون إن بدلوه ، بل إن على الوالي إذا هم أهلوه أو مالوا فيه بعض الميل أن يقيمه أو يعدله نيابة عن الموصى فهي وصية مفروضة . قلنا نسخت الوصية المفروضة ، أى ألغيت ، وأخذنا نبدى ونعيد في مقولتنا هذه حتى تبين للشارع الوضعي أن الضرورة الاجتماعية تقتضى الوصية المفروضة فأخذها من فقه الشيعة الإمامية . . وكان الذين صاغوها قانوناً وضعياً من علماء السنة ، لا إمامية ولا زيدية ، وكان عملاً مشكوراً ، وتلك ثمرة اختلاف المذاهب .

إن مما اختصت به الشريعة الإسلامية أن أحكامها لا تسقط بعدم الاستعمال ، كما هي الحال في القوانين الوضعية ، فإن القاضى قد يمتنع عن تطبيق النص الذى لم يبلغ إلا عن طريق عدم الاستعمال ، إنها مسألة صالحة للأخذ والرد بين أصحاب القانون ، فأما في الشريعة الإسلامية فإن النص يبقى في حال ثبوت ، أعنى يبقى نائماً ألف سنة فإذا اقتضاء مقتضى قام جديداً جديداً ، إنه لا إلغاء في أحكام الملة السمحة ، ولكنه

« ثبوت ، و « حركة » ما يزالان يتناوبان الأحكام حسب مقتضى الحال ، أن السماحة وصف لزم - بحق - هذه الملة الإسلامية ، ومن فقها حق فقها كانت السماحة جبلة فيه ، يحكى عن أحد الصالحين من سلفنا أنه أقام منسكا دينيا على خلاف الصورة التي يعرفها من اجتاده ، لأن مجتداً آخر يرى غير رأيه كان ضيف البلد فرأى من باب التكريم والمجاملة للشيخ الضيف أن يتعبدوا على طريقته .

إن الأصول الإسلامية - يعنى أصول العقيدة لا أصول الفقه الاصطلاحية - واحدة لا يختلف فيها اثنان ، والخلاف في الفروع حين أمره ومظهره ، فإن غير المسلم إذا وجد مع جماعة من المسلمين لكل منهم مذهبه فإنه لا يدرك هذه التفرقة المذهبية حين يراهم يصلون ويصومون ويذكرون ويحجون ويقولون لا إله إلا الله محمد رسول الله .

قلت : لقد قال لى عالم كبير - من هيئة كبار العلماء - أن التقريب بين المذاهب الإسلامية مستحيل عقلا .. فإن المذهبيين في المسألة أو المسائل يعنى خلافا في النظر ، فأنت ترى الشيء أبيض ، وأنا أراه أسود فكيف يقرب بيننا ؟ هل نسطلح على أنه أزرق ؟ إذا فعلنا أفلا ترانا نعبث ؟ .

ضحك الشيخ مغرقا وقال : والتباعد .. أيراه العالم الكبير مستحيلا أم يمكننا ؟ . لا بد يراه يمكننا ، فكلامه هذا نفسه تبعيد ، فلو أنت قلت : كل ما يمكن تبعيده يمكن تقريبه لاستقام لك أن النسبة بين المذاهب الإسلامية لأمر مشهور من حيث المصدر ، ومن حيث الغاية ، ومن حيث ما شاء الله أن تنظر ، إنك لو نظرت في المذهب الواحد - أى مذهب - مجردا محلا لوجدته جملة مذاهب .. لقد اختلف المالكية في حال من لم يجد ماء ولا متيما ، وتمخض الخلاف عن أربعة مذاهب نظمها بعضهم :

ومن لم يجد ماء ولا متيما فأربعة الأقوال يحكي مذهبها
يصلى ويقضى عكس ما قال مالك وأصبح يقضى والأداء لأشبا

أفترى التقريب بين أصحاب مالك ثم بينهم وبين مالك مستحيلا ؟ .

قلت : أيسر الأقوال في هذه المسألة قول مالك ، فعنده أن من لم يجد ماء ولا متيمما لا يؤدي ولا يقضى - عكس يصلى ويقضى - وبعده يسرا قول أشهب يؤدي ولا يقضى .

قال : وقد يرى غيرك أن القضاء ولا أداء أيسر ، وأن الأداء ثم القضاء أحوط ، ولكن الجدير بالنظر حقا تسمية العمل نفسه ، التيمم ، أفلو قال سبحانه وتعالى : « فاقصدوا » بدل قوله : « فتيمموا صعيدا طيبا » كانوا يسمونه « باب القصد » والطيب ، « مقابل » الخيط ، من المعاني العامة التي يحدها « المحل » أو « الموضوع » فالارض الطيبة من حيث الإنبات هي التي تنمو وتجدو بنبتها على خلاف الخبيثة التي يخرج نباتها زكدا ، فإذا كنت في « باب الطهارة » أو النظافة وعدمت الماء المطهر الأصلي ، وأرادك سبحانه وتعالى على أن تستبدل به صعيدا طيبا أفليس واضحاً أن الصعيد الطيب « بدل الماء » لا بد أن يكون له بعض خصائص المبدل منه من حيث المقصد - الطهارة أو النظافة - أو تراك متطهرا إذا مسحت بالتراب وما أشبهه ، إنك إذا مسحت وجهك ويديك بمندبل أو نحوه أزلت ذرات الغبار أو الهباء .. ولو كان الظهور ماء لكانت الطهارة أتم ، ولكنك على كل حال تطهرت في حدود الإمكان عكس ما تفعل لو مسحت بالتراب فإنك تضيف وضرا جديدا على آخر قديم ، هذا على أننا خرجنا من موضوع حديثنا ، فنحن في التقريب ، وما كان التيمم إلا شاهدا على تعدد المذاهب ، في المذهب الواحد ، وعلى أنه لو صح أن المذهبية تجافى التقريب ، وبالتالي تقتضى التباعد إذن لوجب تبعيد أو إقصاء أصحاب مالك عن مالك ، وأصحاب أبي حنيفة عن أبي حنيفة ، وأصحاب زيد - الزيدية من الشيعة - عن زيد ، أذكر أول مرة رأيت فيها صاحب فكرة التقريب محمدا - يعني سماحة العلامة الأكبر القمي ، ولم يكن يذكره إلا بإسمه المجرد « وكان هذا في لفته يعني غاية التكريم ، أخذ يتحدث إلى فأخذني العجب ، إذ خيل لي أن نفسي تتحدث إلى نفسي ، إن الفكر التي تختلج في ضميري هي التي أسمعا ، ولو أنني أفضيت بها إلى آخر ما عدوت أن أقول ما يقول

قلت له : أين كنت يا أخى ومن أين جئت ؟ إن هذا الذى تريد أن تطبقه فى الحياة العاملة هو عين ما تنطوى عليه حياىى الباطنة ، وما كنت بمستطيع أن أنجاز به حيز الأمانى القلبية .

إن تفرق كلمة المسلمين داء عياء كانت أسبابه القديمة وحدها كافية وفوق الكفاية كما يكون المسلمون فتنة للذين كفروا ، فكيف بهم وقد أضيف إلى القديم جديد أوجده وجد فى دعمه ووجهه بالقديم ، ذلك الغرب الذى قضى الله ولا راد لقضائه أن يبتلى به هذا الشرق ، على أن العلة - أصلا وحقيقة - شرقية داخلية إسلامية ، فسا كانت العوامل الخارجية لتجد سم الخياط أو ما دون سم الخياط تنفذ منه إلى جسم هذا الكائن الكبير الذى اسمه ، الأمة الإسلامية الواحدة ، لو تلاها المسلمون حق تلاوتها : ، إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ، ولكنك تقول أو قيل لك : إن التقريب بين المسلمين مستحيل عقلا ، وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لنفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا . فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً . ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً . إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسوموا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتيبرا عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً .

قلت : أولئك بنو إسرائيل أفسدوا فى الأرض مرتين لحقت عليهم كلمة العذاب فى الدنيا قبل عذاب الآخرة .

قال : أقراهم الآن حقت عليهم كلمة العذاب فى الدنيا قبل عذاب الآخرة ؟ إن البلاء أكبر البلاء هو الذى يقع فيه الإنسان لا يراه واقعاً .

إن آيات الإسرائاء ليست فى بنى إسرائيل وحدهم ، فليس القرآن كتاب تاريخ أو أخبار أو قصص لأنها قصص . إن الآيات فى بنى آدم ، لأنها تعبير عن قانون اجتماعى ، إنها الدورة المستمرة فى كل مجتمع إنسانى من الفساد إلى الصلاح ، أو من الصلاح إلى الفساد ، فهى حلقة مفرغة لا يدرى أين طرفها بحكم أنه لا طرف لها .

إنه لفساد في جسم الأمة الإسلامية أن تتباعد خلاياه وتتنافر ، في حين أن حقها وطبعها أن تتقارب وتتآزر ، فهي إنما تعبر عن وحدة أو كل لا يصلح إلا أن تصلح أجزاؤه .

لقد حدثتني أنت عن مؤلف أوروبي أو أمريكي تكلم عن دينين وأمتين هما المحمدية السنية من ناحية ، والمحمدية الشيعية من الناحية الأخرى ، والرجل معذور على كل حال ، فأنت مهما تحاول اقناعه عن طريق النظرة الفاحصة الصادقة في أحكام الإسلام الذي لا يعرف المسلمين إلا أمة واحدة تشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، فإن نظرتة هو في تاريخ المسلمين ماضيه وحاضرهم لحرية أن تريه الطاقية وفعلها فينا الأفاعيل ، لقد قطعنا أعما في الأرض هانت في أعين ذواتها قبل أن تهون في عيون الناس ، والله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون .

إن وحدة الأمة الإسلامية هي ما نستطيع أن نسميه بحق « المسألة الإسلامية » والوحدة لا تتحقق الا أن يتقارب أولئك المتباعدون .

إن قطب الأمة الإسلامية هو رجل - كل رجل - يفرع قلبه ويخلص لشئون الوحدة ووسائلها وما يمكن أن يؤدي إليها : إنه قطب المسألة تدور فيه أو حوالة وحدها ...

اكتب في رسالة الإسلام واسهم في التقريب بين طوائف الأمة الإسلامية - ما استطعت إلى ذلك سبيلا - إنه العمل الصالح الذي تستطيع أن تنهض بعثه على قدر طاقتك ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

« إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا ، »

من ثمرات المعقول والمنقول

المستاذ على المنجد

العدل والإنصاف :

في غرر الخصائص : العدل مأخوذ من الاعتدال ، الذي هو القوام والاستواء المجانبان لليل والالتواء .

وحقيقته : وضع الأمور في مواضعها ، فلا توضع الشدة مكان اللين ، وبضد ذلك ، ولا السيف مكان السوط ، وبالعكس من ذلك ، وإلى هذا أشار المتنبّي بقوله :
ووضعُ النّدَى في موضع السيف بالعلّا مُضَرٌّ كوضع السيف في موضع الندى
والإنصاف : هو استيفاء الحقوق واستخراجها بالأيدي العادلة ، والسياسات الفاضلة .
وهو والعدل : توأمان ، نتيجهما علو الهمة ، وبراءة الذمة ؛ فالإنصاف :
استثمار ، والعدل : استكثار ؛ فيصير الملك بالإنصاف مستثمرا ، وبالعدل مستكثرا .

أنواع اليتيم :

في الحديث : « لا يُتيم بعدُ حُلُمٌ ، أى بعد بلوغ التكليف .
واليتيم من الناس : من فقد أباه ، ومن البهائم : من فقد أمه .
والعَجِيّ من الناس والإبل - بوزن غنّى - من فقد أمه ، واللّطيم من الناس :
من فقد أبويه .

وعندي : أن اليتيم على الحقيقة من فقد العلم والأدب ، وقد صدق الشاعر في قوله :
ليس اليتيم الذي قد مات والده إنّ اليتيم يقيم العلم والأدب
الصوت الضعيف والهمس :

في عروس الأفراح أكثر أهل اللغة على أن الهمس : الصوت الضعيف .
وقال الثعالبي في فقه اللغة : الهمس : صوت حركة الإنسان .

وقال ابن سيدة في المحكم : الهمس : الخفى من الأكل والضرب والمشى ، وهو قريب من كلام الثعالبي ، والآية ترشد إليه في قوله تعالى : « وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا ، أى إن الأصوات سكنت فلا تسمع إلا حركة الأعضاء .

الكُمَيْت والأشقر :

الكيت مشتق من الكُمَيْتة - بالضم - ويقال للذكر والأنثى كيت ، ولا يستعمل إلا مصغرا ، وهو تصغير أكت على غير قياس .

والكيت من الخيل : بين الأسود والأحمر ، قال أبو عبيدة : ويفرق بين الكيت والأشقر بالعُرف والذنب ؛ فإن كانا أحمرين فهو أشقر ، وإن كانا أسودين فهو كيت .

وَوَجَّه بعض العلماء تصغير الكيت بما يستحسن ، فقال : صَغُرَ لإنه لم يخلص له لون بعينه فينفرد به مكبِّرا .

الفقه والعلم :

قالوا : الفقه غير العلم ، لأن الفقه غالبا مظنون ، والعلم أعم من الفقه ، لأن من أتقن صناعة فهو عالم بها ، فكل فقه علم ، وليس كل علم فقهيا ، وكل فقيه عالم ، وليس كل عالم فقهيا ، فالملائكة والأنبياء علماء لا فقهاء .

الواحد والأحد :

الواحد : هو الذى لا يتجزأ ولا ينقسم ، والأحد : الذى لا نظير له . وقال بغوى : لا فرق بينهما .

وقال القرطبي : الأحد : اسم بمعنى الذات ، والواحد : وصف لها . وقد أسقط الغزالي الأحد من شرح الأسماء ، لسقوطها من بعض الروايات .

الخشوع والخشوع :

الخشوع : التطامن والتواضع ؛ يقال : خضع لغريمه يخضع - بفتحهما - خضوعا : ذلًّا واستكان .

وهو قريب من الخشوع ، إلا أن الخشوع أكثر ما يستعمل في الأصوات ،
والخشوع في الأعناق ، ولذلك أضافه الفرزدق إلى الرقاب في قوله :
وإذا الرجال رأوا يزيد^(١) رأيتهم خضع الرقاب نواكس الأبصار
التمام والكمال :

التمام : يقتضى الزيادة ، والكمال : لا يقتضى الزيادة .
ولما نزلت الآية : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت
لكم الإسلام ديناً » فرح الصحابة غير أبي بكر - رضى الله عنه - فقيل له في ذلك ،
فقال : ما بعد الكمال إلا النقصان . وقد عاش النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -
بعد نزول الآية ثمانين يوماً . وقريب من قول أبي بكر قول الشاعر :
توفى البدورُ النقصَ وهى أهلة ويُدركها النقصان وهى كوامل
الجود والكرم :

قيل الجود : ما كان بغير سؤال ، والكرم : ما كان بسؤال .
ويستعمل أحدهما مكان الآخر كثيراً ، قال حافظ :
من جاد من بعد السؤال فإنه وهو الجواد يُعد في النبُخَال
جمع وأجمع :

إذا أردت جمع المتفرق قلت : جمعت القوم ، فهم مجوعون ، قال تعالى : « ذلك
يوم مجوع له الناس وذلك يوم مشهود » .
وإذا أردت كسب المال قلت : جمعت المال وجمعته - بالتشديد والتخفيف -
وبهما قرئ قوله تعان : « جمع مالا وعدده » .
وتقول في رأى والامر : أجمعت رأين وأمرى ، وأجمعت الخروج وعلى
الخروج ، لأن الإجماع - كما قال الفراء - يتعدى إلى المعانى لا إلى الأعيان ، ومعناه :
إحكام النية والعزيمة .

(١) يزيد : هو يزيد بن المهلب بن أبي صفرة .

المتناقض والممتنع والغلو :

في كتاب نقد الشعر لقدماء : أن المتناقض : لا يكون ، ولا يمكن تصويره في الوهم ، مثل تقابله على طريق التضاد ، كالشرير للخير ، والحرار للبارد ، والأبيض للأسود ، وإما على طريق العدم والقضية ، مثل الأعمى للبصير ، والأصم للذي أُلجِمَ وإما على طريق النقي والإثبات ، مثل أن يقال : زيد جالس ، وزيد ليس بجالس . والممتنع : لا يكون ، ولكن يمكن تصويره في الوهم مثل قول أبي نواس في الأمين :

يا أمين الله عَشْ أبدأ دُم على الأيام والزمن

والغلو : هو تجاوز في نعت ما للشئ أن يكون عليه وليس خارجا عن طباعه ، إلى ما لا يجوز أن يقع له ، كقول السمر بن ذؤيب :

أظل تحفر عنه إن ضربت به بعد الذراعين والساقين والهادي^(١)

فليس خارجا عن طباع السيف أن يقطع الذراعين والساقين والهادي ، وأن يؤثر بعد ذلك ويغوص في الأرض ، ولكنه مما لا يكاد يكون .

بنية وبنية :

البنى - بضم الباء وكسر ها - : جمع بنية - بالضم والكسر - كلاهما : اسم لما بنيت . أو البنية بالكسر : اسم للهبة التي بنى عليها .

ولا فرق في ذلك بين البناء المحسوس ، وبناء الشرف ، ولكن روى عن الأصمعي أنه قال : أنشدت أعرابيا قول الخطيئة :

أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنى وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا

وكسرت البنى ، فقال لى : أى بُنا - يقصد أى بُنى - هى : أحسنوا البنى .

نطقها بالضم ، والمعزوف جواز الأمرين في بيت الخطيئة .

الغبية والهتان :

في المضمون به على غير أهله : الغبية بالكسر : أن يتكلم خلف إنسان مستورا بما يغمه لو سمعه ، بشرط أن يكون صدقا ، فإن كان كذا سمي بهتاناً .

(١) الهادى : العنق .

الشكر والشكران :

في الطبقات الكبرى للشعراني : كان أبو القاسم الجنيد يقول : الشكر فيه علة ، لأن الشاكر طالب لنفسه المزيد به ، فهو واقف مع الله تعالى على حظ نفسه بالشكر ، ولكن الشكران : ألا ترى نفسك أهلاً للرحمة .

الفقر والتصوف :

سئل أبو بكر بن داود الدينوري الرقي عن الفرق بين الفقر والتصوف ؟ فقال : الفقر حال من أحوال التصوف . فقيل له : ما علامة التصوف ؟ فقال : أن يكون العبد مشغولاً بما هو أولى في كل وقت . وكان يقول : إذا انحط الفقراء عن حقيقة العلم إلى ظاهر العلم أساءوا الأدب مع الله تعالى في أحوالهم بخلاف غيرهم .

الولي والعالم والجاهل :

كان الحسن بن أحمد بن سهل البوشنجي يقول : من كان باطنه أفضل من ظاهره فهو الولي ، ومن كان باطنه وظاهره سواء فهو العالم ، ومن كان ظاهره أفضل من باطنه فهو الجاهل ، ولذلك لا ينصف من نفسه ويطلب الإنصاف من غيره .

الصوفي والمتصوف :

سئل أبو الحسين بندار بن الحسين الشيرازي : عن الفرق بين الصوفي والمتصوف فقال : الصوفي : من اختاره الله لنفسه فصافاه من غير تكلف . والمتصوف : هو المتكلف بنفسه المظهر لزمه ، مع وجود رغبته في الدنيا وتربية بشريته .

الشريعة والحقيقة :

كان الشيخ علي بن الهيثم العراقي يقول : الشريعة : ما ورد به التكليف ، والحقيقة : ما حصل به التعريف ، فالشريعة مؤيدة بالحقيقة ، والحقيقة مقيدة بالشريعة ، والشريعة : وجود الأفعال لله والقيام بشروط العلم بواسطة الرسل ، والحقيقة : شهود الأحوال بالله تعالى ، والاستسلام لغلبات الحكم بتقدير لا بواسطة :

وكان الشيخ إبراهيم الدسوقي يقول : الشريعة أصل ، والحقيقة فرع ؛ فالشريعة جامعة لكل علم وشروع ، والحقيقة جامعة لكل علم خفي ، وجميع المقامات مندرجة فيهما .

وكان الدسوقي يقول : العلم كله مجموع في حرفين : أن يعرف العبد العبودية ويعبده ، فمن فعل ذلك فقد أدرك الشريعة والحقيقة ، وليس في هذا تعطيل العلماء ، بل العلم ابن العمل ، وإنما قلنا ذلك من أجل قوله تعالى : « فاقربوا ما تيسر منه » ولكل فرقة منهاج ، وإلا فقد يجمع الله العلم والعمل في رجل واحد يفيد الناس كل الغوائد ؛ فالشريعة هي الشجرة ، والحقيقة هي الثمرة .

وجاءه رجل فقال له : أريد أن أسلك طريق الحقيقة ، فقال : يا ولدي الزم أولا طريق النسك على كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم المرضية الزاهرة الباهرة ، التي نورها جلا الظلم ، وأنار بطاوع مكة والمدينة والشام وهر والعراق واليمن والمشرق والمغرب والأفق العلوي والسفلي ، فإذا عملت بها انقذ لك منها علم الحقائق والأسرار ، فاسلك يا أخي كما قلت لك على التدرج شيئا بعد شيء ، والله يحفظك إن صدقت .

وكان يقول - رضى الله عنه - : أهل الشريعة يبطلون الصلاة باللاحن الفاحش ، وأهل الحقيقة يبطلون الصلاة بالخلق الفاحش ، فإذا كان في باطن المصلح حقد أو حسد أو سوء ظن بأحد أو محبة للدينا ، فصلاته باطلة ؛ لأن أهل هذه الأخلاق في حجاب عن شهود عظمة الله تعالى في الصلاة ، ومن كان قلبه محجوبا فما صلى ؛ لأن الصلاة صلة بالله تعالى .

وكان يقول : يا ولدي قلبي تجنب معاشر أولي الأقوال والجدال ، ولا تتخذ أحدا منهم صاحبا ، وجالس من جمع بين الشريعة والحقيقة فإنه أعون لك على سلوكك . وكان الشيخ محمد المغربي الشاذلي يقول : السالكون ثلاثة : جلالى وهو إلى الشريعة أميل ، وجمالى وهو إلى الحقيقة أميل ، وكلى جامع لهما على حد سواء ، وهو منهما أكل وأفضل .

وكان يقول : ابن الشريعة ناظر بعين الحكم الظاهر ، ونسبة فعل الخلق إليهم لتوجه الخطاب وترتب الأحكام عليهم « والله خلقكم وما تعملون » ، وابن الحقيقة ناظر بعين الحكمة الباطنة ونسبة الفعل إلى الحق ، لأنه الفاعل المختار حقيقة « وربك يخلق ما يشاء ويختار » ، ما كان لهم الخيرة سبحانه الله وتعالى عما يشركون .

عالم الظاهر وعالم الباطن :

كان الشيخ داود الكبير يقول : عالم الظاهر كلما اتسع عليه اتسع في الوجود وفشا ، وعالم الباطن كلما اتسع عليه وعلا دق عن الإدراك ومال إلى الخفاء ، لأن العالم بالخفاء خفي عكس الظاهر .

وأیضا فإن عالم الظاهر ينقضي عليه بانقضاء هذه الدار ، لأنه منوط بالتكليف ، وإنما يبقى له - إذا صدق وأخلص لله - الجزاء والثواب .

وكان يقول : ديننا هذا قسمان : ظاهر علم ، وباطن حقيقة ؛ فظاهره مضبوط بالاصول والنقول ، وباطنه مضبوط بأنوار القلوب ، فمن أتاك بشيء منها فاستشهد عليه بما هو منه ؛ فالظاهر بشواهد ، والباطن بشواهد ، فمن قبل شيئا من ظاهر بغير نقل ثقة زل ، ومن قبل شيئا من باطن بغير شهود قلب ضل .

الأستاذ والأب :

كان الشيخ داود الكبير يقول : خدمة أستاذك مقدمة على خدمة أبنك ؛ لأن أباك كدّرك ، وأستاذك صفّاك ، وأباك سفّاك ، وأستاذك علاك ، وأباك مزجك بالماء والطين ، وأستاذك رقاك إلى أعلى عليين .

النفوس والروح :

كان السيد علي وذا يقول : النفس : ماله الإدراك ، والروح : ماله الإدراك في كل مقام بحسبه ، ومن هنا سمي القرآن روحا ، وعيسى روحا ، وجبريل روح الوحي النبوي المرسل في المعاني الجلالية ، وميكائيل روح هذا الوحي في المراتب الجمالية .

التحقيق والتدقيق والترقيق والتنميق والتوفيق :

كان الشيخ محمد أبو المواهب الشاذلي يقول : إثبات المسائل بدليلها تحقيق ، وإثباتها بدليل آخر تدقيق ، والتعبير عنها بفائق العبارة ترقيق ، ومراعاة علم المعاني والبيان في تركيبها تنميق ، والسلامة من اعتراض الشرع فيها توفيق .

علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين :

وكان يقول : علم اليقين يحصل عن قاطع البرهان ، وعين اليقين يحصل بشهود

العيان ، وحق اليقين تحقيق صورة العيان ، مثال ذلك ما استفيد بالعلم المتواتر علم يقين ، وفوقه عين يقين ، والحلول به حق يقين .

الأستاذ والشيخ :

وكان يقول : الأستاذ هو من كَمَّل الدوائر ، واقتوى فيه علم الأوائل والأواخر ، ويسمى بالعالم المطلق ، فكل أستاذ شيخ ولا عكس .

الصالح والولى :

سئل الشيخ شمس الدين الحنفى عن الصالح والولى فأجاب : الصالح هو من صلح لحضرة الله - عز وجل - ولا يصلح لحضرة الله - عز وجل - إلا من تخلى عن الكونين . وأما الولى : فهو من قال لا إله إلا الله وقام بشروطها ، وشروطها أن يوالى الله ورسوله ، بمعنى : يواد الله - سبحانه - بشهادته له بالوحدانية ، ولحمد - صلى الله عليه وآله وسلم - بالرسالة .

النَّمَرى والنَّمَيْرى :

النمرى - بفتح النون والميم - : هو منصور النمرى شاعر الرشيد ، نسبة إلى النمر ككيف ، وهو النمر بن تَدُولب ، وقيل : نسبة للنمر بن قايظ ، وهو أبو قبيلة من ربيعة . والنميرى - بضم النون وفتح الميم وسكون الباء - : محمد بن عبد الله ، وقيل : نصر ابن منصور بن الحسن الشاعر المشهور ، نسبة إلى نَمِير بن عامر بن صَعَصعة من قيس عيلان .

هَدَيْت وأهديت :

يقال فى الهدية : أهديت ، وفى العروس : هديتها وأهديتها جميعا ، والأصل واحد .

القبيل والقبيلة :

القبيل : الجماعة من الثلاثة فصاعدا ، ويكونون من آباء شتى ، وقد يكونون من نجر واحد ، وربما كانوا بنى أب واحد ، وجمعه قُبُل . والقبيلة : الجماعة من أب واحد ، وجمعها : قبائل .

الكُفَّة والكِفَّة :

عن الأصمعي : كل ما استطال فهو كفة - بالضم - : نحو كفة الثوب والرمل .
وكل ما استدار فهو كفة - بالكسر - : نحو كفة الميزان ، وكفة الصائد ، وهي حبالته .
الضُّحا والضَّحاء :

الضحا بالقصر : يكون إذا انبسطت الشمس . فإذا امتد النهار وبينهما مقدار ساعة أو نحو ذلك ، فهو الضحاء - بالمد والفتح .

القَضْم والقَضَم :

القضم : يكون بأطراف الأسنان ، والقضم : بالنم كله .
وقيل : القضم : أكل اليابس ، والقضم : أكل الرطب .
الهِمَزَة واللِّزَة :

قيل : الهمزة : الغيبة في الوجه ، واللزمة : الغيبة في القفا .
وقيل : الهمزة : تكون بالعين ، واللزمة : تكون باللسان .

الكوز والكوب والكاس :

لا يسمى الكوز كوزا إلا إذا كانت له عروة ، وإلا فهو كوب ، وعلى ذلك
فسر قوله تعالى : « وأكواب وأباريق » . ولا تسمى الكأس كأسا إلا إذا كان
فيها شراب ، وإلا فهي قدح ، وقد يطلق الكأس على الشراب نفسه ، قال أبو النواس :
كأس إذا انحدرت في حلق شاربها أجده حررتها في العين والخذ
ومن النكت الأدبية في ذلك : أن ابن حجلة المغربي حينما ألف كتابه « ديوان
الصبابة » وقف عليه ذو الوزارتين لسان الدين بن الخطيب فقال :

يا من أدار من الصبابة بيننا قدحا تُم المسكُ عن رياه
أنا لا أهيِم بذكر من قتل الهوى لكن أهيِم بذكر من أحياء
ففخر ابن حجلة بمدح ابن الخطيب وتبجح ١١ .

فقال له ابن مكائس : يا شيخ شهاب ، لقد قصَّرت بك لسان الدين ، وذكر : أن
كتابك فارغ من المحاسن ١١ قال : وكيف ذلك ؟ قال لقوله :

يا من أدار من الصبابة بيننا قدما تم المسك عن رياه
أما علت أن الكأس لا يقال لها كأس إلا إذا كان فيها شراب ، وإلا فهي قدح -
فامتعض ابن حجلة وانكسر ١١ .

وهذا في الحقيقة من النقد السطحي المبني على التعسف والتعنت ، ولا يراد به
وجه الحق ، فالقدح - وإن كان في أصل اللغة - يكون خاليا من الشراب ، إلا أنه
يستعمل بمعنى الكأس توسعا ، وذلك كثير في أقوال الشعراء .

ومن طرائف الصوفية في الكوز : أن رجلا سأل ابن الجوزي : ما لنا نرى
الكوز الجديد إذا صُبَّ فيه الماء تش وخرج منه صوت ١ .

فقال له ابن الجوزي يا ولدي ، ذاك صوت شكواه ، يشكو إلى برد الماء
ما لقيه من حر النار ١ .

فقال له : فما لنا نراه إذا ملأناه لا يبرد ، فإذا نقص برد ؟ .

فقال ابن الجوزي : حتى تعلوا أن الهوى لا يدخل إلا على ناقص ١ .

ومن قول ابن عبد الظاهر المصري ملفزا في الكوز :

وذى أذن بلا سمع له قلب بلا قلب

إذا استولى على حُب فقل ما شئت في الصَّب

والحُب هو الزُّبر ، ويريد بالصَّب : السكب ، والتورية فيهما واضحة .

الدُفتر والكراسة :

في مطالع البدور : أن الدُفتر عربي لا يعلم له اشتقاق ، وحكى : دُفتر بالكسر ،
ويقال له أيضا : دُفتر ، وفي القاموس : الدُفتر بالفتح ، وقد تكسر الدال : جماعة
الصحف المضمومة ، والجمع : دُفاتر . ويقول صاحب المطالع : وأما الكراسة
فمعناها : الكتب المضمومة بعضها إلى بعض ، والورق الذي ألصق بعضه إلى بعض ،
مشتق من قولهم : رسم مُكرس ، إذا ألصقت الريح التراب به ، قال العجاج :

يا صاح هل تعرف رسما مُكرسا

وقال الخليل : الكراسة من الكتب مأخوذة من أكراس الغنم ، وهي أن
تبول في الموضع شيئا بعد شيء ، فيقبله صاحبه .

المهارة والصحف والكتب :

المهارة : جمع مُهَرَّق - بضم الميم وفتح الراء - وهى الصحيفة معرب .
ويقول الجاحظ فى الحيوان : المهارة ليس يراد بها الصحف والكتب ، ولا
يقال للكتب مهارة حتى تكون كتب دين ، أو كتب عهود وميثاق وأمان .

الخاطب والخطيب والخطبة والخطبة :

الخاطب اسم من الخطبة مثل راحم ، وإذا جعل وصفاً لازماً قيل : خطيب ،
كما قيل فى راحم : رحيم . وجعل رحيم أبلغ فى الوصف وأبين فى الرحمة ، ولذلك
لا يسمى خطيباً إلا من غلب ذلك عليه وعلى وصفه ، وصار صناعة له ، فالرجل
الخطيب : الحسن الخطبة - بالضم .

وخطب الخاطب على المنبر خطابة - بالفتح - وخطبة - بالضم - وذلك الكلام
خطبة أيضاً .

وفصل الخطاب : الحكم بالبينه ، أو اليقين ، أو الفقه فى القضاء ، أو النطق
« بأما بعد ، .

وقال رجل من المنافقين لزياد عقب خطبته له : أشهد أيها الأمير : أنك أوتيت
الحكمة وفصل الخطاب . فقال له زياد : كذبت اذاك نبى الله داود - عليه السلام .
والخطبة - بالكسر - : خطبة الزواج ، تقول : خطب المرأة خطباً بالفتح
وخطبة . بالكسر ، وخطبى . بكسر الخاء وتشديد الطاء المكسورة ، واختطبتها أيضاً .

الفأرة والفارة :

الفأرة : أنثى الفأر ، وهى أيضاً : ناجة المسك - وعاءه - ، والفار - بلا هاء - :
المسك نفسه ، وفارة الإبل - بلا همز - : قَوْحٌ جلودها إذا تدبت .

وقيل : فارة المسك - غير مهموزة - من فار يفور وفورا وفورا وفورانا ،
لفوران ريحها . ويجوز همزها ، لأنها على هيئة الفأرة ، وحكى عن الأصمى : أنه
قال لأعرابي : أتهمز الفأرة ، فقال : الهرة تهمزها : أى تقهرها وتضغط عليها .

وقيلة عُسْقِيل تهمز بعض الكلمات فتقول : الفأرة ، والجؤنة ، والمؤسى ،
والخؤت .

الاختصار والتلخيص :

الاختصار: الإيجاز ، والتلخيص: التبيين ، والشرح ، والتخليص ، قال
عبد القاهر في أسرار البلاغة: وأما الملخص، فيفتح لفكرتك الطريق المستوي ويمده .
وقد جعله بإزاء المعقد .

ومعظم الناس يخطئون في التلخيص ، فيستعملونه في معنى الاختصار ، ولم
يستعمله القدامى في هذا المعنى قط .

العواء والنباح والهرير :

يقال : عاوت الكلبة الكلاب : أى دعتهن للسفاد ، ولا يكاد يستعمل العواء
للكلاب إلا عند السفاد ، والمستعمل في غير ذلك الثُبَّاح ، وإنما العواء للسباع .
وقول الشاعر يهجو :

جزى ربّه عنى عدّى بن حاتم جزاء الكلاب العاويات وقد فعل
قيل : عنى بالعاويات : المسعورة ، ومن شأنها - إذا أريد برؤها - أن يؤخذ
سَفُود فيدخل في أدبارها ، والشعر - بضم السين - والشعار : الجنون ، والسَّعِر
ككتف : المجنون ، ويروى : الكلاب العاديات ، دعا عليه بأحد هذه المعاني ،
ثم حققها عليه بقوله : وقد فعل ، أى استجاب الله ما دعوت عليه وحققه .
ومثله قول المتنبي :

وهذا دعاء لو سكت كُفَيْتِه لآنى سألت الله فيك ، وقد فعل
والبيت السابق لآبى الأسود الدؤلى ، وزعم ابن جنى وغيره أنه للنابعة ، وقال
العيني : إن قائله لم يعلم .

أما الهرير : فهو صوت الكلب دون نباحه ، وذلك من قلة صبره على البرد .
م- مسح ومسح :

قال الحريري في درة الغواص : يقولون مسح الله مابك بالسين ، والصواب : مسح .
ويحكى : أن النضر بن شُمَيْل المازنى البصرى مرض ، فدخل عليه قوم
يعودونه ، فقال له رجل منهم يكتى أبا صالح : مسح الله مابك ! .

فقال النضر : لا تقل : مسح بالسين ، ولكن قل : مسح بالصاد ، أى اذهب وفرقه ، أما سمعت قو الأعشى :

وإذا ما الحزب فيها أزدبت أقل الإزباد فيها ومصح

فقال له الرجل : إن السين قد تبدل من الصاد ، كما يقال : الصراط والسراط ، وصقر وسقر ، فقال له النضر : فإذا أنت أبو صالح !

وفى وفيات الأعيان : أن بعض الأدباء جوز بحضرة الوزير ابن الفرات أن تقام السين مقام الصاد فى كل موضع ، فقال له الوزير : أتقرأ : « جنات يدخلونها من صلح من آياتهم » : ومن سلح !

والذى ذكره أرباب اللغة فى ذلك : أن كل كلمة فيها سين ، وجام بعدها أحد هذه الحروف الأربعة ، وهى : الطاء ، والخاء ، والغين ، والقاف ، يجوز إبدال السين صاداً ، فتقول فى السراط : الصراط ، وفى سخر لكم : صخر لكم ، وفى مسغبة : مصغبة ، وفى سقل : صقل ، وقس على هذا كله .

ثم قال صاحب الوفيات : ولم أر فى كتب اللغة من ذكر هذا وحكى فيه خلافاً سوى الجوهري فى كتابه الصحاح فى لفظة : صدغ ، فإنه قال : وربما قالوا : السدغ بالسين .

وقال محمد بن المستنير : إن قوماً من بنى تميم يقال لهم بَلْعَسْبِيق يقلبون السين صاداً عند أربعة حروف ، وهى : الطاء ، والقاف ، والغين ، والخاء ، إذا كن بعد السين ، سواء أكانت ثانية أم ثالثة أم رابعة ، فيقولون : سراط وصراط ، وبسطة وبسطة ، وسَيْقِل وصَيْقِل ، وسرقت وصرقت ، ومسغبة ومصغبة ، وسخر وصخر ، والسَّخْب والصخب .

فاظ وفاض :

فى معجم الأدباء قال الأصمى : تقول : فاظ الميت بالطاء : إذا خرجت روحه . فإذا ذكرت النفس قلت : فاضت نفسه ، بالصاد فقط . ولا يجوز الجمع عنده بين الطاء والنفس ، وعند غيره يجوز أن تقول : فاظ الميت ، وفاضت نفسه ، وفاظت نفسه أيضاً .

وقد كتب أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي إلى الوزير أبي الحسن جعفر بن عثمان المصحفي أبياتاً يقول فيها :

قل للوزير السَّنيَّ محدَّه لي ذمَّةٌ منك أنت حافظها
عناية بالعلوم ممجزة قد بهَّظ الأولين باهظها
وفي خطوب الزمان لي عظةٌ لو كان يثنى النفوسَ واعظها
إن لم تحافظ عصاةً نسبت إليك قَدْماً فمن يُحافظها
لا تدعن حاجتي مطرحةً فإن نفسي قد فاظ فانظها
فأجابه المصحفي بأبيات منها :

خفَّضُ فَوْاقاً فَأَنْتَ أَوْحَدُهَا علماً وتُفَاهِياً وحافظها
مَنْ ذَا يُسَاوِيكَ إِنْ نَطَقَتْ وَقَدْ أقر بالعجز عنك د جاحظها ،
وقد أتتني - فديت - شاغلةٌ للنفس إن قلت : فاظ فانظها
فأوضحها تفر بنادرة قد بهَّظ الأولين باهظها
فأجابه الزبيدي بأبيات ضمنها الشاهد الشعري على ذلك :

أتاني كتاب من كريم مُكرَّم فنَفَسَ عن نفس تكاد تفيظ
فسرَّ جميع الأولياء وُروُدُه ورسى رجال آخرون وغيظوا
لقد حفظ العهد الذنوب قد أضاعه لدى سواء والكريم حنيظ
وباحث عن دفاظت، وقبل قالمها رجال لديهم في العلوم حظوظ
روى ذاك عن دكيسان ، د سهل ، وأنشدوا

مقال أبي الغياظ وهو مغنيظ فلا حفظ الرحمن روحك حيةٌ
ولا هي في الأرواح حين تفيظ

الريح والرياح :

أكثر ما تقع الريح في الكتاب العزيز في المشتلات ، قال تعالى : « وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ، » « فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات ، » « بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم ، » .

وقد وقعت الرياح في النعمة ، قال تعالى : « وهو الذي يرسل الرياح بُشرا بين يدي رحمته » ، « وأرسلنا الرياح لواقح » .

الشجاعة والجرأة والإقدام :

الشجاعة والجرأة مترادفان عند اللغويين ، وهو خلاف اصطلاح الحكماء ، فعدهم : أن الجرأة افتتاح الممالك مطلقا ، وأما الشجاعة فلا تكون إلا عن روية . وقال الرازي : الشجاعة مركبة من الإقدام والعقل ، وعلى هذا فليس في الأسد شجاعة ، كما اشتهر على الألسنة ، فإذا شُبه الإنسان بالأسد ، فالوجه إنما هو الإقدام لا الشجاعة . وللمتنبى يسوى بين الشجاعة والإقدام فيجردها من العقل ، ولهذا يقول :

الرأى قبل شجاعة الشجعان هو أول وهي المحل الثاني
فإذا هما اجتماعا لنفس حرة بلغت من العلياء كل مكان
ولر بما طعن الفتى أقرانه بالرأى قبل تطاعن الأقران
لولا العقول لكان أدنى ضيغم أدنى إلى شرفٍ من الإنسان
فحث على الجمع بين الشجاعة والعقل .

وفي نهاية الأرب قالوا : الشجاعة ، حدثها : سعة الصدر بالإقدام على الأمور المختلفة . وهي غريزة يضعها الله فيمن يشاء من عباده ، كما جاء في الحديث .

وسئل بعضهم عن الشجاعة فقال : جيلة نفس أبيتة ، قيل له : فما النجدة ؟ قال : ثقة النفس عند استرسالها إلى الموت ، حتى تحمد بفعلها دون خوف . وقال بعض أهل التجارب : الرجال ثلاثة : فارس وشجاع وبطل . فالفارس : الذي يُشد إذا شدوا ، والشجاع : الداعي إلى المبارزة ، والمجيب دأبيه ، والبطل : الحامى لظهور القوم إذا ولّوا . وقال ابن السكيت في كتاب الألقاظ : العرب تجعل الشجاعة في أربع طبقات : تقول : رجل شجاع ، فإذا كان فوق ذلك ، قالوا : بطل ، فإذا كان فوق ذلك ، قالوا : بهمة - بضم ثم سكون - فإذا كان فوق ذلك ، قالوا : أئيس ، بوزن أحمد . وقال بعض الحكماء : جسم الحرب : الشجاعة ، وقلها : التدبير ، ولسانها : المكيدة ، وجناحها : الطاعة ، وقائدها : الرفق ، وسائقها : النظر .

الشجاع والجبان :

قالوا : نفس الشجاع والجبان سواء فيما يدهمها عند الوهلة الأولى ، ثم يختلفان :
فالجبان يركب نفرته ، والشجاع يدفعها فيثبت ، ومن ذلك قول عمر بن معد يكره :
لجأشت إلى النفس أول مرة فرُدت على مكروهاها فاستقرت

المطر :

كل موضع فيه مادة د مطر ، في القرآن الكريم فهو في العذاب ، قال تعالى :
د وأمطرنا عليها حجارة من سجيل ، د فأمطرنا عليها حجارة من السماء ، د وأمطرنا
عليهم مطرا فساء مطر المنذرين ، الخ .

الماتح والماتح :

الماتح : من يستخرج الدلو ، وهو على رأس البئر .
والماتح : من يملأ الدلو ، وهو في قاع البئر .

أسرى وسرى :

أسرى وسرى بقطع الهمة وصلها : سار ليلا ، وقد وردا في القرآن الكريم
قال تعالى : د سبحان الذي أسرى بعبده . . . ، وقال عز وجل : د فأسر بأهلك
بقطع من الليل ، وقيل : أسرى : سار أول الليل ، وسرى : سار آخره .

الإدلاج والإدلاج :

أدّج القوم بالتخفيف : ساروا من أول الليل . وأدّجوا بالتشديد : ساروا من آخره .
وهذه التفرقة : قول أهل اللغة جميعا إلا الفارسي ، فإنه حكى أدّجت وأدّجت
لعتان في المعنى جميعا :

وعند بعضهم : أن الإدلاج المخفف أعم من المشدد ، فالتخفف : سير الليل كله ،
والمشدد : السير في آخر ، وعليه فينبهما العموم المطلق .

وقال ابن درّستويه : بينهما العموم والخصوص من وجه ، يشتركان في
مطلق سير الليل ، وينفرد المخفف بالسير في أوله ، والمشدد بالسير في آخره .

بساطة العقيدة وليس التكليف

— ١ —

ومن تأمل في أى حكم من أحكام الشريعة استطاع أن يجد فيه هذا الروح ، وأن يرده إلى هذا الأصل .

ونحن نضرب لذلك بعض الأمثال بقدر ما يتسع له المجال :

١ — فن ذلك : أن العقيدة الإسلامية في الله جل جلاله ، قائمة على وصفه تعالى بكل جميل ، وتنزيهه عن كل قبيح ، وقد أمرنا بأن نفكر في آثار الله ، ولم نؤمر - بل نهينا - أن نفكر في ذات الله ، لأن آثار الله في الخلق والإيجاد والتصرف واضحة يمكن أن نراها بعقولنا كما نراها بعيوننا ، وأن نسبح فيها السبح الطويل دون أن نخشى ضلالاً أو نخاف تباً ، أما ذات الله فهي فوق العقول التي ألقت التقدير والتكييف ؛ والتحديد والقياس والتشبيه . هذه العقيدة في جانب الألوهية كافية للإيمان ، ولو أن امرأ لقي ربه وهو يعلم أنه إله قادر متصف بجميع صفات الكمال منزّه عن جميع صفات النقص دون أن يعلم ما وراء ذلك من تفصيل في شأن الصفات لكان إيمانه عند الله مقبولاً .

وقد ركب متن الشطط قوم حاولوا أن يخوضوا بعقولهم في هذا المجال ، كأنهم حسبوا أنهم قادرون على إدراك ذات الله وكنهه ، ففقّدوا ما شاءوا بين الذات والصفات من نسب ، واختلفوا في أن الثانية هي عين الأولى أو غيرها ، وفي أنها قائمة أو مستقلة عنها ، وفي أنها قديمة بقدمها أو كقدمها ، إلى غير ذلك من الظنون والفروض التي شغلوا بها أنفسهم وشغلوا بها الناس وفتحوا بها على العقول أبواب

الشكوك والفتن ، وهم في ذلك إن لم يشبهوا فقد قاربوا ، وقالوا على الله بغير علم ، كما زعم الذين قالوا : اتخذ الله ولدا ، أو الذين قالوا : الملائكة بنات الله ، فالكل ينسب إلى الله ما لم يأذن به الله ، ويحاول أن يتصور الألوهية تصورا ماديا ، مع أن حقيقة النفس الإنسانية والروح البشرية لم تدرك ولم يعلم على وجه يصح ما هي ولا كيف هي ١٤ .

كما ركب متن الشطط قوم تناسوا الله وخلقه وتصريفه وقدرته ، فزعموا أن هذه الدنيا وليدة المصادفات أو التفاعلات ، كذلك وجدت وكذلك ستظل حتى يصادفها الفساد ، ويدركها نوع من الخلل في النسب والمقاييس .

اشتط هؤلاء وهؤلاء ووقف كل منهما في جانب الألوهية على طرف مناقض : قوم يؤمنون بالإله ولكنهم يقحمون عقولهم فيما ليس لها طاقة به من معرفة كنهه وحقيقته ، وقوم يكفرون به وينكرونه وتعمى قلوبهم عن آياته وآثاره ، والقرآن الكريم ينادى أولئك وهؤلاء أن الهدى غير ما تزعمون ، وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله .

يقول الله عز وجل في حض العباد على التفكير في خلقه وآثاره وما له من تصرف وتدبير : « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لآولى الألباب » .

« قل انظروا ما ذا في السموات والأرض » . « فانظروا كيف بدأ الخلق » ، « انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه » ، « فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها » ، « قل سيروا في الأرض ثم انظروا » ، « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » .

ويقول الله عز وجل في وصف نفسه ، وإعلام المخلوقين بأنه فوق ما يعقلون أو يدركون : « وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير » ، « ليس كمثل شيء وهو السميع البصير » ، « قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » ، « وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون . بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن

له صاحبة ، وخلق كل شيء ، وهو بكل شيء عليم . ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل . لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير .

فالقرآن الكريم لم يأت لنا أبداً بشيء يفصح عن ذات الله تعالى من حيث الحقيقة والكنه ، وإنما هو يلفت دائماً إلى آثار الله في الخلق والتصرف .

وقد قص الله علينا ما كان من نقاش بين نبيه موسى وفرعون حين أعلنه بأنه مرسل من رب العالمين ، فأراد فرعون أن يمتكر به ، وأن يقحمه في ورطة لا خلاص له منها : « قال فرعون : وما رب العالمين » ، سأل عن حقيقة الرب لأن السؤال بما ، لطلب الحقيقة ، فلو حاول موسى أن يجيبه عما سأل لحاول محالا ، وأثار على نفسه نقاشا وجدالا ، ولو سكت عن الجواب لبان عجزه ، ولكن موسى رد على فرعون رداً حكيماً قال : « رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين » ، فكأنه قال له : ليس لك أن تسأل عن ذات الله وحقيقته فذلك فوق عقلك وفوق قدرتك وفهمك ، ولكن سل عن آثاره تعلم أنه رب كل شيء في السماء والأرض وما بينهما خلقا وتصريفاً وحكماً وعلماً . وهذا هو الجواب الحق ، لأن ذات واجب الوجود سبحانه وتعالى يستحيل أن تعرف بالماهية التي تستدعي التركيب من الأجزاء ، فلم يبق إلا أن تعرف بآثاره وأفعاله ، وقد تناسى فرعون ذلك لأنه لا يريد إلا المجادلة بالباطل ، قال لمن حوله : ألا تستمعون ؟ يعني فلتعجبوا له ، أنا أسأله عن الماهية والحقيقة ، وهو يجيبني بنسبة الآثار إليه خلقا وتصريفاً ، وعندئذ عدل موسى إلى جواب آخر : « قال : ربكم ورب آبائكم الأولين » ، وفيه أيضاً معنى لفته إلى عدم إمكان السؤال عن الذات ، مع انتقاله إلى بيان أثر آخر من آثار القدرة الإلهية هو أقرب وضوحاً من الأول ، لأن أمر السموات والأرض ربما أشكل على بعض العقول ، أما شعور العاقل بأنه مخلوق متناسل من مخلوقين فهو أقرب قبولا ، وليس من السهل إنكاره ، ولكن فرعون أصر على أن الجواب غير السؤال ، واشتد في هذه المرة ما لم يشتد في المرة السابقة : « قال : إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون »

أى فهو لا يفهم السؤال فضلا عن أن يجيب . وهنا أجابه موسى بأثر آخر من آثار القدرة الإلهية هو أشد الآثار وضوحا وجلالة : قال : رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ، فالمشرق يشير إلى طلوع الشمس وظهور النهار ، والمغرب يشير إلى غروبها وبجىء الليل ، وهذان أمران دائميان مستمران لا شك أنهما عن تدبير وقدرة من مدبر قادر .

في هذا كله يظهر لنا مبلغ إصرار فرعون ، وهو المتكلم بلسان أهل الباطل والإضلال ، على اقتحام ما لا يقتحم ، ومحاولة البحث عما لا سبيل إلى معرفته ، ليتخذ ذلك سبيلا إلى الفتنة والشك ، وإلقاء الريب في النفوس المستعدة لذلك ، ويظهر لنا إصرار موسى ، وهو المتكلم بلسان أهل الحق والهداية ، على صرف الحديث عن ذلك المقتحم الصعب ، والاكتفاء بمعرفة الله عن طريق آثاره وآياته ، وهذه ولا شك سبيل المؤمنين ، وهى سبيل وسط بين الموغلين في تصور الألوهية كما تتصور المادة ، والموغلين في إنكارها مع وجود آثارها ، ووضوح أفعالها وتدبيرها .

٢ — ومن ذلك عقيدة الإسلام في التوسط بين الزاعمين بأن الإنسان مجبور ظاهرا وباطنا ، والزاعمين بأنه خالق لكل فعل من أفعال نفسه دون دخل الله . في القرآن آيات يستدل بها هؤلاء ، وآيات يستدل بها هؤلاء ، والنقاش والجدال بينهما طويل ؛ ولكن المتأمل المنصف الخالى من التعصب يستطيع أن يعلم الحق وأن يراه واضحا في كتاب الله ، كما هو واضح في الواقع .

بيان ذلك : أن كلا منا يشعر في نفسه بأمرين لا يستطيع أن يجادله فيهما مجادل . أحدهما : أنه فاعل متصرف يأتى الشيء بإرادته ، ويمتنع عنه بإرادته ، فمن قال إنه مجبور على الأفعال كالريشة في مهب الريح فقد أنكر هذا الإحساس ؛ والثاني : أنه مع ذلك تحيط به ظروف وأسباب في الكون والمجتمع ، خارجة عن إرادته ليس له في تكيفها تأثير ، وهذه الظروف قد تعطل إرادته في بعض الأحيان فلا يتم تنفيذها ، وقد تلائم هذه الإرادة فتتم ؛ فإذا نظرنا إلى هذه الظروف وتلك التأثيرات

الخارجة عن إرادة الإنسان ، والتي لها حظ في التمام أو عدم التمام ، كان لنا أن نعتبر أن إرادة الإنسان ليست هي كل شيء ، وأنه لا يتم بمجرد حصول شيء من الأشياء أو عدم حصوله ، ولما كانت هذه الأسباب ، أو هذه الظروف ليست من صنع فرد أو أفراد ؛ أو هي منتهية إلى أن تكون كذلك ، وأن ترجع إلى الخالق جل وعلا ، علمنا أن للعبد جانباً من الفعل والإرادة ، وأنه مسوق فيما وراء هذا الجانب بقوى ، وخاضع لأسباب من صنع الله .

على أن إرادة الإنسان فعل شيء من الأشياء لا تأتي ارتجالاً ، وإنما تتكون حسب التأثيرات المحيطة به أيضاً ، وربما كان لإرادة غيره تحكم فيها من حيث لا يشعر الإنسان .

فالخلاصة : أن الإنسان فاعل مختار ، ولكنه في نفس الوقت مقيد بما يشعر به وما لا يشعر به من القيود التي تفرضها الظروف والأسباب والأحوال المحيطة به ، فالأمر في شأنه وسط ، ويمثل هذا نفهم معنى قوله تعالى : « والله خلقكم وما تعملون » ، حيث استند الفعل للعبد والخلق لله ، فالعبد مباشر ، والله هو المهيء لأسباب تلك المباشرة ، ولولا تهيئته لم تتم . وكذلك نفهم مثل قوله تعالى : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » وقوله : « إن ينصركم الله فلا غالب لكم » ، وإن يخذلكم فن ذا الذي ينصركم من بعده ، ونفهم لماذا نفعل الفعل ونسأل الله فيه الترفيق .

٣ — وكما يقال هذا في العقائد الإسلامية يقال في العبادات التي كلفنا الله إياها والمعاملات التي رسم لنا طريق السلوك فيها .

فالصلاة انقطاع عن المادة واتصال بالروح الأعلى ، ولكن في أوقات مناسبة محصورة بحيث لا ينخلع الإنسان من حياته وأعماله ونشاطه ، ولا ينخرط فيها انخراطاً كلياً فتتظم نفسه ، ويتبدل حسه ، والصوم ليس حرماناً كاملاً بالليل والنهار ، أو قصراً على بعض المباحات دون بعض ، وإنما هو حرمان وقته لساعات محدودة ، لك بعدها أن تتناول كل ما تريد من المباح ، وأن تلبس ما أحل الله لك ، فيجتمع لك من هذا وذاك تربية الروح وتلبية الجسم .

وقل مثل هذا في الزكاة ، والحج ، والنكاح ، والطلاق ، وحل البيع ، وحرمة الربا ؛ والاعتراف بالحرب مع النهى عن الاعتداء ، والأمر بأخذ الحذر مع النهى عن الإسراف في التظن ، وتشريع القصاص مع العدل والمساواة فيه ، وإباحة الانتصار للنفس مع الرغبة في جانب العفو ، وغير ذلك مما كلفنا الله تعالى إياه ، وكانت سنة الإسلام فيه التوسط ، دون ميل إلى جانب التفريط ، أو جنوح إلى ناحية الإفراط .

٤ — ومن ذلك في جانب أمثال هذه الأمور العملية قوله تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ، وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ . »

فالقرآن الكريم يقرر بهذا مبدأ من أهم المبادئ الإسلامية التي جعل الله بها المسلمين أمة وسطا ليكونوا شهداء على الناس ، ذلك المبدأ هو مراعاة حق الفطرة الإنسانية ، والنهي عن سلوك السبيل التي سلكها أهل الأديان السابقة أو بعض الفلاسفة ، من تعذيب النفس وحرمانها من الأخذ بما يلائم الفطرة ويحقق المتاع الجسدي الطبيعي ، لإثارة تهذيبها ، وميل إلى تقوية الجانب الروحي فيها ، فالقرآن الكريم يبطل هذا في قوة وحزم ، وينهى المؤمنين عنه ، ويصف ما أحله للناس بأنه طيبات إباحة لهم بأن إحلاله إنما كان لطيبه وطيبه معناه خلوه مما يؤذي النفس ماديا ومعنويا ، واشتماله على ما يفيدها في كليهما ، ثم يشعرهم بإشعاراً قويا - حين ينههم عن الاعتداء ، وينبئ حب الله للمعتدين - بأن في تحريم الإنسان طيبات ما أحل الله له خروجاً منه عن حده ، وتجاوزاً لدائرة فطرته وإنسانيته ، وتمرداً على الألوهية ذات الدقة في التشريع ، والحكمة في التحليل والتحريم ، ثم يأمرهم أمراً صريحاً بالأكل مما رزقهم الله من الطيبات ، غير مكثف بفهم ذلك من النهي السابق ، ويؤكد هذا كله بأمرهم بتقوى الله الذي هم به مؤمنون ، مشيراً بذلك إلى أن هذا من مقتضيات الإيمان .

وقد ذكر العلماء في سبب نزول هذه الآيات بعض الأحاديث ، منها ما خرجه

البخارى عن أنس قال : د جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم يسألون عن عبادته ، فلما أخبروا بها كأنهم تقالوها ، فقالوا : وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم ؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، قال أحدهم : أما أنا فإني أصلي الليل أبدا ، وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال آخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا . فجاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : د أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس منى ، وقد أرشد النبي صلى الله عليه وآله وسلم هؤلاء الـرهط الثلاثة إلى أن نهيه عن التبتل والانقطاع ، وأمره بتوفية النفس حقها من حظوظ الحياة في اعتدال وما شرحه من سنته في المداولة بين العبادات - كل ذلك لا يتنافى مع التقوى والخشية من الله ، فإنه صلى الله عليه وآله وسلم أتقاهم وأخشاهم ، ومع ذلك لا يفعل ما هموا أن يفعلوه ، ولا يرضى به سنة لأمته .

وهذا رسم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم للزامة طريقها الوسط . وكان شهيداً عليهم وفاصلاً بينهم برسم هذا الطريق ، وأيده فيه القرآن الكريم إذ أنزل هاتين الآيتين .

وفي ذلك يقول العلامة الطبرسى صاحب تفسير د مجمع البيان :

هذا استدعاء إلى التقوى بالطف الوجه ، وتقديره : أيها المؤمنون باقوا لا تضيعوا إيمانكم بالتقصير في التقوى ، فتكون عليكم الحسرة العظمى ، واتقوا في تحريم ما أحل الله لكم ، وفي جميع معاصيه من به تؤمنون ، وهو الله تعالى ، وفي هاتين الآيتين دلالة على كراهة التخلي والتفرد والتوحش ، والخروج عما عليه لجمهور من التأهل وطلب الولد ، وعمارة الأرض .

ويقول شيخ المفسرين العلامة الطبرى في هذا أيضا : د لا يجوز لأحد من المسلمين تحريم شيء مما أحله الله لعباده المؤمنين على نفسه من طيبات المطاعم والملابس والمناكح إذا خاف على نفسه بإحلال ذلك بها بعض العنت والمشقة ،

ولذلك رد النبي صلى الله عليه وآله وسلم التبتل على ابن مظعون ، فثبت أنه لا فضل في ترك شيء مما أحله الله لعباده ، وأن الفضل والبر إنما هو في فعل ما ندب عباده إليه ، وعمل به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وسنة لأمته ، واتبعه على منهاجه الأئمة الراشدون ، إذ كان خير الهدى هدى نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فإذا كان كذلك تبين خطأ من آثر لباس الشعر والصوف على لباس القطن والكتان إذا قدر على لباس ذلك من حله ، وآثر أكل الخشن من الطعام وترك اللحم وغيره ، حذرا من عارض الحاجة إلى النساء . . . فإن ظن ظان أن الخير في غير الذي قلنا لما في لباس الخشن وأكله من المشقة على النفس ، وصرف ما فضل بينهما من القيمة إلى أهل الحاجة ، فقد ظن خطأ ، وذلك أن الأولى بالإنسان صلاح نفسه وعونه لها على طاعة ربها ، ولا شيء أضر للجسم من المطاعم الرديئة لأنها مفسدة لعقله ؛ ومضغفة لأدواته التي جعلها الله سبيلا إلى طاعته ، وقد جاء رجل إلى الحسن البصري فقال : إن لي جاراً لا يأكل الفالودج ، فقال : ولم ؟ قال : يقول لا يؤدي شكره ، فقال الحسن : أفيشرب الماء البارد ؟ قال نعم ، فقال : إن جارك هذا جاهل ، فإن نعمة الله عليه في الماء البارد أكثر من نعمته عليه في الفالودج ! .

ه — ومن ذلك قوله تعالى : « يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد . وكلموا واثربوا ولا تسرفوا . إنه لا يحب المسرفين . قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من مهزق . قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة . كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون » .

فهاتان الآيتان الكريمتان جاءتا على مبدأ « الوسطية » الذي بيناه ، فهما تقرران حق الإنسان في الأكل والشرب واللباس والزينة والطيبات من الرزق على حسب البأس الذي يستقيم عليه شأنه فردا وجماعة ، والذي يؤدي به حظ الجسم والروح معاً ، وهما في الوقت نفسه توحيان ببعض القواعد والأصول التي تؤدي إلى تيسير الحياة على الناس ، وإلى ترقية المستوى البشري في الجانب المادى والروحي .

بيان ذلك أن هاتين الآيتين تقرران ما يأتي :

١ — أمر الناس بأن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد ، وقد روى علماء التفسير في هذا الموضوع أن أهل الجاهلية كانوا يطوفون بالبيت عراة ، يقولون : لا نطوف في ثياب عصينا الله فيها ، وفي رواية رواها مسلم والنسائي وغيرهما عن ابن عباس : أن النساء أيضا كن يطفن بالبيت عاريات ، إلا أن تجعل المرأة على سواتها خرقة ، وأن امرأة فعلت ذلك وهى تقول :

اليوم يبدو كله أو بعضه وما بدا منه فلا أحله

والواقع أن مسألة اللباس والزينة من المسائل التى اختلفت فيها عادات الناس وأذواقهم : اختلفوا فى أصلها ، واختلفوا فى مادتها وطريقة لبسها ، والذى يعيننا من ذلك الآن هو أن نذكر أن فريقا من البشرية يؤثرون « العرى » والتخلى عن الثياب عامة ، ونظن أن البشرية أخذت بهذا التقليد فى بعض عصور انحطاطها ، وأن سبب ذلك يرجع إلى سكنى الجبال والكهوف يوم كان الإنسان كهفيا جبليا ، ثم وجد فى الناس من يتفلسف فى هذا فيزعمه تخلصا من التكلف ، ورجوعا إلى الفطرة والطبيعة ، ويقول : إن الإنسان يولد عاريا ككل حيوان آخر ، فلماذا يتكلف اللباس ، ولماذا لا يبقى على الوضع الذى خلقه الله عليه كما تبقى الحيوانات الأخرى ؟ وهل يحجر عليه اللباس إلا تعقيدات هو فى غنى عنها لو ألف العرى والتجرد ؟ وهل جاء التفاوت الطبقي إلا من هذه الإضافات وأمثالها إلى الطبيعة المجردة ؟

ومن الناس من يفلسف « العرى » على نحو آخر - وقد بدأ هذا من فكرة الزهد والتقشف ، والميل إلى عبادة الله بالتجرد ، فإننا نرى مبدءا هذا فى المتصوفة حيث يكتبون بأيسر الثياب وبأدناها مادة ، فيلبسون الصوف لحشونته ، أو المرقعات لحقارتها والرغبة فى إذلال النفس وتعذيبها ، فانتقل بعض الناس من هذا إلى التخلص من الثياب كلها زاعمين أن ذلك قربان وتضحية وعبادة وإمعان فى حرمان النفس - وهؤلاء المشركون لهم أيضا فلسفة باطلة فى هذا ، كما تدلنا الرواية التى ذكرناها ، فهم يقولون : نتعري عند الطواف الذى هو عبادة وقربة ، لأن الثياب التى نلبسها هى ثياب صاحبتنا فى معاصينا وذنوبنا ، فليست جديرة بأن تصاحبنا فى عبادتنا وطوافنا .

وفي العالم الآن أقوام يؤثرون « العرى » ، إما لنشاطهم في بلاد صحيفة بعدين عن المدنية والتهذيب ، كـ بعض سكان أفريقيا ، وإما لمعان زعموها مبررة لذلك ، كالذين نسمع عنهم في أوروبا وأمريكا من أصحاب نوادي العراة ، الذين يتخذون أماكن لهم خاصة فيخلعون الثياب عند أبوابها ، ويدخلونها متجردين كما ولدتهم أمهاتهم ، ويختلطون على هذا النحو لا فرق بين رجل وامرأة ، ولا بين كبير وصغير ، وقد سمعنا أخيراً أنهم يحاولون عقد مؤتمر عام لهم في أى بلد من بلاد أوروبا أو أمريكا يجمع بين أرباب الجنسيات المختلفة منهم ، ويقررون فيه مبادئهم ويدعون العالم إليه ، ولكن الناس لم يسمعوا إليهم ، ولم يوجد أى بلد من بلاد العالم رضى أهله أو حكامه بأن يعقد فيه مثل هذا المؤتمر ، حتى ولو تعهد أصحابه بأن يعقدوه وهم في لباسهم كسائر الناس ، وذلك لأن مجرد السباح لهم بالمناقشة في هذا الأمر والدعوة له فيه خطورة على تقاليد الأدب والإنسانية الرفيعة المهذبة .

وقد قضى القرآن الكريم على هذا كله ، وأبطل كل اتجاه إليه ، سواء أكان اتجاهاً إلى فطرية مزعومة ، أم إلى فلسفة موهومة . وسلك إلى هذا كله سبيلاً يرجع الأمر فيه إلى أصله الأول منذ برز الإنسان إلى هذه الحياة ، وسكن هذا الكوكب ، فهذه الآيات جاءت في سورة « الأعراف » ، وقد عرضت هذه السورة إلى الحديث عن آدم وزوجه ، فذكرت أنه لما حان الوقت لخروجهما من الجنة بدت لهما سواتهما - أى عوراتهما - فطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وذلك يدل على أن طبيعة الإنسان الأول تنفر من انكشاف السواة ، وعلى أنهما حين كانا في الجنة كان عليهما ما يسترهما ، والجنة هي الدار المثلى ، فلو كان الأمثل بالإنسان أن يتعرى فيها لكان آدم وزوجه فيها عاريين .

ثم جاء في هذه السورة أيضاً قوله تعالى : « يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سواكم وريشاً ، ولباس التقوى ذلك خير ، ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون » . ومعنى إنزال اللباس الذي يواري السوات ، والريش الذي هو زينة زائدة على ذلك ومتاع فوق السترة : أن الله تعالى هبأ للإنسان ، ووجهه إليه منذ القدم ،

وجعل في طبيعته وفطرته استحسانه واتخاذَه والتفرد به عن الحيوان كظهور من مظاهر الكرامة الإنسانية، والسمو على الحيوانية البهيمية، تلك المظاهر التي أجملها القرآن الكريم في قوله تعالى: « ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر، ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً » - وقد جاء الإنزال بمعنى النهيئة والتحسين في غير هذا الموضع أيضاً، ومن ذلك قوله تعالى: « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » - وأما قوله تعالى: « ولباس التقوى ذلك خير »، فالمراد به تقرير الحقيقة في الجانب الروحي للإنسان، ومقابلة الجانب الجسدي بها، وهو تعبير مجازي أورد على طريقة المشاكلة لإحياء بأن للناس نوعين من اللباس والزينة، أحدهما: اللباس الحسي الذي يوارى السوات. ويبدى المحاسن الجسمية، والآخر: اللباس المعنوي الروحي الذي هو أعلى شأنًا، وأعظم خيراً من اللباس المادي، وفي كل خير.

وقد جاء في السورة بعد هذا: « يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما »، وتلك إشارة إلى أن اللباس خير وكال، ولذلك كان الشيطان الذي هو العدو الأكبر للإنسان، سبياً في نزعه عنهما، وتجريدهما منه، والعدو من شأنه أن يعمل الشر ويدبر السوء لعدوه، وإذن فالشر إنما هو في العري والتجرد.

بعد هذا كله تجيء الآية التي معنا: « يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد، والزينة قدر من التجمل فوق أصل اللباس، فالله تعالى يأمرنا أن نتجمل في حالة العبادة، لا أن نتجرد، فهو يقابل فلسفة المشركين وغيرهم التي تتخيل في التجرد من اللباس كله مرضاة الله، بفلسفة أخرى تقوم على أن العبادة قرب من العبد إلى الرب الذي هو الملك الأعظم، والشأن فيمن يقرب من الملك أن يتجمل ويتزين ولا يكتفى بأدنى لباس، فضلاً عن أن ينزع اللباس متجرداً.

وينبغي أن نلتفت في هذا كله إلى أن السورة وهي تتخذ السبيل التي بينها، قد حرصت على أن تحاطب بهذا كله « بني آدم »، فهي تناديهم في شأن هذه الحقيقة

بأعم عنوان وأشمله لأجناسهم وأجيالهم ، لأنها تقرر به معنى إنسانيا بشريا ، فلا تجعله مما يخاطب به فريق دون فريق ، ولذلك لم يأت التعبير بقوله « يا أيها الذين آمنوا » مثلا .
(ب) وتعطف الآية الكريمة على الأمر بأخذ الزينة عند كل مسجد أمراً آخر هو قوله تعالى : « وكلوا واشربوا » .

والأكل والشرب أمران طبيعيان يفعلهما الإنسان ، كما يفعلهما كل حيوان ، ولهذا يأتي في الذهن سؤال عن ذلك فيقال : لم أمر الله الإنسان بهما ؟ وهل الأشياء الطبيعية التلقائية أى التى تحدث من تلقاء نفسها ، تحتاج إلى أمر أو إرشاد ؟ والجواب : أن هذا الأمر إنما هو تهديد لما جاء بعده من قوله تعالى : « ولا تسرفوا » كأنه يقول : أدوا حق بشريتكم بتناول الطعام والشراب ولكن في حدود القصد وعدم السرف ، وقد جرى كثير من المفسرين على أن النهى عن الإسراف راجع إلى الأكل والشرب لاتصاله بهما . وعندى أنه راجع إلى اتخاذ الزينة عند كل مسجد أيضا ، فالله تعالى يأمر باتخاذ الزينة في غير سرف ، كما يأمر بالأكل والشرب في غير سرف .

والقرآن الكريم يأمر الناس بالاعتدال في ذلك وامتناله من كل تصرف يتصل بغرض الإنسان واتجاهه ، فيقول : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » ويقول : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط » ويقول : « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طبيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا » . وبمثل ذلك تأمر السنة والآثار المروية ، فيقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير خيلة ولا سرف » ويقول ابن عباس : « كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأك خصلتان : سرف وخيلة » .

والكلام في هذا معروف فلا نطيل فيه .

(ج) وتأتى الآية التالية بأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأن يسأل هذا السؤال الإنكارى : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » وفى هذا السؤال الإنكارى فوائد :

منها إنكار تحريم ما لم يحرم الله ، وهى قاعدة في الشريعة الإسلامية فيها تيسير

عظيم ، وفي إغفالها ضرر وتشديد ، فالأصل أن كل شيء من الأشياء مباح للناس ، وهذا الأصل مستمد من قوله تعالى : « خلق لكم ما في الأرض جميعا ، فلا يحل لإنسان أن يحرم شيئا إلا بدليل يدل على تحريمه ، وكل ما لم يتبين بالدليل أنه حرم واستثنى من أصل الحل والإباحة فهو باق على حكمه الأصلي في هذه القاعدة ، ويطبق هذا على كل ما يحدره الناس من المعاملات التي لم تكن متعارفة من قبل ، فلا يسوغ الحكم ببطلان معاملة منها إلا إذا ثبت أن هذه المعاملة محرمة بالدليل الشرعي ، لا بمجرد أقيسة المتفكرين ، أو تزمت الملتزمين .

ومنها : أن الله تعالى يضيف الزينة إليه فيقول : « زينة الله ، ولا شك أن هذه الإضافة تفيد أن الشارع لا يكتفي بمجرد إباحتها ، ولكنه يحبب فيها ، إذ يشرفها بهذه الإضافة ويرفع قدرها ، ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى بعد ذلك : « التي أخرج لعباده ، فإن هذا الوصف يراد به لفت الناس إلى أنها مقصودة لله تعالى ، ومقصود تيسيرها للناس بخلق موادها ، وتعليمهم طرق صناعتها والانتفاع بها ، وفي التعبير بقوله : « لعباده ، تأكيد بعد تأكيد ، إذ المراد به إشعار الناس بأن الله أخرج لهم هذه الزينة لأنهم عباده ، فهو يحبهم ويرحمهم ، ويريد أن ينعم عليهم ، ويسر لهم بشرع ما فيه مصلحتهم ، وما يرفع الحرج عنهم ، وما يجري مع طبيعتهم وفطرتهم .

ويقال مثل هذا في قوله تعالى : « والطيبات من الرزق » ، فإنه يفيد أن أساس حلها هو كونها طيبات لا ضرر فيها ولا ألم ، فليست مشتملة على ما يضر جسم الإنسان ، ولا هي اجتلبت من طريق غير مشروع حتى تضر بالمعاني الروحية ، وهي في الوقت نفسه « من الرزق » أي أنها صادرة من الله الرازق المنعم على حد ما سبق في قوله : « أخرج لعباده ، وإذا تأملنا هذا السؤال الإنكارى وجدناه متصلا في المعنى بالأمر السابق خذوا زينتكم ... وكلوا واشربوا ولا تسرفوا . كأنه قال : لما أمرتكم بهذا لأنني أخرجتها لكم وجعلتها طيبة حلالة ، وليس لأحد أن يحرمها عليكم .

ومن الفوائد التي نفيدها من ذلك : أن هذا المبدأ الإسلامي العظيم الذي هو تحبيب الزينة والطيبات من الرزق إلى الناس بهذا الأسلوب يقتضى أن الإسلام يريد من الناس ألا يكفؤوا في معيشتهم بمجرد ما يستر من اللباس ، وما بقيت من

الطعام والشراب ، ولكنه يطلب منهم أن يتطلعوا إلى مستوى في المعيشة أرق من ذلك هو إعطاء النفس حقها من المتاع الحسن ، ورفعها عن المستوى الحيواني الذي يكنى فيه أقل القوت وأدنى ما يحقق البقاء ، وذلك كله بشرط عدم الإسراف ، وابتغاء ما لا يخرج عن وصفه بأنه « زينة الله ، وبأنه « طيبات » .

ومن الفوائد أيضا : أن هذا المبدأ يقتضى أن يجتهد الناس وينشطوا في العمل والسعى ليحققوا لأنفسهم مستوى عاليا محترما في العيش ، وأن هذا النشاط والجد من شأنهما أن تزدهر الصناعة والابتكار في ظلهما ، وأن تفيده بذلك الحضارة والمدنية تقدما ورقيا ، فإن الناس سيندفعون في هذه السبيل اندفاعا يجعلهم متنافسين متسابقين ، كل يريد أن يرقى ويحيا حياة سعيدة ، فهو يعمل ويشمر ويتكبر ويحاول أن يسبق ويتقدم ليفوز ، وهذا معترك شريف ، وميدان يرضى الله التنافس فيه ، ما دام في حدود ما رسم الله من عدم الإسراف والخروج عما أباح ، وقد جاءت خاتمة الكلام في شأن هذا المبدأ متفقة مع ذلك حيث يقول الله عز وجل : « قل هي ، أى الزينة والطيبات من الرزق » للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، وعندى أن معنى ذلك : أن الزينة والطيبات من الرزق هي متاع مباح في الدنيا للؤمنين مع كونه خالصا يوم القيامة ، أى لا لائم فيه يحاسبون عليه يوم القيامة فيشوب لذتهم به وانتفاعهم ، وإنما كان ذلك خاصا بالؤمنين ، لأنهم هم الذين يراعون الحدود ، ولا يخرجون على ما رسم الله ، ويعرفون كيف يتمتعون بما أخرج الله لعباده من الزينة ، وبما رزقهم من الطيبات - أو المفروض أنهم هم الذين يقصدون إلى ذلك ولا يميلون عنه - أما غير المؤمن فهو لا يعرف إلا أنه يرضى متاعه دون التفات إلى مراعاة حق النعمة ، ولا حق المنعم .

هذا هو منهج الإسلام في اللباس والزينة والطعام والشراب والطيبات من الرزق عامة : لا تحريم لما أخرج الله لعباده ، ولا إسراف ولا التماس لغير الطيبات ، ولا تخرج من تطلب المتاع الحسن من وجوهه المشروعة ، ولا بأس بالتنافس في سبيل التقدم والرقى تنافسا شريفا من شأنه أن يرفع مستوى البشر ، ويحقق إلى جانب ذلك سموهم الروحى ، وكاملهم الخلق ؟

[للبحث بقية]

الربا في نظر القانون الإسلامي

لمضرة صاحب الفضيلة المغفور له الدكتور محمد عبد الله دراز

كانت مجلة (رسالة الإسلام) قد نشرت بالعدد الرابع من السنة الثالثة بحثاً للمغفور له الدكتور محمد عبد الله دراز بعنوان (الربا في نظر القانون الإسلامي) وقد توفي الدكتور رحمه الله وهو يؤدي واجب الدفاع عن الإسلام في المؤتمر الإسلامي الذي انعقد في الباكستان سنة ١٩٥١ م ، وكان قد أعد بنية لهذا البحث ، وأوصى بإلحاقها به ، وعلينا ذلك من أحد أبنائه .
فنحن نحقق رغبة الفقيد العظيم ونعيد نشر البحث مضافاً إليه الجزء الذي لم ينشر حتى يكون بين أيدي القراء كاملاً غير منقوص .
وكانت وفاة الفقيد فجأة في مساء الاثنين ١٦ من جمادى الآخرة سنة ١٣٧٧ هـ (الموافق ٦ من يناير سنة ١٩٥٨ م) .
رحمه الله ، وجزاه عن دينه وأمته خير الجزاء . [المحرر]

— ١ —

مقدمة تاريخية :

قبل أن أعرض على أنظاركم وجهة نظر الإسلام في الربا ، أئذن لي يا جناب الرئيس ويا حضرات السادة والسيدات ، أن أقول كلمة موجزة عن وضع المسألة في طائفة من التشريعات السابقة ، مدنية كانت أم دينية .

مصر في عهد الفراعنة :

يلوح أن قدماء المصريين لم يكونوا يحظرون الربا حظراً صارماً ، بل وضعوا له نظاماً وقواعد تحد من أضراره ؛ ونحن ، وإن لم يصل إلينا نبأ هذه القواعد في جملتها ، فقد نعلم بعض الشيء عنها .

هذا « ديودور » المؤرخ الإغريقي يحدثنا مثلاً عن القانون الذي وضعه الملك « يوخور يوس » من ملوك الأسرة الرابعة والعشرين ، والذي يقضى بأن الربا مهما تطاولت عليه الآجال لا يجوز أن يصل إلى مقدار رأس المال .

أثينا وروما :

أما في الدولتين الإغريقية والرومانية فإن الربا - قبل ظهور الإصطلاحات التي وضعها صولون ، المشرع الإغريقي ، وقبل الإصطلاحات التي وضعها مؤلفو (الآلواح الاثني عشر) في روما - كان شائعاً بدون قيود ولا حدود ، وكان العرف^(١) الجارى في كلتا المملكتين أن المدين إذا لم يوف دينه أصبح هو نفسه ملبكا للدائن . فجاء تشريع صولون ، قاضيا على هذه العادة الشنيعة ، حيث قرر أن تكون مسؤولية المدين في ماله وذمته ، لا في شخصه ورقبته . كما أنه حدد النهاية القصوى التي يمكن أن تبلغها فوائد الدين ، يقال إنه حددها بنسبة ١٢ ٪ من رأس المال . وكذلك صنع واضعو الألواح الاثني عشر في روما ، وبقيت هذه النسبة محفوظة في التشريع الروماني حتى جاء « جستينيان » فجعلها تدور بين ١٢ ٪ للتجار وأمثالهم ، و ٤ ٪ للنبلاء .

هذه التشريعات كلها لم تظهر إلا في أعقاب اضطرابات وحروب داخلية مستمرة بين الأغنياء والفقراء في تلك الشعوب ، فكانت هذه الإصلاحات علاجا وقتياً لتلك المشاكل الاجتماعية الخطيرة التي ولدتها هذه الوضعية الربوية .

هكذا مهما نصعد بنظرنا في تاريخ التشريعات المدنية القديمة ، نجد أن مبدأ التعامل بالربا كان سائغاً فيها ، وأنه كانت توضع له في بعض الأحيان نظم تحميها إذا لم يجاوز حداً معلوماً .

إسبارطة :

غير أن مدينة إسبارطة تبدو لنا في صورة استثناء من هذه القاعدة العامة ؛ إذ لا يعرف في تاريخها أنها تعاملت بالربا أو أنها نظمتها ، وقد يرجع السر في ذلك إلى أنها - من جهة - لم تكن ذات طابع تجارى واضح ، حتى إنها لم يكن لها نظام نقدى ، بل كانت عمدتها الرئيسية في التعامل هي المبادلة والتقايط ، ومن جهة أخرى

(١) وكذلك جرى العرف في كلتا الدولتين بأن الفائدة السنوية يؤديها المدين على أقساط شهرية . قارن هذا بعادة العرب في الجاهلية أيضاً ، كما سيأتيك نبؤه قريباً .

فإن قانونها لم يكن يحول للغرباء الذين يحملون نقود بلادهم أن يدخروا الذهب والفضة ، ومن عرف عنه أنه يكتنز شيئاً منها كان جزاؤه الإعدام .

اليهودية والنصرانية :

فاذا ما انتقلنا الآن من المنظّمات المدنية إلى التشريعات الدينية ، فإننا نشهد ظاهراً جديده في تاريخ التشريع في هذا الشأن ، فبعد أن كنا نرى التعامل بالربا في الشرائع غير الدينية أمراً سائفاً في حدود واسعة أو ضيقة ، نرى التشريعات السهاوية تتجه به نحو الحظر والتحريم الكلي .

هكذا نقرأ في كتاب العهد القديم : « إذا أقرضت ما لا لأحد من أبناء شعبي ... فلا تقف منه موقف الدائن : لا تطلب منه ربحاً لمالك » (الآية ٢٥ من الفصل ٢٢ من سفر الخروج) وفي موضع آخر : « إذا افتقر أخوك فاحمله ... لا تطلب منه ربحاً ولا منفعة » (الآية ٣٥ من الفصل ٢٥ من سفر اللاويين) .

وكذلك نقرأ في كتاب العهد الجديد : « إذا أقرضتم لمن تنتظرون منهم المكافأة فأى فضل يعرف لكم ؟ ... ولكن ... افعلوا الخيرات وأقرضوا غير منتظرين عائدتها . وإذا يكون ثوابكم جزيلاً » (الآيتان ٣٤ ، ٣٥ من الفصل ٦ من انجيل لوقا) ولقد أجمع رجال الكنيسة ورؤساؤها ، كما انفقت مجامعها على أن هذا التعليم الصادر من السيد المسيح عليه السلام يعدّ تحريماً قاطعاً للتعامل بالربا ، حتى إن الآباء اليسوعيين الذين يهتمون غالباً بالميل إلى الترخّص والتساح في مطالب الحياة وردت عنهم في شأن الربا عبارات صارمة ، منها قول سكوبار : « إن من يقول إن الربا ليس معصية يعدّ ملحدّاً خارجاً عن الدين ، وقول الأب بوني : « إن المرابين يفقدون شرفهم في الحياة الدنيا ، وليسوا أهلاً للتكهن بعد موتهم » (١) .

أوروبا المسيحية :

هذه النظرة الدينية أقرها القانون المدني الأوروبي في سنة ٧٨٩ (مرسوم إيكس لاشابيل) وبقيت هي المذهب الوحيد في أوروبا طوال القرون الوسطى ،

(١) انظر بانكال في مراسلاته الإقليمية ، الخطاب الثامن Pascai Les Ptovinciales

ولكنها بدأت تفقد مناعتها شيئاً فشيئاً منذ عصر النهضة ، على أثر الاعتراضات المتكررة التي وجهت إليها بين القرنين السادس عشر والثامن عشر م. (كالقانون إلى (مونتيسكيو) . وكان لهذا الضعف مظهران : مظهر عملي ، ومظهر تشريعي . فأما المظهر العملي فهو أن بعض الملوك والرؤساء الدينيين أنفسهم أخذوا يجترئون على انتهاك هذا التحريم علناً . من ذلك أن (لويس الرابع عشر) اقترض بالربا ليسدد ثمن دانكرك في سنة ١٦٦٢ ، وأن البابا (بي التاسع) تعامل بالربا في سنة ١٨٦٠ . وأما المظهر التشريعي : فهو أنه منذ آخر القرن السادس عشر (١٥٩٣) وضع استثناء لهذا الحظر في أموال القاصرين^(١) ، فصار يباح تسميرها بالربا بإذن من القاضي .

أما الضربة القاضية التي وجهت إلى هذه النظرة الدينية فقد حملتها إليها الثورة الفرنسية حيث احتضنت المذهب المعارض وجعلته مبدأ رسمياً منذ قررت الجمعية العمومية في الأمر الصادر بتاريخ ١٢ أكتوبر سنة ١٧٨٩ أنه يجوز لكل أحد أن يتعامل بالربا في حدود خاصة يعينها القانون .

ولاد العرب قبل الإسلام :

لم يكن قد بق لعرب الجزيرة في الجاهلية من التراث الديني الذي تركه جدهم أبو الأنبياء، إبراهيم عليه السلام ، إلا آثار قليلة لا تخلو من التحريف ، ولذلك لم يفتشوا يتبعون أهواءهم ونزعاتهم المادية في أكثر عباداتهم ومعاملاتهم . وكان من ذلك تعاملهم بالربا بدون قيد من عرف ولا تشريع ، ولعل مرد هذا (أولاً) إلى نزعة الاستكثار وحب الكسب التي تنمو عادة في البيئات التي تزدهر فيها التجارة ، كما كان هو الحال في مكة (وثانياً) إلى علاقتهم المستمرة باليهود ، الذين هم جيرانهم وأبناء عمومهم .

ولعلكم تعجبون أن تكون مجاورتهم لشعب ذي شريعة سماوية تحرم الربا

(١) قارن هذا بالرخصة التي أخذت بها المحاكم في عهد الدولة العثمانية ، اعتماداً على انتهى الواردة في كتب الحنفية .

سبباً في تشجيعهم على التعامل به ، ولكن الذي يزيل هذا العجب أن نعرف أن هذه الديانة نفسها - حسباً ورد في كتب أهلها - تبيح الربا كما تحرمه ، نعم لقد سقنا آنفاً شواهد التحريم من نصوص التوراة ، ولكننا وأسفاه نجد فيها نصاً آخر يقيد هذا التحريم ويجعله خاصاً بالشعب العبراني . بحيث يسوغ لليهودى أن يأخذ الربا من غير اليهودى ^(١) (الآية ٢٠ من الفصل ٢٣ من سفر التثنية) ولما لم يكن في هذا النص تحديد قانوني لقدر الربا المأذون فيه كان ذلك فتحاً لباب الاستغلال المالى على مصراعيه بحيث يدخله أشد أنواع الربا فداحة وإفراطاً .

هكذا كان هذا النص المنسوب للقانون الموسوى سبباً فيما نرى - أو جزءاً كبيراً من السبب - لا في بقاء التعامل بالربا في العالم إلى اليوم فحسب ، بل في تهوين أمره على كثير من النفوس ، واتخاذهم إياه أمراً مشروعاً في بعض الأحوال .

ومهما يكن من أمر فقد اعتاد العرب في عصور الوثنية أن يقترضوا بالربا من اليهود ، وأن يتقارضوا به فيما بينهم ، دون أن يجدوا فيه حرجاً ولا غشاضة . وقد عرفت لهم في ذلك أنواع مختلفة من العقود الربوية . وأكثرها انتشاراً فيما بينهم كانت تبدأ المحاسبة فيه - على ما يظهر - من السنة الثانية ؛ بمعنى أن الدائن لا يطلب من مدينه شيئاً وراء رأس المال إذا وفاه دينه في أجله المعلوم . فإن لم يستطع أداءه في ذلك الأجل اتفقا على تأجيله سنة ثانية في مقابل زيادة يختلف مقدارها على حسب التراضى بينهم ، ونضرب مثلاً : مديناً كان عليه أن يسلم للدائن في أجل كذا حيواناً سنه ثلاث سنوات ، فإذا لم يدفعه إليه في ذلك الموعد أجله إلى السنة القابلة ، لكن الحيوان يجب أن يكون سنه إذ ذاك أربع سنوات ، ولقد كانت تصل الزيادة في بعض الأحيان إلى قدر رأس المال في آخر السنة الثانية فتصبح المائة مائتين ؛ فإن لم يؤد تضاعف رأس المال والفائدة معاً فيصيران أربعمائة في آخر السنة الثالثة وهكذا .

(١) معروف رد القرآن « في الآيتين ٧٥ و ٧٦ من السورة الثالثة » على هذه الدعوى التي لا تدع لقانون الفضيلة إلا مجالاً محدوداً للتطبيق ؛ مع أن مبادئ الأخلاق يجب أن تكون عالمية لا حدود لها من جنس ولا لون ولا عقيدة ولا إقليم .

وضرب آخر من هذه العقود : أن يدفع الدائن لمدينه قدرأ من المال لسنة ، على أن يأخذ منه فائدة معينة كل شهر ؛ فإذا جاء آخر السنة ولم يرد رأس المال اتفقا على فوائد أخرى للتأخير .

البلاد الإسلامية في العصر الحاضر :

لقد جاهد الإسلام والمسيحية قروناً متطاولة لا لمنع قانونية الربا لحسب ، بل لمنع التعامل به إطلاقاً .

بيد أننا رأينا آنفا كيف انتهى الأمر بالثورة الفرنسية في آخر القرن الثامن عشر أن قضت على هذه المقاومة في أوروبا ، وأقرت النظام الذي بقي فيها منبوذاً طوال ألف عام كاملة .

وكان طبيعياً أن تؤدي العلاقات المستمرة بين أجزاء العالم القديم إلى انتشار هذه الفكرة المادية رويداً رويداً وانتقالها إلى خارج أوروبا . وهكذا لم ينتصف القرن التاسع عشر إلا وقد سرت عدواها إلى البلاد الإسلامية ، فبدأ بعض المسلمين يتعاملون بالربا لا لإقراضاً ، بل اقراضاً ؛ ثم اتسع الأمر وشاع عملياً ؛ مع بقائه محظوراً قانونياً ، ثم دخل الإذن به في دائرة التشريع تحت ضغط السلطات الأوروبية المحتلة للأقطار الإسلامية ؛ وبقيت الشعوب الإسلامية نفسها مدة طويلة متمردة على فكرة تأسيس مصارف وطنية تكون مهمتها التصرف في جميع المعاملات المالية التي منها القرض بفائدة .

ونذكر فيما يتعلق بمصر على الخصوص أن هذه المقاومة الشعبية بدأت تضمحل في أول هذا القرن العشرين ؛ بسبب حادث تاريخي خاص أثار فيها أزمة مالية وأزمة نفسية في وقت واحد . نعم لقد حدث إذ ذاك أن امتنعت المصارف الأجنبية المؤسسة في مصر عن مد يدها بالقرض إلى الشعب المصري ، فأصبح الشعب وقد وجد نفسه أمام محظورين لا مخرج له منهما : إما أن يلجأ إلى المرابين الذين ليس في قلوبهم رحمة يقترض منهم بأفدح الربا وأخطره ، وإما أن ينشئ شركة مالية برءوس أموال وطنية خالصة ، يقترض منها المحتاجون بشروط غير مجحفة .

ومالت بعض النفوس إلى اختيار الشق الثانى، غير أنه وقفت أمامها اعتبارات دينية قوية . إذ كيف تقوم في بلد إسلامى مؤسسة مالية مخالفة لقواعد القرآن ؟ . هنالك فتح باب المناقشة في الصحف وفي الأندية المختلفة ، وألقيت سلسلة من المحاضرات ^(١) عرضت فيها مختلف الآراء في الموضوع من حيث تحقيق المبدأ الإسلامى ؛ فالتقت آراء أكثر المحاضرين على رفض المشروع من الوجهة الدينية . غير أن فريقا (منهم الكاتب المشهور المرحوم حفى ناصف ، والزعيم السياسى الوطنى المرحوم عبد العزيز جاويش) أيدوا الفكرة معتمدين على نص قرآنى في دعوى أن الربا المحظور في الإسلام بالنص والإجماع إنما هو الربا الذى يصل إلى مثل رأس المال أو يزيد عليه ، وأن كل ربح ينقص عن مقدار رأس المال فهو محل بحث واختلاف في نظرهم .

— ٢ —

حقيقة حكم الربا في الإسلام

أخذاً من المصادر الأولى للتشريع

هكذا نصل من طريق هذه النظرة التاريخية إلى صميم الموضوع القانونى . ما حقيقة الأمر في نظر الشريعة الإسلامية ؟ هل الإسلام يبيح الربا اليسير ؟ سأسرد على مسامعكم ، أيها السادة والسيدات ، نصوص الشريعة الإسلامية من منابعها الأولى ، تاركا لكم أن تستخلصوا منها الجواب بأنفسكم .

(١) القرآن :

ولقد يكون من المفيد في صدر هذا البحث أن نذكر أنفسنا بطبيعة المنهج التعليمى في القرآن ، حينما يكون بصدد محاربة بعض الرذائل التى تأصلت في العرف العام ، والتى توارثتها الأجيال خلفا عن سلف ، في أحقاب متطاولة .

ذلك أن القرآن في معالجته لهذه الأمراض المزمنة لا يأخذها بالعنف

(١) كان ذلك في شهر ربيع الأول سنة ١٣٢٦ هـ (سنة ١٩١٣ م) .

والمفاجأة ، بل يتلطف في السير بها إلى الصلاح على مراحل مترتبة ، متصاعدة ، حتى يصل بها إلى الغاية .

كلنا نعرف ما كان منه في شأن الخمر ، وأنه لم يبطله بحجة قلم ، بل لم يحرمه تحريماً كلياً إلا في المرحلة الرابعة من الوحي . أما المرحلة الأولى (التي نزلت في مكة) فإنها رسمت الوجهة التي سيسير فيها التشريع . وأما المراحل الثلاث (التي نزلت بالمدينة) فكانت أشبه بسُلّم : أولى درجاته بيانُ مجرد لآثار الخمر ، وأن إثمهُ أكبر من نفعه والدرجة الثانية تحريم جزئى له ، والثالثة تحريمه التحريم الكلى القاطع .

فهو يطيب لكم أن تدرسوا معي المنهج التدريجي الذي سلكه القرآن في مسألة الربا ؟ .

لأنه لمن جليل الفائدة أن نتابع هذا السير لنرى انطباقه التام على مسلكه في شأن الخمر ، لا في عدد مراحل خسب ، بل حتى في أماكن نزول الوحي ، وفي الطابع الذي تنسم به كل مرحلة منها .

نعم ، فقد تناول القرآن حديث الربا في أربعة مواضع أيضاً ، وكان أول موضع منها وحياً مكياً ، والثلاثة الباقية مدنية ، وكان كل واحد من هذه التشريعات الأربعة متشابهاً تمام التشابه لمقابلته في حديث الخمر .

ففي الآية المكية يقول الله جلّت حكمته : « وما آتيتم من ربا ليروا في أموال الناس فلا يروا عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون » (سورة ٣٠ - آية ٢٩) هذه كما ترون موعظة سلبية : إن الربا لا ثواب له عند الله . نعم ، ولكنه لم يقل إن الله ادخر لآكله عقاباً . وهذا بالضبط نظير صنيعه في آية الخمر المكية (١٦ / ٦٧) حيث أوماً برفق إلى أن ما يتخذ سكرّاً ليس من الرزق الحسن ، دون أن يقول إنه رجس واجب الاجتناب ، ومع ذلك فإن هذا التفريق في الأسلوب كان كافياً وحده في إيقاظ النفوس الحية ، وتنبهها إلى الجهة التي سيقع عليها اختيار المشرع الحكيم .

أما الموضوع الثاني فكان درساً وعبرة قصصاً علينا القرآن من سيرة اليهود

الذين حرم عليهم الربا فأكلوه وعاقبهم الله بمعصيتهم ، وواضح أن هذه العبرة لا تقع موقعها إلا إذا كان من ورائها ضرب من تحريم الربا على المسلمين ، ولكنه حتى الآن تحريم بالتلويح والتعريض لا بالنص الصريح ، ومهما يكن من أمر فإن هذا الأسلوب كان من شأنه أن يدع المسلمين في موقف ترقب وانتظار لنهى يوجه إليهم قصداً في هذا الشأن ؛ نظير ما وقع بعد المرحلة الثانية في الخمر (٢ / ٩) حيث استشرفت النفوس إذ ذاك إلى ورود نهى صريح فيه ؛ وقد جاء هذا النهى بالفعل في المرحلة الثالثة ولكنه لم يكن إلا نهياً جزئياً : في أوقات الصلوات (٤ / ٤٣) وكذلك لم يجهى النهى الصريح عن الربا إلا في المرتبة الثالثة ، وكذلك لم يكن إلا نهياً جزئياً ، عن الربا الفاحش : الربا الذى يتزايد حتى يصير دأباً مضاعفة ، ^(١) (٣ / ١٣٠) .

وأخيراً وردت الحلقة الرابعة التى ختم بها التشريع فى الربا (بل ختم بها التشريع القرآنى كله على ما صح عن ابن عباس) وفيها النهى الحاسم عن كل ما يزيد عن رأس مال الدين حيث يقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله . وإن تبتم فلكم رموس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون . وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون . واتقوا يوماً ما ترجون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » ، (٢ / ٢٧٨ - ٢٨١) .

هذه أيها السادة والسيدات نصوص التشريع القرآنى فى الربا مرتبة على حسب تسلسلها التاريخى .

وإنكم لترون الآن أن الفئة التى تزعم أن الإسلام يفرق بين الربا الفاحش وغيره ، وهى فئة من المتعلمين الذين ليس لهم رسوخ قدم فى علوم القرآن ، لم تكف بأنها خالفت لإجماع علماء المسلمين فى كل العصور ، ولا بأنها عكست الوضع المنطقى

(١) هذا هو النص الذى اعتمد عليه أصحاب نظرية الرخصة فى الربا اليسير ، وسنرى تفسيره قريباً .

المعقول حيث جعلت التشريع الإسلامي بعد أن تقدم إلى نهاية الطريق في إتمام مكارم الأخلاق يرجع على أعقابه ويتدلى إلى وضع غير كريم ؛ بل إنها قلبت الوضع التاريخي ، إذ اعتبرت النص الثالث مرحلة نهائية ، بينما هو لم يكن إلا خطوة انتقالية في التشريع : لم يختلف في ذلك محدث ولا مفسر ولا فقيه .

على أننا لو فرضنا المحال ووقفنا معهم عند هذا النص الثالث ، فهل نجد فيه ربحاً لقضيتهم في التفرقة بين الربا الذي يقل عن رأس المال ، والربا الذي يزيد عليه ، أو يساويه ؟

كلا ، فإنه قبل كل شيء لا دليل في الآية على أن كلمة الأضعاف شرط لا بد منه في التحريم ، إذ من الجائز أن يكون ذلك عناية بدم نوع من الربا الفاحش الذي بلغ مبلغاً فاضحاً في الشذوذ عن المعاملات الإنسانية ، من غير قصد إلى تسوية الأحوال المسكوت عنها التي تقل عنه في هذا الشذوذ . ومن جهة أخرى فإن قواعد العربية تجعل كلمة « أضعاف » في الآية وصفا للربا لا لرأس المال ، كما قد يفهم من تفسير هؤلاء الباحثين . ولو كان الأمر كما زعموا لكان القرآن لا يحرم من الربا إلا ما بلغ ٦٠٠ ٪^(١) من رأس المال . بينما لو طبقنا القاعدة العربية على وجهها لتغير المعنى تغيراً تاماً ، بحيث لو افترضنا ربحاً قدره واحد في الألف أو المليون لصار بذلك عملاً محظوراً غير مشروع بمقتضى النص الذي يتمسكون به .

أما القول بأن العرب قبل الإسلام لم يكونوا يعرفون إلا الربا الفاحش الذي يساوي رأس المال أو يزيد عليه فإنه لا يصح إلا إذا أغضنا أعيننا عما لا يحصى من الشواهد التي نقلها أقدم المفسرين وأجدرهم بالثقة . ولقد كان الشعب العبراني - الذي يعيش والشعب العربي في صلة دائمة منذ القدم - يفهم من كلمة الربا كل زيادة

(١) ذلك لأن الربا الذي يكون أضعاف رأس المال « بصيغة الجمع » لا بد أن يصل إلى ثلاثة أمثال رأس المال ، فإذا ضوعفت هذه الأضعاف الثلاثة كان ستة أمثاله ، وذلك ما لم نره في معاملة أجشع المرايين ، ولم نسمع به في تفريع سابق ولا لاحق ، فيكون القرآن على رأيهم متخلفاً عن جميع القوانين في هذا الشأن .

على رأس المال . قلت أو كثرت . وهذا هو المعنى الحقيقى والاشتقاقى للكلمة ، أما تخصيصها بالربا الفاحش فهو اصطلاح أوربى حادث ، يعرف ذلك كل مطلع على تاريخ التشريع .

وبعد فإننا لا نستطيع أن نطيل الوقوف عند هذا النص الانتقالى ، لأن الذى يعنى رجل القانون فى تطبيق الشرائع إنما هو دورها الأخير . وقد بينا أن الدور الأخير فى موضوعنا إنما تمثله الآيات التى تلونها آتفاً من سورة البقرة . كما رأينا أن الشريعة القرآنية تتجه كلها منذ البداية إلى استنكار كل تعويض يطلب من المقرض . أفلا يكون من التناقض أن هذه الشريعة التى تضع الإحسان إلى الفقير فى أبرز موضع من قانونها ، والتى تحت على إنظار المعسر ، أو على ترك الدين له ، تعود فتأخذ منه بالشمال ما منحتة باليمين ، إذ تأذن للغنى بأن يطالبه ببعض الزيادة على الدين ؟

(ب) السنة :

إلى جانب هذه النصوص القرآنية . نجد فى بيان السنة النبوية ما هو أكثر تفصيلاً وأشد صرامة ، فإن الرسول صلوات الله عليه لم يكثف بتحريم الربا على آكله كما ورد فى القرآن الكريم ، ولم يكثف بجعل المعطى والآخذ والكاتب والشاهد سواء فى اللعن والإجرام ، بل إنه أحاط هذه الجريمة بنطاق من الذرائع والملايسات جعلها حى محرماً تحريم الوسائل الممهدة إلى الحرمة الأصلية .

والطريف فى أمر هذه الإضافة أنه جعل التحريم فيها على مراتب متفاوتة فى تدرج حكيم ينتقل من الخطر الكلى إلى الإباحة التامة رويداً رويداً ماراً بكل المراتب المتوسطة بينهما .

هذه القاعدة الجديدة ليس موضوعها القروض ، ولا الديون المنقورة ، بل عقود البيع ، أو بالأحرى المقايضات ، فبعض هذه المقايضات حظر الرسول الحكيم أن تكون مؤجلة ، ولو بدون ربح ؛ وأن يؤخذ فيها

ريح^(١) . ولو كانت يدأ بيد ، وبعضها منع التأجيل فيها دون التفاضل ؛ وبعضها لم يمنع فيها واحداً منهما .

والإكم نص التشريع المذكور في شأن المقايضات :

يقول صلى الله عليه وآله وسلم فيما رواه البخارى ومسلم وغيرهما : « الذهب بالذهب ، والفضة بالفضة »^(٢) ، والقمح بالقمح ، والشعير بالشعير ، والتمر بالتمر ، والملح بالملح ، يدأ بيد ، سواء بسواء . فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يدأ بيد .

وقف أهل الظاهر بهذا الحظر عند الأنواع الواردة في الحديث . وذهبت سائر المدارس الفقهية إلى اعتبار هذه الأنواع أمثلة من قاعدة عامة تنطبق على سائر المواد التي تقوم عليها الحياة ، والتي مردها - في رأى الراجح عند الفقهاء - إلى نوعين : الأثمان ، والمطعومات .

ومهما يكن من أمر في شأن هذا الاختلاف الفرعى ، فإن هذه القاعدة تقضى بتقسيم الأشياء التي يراد تبادلها إلى ثلاثة أضرب :

الضرب الأول : أن يكون البدلان من نوع واحد ، كالذهب بالذهب ؛ فهنا ينحصر التبادل لشرطين اثنين : التساوى فى الكم ، والفورية فى التبادل ، أعنى عدم تأجيل شيء من البدلين .

الضرب الثانى : أن يكونا من نوعين مختلفين من جنس واحد ، كالذهب بالفضة ، وكالقمح بالشعير ، فهنا يشترط شرط واحد ، وهو الفورية ، فلا يضر اختلاف الكم .

الضرب الثالث : أن يكونا من جنسين مختلفين كالفضة والطعام ، فلا يشترط فى هذا شيء من القيدين المذكورين . بل يكون التفاضل بينهما حراً .

(١) هذا المفظور « الذى يسميه جمهور الفقهاء ربا الفضل ، ويسميه ابن القيم الربا الحفى » كان موضع اختلاف بين الصحابة ، وكان جمهورهم على القول بجرمته ، أما بعض الباحثين المصريين الذين ظنوا أن هذا الاختلاف كان فى شأن الربا القليل فقد انتقل لظرم والتبس عليهم الأمر التباساً يؤسف له .

(٢) وفى رواية أخرى : « الدرهم بالدرهم ، والدينار بالدينار الخ » ويلوح أن هذه للرواية هى التى اعتمد عليها معاوية فى فتواه ، انظر الحاشية الآتية قريباً .

هكذا كلما كان البدلان من طبيعتين مختلفتين تمام الاختلاف ، بحيث لا توجد شبهة القصد إلى القرض بفائدة ، فإن الشريعة لا تضع أمام حرية التبادل حداً من الحدود ، اللهم إلا المبدأ العام في المعاملة ، وهو تحرى الصدق والأمانة . فإذا ما أخذت طبيعة البدلين تتقارب ، بدون أن تتحد ، نرى عند المشرع شيئاً من الحذر المعقول ، المبني على احتمال أن يكون المتعاملان يقصدان إلى معاملة ربوية ؛ ولذلك نجده مع ترخيصه لهما بتفاوت البدلين في الكم يحظر عليهما تأجيل أحد العوضين ، سدّاً للطريق أمام فكرة القرض المحرم تحت ستار البيع . أما إذا اتحدت طبيعة البدلين (مع التفاوت في الأوصاف والقيم طبعاً ، وإلا لما كان هناك معنى للتبادل) فإنه من السهل أن نفهم الحكمة التي من أجلها منع تأجيل البدل ، وذلك أن من شأن هذا التأجيل أن يحمل في طيه فكرة محظورة ، وأن يكون القصد هو القرض باسم البيع .

ولكن الذى يصعب فهمه هنا هو إلزام المتبادلين في حال الدفع على الفور بأن تتساوى الكيئتان المتبادلان بينهما . فهل معنى ذلك أن الشريعة تتجاهل إلى هذا الحد فروق الكيفيات التي في كل من العوضين ؟ .

إن الجواب على هذا السؤال نجد مفتاحه في الحديث الذى رواه مسلم في جامعه الصحيح . يروى لنا هذا الإمام أن رجلاً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بشيء من التمر . فقال له النبي : « ما هذا من تمرنا » فقال الرجل : يا رسول الله بعنا تمرنا : صاعين بصاع . فقال صلى الله عليه وآله وسلم : « ذلك الربا . ردّوه ، ثم بيعوا تمرنا . ثم اشترؤا لنا من هذا » .

ها هنا نلح الهدف الذى ترمى إليه القاعدة ، ونظمتن إلى أنه ليس من شأنها أن تفرض على المتبادلين - اعتباطاً أو تعنتاً - تساوى الكمية بين صنفين مختلفين من نوع واحد ، بل لأنها على العكس من ذلك فتحت لهما باب الاختيار بين أمرين يتمتع معهما كل قهر وإلزام ؛ حيث خيرتهما بين أن يتفاضيا عن الفروق الطفيفة التي بين الصنفين ، أو أن يلجأ في تقدير تلك الفروق إلى حكم القيمة النقدية .

ونحن إذا تأملنا في هذا الوضع نجد أنه ينطوي على حكمة عميقة ويقوم على مبدأ سليم من مبادئ التشريعين المدني والاقتصادي . ذلك أنه حيث يكون هناك كيتان متساويتان من نوع واحد ، ولكن إحداها تمتاز بجودة أو صافها ، لا يكون هناك مجال للتردد : أى المتبايعين أوفر حظا ؟ فالذى يقبل الصنف الأقل جودة يقبله بملء حريته عن سماحة نفس وكرم طبع ، وهو عالم بما يفعل . وليس الأمر كذلك في الحال التي تكون فيها الجودة من ناحية يقابلها وفرة في الكم من الناحية الأخرى ؛ إذ نرى ها هنا تقابلا بين أمرين ليس بين طبيعتهما مقياس مشترك ثابت صالح لتقويم كل منهما بالنسبة إلى هذا الحد المشترك ، ثم بالنسبة إلى الطرف القابل والواقع أنه في هذا النوع من التبادل يلجأ كل من المتعاملين في نفسه إلى فكرة غامضة ، وهي إرادة التضحية بما هو أدنى في سبيل ما هو خير منه . وهكذا يصبح قبولها الظاهري للصفقة قبولاً زائفاً ، وقد ينكشف عن خيبة أمل ، ولا يخرج من هذا اللبس إلا بالرجوع إلى القيمة الثمنية لكل بضاعة على حدة ، ثم إلى المقارنة بينهما على ضوء هذا المقياس الثابت . وهذا (الرجوع إلى المقياس الثابت) هو المعنى الذي قصد التشريع الإسلامي إبرازه حتى يكون كل من طرفي العقد على بينة في معاملته المالية ، وحتى يجتنب التدليس ويتطهرا من السحت المأخوذ بالحيلة والمكر .

فإذا صح ما ذهبنا إليه في تفهم مقاصد الشريعة من هذا الحكم لم يبق هناك حرج قط - كما أوضحه ابن القيم^(١) في أعلام الموقعين ج ٢ ص ٢٧٣ - في أن تباع المصوغات الذهبية بأكثر من وزنها ذهباً ، أو المصوغات الفضية بأكثر من وزنها فضة ، ذلك لأن قيمة الصنعة قد قدرت هنا بمقياسها الواضح المحدد ، الذي لا يدع مجالاً لتزييف تراضى المتبايعين .

على أن هذه الرخصة في المبادلة بين الصياغة والنقد لا ينبغي أن تسرى على

(١) سلفه في هذه الفتوى معاوية بن أنى سفيان ، ويخالفه فيها عمر بن الخطاب وابنه عبد الله وأبو العرداء ، راجع الموطأ في كتاب البيوع ، باب بيع الذهب والفضة ، ويرى ابن القيم أن هذا الاختلاف إنما هو في الصياغة المحرمة كصياغة الآنية ، وعلى هذا تكون الصياغة المباحة محل اتفاق على جواز الفضل فيها قدراً .

التبادل بين نقدين من نوع واحد مع اختلافهما في الأوصاف ؛ بل الاعتماد في النقدين على تساوى العوضين وزنا (بدون اعتبار لجمال الضرب أو جدته أو عدد قطعه أو غير ذلك) هو الحل العادل ، أو هو أعدل الحلول ؛ إذ لو اعتبرت هذه الصفات ونحوها في النقود مبررة لزيادة قيمتها في المبادلة ، إذأ لأصبحت النقود نفسها بضاعة ، وصارت معرضا للضاربة وتقلب الأسواق ، وعادت محتاجة الى معيار آخر لتقدير قيمتها ، بدل أن تكون هى المعيار لغيرها .

ولكى نلخص فكرتنا عن القواعد التى وضعها التشريع النبوى في باب التبادل والتقايط ، نقول : إن هذه القواعد تهدف إلى غرض مزدوج :

فهى من إحدى الجهتين تريد أن تحمى النقود والأطعمة ، وهما أهم حاجات الجماعة وأعظم مقومات حياتها ، وذلك بمنع وسائل احتكارهما أو إخفائهما من الأسواق ، أو تعريضهما للقلبات الثمنية المفاجئة .

وهى من الجهة الأخرى تحرص على حماية الفقراء والأغرار من طرق الغبن والاستغلال التى يتبعها بعض التجار الجشعين .

وواضح أن تسمية الربح المجتلب من طريق هذا التبادل الذى تنقص الصراحة والأمانة باسم « الربا » إنما هى تسمية مجازية قصد منها إلى إبراز ما فيه من مخالفة لقانون الأخلاق ، وبجافاة لقواعد الرحمة الإنسانية . وذلك بتشبيهه بالربا الحقيقى الذى هو مثل فى السحت وأكل المال بالباطل .

— ٣ —

وجاهة التشريع القرآنى

من النواحي الثلاث : الأخلاقية ، والاجتماعية ، والاقتصادية

ونعود الآن إلى موضوعنا الأسمى ، وهو الربا الحقيقى ، لنعالج فيه الجواب عن سؤالين مهمين :

« أحدهما » : ما هى الأسباب المعقولة لهذا التحريم الصارم للعاملة الربوية ؟ .
« الثانى » : هل الحياة الاقتصادية فى حالتها الحاضرة تعد ظرفا استثنائيا يترخص فيه بمخالفة هذا القانون ؟ .

أما مسألة معقولة النهى أو عدم معقوليته ، فإنها قد أثيرت في عهد النبوة على لسان العرب أنفسهم ، فقد استنكروا هذه التفرقة بين البيع والربا قائلين : إذا أنتم منعتم ربح القرض ، فامنعوا كذلك كل ربح يحتلب من طريق البيع ، إذ هما سواء . وكان رد القرآن على ذلك بتلك الكلمة الحاسمة ، التي لا تقبل مراء ولا جدالا : كلا ، ليس البيع مثل الربا ؛ فقد « أحل الله البيع وحرم الربا » (٢ / ٢٧٥) على أنه لا يمكن أن يفهم من هذا الأسلوب أن أمر التشريع هنا يصدر عن إرادة جبروتية تقضى أحكامها تحكما وتعنتا ؛ فقد علنا القرآن في غير موضع أن الأوامر الإلهية أنزه شيء عن هذا الحرج والغت : « قل إنما حرم ربي الفواحش » (٣٣ / ٧) « قل أحل لكم الطيبات » (٥ / ٤) « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون » (٥ / ٦) .

يجب إذن أن تكون لهذا النهى دعائم قوية وأسباب معقولة تجعله في محزه من الصواب والحكمة . فما تلك الدعائم ؟

١ - الدعامة الأخلاقية :

أول ما يكشفه الباحث من أسرار التشريع في هذا الباب هو بواعثه الأدبية الخلقية .

إن الضمير الإنساني ليدرك بنوع من الحدس المباشر مدى الفرق بين الربح من طريق المعاملة و البيع ، والربح من طريق المجاملة و القرض ، . إنه ليدرك ذلك ويحسّه حتى في الوقت الذي لا يستطيع فيه التعبير عن هذا الفرق . فإن لم ندركه في آن ما ، فإنما هي غشاوة الهوى وحب الآثرة ، أو الغفلة وعدم التدبر ، هي التي تخفيه عن أعيننا ، على أن الأمر يبلغ من الوضوح حدّا تحسه كل الضمائر والوجدانات في عملية « الإعارة » ، (للأشياء التي تُردّ بأنفسها إلى معيها) . أليس كل واحد منا يستنكف حقيقة من أن يطالب بتعويض مالى عن ماعون يعيره لمن يحتاج إليه ، أو عن مساعدة أدبية كاتمة ما كانت يقدمها لغيره ، عملا بقواعد حسن الجوار وأدب الاجتماع ؟ فلماذا يختلف النظر في الأمر حينما تكون المعاونة على وجه « القرض » ، (للأشياء التي يمكن أن ترد بمثلها) ؟ مع أن الشأن في الحالين

واحد ، وهو أنها يختلفان عن البيع اختلافا جوهريا ؛ ذلك أن أمر البيع يتعلق بمالين مختلفين لكل منهما قيمته التي قد تزيد أو تنقص عن قيمة الآخر إما بسبب اختلاف الرغبات ، وإما بحسب قانون العرض والطلب ، بينما المقصود في القرض كما في الإعارة هو استرداد الشيء نفسه ، إما بعينه أو بشيء مماثل له تماما من جنسه فليس ها هنا أدنى قصد للبادلة بين مالين ؛ ولذلك ليس للقرض أن يرفض قبول شيء نفسه إذا أعاده له المقرض عند الأجل بحالته التي تسلبه عليها .

سيقول قائل : سلمنا بوجود هذا الفرق الجوهرى بين الوضعين ، ولكن أليس كل صنيع جميل له حق ، في المكافأة ؟ .

نقول : بلى ! ولكن لا ينبغي أن يلتبس علينا الأمر بين سلطان « الحق » ، وسلطان « الواجب » ، إن سلطان الواجب أعلى : وإن له لحقا في معارضة حقوقنا الطبيعية وفي تحديد مداها : وأى شيء أدخل في باب الحقوق الطبيعية من حقنا في المحافظة على حياتنا ؟ ومع ذلك فإن الواجب قد يفرض علينا أن نتنازل عن هذا الحق ، وأن نضحى بأنفسنا تضحية تامة في سبيل قضية نبيلة : أدبية ، أو وطنية ، أو دينية ، أو غيرها .

سيمضى السائل في اعتراضه قائلا : إن هذه كلها اعتبارات أخلاقية ، وقضيتنا قضية حق وقانون .

أما أنا فأجيب بأن كل مشرّع له الحق كل الحق في أن يجعل من القانون الأخلاق قانوناً مدنيا ، بل قانوناً جنائيا إن شاء . وهذا بالضبط هو ما صنعه القرآن حين أعلن حربا حقيقية على آكلى الربا .

٢ — الدعاة الاجتماعية :

ولو أننا نظرنا إلى القضية من ناحيتها الاجتماعية لظهرت لنا حكمة هذا التشريع وسداده في أجلى مظاهرهما .

لا أقول فقط إن حياة المجتمع تصبح حياة لا تطاق لو أن كل فرد تسك بحقه في أدق حدوده ، ولم يجعل على نفسه سلطانا لفكرة البر والتعاون والتضامن والتراحم ؛ بل أقول إن مجرد تقرير ربح مضمون لرب المال ، بدون أن يكون

في مقابل ذلك ضمان ربح للمقترض - أقول إن هذا الوضع وحده فيه ما فيه من محاباة للمال ، وإيثار له على العمل ؛ وإن الضرر الذي ينجم عن ذلك ليس من نوع الأضرار الأدبية أو الأغلاط النظرية فحسب . « وأعني بها قلب موازين الأشياء بوضع القيم الإنسانية موضعاً نازلاً وتفضيل القيم المادية عليها ، بل إنه يمس بناء الجماعة مساً عنيفاً عميقاً ، ذلك أننا بهذه الوسيلة نزيد في توسيع المسافة وتعميق الهوة بين طبقات الشعب بتحويل مجرى الثروة وتوجيهها إلى جهة واحدة معينة ، بدلا من أن نشجع المساواة في الفرص بين الجميع ، وأن نقارب بين مستوى الأمة حتى يكون أميل إلى التجانس وأقرب إلى الوحدة .

إن اللبحة البارزة في التشريع القرآني ، وكذلك في كل تشريع اجتماعي جدير بهذا الاسم ، هي الحيلولة دون هذه المحاباة لرأس المال على حساب الجمهور الكادح والسعي لتحقيق نوع من التجانس والمساواة بين أفراد الأمة .

إنها لكلمات قصيرة ، ولكنها ذات مدى بعيد ، تلك التي يرسم فيها القرآن دستور هذه السياسة ، حيث يقول : «... كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ، .

٣ - الدعامة الاقتصادية :

وأخيراً هلم بنا لننظر الى القضية من وجهة العدالة الاقتصادية البحتة :

يقول لنا أنصار مشروعية الربا - ولهم بعض الحق فيما يقولون - : إن الربح الذي يحصل عليه المقترض من عمله في المال الذي اقترضه إنما ينشأ وليدأ من التزاوج بين العمل ورأس المال ؛ فكيف تخولون للعمل حقا في الربح ، ولا تخولون للمال حقه فيه ، مع أنه زوجه وشريكه في هذا النتائج ؟ .

ها هو ذا - فيما أرى - جواب هذه الشبهة :

أما أن الربح ليس ثمرة عنصر واحد ، بل ثمرة عنصرين متزاوجين ، فذلك حق لا شبهة فيه ، وليس لنا أن نتلصكاً في قبوله . غير أن المعارضين قد فاتهم شيء جوهري ، وهو أنه بمجرد عقد القرض أصبح العمل ورأس المال في يد شخص واحد ولم يبق للمقترض علاقة ما بذلك المال ، بل صار المقترض هو الذي يتولى تدبيره تحت مسؤوليته التامة ، لربحه أو لخسره ، حتى إن المال إذا هلك أو تلف فإنما

يملك أو يتلف على ملكه ، فإذا أصررنا على إشراك المقرض في الربح الناشئ وجب علينا في الوقت نفسه أن نشركه في الخسارة النازلة ؛ إذ كل حق يقابله واجب ، أو كما نقول الحكمة والنوبة : « الخراج بالضمان » ، أما أن نجعل الميزان يتحرك من جانب واحد فذلك معاندة للطبيعة . . . ومتى قبلنا اشتراك رب المال في الربح والخسر معا انتقلت المسألة من موضوع القرض إلى صورة معاملة أخرى ، وهي الشركة التضامنية الحقيقية بين رأس المال والعمل ، وهذه الشركة لم يغفلها القانون الإسلامى ، بل أساغها ونظمها تحت عنوان « المضاربة » ، أو « القراض » ، غير أنه لكي يقبل رب المال الخضوع لهذا النوع من التعامل يجب أن يكون لديه من الشجاعة الأدبية ما يواجه به المستقبل في كل احتمالاته . وهذه فضيلة لا يملكها المرابون ؛ لأنهم يريدون ربحاً بغير مخاطرة ؛ وذلك هو ما يسمى تحريف قواعد الحياة ، ومحاربة تبديل نظمها .

هكذا إذا سرنا وفقاً للأصول والمبادئ الاقتصادية في أدق حدودها كانت لنا الخيرة بين نظامين اثنين لا ثالث لهما : فإما نظام يتضامن فيه رب المال والعامل في الربح والخسر ؛ وإما نظام لا يشترك فيه معه في ربح ولا خسر . ولا ثالث لهما إلا أن يكون تليفيقاً من الجور والمحاباة .

هذه - فيما أرى - هي الأسس الأدبية والاجتماعية والاقتصادية التي قامت عليها وجهة نظر الإسلام في قضية الربا .

وأما المسألة الثانية وهي حكم الربا في وقتنا هذا فإنها ليست قضية « مبدأ ، وإنما هي قضية « تطبيق » ، وإلى أخشى أن أطيل فيها فأعتدى على موضوع زميلي وصديقي الدكتور الدواليبي رئيس مجلس النواب السوري ، وهي فوق ذلك ليست فيما أرى من الشؤون التي يقضى فيها فرد أو بضعة أفراد ، بل ينبغي أن يتداعى لها طوائف من الخبراء في القانون والسياسة والاقتصاد من كل جانب وأن يدرسوها دراسة دقيقة مستفيضة من جميع نواحيها الحاضرة والمستقبلية .

وكل ما أريد أن أقوله الآن يتلخص في جملتين صغيرتين ، أرجو أن يتخذنا أساساً للمبحث في التفاصيل .

والأولى ، هي أن الإسلام قد وضع الى جانب كل قانون ، بل فوق كل قانون قانوناً أعلى يقوم على الضرورة التي تبيح كل محظور ، وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه ، (٦ / ١١٩) .

والثانية ، هي أنه لأجل أن يكون تطبيق قانون الضرورة على مسألة ما تطبيقاً مشروعاً لا يكفي أن يكون المرء عالماً بقواعد الشريعة ، بل يجب أن يكون له من الورع والتقوى ، ما يحجزه عن التوسع أو عن التسرع في تطبيق الرخصة على غير موضعها ، كما يجب أن يبدأ باستنفاد كل الحلول الممكنة المشروعة في الإسلام ؛ فإنه إن فعل ذلك عسى ألا يجد حاجة للترخص ولا للاستثناء ، كما هي سنة الله في أهل العزائم من المؤمنين ، ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ، (٢٥ / ٢ - ٣) .

إلى هنا ينتهى النص الذى نقرأه من قبل .
ونورد بعد ذلك ما أضافه الشيخ رحمه الله :

— ٤ —

لعله مما يهم القارئ الكريم أن نقدم له ههنا خلاصة المناقشات التى دارت أخيراً حول هذا الموضوع ، والتى أثار فيها شيئاً من الاعتراضات بعض كبار رجال القانون .

ذلك أنه - بعد التسليم بانفصال حقيقى القرض والبيع انفصالاً تاماً ، وبعد التسليم بأن القرض أشبه شئاً بالمعاملات التى يراد بها تملك المنفعة مؤقتاً بشئ عيى يرد بالتالى إلى مالكه - بعد هذا كله ، أبدى المعارض أننا فى هذه المقارنة وقع اختيارنا على أحد نوعى هذه المعاملة ، وهو المعاملة المجانية المسماة بالإعارة ، وأهملنا النوع الآخر ، وهو التمكين من المنفعة بأجر ، مع أن هذا النوع الأخير مقبول قانوناً وديانة ، كالنوع الأول سواء ، وهو متبع فى كثير من الشئون دكتأجير الأرض ، والعقار ، والمنقولات ، والحيوان ... الخ ، قال : فأى مانع إذاً من تطبيق قاعدة الإعارة على القرض ، ما دام الأمر فيه قائماً على تملك الانتفاع برأس المال ، على شرط أن يردّه المقرض زائداً الأجر ، كما هو الحال فى سائر عقود الإيجار ؟

ومضى السائل في تأييد اعتراضه قائلاً : إن الفرق الوحيد الذي يمكن التماسه بين النقد المدفوع قرضاً ، والسلعة المؤجرة ، هو أن النقد لا يمكن الانتفاع به إلا بتحويل جوهري في حقيقته ، عن طريق مبادله بأشياء أخرى . بينما الأعيان المؤجرة يمكن الانتفاع بها مع بقاء أعيانها ، وهو فرق سطحي لا يؤثر في موضوعنا ، وكل ما يترتب عليه هو الاختلاف في الشكل والصورة التي يكون عليها الحق المردود : وهو إما السلعة نفسها ، في حال الإجارة ، وإما مثلها « في حال القرض » .

هذا هو الإشكال .

وقد كان جوابنا عنه أن الوضع القانوني للمستأجر يختلف اختلافاً جوهرياً عن الوضع القانوني للمقرض . ذلك أن المستأجر ليس مسؤولاً عن تلف السلعة المؤجرة ولا عن هلاكها ، إلا إذا تسبب في ذلك . بينما يتحمل المقرض مسؤوليته المدنية كاملة ، حتى في حال الإصابة بحادث خارج عن إرادته : بفعل الغير ، أو بفعل القضاء والقدر . ومن الواضح أن هذا الاختلاف في الآثار لا يتم عن اختلاف في الشكل أو في الصياغة القانونية فحسب ، بل يدل على اختلاف طبيعة العقدين ، اختلافاً يحول دون خضوعهما لقانون واحد ، بحيث يحق لنا أن نتساءل : هل مطالبة المقرض في هذه الحالة بدفع ربح للقرض ، مع مطالبته برد المثل إليه ، بينما لا يطالب المستأجر إلا بدفع الأجرة ، يعد تصرفاً مستمداً من روح العدالة والمساواة ؟ إن المسألة لأعظم من أن تكون مجرد تحميل مسؤوليات متعددة في جانب ، ومسئولية واحدة في الجانب الآخر ، بل إن المسؤوليات المتعددة في الجانب الأول تعد في نظرنا مسؤوليات متعارضة ، يناقض بعضها بعضاً ، ذلك أنني « أيها المقرض » إذا التزمت بعوض الانتفاعي بالمال كان معنى هذا أنني لست له مالكا ، وإنما أنا مجرد واطئ يد ، كأمين ؛ لكنني إذا وجب علي رد بدله مهما تكن الظروف والأحوال كان معنى هذا ، من جهة ، أن المقرض ليس مالكا لهذا المال بل لبدله الذي أنا مدين له به ، ومن جهة أخرى أني أصبحت مالكة الوحيد ، وإذا فلست ملزماً بتعويض منفعه لأحد من الناس ، إذ كان حق الملكية يستتبع بالضرورة كل آثاره القانونية .

أمام هذه القضية المنفصلة يجب ألبة اختيار أحد الطرفين ، ولا يمكن الأخذ بهما

معاً : فلما كان عقد الإجارة واقعاً على حق الانتفاع كان التزام المستأجر بالإجارة لا بالسلعة نفسها ، وإذا كان عقد القرض واقعاً على المال كان التزام المقرض بالبدل لا بالربح . هكذا يجب أن يأخذ كل وضع نتائجه الخاصة به ، دون خلط ولا لبس ، ولعلنا لا حاجة بنا إلى بيان أن ما قد يلزم به المستأجر من تعويض العين المستأجرة في حالة التسبب في هلاكها أو تلفها بالقصد أو بالإهمال ، ليس أثراً من آثار عقد الإجارة نفسه ، ذلك العقد الذى لاصلة له إلا بمنفعة ومقابلها ، وإنما هو تطبيق للقاعدة العامة التى تلزم كل متعد بتعويض الضرر الذى تسبب فيه .

والآن وقد بينا أن عقد القرض عقد قائم بذاته ، يختلف اختلافاً كلياً عن عقد الإيجار ، كما يختلف عن عقد البيع ، نجيب عن سؤال آخر وجه إلينا غير متقيد بالاصطلاحات الفقهية .

قال السائل :

إننا نتقبل بكل ارتياح أن طبيعة عقد القرض تختلف تماماً عن طبائع العقود الأخرى فى سائر أبواب الفقه ، فافرضوه باباً مستقلاً . ولكننا لانفهم كيف يستسيغون أن يوضع رأس المال تحت تصرف المقرض لمصلحته هو فى مدة من الزمن ، وأن يحرم منه المقرض فى هذه المدة ، دون أن يكون له أدنى تعويض عن هذا الحرمان . فلنا : إن لنا على هذا السؤال جوابين :

فأما قبل كل شيء فإن قانون الأخلاق الذى يسيطر على علاقتنا الإنسانية يقتضينا أن نترك - من وراء معاملتنا النفعية - جانباً آخر لنوع من التعاون المنزه عن الأغراض العاجلة ، والذى لا يراد به إلا وجه الله عز وجل .

وأما بعد ، فإنه إذا تمسك السائل بأن يجد تعويضاً مادياً فى عملية القرض ، فإننا نوجه نظره إلى أن هذا التعويض حاصل بالفعل ، وأن عقد القرض نفسه يتضمنه ، ذلك أن فيه نوعاً فريداً فى بابه من التأمين على المال : تأمين مجاني ، شامل لكل الجوانح المحتملة ، حيث إن المقرض مطالب حتماً ، ودون قيد ولا استثناء ، برد بدل ما اقترضه . وهذا ضمان ما كان ليتيسر مجاناً لصاحب المال لو كان المال باقياً فى قبضته .

المسلمون

بين عوامل القوة وعوامل الضعف

لمحاضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ عيسى سويلم ط
من كبار علماء الأزهر

إن الباحث في تاريخ المسلمين لتأخذه الدهشة والحيرة ، ويذهب به العجب كل حذهب ، إذا وازن بين ماضى سلفهم وحاضر خلفهم ، ووقف على ما وصل إليه المسلمون الأولون ، من عظمة لم تتح لامة من قبلهم ، وقوة كانت تضعف أمامها كل قوة ، وسلطان كان يقيم دعائم الحق والعدل ، ويؤدب كل معتد أثيم ، ويُنهض غُرب كل جبار عنيد ، ويُظللُ بحمايته كل مستضعف مستجير ، وكيف تراجع خلفهم بعد هذه الحقبة المجيدة من تاريخهم إلى الوراء ، وضعفت قوتهم وتضاءل سلطانهم ، وتخطف العدو أرضهم وديارهم من كل جانب ، ويقف أمام هذه الموازنة في تفكير عميق يسائل نفسه عن سبب هذا الضعف وكيف عرض لهم ، مع أن كل عوامل القوة التي قام عليها عزمهم في الماضي لا تزال أصولها قائمة بينهم في الحاضر ، فإن المسلمين اليوم أضعاف أضعاف المسلمين في الماضي .

والتشريع الإسلامى الذى سجد به المسلمون الأولون لم يكن وقفا عليهم ، فقد دونت أصوله فى القرآن الكريم وبينت فروعه فى السنة النبوية المطهرة ، والقرآن والسنة بين ظهرانهم بشروح مطولة مسببة ، والقرآن هو القرآن ، والسنة هى السنة ، والسنن الإلهية فى حياة الأمم هى السنن الإلهية لم يتغير شئ من ذلك كله ولن يتغير ، وحمله رسالة الإسلام ، وقادة المسلمين وزعمائهم ، لم يبلغوا من الكثرة فى الماضى ما بلغوه فى الحاضر ، والدراسات والجامعات الدينية لم تبلغ من الكثرة فى العصور الأولى ما بلغت فى هذه العصور ، فاسر هذا التراجع الذى يوجب الدهشة والحيرة ، وما سبب هذا الضعف وكيف عرض لهم .

والجواب عن هذا السؤال وإن كان صاباً علقماً ، بيد أن الجهر به واجب والتفكر فى مضمونه أوجب ، إذ لا سبيل إلى علاج الأمراض إلا إذا عرفت

أعيانها وحددت مواطنها ، ولا مطمع في رد الضال إلى طريق الهدى إلا إذا عرف أنه يضرب في يبداء التيه والضلal ، وليس عيباً أن نتعرف عيوبنا وأمراضنا ونعترف بها ، لنعمل على علاج أنفسنا وقطعير مجتمعنا منها ، ونقضى على أسبابها وعلاها ، وإنما العيب أن نقش أنفسنا بكتناتها عنها ، ونلدس عليها ببراءتنا منها ، ونندع جرائمها ترعى في شراييننا وتفتك بالبقية الباقية من حيويتنا .

وعلى هذا الأساس نقول في غير تحفظ ولا تحرج : إن الجواب على هذا السؤال الذى يتردد في نفس كل باحث ، هو أن سبب هذا الضعف الذى عرض للمسلمين في عصورهم الأخيرة ، هو أنهم انحرفوا عن هذه العوامل التى كانت عماد قوتهم وعزمهم في الماضى ، وأصبح وجودها بينهم وجوداً صورياً ، وغاب عنهم أن الوجود الصورى لا يجدى المتعلقين به نفعا ، ولا يبنى لهم عزا ولا مجداً ، بل أحالوها إلى عوامل للضعف والتراجع بعد أن كانت عوامل للقوة والبناء ، كما يتجلى ذلك فيما نذكره من مواقفهم من هذه العوامل التى أشار لها السائل في سؤاله .

أما كثرة المسلمين اليوم وإن كانت أضعاف كثرتهم في الماضى ، إلا أن انحرافهم عن تعاليم دينهم ، وتنازعهم على الملك والسلطان ، وتقصيرهم في دفع أسباب الشر عن أوطانهم ، واتخاذهم للبطانات والأولياء من غيرهم ، كل ذلك جعل هذه الكثرة غثاء كثث السيل ، لا ترهب عدواً ، ولا تحمى وطناً ، ولا ترد عدواناً ، ولا تدفع ظلماً ، كما يشير إلى ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم : « توشك الأمم أن تتداعى لمقاتلتكم وكسر شوكتكم ، وسلب ما ملكتموه من الديار والأموال ، كما تتداعى الأكلة على قصعتها ، فقال قائل : أم من قلة يومئذ يارسول الله ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغث السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن » .

ذلك أن المسلمين الأولين عرفوا من تعاليم دينهم أنهم مطالبون بأن يكونوا أقوياء في دينهم وديانهم ، أعزة في مجتمعاتهم وأوطانهم ، وفهموا من توجيه القرآن لعقولهم إلى ما فى الكون من آيات الله وسننه وأسرار عوالمه ، أن هذه القوة التى طالبهم الله بها ، لا تتاح لهم إلا عن طريق العلم والعمل ، فوجهوا جهودهم إلى ميادين

العلوم والفنون ، وفتحوا لعقولهم أوسع مجالات البحث والنظر ، وسبحوا بأنظارهم وأفكارهم في جوانب الأرض والسماء ، واتخذوا من رياض العلوم مسارح لعقولهم وأفهامهم ، يقتطفون من ثمارها ما يشتهون ، ويرتشفون من ينابيعها ما يشاءون ، ويبلغون من الانتفاع بها في دينهم ودينام ما يريدون ، وبهذه الجهود الجبارة المنطلقة المتحررة ، استطاعوا أن يكونوا أسبق الأمم المعاصرة في ميادين العلوم والفنون ، وأن يقيموا دولة إسلامية رفعت علمها خفاقا فوق ممالك الشرق والغرب ، وتسلمت زمام القيادة العالمية للحياة الفكرية والاجتماعية والسياسية ، إن قالت قولا تفتحت أذان الدنيا لقولها ، وإن أمرت أمرا خضعت أعناق الملوك لأمرها ، وإن شهرت سيوف الحق تداعت أمام سيوفها معاقل الظلم والطغيان .

هكذا كان تقديس المسلمين الأولين لكتاب ربهم ، وتعاليم دينهم ، وهكذا كان أثر هذا التقديس في بناء أمتهم ومجدهم ، وإقامة دولتهم التي كانت أقوى دولة عربية في العالم .

ولكن المسلمين في عصورهم الأخيرة جهلوا أو تجاهلوا تاريخ سلفهم ، ونسيت عليهم أسباب عزم ومجدهم ، وخفي عليهم أن عمل سلفهم بكتاب ربهم ، وتعاليم دينهم ، هو الذي كان سبب بعثهم ، وأساس قوتهم ، وعظمة سلطانهم ، وأنهم ما نجحوا في إقامة دولة قوية عزيزة الجانب مرهوبة السلطان ، ولا بسطوا حكمهم العادل في الشرق والغرب ، إلا بقوة عقائدهم ، وكال أخلاقهم ، وصلاح أعمالهم ، وإقبالهم على تعاليم دينهم يتفهمونها ويتعرفون مقاصدها ، ودأبهم على السعى والكفاح والعمل ، وسيرهم على مقتضى السنن التي ربط الله بها القوة والسيادة ، جهلوا أو تجاهلوا كل هذا ، حتى ظنوا أن مجرد انتسابهم إلى الإسلام يحقق لهم ما كان لسلفهم من دولة وسلطان ، وإن كانوا خارجين على توجيهاته وتعاليمه ، فنامت أعينهم وعقولهم عن النظر والفكر ، وضعفت عزائمهم عن الجهاد والعمل ، وقصرت همهم عن السباق بل عن المتابعة ، وقنعوا من الحياة بما يحفظ عليهم وجودهم كأفراد وجماعات ، لا كأمة لها دولة وسلطان ، ورضوا بالعيش على هامش الحياة ، وإن كان في ظلال المهانة والاستعباد ، وأهملوا في إعداد القوة الحربية التي

طالبهم بها دينهم ، وأصبحوا أقل الأمم شأنا في علوم هذه القوة وفنونها ، وصاروا عالة على غيرهم فيما يحتاجونه من أسلحتها وعُدّدها ، ووقف تقدسهم لكتاب ربهم وحجهم لنبيهم ، عند مظاهر التقديس القولي والحب التقليدي ، وظنوا أن هذا التقديس القولي الذي لا يخاطب شفاف القلوب ، يحقق لهم النصر الذي وعد الله به المؤمنين ، وأن هذا الحب الذي يجري بينهم في المواسم والمناسبات مجرى العادة والتقليد ، يكفي لدخولهم في عداد المحبين الصادقين ، وغاب عنهم أن التقديس الذي يحقق لهم النصر والتأييد والتحكين في الأرض ، إنما هو التقديس العملي الذي يركّز النفوس ، ويصلح الأعمال ، وأن التعبير الصحيح عن الحب الذي يجري مجرى العقيدة واليقين ، إنما هو طاعة المحبوب في أمره ونهيه ، ومتابعته في سلوكه وهديه ، والاقتداء به في أخلاقه وشمائله .

لو كان حبك صادقا لأطعته إن الحب لمن يحب مطيع

وأما التشريع الإسلامي : فإنما سعد به المسلمون الأولون ، لأنهم أحلوه من قلوبهم محل المبدأ والعقيدة ، وأحسنوا فهم مقاصده وأهدافه ، ونشروه في مجتمعاتهم بالقول والعمل ، ودافعوا عن قدسيته بالسيف والقلم ، وحاطوا سلطانه بالقلوب والمهج ، وجعلوه تحكما في أعمالهم وسلوكهم ، فكان لهم رائدا أميننا ، وقائدا حكيما . ولكن المسلمين في عصورهم الأخيرة هجروا هذا التشريع الإلهي هجراً غير جميل ، حتى أفقرت منه صدورهم وأخلاقهم وأعمالهم ، وإن كان موجوداً على صفحات الكتب ، وفي بعض الأفواه والألسنة ، غير أن هذا الوجود لا يكفي لإمدادهم بالقوة التي أمد بها المسلمين الأولين ، فإن القوة التشريعية التي ترفع شأن الأمة ، وتبني المجتمعات الصالحة ، لا تستمد من عظمة التشريع ووجوده مسطوراً في بطون الكتب فحسب ، وإنما تستمد من معرفته ، وفهم مقاصده ، والعمل بتعاليمه ومبادئه .

ولما لا ندرى سبباً معقولاً لهذا الإعراض والهجران ، ولا ندرى ماذا يقولون حينما يسألون عن هذا السبب المجهول .

أقولون إن نصوصه ومصادره تعاصت على عقولهم وأفهامهم ، وإذا تعاصت على عامتهم فكيف تعاصت على خاصتهم من الباحثين والدارسين ، وكيف تعاصت

على أفهامهم ، وهى التى كان يفهمها البدوى بفطرته وسليقته ، وهل يظن أولئك أن هذا التعلل يخلّصهم من مسئولية هذا الإعراض أمام الله تعالى ، وهو الذى يعم مقدار ما وهبهم من عقل وفكر وفهم ، ويعلم مبلغ عنايتهم بدراسة تشريعات العقول البشرية ونظرياتها الاجتماعية والفلسفية ، وإقبالهم عليها ، ووقوفهم منها موقف التقديس والإذعان ، ويعلم مدى حرص الكثير منهم على دراسة المذاهب الصالحة وإعجابهم بما فيها من ضلال وإلحاد وإفساد للعقائد ، وشغفهم بقراءة القصص والروايات على ما فيها من سخف ومجون وإفساد للأخلاق ، دون أن يكون للكتب الدينية نصيب من وقتهم واطلاعهم وتفكيرهم .

أم يقولون إن التشريع الإسلامى عجز عن الوفاء بمقتضيات الحياة المدنية للجمتمع الإسلامى ، وكيف عجز عن الوفاء بذلك ، وهو التشريع الذى يسير بأصوله وفروعه تطور الإنسان فى رقيه ومدنيته ، ويتمشى مع ما تحكم به العقول وتقضى به الفطرة ، فلا تجد فى مبادئه العامة ما ينبو عن مدارك العقول والأفهام ، ولا فى فروعه العملية ما تعجز عن احتماله طبيعة البشر ، أو يجافى تطور الحياة الإنسانية فى رقيها وتقدمها ، لأنه التشريع الإلهى الذى قامت مبادئه العامة على قضايا العقل والمنطق ، وقامت مناهجه العملية على مقتضيات الطوائع والفطر ، والذى جعله الله مهيمناً على جميع التشريعات السماوية السابقة ، فنسخ منها الفروع العملية التى روعى فى شرعها أحوال أمم معينة فى أزمان خاصة . واستبقى منها ما لا يختلف باختلاف الأمم والأزمان ، وزاد عليها الفروع التى اقتضاها رقى الإنسان ، واتساع نطاق العمران ، وهكذا جمع الله له الأصول والفروع فى دائرة الكمال والخلود ، وجعله خاتمة الشرائع والأديان .

وكيف ضاق عن تطور الحياة الإنسانية فى حضارتها ومدنيتها ، وهو الذى وضع للدين والدنيا أعدل نظام عرفه البشر ، فى وقت كانت شعوب الأرض محكومة بتشريعات مستمدة من ألوهية الملوك وغطرسة الحكام ، ومطبوعة فى روحها وأهدافها بطابع القسوة والطغيان ، فقرر قواعد العدل والمساواة بين الناس ، وقضى على نظام الطبقات والامتيازات ، وجعل الحاكمين والمحكومين

سواسية في الحقوق والواجبات ، وارتفع بالكرامة الإنسانية إلى المنزلة اللاحقة بها ، وانتقل بالشعوب من حياة الذلة والمهانة إلى حياة العزة والكرامة ، وأقام حضارة وسعت جميع الشعوب يوم أن كان العالم لا يعرف غير حضارة الإسلام والمسلمين ، ورَبَّيْ أمة كانت خير أمة أخرجت للناس ، وجعل من أبناء الصحراء قادة وأبطالاً فتحوا أرقى الممالك حضارة ومدنية ، وأساندة في العلوم فتحو للعقول أبواب العلم وطرائق المعرفة ، وأثمة في الفقه والقضاء ، علوا الشعوب كيف يكون التشريع الذي يقرر قواعد العدل والمساواة ، ويبني المجتمعات الصالحة في دينها ودنياها ، وكيف يكون القضاء الذي يجعل الناس أمام سلطانه سواسية ، لا كبير في الحق ولا صغير ، ولا قوى فيه ولا ضعيف ، وأعلاماً في الإدارة والحكم ، علوا الأمم كيف تكون الإدارة الحازمة العادلة ، التي تعصم الدماء والأموال ، وتصون الأعراض والكرامات ، وتعطي كل ذي حق حقه ، وتوسد أمور الأمة إلى أهلها ، وكيف يكون الحكم الصالح الذي تنعم في ظلاله الأفراد والجماعات ، فعلوا كل هذا ، وما درسوا في الكليات والجامعات فنون الحرب والقتال ، ولا أصول التشريع وأنظمة القضاء ، ولا علوم السياسة والإدارة ، ولكنهم أدركوا عن علم يقيني مقاصد القرآن ، وروح تعاليم الإسلام ، فسموا هذا الإدراك اليقيني بعقولهم وأفهامهم ، ونفخ فيهم روح الحياة والبعث ، وقوة الإرادة ومضاء العزيمة ، وفتح لهم طريق العلم والمعرفة ، فأخذوا من كل آية قرآنية علماً ، ومن كل سنة نبوية هدياً ، ومن كل ظاهرة كونية درساً ، وحققوا في جيل واحد من جلائل الأعمال ما لم تحققه أمة أخرى في عدة أجيال .

ولا يصرفك عن الإيمان بهذه الحقائق التي لا يرقى إليها الشك ، ما عرض للتشريع الإسلامي في عصوره الأخيرة من التراجع في ناحيته الفكرية والعملية ، وانصراف أكثر الحكومات الإسلامية عنه ، وأخذها بالتشريع الوضعي في قضائها ومعاملاتها ، فإن ذلك ليس راجعاً إلى قصور مبادئه عن مسايرة الحياة الإنسانية في طورها ، أو انتقاضها بتداول الزمان وتقدم العصور ، أو انهزامها أمام التقدم العلمي والرقى الفكري ، لأنها حقائق نُزِّلَتْ من عالم الحق للعمل بها في كل زمان

ومكان ، والحقائق المنزلة من عالم الحق بهذا القدر المعلوم ، محال أن يعرض لها قصور في صلاحيتها لكل زمان ومكان ، أو ينقضها تطاول الزمان وتقدم العصور ، أو تنهزم أمام التقدم العلمي والرقى الفكرى ، بل يزيدا تطاول الزمان وتقدم العلوم وضوحا وأبيدا .

ولأنما هو راجع إلى إهمال المسلمين في العمل بمبادئه وتعاليمه ، وتقصيرهم في فهم نصوصه كما كان يفهمها المسلمون الأولون ، وفي عرضها على الأفهام كما كان يعرضها الأئمة السابقون ، فقد كانوا يفهمونها فهما يجمع بين نصها وروحها ، ويوضح مقاصدها في غير تعسف ولا تكلف ، ويعرضونها على الناس في صور تملأ القلوب والاسماع ببسرها ، وتجذب النفوس والأرواح بصفاتها ، وينشرونها بين الناس بالقول والعمل ، ويدافعون عنها بالأرواح والمهج ، فكانوا للدين حماة وأنصارا ، وكان الدين لهم حصنا منيعا وقائدا حكيما .

فهذا الإهمال والتقصير هو السر الحقيقي في هذا التراجع الفكرى والعلمى . ولا فهل يستطيع منصف درس التشريع الإسلامى أن ينكر أن الإسلام لم يدع مبدأ من مبادئ الحق والعدل إلا قرره تقريرا محكما ، ولا مكرمة من مكارم الأخلاق إلا بينها ودعا إليها ، ولا صالحة من صالحات الأعمال إلا وضجها وحث عليها ، ولا مرضا من أمراض النفوس إلا وصف له العلاج الشافى ، ووضع له له الوقاية الناجعة ، ولا مشكلة من مشاكل الفرد والمجتمع ، التى طالما احتدم البحث والنقاش حولها ، واختلفت فيها الأنظار والمذاهب ، إلا قررها فيها أصدق النظريات ، ووضع لها أصح الحلول .

هذه هى الحقائق التى لا يستطيع باحث منصف أن ينكر شيئا منها ، ولكن المسلمين استعصى عليهم مآل تراثهم وهو على كسب منهم ، بينما سهرت عليه الشعوب التى أخذته عن سلفهم ، وأقامت عليه حضارتها ونظام الحكم فى بلادها ، وأصبحت تزهو عليهم بمدنيتهما وحضارتها ، وتفرض سيطرتها على العالم بعلومها وفنونها ، والله الأمر من قبل ومن بعد .

وأما كثرة الزعامات القيادية ، والدراسات الدينية ، فىأتى الحديث عنها فى المقال التالى إن شاء الله تعالى ؟

أنا اللغاة

لصاحب الفضيلة الشيخ علي محمد حسن العماري

المدرس بالأزهر

— ٣ —

إن الذي ينصب قامته ، ويشمخ بأنفه ، ويرسل عينيه في الفضاء البعيد ، ويقول في كبرياء وحماقة : أنا اللغة . هو عندي مثل لكل أحق ، ضعيف الرأي والدين ، يتمتع بحظ غير قليل من الغرور ، ويريد أن يقطع صلتنا بقديمتنا ، سواء في اللغة أو في الأدب ، أو في الدين ، أو في تقاليدنا الصالحة .

وهؤلاء - بحمد الله - أخفت صوتنا ، وأضعف رأيا من أن يبلغوا ما يريدون من إشاعة القوضى في اللغة ، أو في مقدساتنا الدينية .

منذ قريب قرأت لبعض الكتاب كلاماً يسخر فيه من أولئك الذين يريدون أن يلتمسوا لكل خطوة نخطوها في مجتمعنا الجديد ، أصلاً أو شها ترجع إليه تلك الخطوة ، ويرى أن تلك رجعية لها أضرار بالغة على حياتنا الجديدة ، كأننا نستطيع أن نحدث شرعاً جديداً ، أو كأننا أمة ليست ذات دين كان - ولا يزال - السبيل الوحيد لخلاص البشرية من أسوأ ما فيها .

وهؤلاء الذين ينادون بأن نأخذ حاجاتنا وتشريعاتنا من حاضرنا دون أن ندعها بما يؤيدنا من عمل سلفنا الصالح ، ولا يعينهم أن تخالف هذه التشريعات أو توافق ما جاء به ديننا الحنيف ، إنما يضرون بهذه التشريعات ، ويظهرونها عند جبهة المسلمين في صورة الأمور المبتدعة التي لا علاقة لها بمقدساتنا .

وقد دعت (الوجودية) أن يتخلى كل فرد عن المثل والتقاليد الموروثة ، ولكن لم تبلغ هذه الدعوة من نفوس الناس شيئاً ، لأنها دعوة إلى إشاعة القوضى في الأخلاق والسلوك .

وحديثي في اللغة والأدب ، ولذلك سنظل في هذه الدائرة ، وقد رأيت أن

أورخ للصراع الخالد بين القديم والجديد ، حتى يتبين لنا أن أحداً لم يحمّد التطرف في أى عصر من العصور ، وأن كل من قال : « أنا اللغة » عبر تاريخنا الطويل ، لم يكونوا من أصحاب الرأى والفكر ، وإنما كانوا فقاعات ظهرت على سطح الحياة ، وكانت ساعة وجودها هى ساعة عدمها - كما يقول الرافعى رحمه الله - .

وضحالة الثقافة ، هى - وحدها - التى تخيل لصاحبها أنه يستطيع أن يقطع الصلة بكل قديم ، ثم يقدر - بعد ذلك - أن يخلق أدباً خالداً ، وأن يترك فناً ممتازا .

وآفتنا الحقيقية ، هى أن كل إنسان - عند نفسه - رجل عظيم ، وعالم كبير ، ومفكر خطير ، ومن حقه أن يقول : « أنا الشرع » ، « أنا القانون » ، « أنا اللغة » .

* * *

والصراع بين القديم والجديد هو قضية الزمن والحياة ، فإدام في الزمن أمس الدابر الذى لا يعود ، واليوم الحاضر الذى يشغل العقل والقلب ، فسيظل الحديث متصلاً ، خفيفاً حيناً ، ومحتدماً في أحيان كثيرة عن الأمس واليوم ، وربما عن الغد المجهول . وهل هناك شك في أن آدم عليه السلام تحدث عن الجنة ، وجرى بينه وبين حواء حديث طويل عنها ، وعن الأرض التى هبطا فيها ، ثم تحدث أبناؤهما من بعدهما ، وفاضلوا بين أمسهم ويومهم ، ولا يبعد أن يكون وقع بينهم جدل عنيف حول هذه القضية الطبيعية .

وهكذا تنتقل عبر الحياة ، فنجد الناس في كل عصر ، وفي كل مصر يتحدثون عن أمسهم ويومهم ، وعن آباتهم وجدودهم ، كما يتحدثون عن الساعة التى يعيشون فيها . هذه ظاهرة واضحة ، ربما كان الكاتب في غير حاجة إلى التنبيه عليها ، أما الظاهرة الثانية فهى أن أكثر الناس يمتدحون القديم ، ويتأسفون على العهد الذى مضى ، ولا ينسى الرجل العالمى ، وهو يحدثك أن يترحم على د أيام زمان ، ١ .

يُروى عن عروة بن الزبير أنه كان يقول : كانت عائشة - رضى الله عنها - تنشد قول لبيد :

ذهب الذين يعاش في أكثافهم وبقيت في خلف كجلد الأجرب

ثم تقول : رحم الله لبيدا ، كيف لو رأى زماننا هذا ١٤ .

ثم يعقب عروة قائلا : ونحن نقول : رحم الله عائشة ، فكيف لو رأت زماننا هذا ١٤ .

« وتعظيم القديم من طبيعة الناس ، ولذلك عبدوا جدودهم ، فكل رجل ولو حاملا يستحيل يوم يموت شيئا عظيما ، تنهال عليه الرحمات ، ويرون أنه كان من المغاور ، لا تعصى عليه مشكلة ، مع أن المرحوم كان لا يهش ولا ينش . ولكنه دخل الأبواب الدهرية فصار ملك الجميع » (١) .

ومع ما في هذا القول من المبالغة نجد له شواهد بين الخواص والعوام .

وبجانب هذه الكثرة نجد فريقا ، يذمون كل قديم ، ويمتدحون كل جديد ، مبالغة وإسرافا ، حتى حلت هذه الحال شاعرا شوقيا أن يقول وهو يمتدح الأزهر الشريف ، ويشيد بما يؤديه للعالم الإسلامي من خدمات جليلة ، وما قام به منذ إنشائه ، من حماية اللغة والدين ، ويمتدح علماء بأنهم كانوا أعز من الملوك سلفانا ، وأجل جلالة (٢) . ثم تنجم ناجمة فترميه بالجود والرجعية ، فيصيح شوق :

لا تحذُ حذوَ عصاةٍ مفتونة يجدون كل قديم شيء منكرا
ولو استطاعوا في الجامع أنكروا من مات من آبائهم أو عمّرا
من كل ماضٍ في القديم وهدمه وإذا تقدّم في البناية قصّـرا

وكما هم شوق بعنف وشدة على المفتونين بكل جديد ، هم من قرون بعيدة أديب آخر على من يجعل كل خير في القديم ، ذلكم هو بدیع الزمان الهمداني حيث يقول : « تقولون : فسد الزمان ، فتي كان صالحا ؟ ! » وبعد أن يتتبع أطوار التاريخ

(١) من كتاب (على المحك) لمارون عبود : ص ٦ . ط: بيروت .

(٢) وهذه أبيات شوقي الخالدة في مدح العلماء :

واخشع ملياً ، واقض حق أئمة	طلعوا به زهرا ، وماجوا أبحرا
كانوا أجمل من الملوك جلاله	وأعز سلفانا ، وأغهم مظهرا
زمن المخاوف كان فيه جنابهم	حرم الأمان ، وكان ظلهم الدرا
من كل بحر في الفريضة زاهر	ويربكه الخلق العظيم غضنفرا

منذ آدم إلى وقته ، وبين ما في كل طور من مساوىء يقول قولته المشهورة :
« ما فسد الناس ، وإنما اطرده القياس » .

ويتلطف بطرس البستاني ، ويرفق بأنصار القديم ، ويحجهم بالمنطق فيقول :
قل لمن لا يرى الأواخر شيئاً ويرى للأوائل التقديم
إن هذا القديم كان حديثاً وسيبق هذا الحديث قديماً

وواضح أن هذه العداوة بين القديم والجديد لن تهدأ لأنها - كما يبدو - عداوة طبيعية حقاً ، وما أحسن هذا التشبيه الذى أورده أحد النقاد حيث جعل هذه العداوة كالعداوة بين الكنة وحماها : « تكون الحماة أرجح عقلاً ، وأوفر علماً ، وتراها الكنة أختاً للغوريلا ، وأثنى الكهوف ، أما الحماة فتقف بالمرصاد كعداد التكنسى .. إذا حكى الكنة فهى ثرثرة ، لسانها أطول من أذنها ، وإن سكنت فهى حمارة .. »

وبعد أن يعدد أمثلة مما ترمى به الكنة الحماة حتى تراها أقل من خرقة بالية أولى لها أن تلقى في المطبخ ، وما ترمى به الحماة الكنة حتى لتراها طاعوناً يهدد ولدها بعد هذا يقول : « وهذه مصيبتنا بعينها في الأدب ، الأدب يريد أن يمشى ، والحماة قرم عنيد . واقف بالدرب ، لا تفتح الطريق إلا إذا مشينا على جثتها ، فلنمش ... »

ولا يعنينا هنا هذا الانحياز إلى الجديد ، والدعوة إلى قتل القديم ، والسير على جثته ، فإننا سنرى - فيما بعد - أن هذا الناقد نفسه لا يقول بواد القديم ، وإنما يرى - فقط - أن تكفى البيت القديم ، وأن نفتح نوافذه ليدخل منها الهواء ، وإنما يعنينا - الآن - هذا التشبيه للصراع بين القديم والجديد في كل شؤون الحياة ، ومنها - بل وفي مقدمتها - اللغة والأدب .

ولقد رأينا النقاد يختلفون ، والشعراء يختلفون في شؤون الأدب على نحو ما يختلف الناس في الأمور الأخرى .

وجدنا من النقاد منذ عهد سحيق من يقدر القديم ، ويطرح كل جديد ، وأول

حرب عليناها على الجديد في الأدب العربي هي إعراض الرواة عن رواية شعر
 في دؤاد الإيادي، وشعر عدى بن زيد التميمي، لمخالفتهم - زعموا - مذاهب الشعراء^(١).
 ولهذا لم يزد ما اختاروه لعدى على ستة أبيات، مع أنه قريب عهد بكبار
 الشعراء الذين روى لهم، إذ عاش في القرن الخامس الميلادي وأوائل السادس،
 وقد ذكر الرواة أنه من أصحاب القصائد، وكان على خيل المنذر بن النعمان، وكان
 من رواة امرئ القيس، وقد سئل الخطيب: من أشعر الناس؟ فقال: من يقول:
 لا أعد الاقتارَ عُدماً ولكن فقد من قد رُزئته الأعدام
 يعني: أبا دؤاد.

وذكر ابن قتيبة في الشعر والشعراء نقلاً عن الأصمعي تعليلاً آخر فقال: والعرب
 لا تروى شعر أبي دؤاد وعدى بن زيد، وذلك أن ألفاظهما ليست بنجدية^(٢). كما ذكر
 أن علماء العرب لا يعدون شعر عدى حجة^(٣).

وليس هذا المعنى مقصوراً على النقاد من العرب، بل كان غيرهم كذلك، وقد حدثوا
 أن (هوراس) الشاعر الروماني كان يرى أن شعراء اليونان هم النماذج التي يجب
 أن تدرس ليلاً ونهاراً، فإن الشعر - كما يقول - ينبغي أن ينظم كما كانوا ينظمون.
 أما الرواة واللغويون من العرب فقد كانوا ينظرون إلى القديم بعين الإجلال
 والتقدير، يدافعون عنه، ويناضلون دونه، ويركبون الشطط أحياناً في الاحتجاج
 لما عساه يكون على غير المنهج منه، وهم في الوقت ذاته يعرضون عن الجديد
 إعراضاً تاماً، حتى ليظهر أثر التشيع للقديم في كل أفعالهم وأفعالهم، وفي سلوكهم
 عند الدراسة والاختيار، وربما ركبوافي ذلك ما لا يقره عقل ولا منطق.
 سئل أبو عمرو بن العلاء عن الأخطل فقال: لو أدرك يوماً واحداً من الجاهلية
 ما قدمت عليه أحداً.

وكان يرى الفرزدق - الذي أحيا ثلث اللغة - وجربرا - الذي غلب ثمانين
 شاعراً - كان يراهما وأشباههما من المحدثين فيعرض عن شعرهم مع إقراره بوجودته
 - كما يقول - : «لقد كثّر هذا المحدث وحسن حتى لقد هممت بروايته».

(١) الأغاني ج ١٥ ص ٩٦ . (٢) ص ٦٩ : ط التجارية . (٣) ص ٦٣ .

ويقول الأصمى : جلست إلى أبي عمرو بن العلاء عشر سنين ، فما رأيته يحتاج بيت إسلامي .

وتحمل المبالغة والتعصب أبا عمرو هذا على أن يقول عن المولدين : ما كان من حسن فقد سبقوا إليه ، وما كان من قبيح فهو من عندهم .

هذا في الوقت الذي يروى فيه الأصمى رواية تدلنا على مدى حب أبي عمرو لشعر المحدثين ، قال الأصمى : كان أبو عمرو بن العلاء ، وخلف الأحمر يأتیان بشارا فيسلمان عليه بغاية الإعظام ، ثم يقولان : يا أبا معاذ ، ما أحدثت ؟ فيخبرهما وينشدهما ، ويكتبان عنه متواضعين له ، حتى يأتي وقت الزوال فينصرفان .

وفي الأغاني أن الذي كان يأتيه مع خلف الأحمر هو خلف بن أبي عمرو ابن العلاء ^(١) ، وهذه الرواية عندى أصح ، لما هو معروف من كراهية أبي عمرو لمثل بشار ، ولما هو معروف أيضاً من هيبة أبي عمرو وعظمته حتى إنه مات ولم يجرؤ أحد على أن يسأله عن اسمه ، حتى اختلف فيه على واحد وعشرين قولاً ، فبعد أن يتواضع لبشار .

فإن تكن الرواية الأخرى صحيحة ، حملت على أن أبا عمرو وأضرابه كانوا يتقون لسان بشار ، ويخشون مجاهده .

ولا تقل عداوة ابن الأعرابي لشعر المحدثين ، وتعصبه للقديم عن صاحبه أبي عمرو ، فقد كان يقول عن شعر أبي تمام : إن كان هذا شعراً فكلام العرب باطل . وقد يحمله تعصبه على ما لا يليق بالعلماء من التناقض والتوسط ، فقد عرضت عليه أرجوزة على أنها لأحد شعراء العرب الأقدمين فقال : هذا هو الديباج الحسرواني ، فقيل له : إنها لأبي تمام ، فقال على الفور : من أجل هذا أرى عليها أثر الكلفة . حتى الأصمى ضرب في هذه القضية بسهم ، فقد كان يقول : بشار خاتمة الشعراء وافته ، لولا أن أيامه تأخرت لفضلته على كثير منهم ^(٢) ، فجعل الفضيلة للزمن .

(١) الأغاني : ج ٣ ص ١٩٠ ، والرواية الأولى رواية الخطيب القزويني في الإيضاح في باب « أحوال الإسماعيليين » .

(٢) الأغاني : ج ٣ ص ١٤٣ . ط . دار الكتب .

وكان الشعراء يعرفون في الرواة هذا التعصب الأعمى، فكانوا يطالبونهم بالإنصاف. أنشد ابن منذر أبا عبيدة معمر بن المثنى قصيدته في رثاء عبد المجيد بن عبد الوهاب الثقفى التى مطلعها ^(١) :

كل حى لاقى الحمام فودى ما لحي مؤمل من خلود
وقد عارض بها أبا زيد الطائي في قصيدته التى مطلعها :
إن طول الحياة غير سعود وضلال تأميل تبيل الخلود
وقد وصفها ابن قتيبة بأنها من جيد شعره .

ولما أنشد ابن منذر قصيدته قال لأبي عبيدة : احكم بين القصيدتين ، واتق الله ، ولا تقل : ذاك متقدم الزمان ، وهذا محدث متأخر ، ولكن انظر إلى الشعراء واحكم لأفصحهما وأجودهما .

وكان المأمون الخليفة العباسى - مع ثقافته الواسعة - يتعصب للأوائل من الشعراء ، ويقول : انقضى الشعر مع ملك بنى أمية ^(٢) .

وعذر هؤلاء الرواة والنقاد وأمثالهم أن واقع الآداب يؤيد أن الأشعار القديمة هى خير ما أنتجته العقول : « فن الثابت لدى معظم النقاد أن خير أشعار الأمم هو ما قالته أيام بداوتها الأولى ، وفي تاريخ الأدب العربى ما يزيد من رجحان كفة قديم الشعر على حديثه ، وهو صدور القديم عن طبع وحياة ، وصدور أغلب الحديث عن تقليد وفن » ^(٣) .

ويرى ابن رشيق أن الذى دعاهم إلى ذلك إنما هو حاجتهم فى الشعر إلى الشاهد وقلة نقمتهم بما يأتى به المولدون ، ثم صارت لاجابة .

(١) قال أبو العباس المبرد : « ومن حلوا المراثى ، وحسن التأين شعر ابن منذر ، فإنه كان رجلا عالما مقدما ، شاعرا مقلقا وخطيبا مصقعا وفى دهر قريب ، فله فى شعره شدة كلام العرب بروايته وأدبه ، وحلاوة كلام المحدثين بمصره ومشاهدته ، ولا يزال قد روى فى شعره بالمثل السائر ، والمعنى اللطيف ، واللفظ الفخم الجليل ، والقول المتسق النبيل » .

وأكثر القصيدة المذكور فى الكامل ج ٤ ص ٢٩٧ وما بعدها من رغبة الآمل .

(٢) ديوان الطائي ج ١ ص ٣٦٢ .

(٣) النقد للنهجي عند العرب ص ١٣ ، للدكتور محمد مندور .

ويعمل ابن خلدون عدم تذوق الجديد بأنه غريب ، فقد جاء في المقدمة عند الكلام على أشعار العرب ، وأهل الأمصار بعهد ما نصه : « ولهم - يريد عرب هذا الجيل - فن آخر ، كثير التداول في نظمهم ، يحيثون به معصبا على أربعة أجزاء ، يخالف آخرها الثلاثة في رويه ، ويلزمون القافية الرابعة في كل بيت إلى آخر القصيدة شبيها بالمرج والمخمس الذي أحدثه المتأخرون من المولدين ، ول هؤلاء العرب في هذا الشعر بلاغة فائقة ، وفيهم الفحول والمتأخرون ، والكثير من المنتحلين للعلوم لهذا العهد ، وخصوصاً علم اللسان يستنكر صاحبها هذه الفنون التي لهم إذا سمعها ، ويمج نظمهم إذا أنشد ، ويعتقد أن ذوقه إنما نبا عنها لاستهجانها وفقدان الإعراب منها ، وهذا إنما أتى من فقدان الملكة في لغتهم ، فلو حصلت له ملكة من ملكاتهم لشهد له طبعه وذوقه ببلاغتها إن كان سليماً من الآفات في فطرته ونظره ، وإلا فالإعراب لا مدخل له في البلاغة ، إنما البلاغة مطابقة الكلام للبصود ، ولتقتضى الحال من الوجود فيه ، سواء كان الرفع دالاً على الفاعل ، والنصب دالاً على المفعول أو بالعكس ، وإنما يدل على ذلك قرائن الكلام ، كما هو في لغتهم هذه ، فالدلالة بحسب ما يصطلىح عليه أهل الملكة ، فإذا عرف اصطلاح في ملكة ، واشتهر صحت الدلالة ، وإذا طابقت تلك الدلالة المقصود ، ومقتضى الحال صحت البلاغة ، ولا عبرة بقوانين النحاة في ذلك ، وأساليب الشعر وفنونه موجودة في أشعارهم هذه ما عدا حركات الإعراب في أواخر الكلم ؛ فإن غالب كلماتهم موقوفة الآخر ، ويتميز عندهم الفاعل من المفعول ، والمبتدأ من الخبر بقرائن الكلام ، لا بحركات الإعراب ، (١) .

ولسنا نحب أن تناقش رأى ابن خلدون هنا في حكمه بأن الإعراب ليس ضرورياً للبلاغة ، لأن غرضنا - فقط - أن نثبت رأيه في تعليل كره المحافظين للجديد .

* * *

ورأينا بجانب هؤلاء نقادا وأدباء ومتأدبين يدعون على القديم بالويل والثبور

وعظائم الأمور؛ فهذا يدعو إلى تحطيم عمود الشعر العربي مرة واحدة، وذلك يحكم حكماً لا يحتمل - عنده - نقضاً بأن الشعر العربي كله هراء، ومهزلة بين الآداب العالمية، وثالث يشبه القديم (بالخلاوى المحمضة) ويدعو بالويل لمن لا يماشى الزمان، ويظل قاعداً أمام دكانه ينش الذباب عن هذه (الخلاوى المحمضة) (١) ١.

والمعتدلون يقولون على القديم اعتزازاً به، ولما فيه من سحر وبلاغة، وإن كان بعضهم يرى أنه لا يصلح لزماننا هذا.

كتب أبو القاسم الشابي الشاعر التونسي المعروف فصلاً يقول فيه: «إذا كنت أدعو إلى التجديد الأدبي وأعمل له، فإن ذلك لا يدفعني إلى الهزء والسخرية بآداب الأجداد، بل لأنني لأؤمن كل الإيمان بما فيها من جمال وسحر قوى، وأعتقد أنها قد آتت في عصورها الحية لأجدادنا كل ما طمحت إليه أشواقهم من غذاء قوى دسم، ولكنني أؤمن إلى جانب ذلك أن في الحياة آفاقاً مجهولة ساحرة غير ما في الأدب العربي من آفاق، وأن هذا الأدب إذا كان قد سدّ خلة آبائنا الروحية، فإنه لعاجز كل العجز عن أن يشبع ما في أرواحنا من جوع وعطش وطموح، وأنه إذا كان لزماً علينا أن نعجب بهذا الأدب، ونفخر به كحلفة من سلسلة ذاتيتنا العربية، وكنتم ذهبي نرجع إليه كلما أردنا أن نصوغ لأفكارنا حليها الساحر الجميل فإن ذلك الإعجاب لا ينبغي أن ينقلب في نفوسنا إلى تقديس فعبادة لجمود، فإطباق لأبصارنا عن كل ما في السماء من أشعة ونجوم.

هذا رأيي، وهذا بعض مادعوت إليه في كتابي: «الخيال الشعري عند العرب»، وما أحسب في مثل هذا شيئاً من الغلو والإغراق، أو تنقص أدب الأجداد أو الزاوية عليه، (٢).

ولعل نظرة الشابي هذه هي نظرة الكثرة من دعاة التجديد، وإن كان فيهم من يرتفع بالآداب العربية القديمة فوق هذا المستوى الذي وضعها فيه هذا الشاعر؟

(١) جدد وقدماء: ص ١٣٩، لمارون عبود.

(٢) مجلة أبولو سنة ١٩٣٣ ص ١١٧٢، الشابي حياته وشعره ص ٥٧، لأبي القاسم كرو -

أَنْبَاءٌ وَآرَاءُ

فقيد الإسلام : الإمام « البروجردى » :

إنه ليعز على جماعة التقريب في مركزها العام بالقاهرة ، وفي مختلف مراكزها في العالم ، وعلى أسرة « رساله الإسلام » ، أن تنعى إلى كل مسلم في مشارق الأرض ومغاربها ، بل إلى كل عامل على توطيد دعائم السلام في هذا العالم الذى ينوء تحت أعباء جسام يثقله بها مثيرو الحقد والنزاع والخصومات في مختلف الشعوب والأمم والمذاهب . . . يعز علينا أن ننعى إلى هؤلاء جميعاً فقيد الإسلام المغفور له : السيد حسين الطباطبائي البروجردى الذى توفى صباح الخميس ١٣ من شوال سنة ١٣٨٠ هـ الموافق ٣٠ آذار (مارس) سنة ١٩٦١ م ، عن عمر مبارك يناهز التسعين عاماً ، والذى ملأ الدنيا علماً وبراً وسعياً حميداً ، وجهاداً مشكوراً في خدمة الإسلام والمسلمين ، والذى كان من أكبر العاملين على جمع كلمة المسلمين ، والذى أدركته منيته ولسانه رطب بذكر الله ، وبالوصية بالتقريب وأهله ودعوته ، التى هى سباج الإسلام وجوهر رسالته .

إننا ننعى هذا العالم الرباني الأعظم لكل هؤلاء ، لأنه لم يكن رجل طائفة فحسب ، أو صاحب مذهب معين ، أو القائد الروحي لشعب بذاته ، وإنما كان رجل الدنيا والدين للناس جميعاً ، وللإسلام كله بمختلف مذاهبه وعلومه ، وطوائفه وأفراده .

أغدق الله على جدته الطاهر من سحائب رضوانه ، وبعثه - فى زمرة جده الأعظم الذى بعثه الله رحمة للعالمين ، وآله الطيبين الطاهرين ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

إن مآثر عظمى ، ومفاخر كبرى تذكر لهذا الفقيد العظيم ، ولو شئنا أن نسجل هذه المآثر ، وندرس آثارها وثمراتها على العلم والدين ، والصلوات الوثيقة بين

المسلمين ، لطلال بنا القول ، ولاحتجنا إلى مئات الصفحات ، ولكننا نكتفي بناحية من نواحي عظمته ، هي تلك الناحية التي تخص التقريب .

لقد كان رضى الله عنه إمام الشيعة الاثنا عشرية في أبرز حلقات هذا القرن الذى نعيش فيه ، هو مرجعهم الذى إليه يرجعون ، وكهفهم الذى إليه يأوون ، وكان أعظم ما يشغله أن المسلمين ودينهم واحد ، وربهم واحد ، ورسولهم واحد ، وكتابهم واحد ، ما يزالون مختلفين تتقاطع شعوبهم ، وتختلف طوائفهم ، ويتنازع علماءهم ، والعالم من حولهم غير مكترث بهم ، ولا ناظر إليهم إلا كما ينظر الصائد إلى فريسته ، وربما أحس بخلافاتهم بعض رجال الاستشراق الذين هم فى أغلب الأمر رواد الاستعمار ، فسرّهم وأثلج صدورهم هذا الخلاف ، وعملوا على زيادته ، وتأريث نيرانه فيهم ، حتى يظل أمرهم فى ضعف وتأخر ، وحتى يسهل ازدياد شعوبهم وثمراتهم ومرافقهم شعباً بعد شعب ، وثمرة بعد ثمرة ، ومرفقاً بعد مرفق .

والذين فطنوا إلى هذا الخطر الداهم من علماء المسلمين وزعمائهم كثيرون فى مختلف العصور ، ولكن الذين اتخذوا فى شأنه خطوات عملية ، ورفعوا لواء الجهاد ليدروا عن الأمة شره ، إنما هم أفراد معدودون سوف يأتى الوقت الذى يعرفون فيه ، وتعرف جهودهم ، وتوزن بميزان التاريخ أعمالهم الصالحة المجيدة التى كانوا وما يزالون يقومون بها فى صمت ومثابرة وإنكار نفس واختفاء ، وكان هذا الإمام العظيم منهم ، وفى مقدمة صفوفهم .

لقد كان مركز إمامته فى « قم » تلك البلدة المباركة التى يتمثل فيها علم الشيعة الإمامية الاثنا عشرية بإيران .

وكانت « قم » بمثابة خلية تضم مئات العلماء وطلاب العلم ورواد المعرفة الذين يفدون إليها أو يقيمون فيها اقتباساً لبركانها ، والتماساً لعلم إمامها وبره ، فكان رضى الله عنه لا يفتأ يبيت هذه النفوس المتقبلة ، والقلوب المتعطشة ، دعوة الإسلام صافية كعهد ما يوم كان الرسول صلوات الله عليه وآله يبيتها ، ويؤلف القلوب عليها ، ويربط المؤمنين برباطها ، وكانت غايته دائماً هى أن يقر فى قلوب تلاميذه ومريديه

وأتباعه أن الإسلام هو دين الله الذي عليه كل من آمن بمحمد نبياً ورسولاً ،
وبالقرآن كتاباً ، وبالصلوات الخمس وبقية أركان الإيمان فرائض واجبة الأداء ،
واتجه إلى القبلة المقدسة في مكة المكرمة ، وأن كل خلاف وراء الأصول
الأساسية للإيمان إنما هو خلاف ثانوى لا يخرج به المسلم عن دينه ،
ولا تنقطع به أخوته ، ولا يحرم به من حقوقه على إخوانه المسلمين ، وكان
هناك تليذ له ومريد يبدو ذكاؤه ويبرق نور الإيمان من وجهه ، قد أنجبه
والد نجيب من أهل العلم والرأى والاجتهاد ، ومن خيرة الأسر ، فاصطفاه لنفسه ،
وارتضاه أميناً على أمنيته ، ولمح فيه القوة والقدرة والحكمة والوعى والفقه ، ومن
ثم عقدت بينهما المحبة في الله ، والرغبة في خدمة الإسلام والمسلمين ، رباطاً وثيقاً
وفهماً عميقاً ، ثم أراد الله أن يأتى الشاب إلى مدينة القاهرة ، وأن يبقى الشيخ في
مدينة « قم » ، وأن يتصل بين المركزين روح أثري متجاوب من تلك النفحات
الربانية التي يجود الله بها على الناس حيناً بعد حين ، فكان التقريب وكانت جماعته
وكانت رسالته ! .

ثم كان شيوخ الأزهر الأعلام الكبار الذين تولوا في العصر الحديث مشيخته
أو مناصبه العلمية ، من الاستاذية الكبرى ، أو الفتوى ، أو رئاسة المذاهب الأربعة ،
أو غير ذلك - كانوا طليعة الطليعة في هذا الجهاد المبارك لجمع كلة المسلمين ، وتأليف
قلوبهم ، والسعى الحميد لحل ما عسى أن يكون بينهم من مظاهر خلاف .

ثم كان أن التقى علم الفريقين أولاً بالمكاتبة والمراسلة ، وثانياً على صفحات
مجلة رسالة الإسلام ، وثالثاً في مدرجات الدراسة في جامعة الأزهر العتيدة ذات
التاريخ المجيد ، حيث يستمع الطلاب إلى أساتذتهم ، وهم يقررون - في أحكام الشريعة
فروعها وأصولها ، ومنايع أدلتها ورواياتها ، ومصطلح حديثها ، وتاريخ رجالها -
رأى السنن والشيعة ، وقول الموافق والمخالف ، وحجة هذا وذاك من الفريقين .

ولعمري إنها لإحدى مفاخر هذا العصر ، وإن لها لآثاراً بعيدة سوف تعمق
في العلم والدين ، وسوف تقوى بها شجرة الإيمان ، فلا يقدر عليها ما يستنبت
حولها ليضعفها بفعل أعداء الإسلام ! .

والآن وقد صار الشيخ إلى العالم الباقي مع الصديقين والشهداء والصالحين ،
فإن لنا آمالاً كباراً في الرائد المريد ، وفيمن معه على دعوة الحق ، وعهد الصدق ،
حفظه الله وحفظهم ، وأيدهم به وأيده بهم لأنهم أمناء التقريب وهو أمينهم :

وليس يذهب ، من سيد أبدأ إلا اقتلنا ، إماماً ، سيداً فينا

وعزاء أمة الإسلام ! محمد محمد المدني

عميد كلية الشريعة بجامعة الأزهر

ورئيس تحرير رسالة الإسلام

لمحة عن تاريخ الفقيه :

وقد كتب الأستاذ الكبير صادق نشأت هذه الكلمة يعرف بها - في إيجاز -
عن بعض النواحي في تاريخ الفقيه العظيم :

في غربي إيران مدينة تسمى « بروجرد » طيبة الهواء ، خصبة المنبت ، مشهورة
بكثرة الخيرات ، ووفرة الثمرات ، هادئة في مظهرها تمثل الوقار والصفاء ، وتضفي
على كل ما فيها وكل ما حولها روحاً من السمو والطهر ، ومع أن هذه المدينة رغم
ميزتها المذكورة ليست على شيء من التقدم والعمران المحسوس إذا قيست بغيرها
من أمهات المدن الإيرانية ، فإنها تستحق أن تعز بشرف بالغ لأنها احتضنت منذ
قرنين أو أكثر أسرة اختصت بطول باعها وسعة معارفها في الشريعة الإسلامية ،
ولا غرو فإنها تنتمي إلى الدوحة المحمدية المباركة ، هذه الأسرة هي بيت السادة
الطباطبائية الذين هم من صلب الإمام جعفر الصادق الرائد الأول للذهب الجعفري
والإمام السادس عند الشيعة الإمامية الاثنا عشرية .

إن البيت الطباطبائي في بروجرد قد أنجب للعلم وأهله فحولاً من العلماء في عالم
الشيعة وأشهرهم السيد مهدي بحر العلوم ، عميد آل بحر العلوم في النجف الأشرف ،
والسيد ميرزا علي صاحب كتاب الرياض في الفقه بكر بلاء مشهد الحسين بالعراق ،
ومع أنه يمكن أن نقدم للقراء فحولاً آخرين من هذه السلالة ، إلا أننا نراعي
للإيجاز نكتفي بذكر الرجل الذي عاصرنا وعاش معنا ، وكان آخر عهدنا به منذ

عامين مضيا ، وذاك هو السيد الأجل والحبر الأعظم السيد الحاج آقا حسين البروجردى ، الذى كان ولا يزال الإيرانيون يخاطبونه قولا وكتابة بآية الله العظمى (آقاى بروجردى) على حد تعبيرهم الذى لا يختص به إلا القلائل من العلماء الدينيين الذين يكونون على سويته أو مرتبته فى العلوم الإسلامية العقلية والنقلية .

كان السيد الإمام آية الله البروجردى الذى يقام له ويتمعد فى شبابه قد بدأ دراسته فى مسقط رأسه مدينة بروجرد ، ثم انتقل منها إلى أصفهان وقم ، وبعد أن أحرز قسطاً وافياً من العلم والتهديب الدينى رحل إلى النجف الأشرف الذى يعتبر المجمع العلمى الدينى عند الشيعة ، والمعهد الذى يعلم طلاب العلوم من أصول وفقه وحديث وتفسير وفلسفة إلهية ، وهناك استطاع أن يبلغ فى درجة الكمال المطلوب والرتبة المعهودة لعلماء الشيعة ممن ينالون درجة الاجتهاد ، الذى لا يزال بابه مفتوحاً فى عرف الشيعة وتقاليدهم ، وهذه الدرجة - أى الاجتهاد - هى التى تؤهل صاحبها أن يكون مرجعاً للتقليد لاتباع المذهب ، ويأخذون بآرائه فى المسائل الفقهية ، سواء كانت صريحة ، أو تأمر المقلد بالسير فيها على قاعدة الاحتياط وترجيح الأفضل على المفضول وهكذا .

هذا وينبغى العلم بأن من حسن الطالع أن السيد البروجردى استطاع إبان تلبذته أن يلتحق بالحلقات التى كانت تعقد للدراسات الدينية من فقه وأصول على يد أكبر علماء العصر من مثل المرحوم الآخوند ملا محمد كاظم الخراسانى الذى قيل عنه بأنه كان يحضر تحت منبره بتدريس (الخارج) والمقصود به المحاضرات التى يلقيها أكبر العلماء على من بلغوا درجة الاجتهاد أو أشرفوا على بلوغها ، وبعد الفراغ من هذا كله عاد إلى مسقط رأسه فى بروجرد ، وبقي هناك مشغولاً بالعلم والتدريس من جهة ، ومباشراً لمزايعه من جهة أخرى إلى أن وافته المنية الشيخ الإمام الشيخ عبد الكريم اليزدى مرجع التقليد الدينى فى إيران وأنحاء العالم الشيعى منذ ثلاثين سنة حيث كان مقبياً فى مدينة قم المشهد الدينى الذى ينظر إليه الشيعة فى إيران كحاضرة دينية ، فرحل الإمام البروجردى لإجابة لدعوة العلماء والطلاب المقيمين فى مدينة قم إلى تلك البلدة المقدسة ، واشتغل هنالك بالتدريس والإرشاد ، ولم تنقض سنتان أو ثلاث إلا ولمع اسمه وتعرف به الناس من قريب وبعيد ، ثم انحصرت فيه

مرجعية التقليد للشيعة بعد وفاة السيد أبو الحسن الأصهباني مرجع التقليد الشيعي في النجف الأشرف .

واختص السيد الإمام نتيجة ذلك برعامة المذهب الإمامي الاثنا عشرى في إيران وخارجها ، واستطاع أن ينهض بأعباء هذا الأمر العظيم بكل ما أوتي من حول وقوة في العلم والعمل والخلق الكريم والسجيا التي ينتظر توفرها في زعيم مثله ، فكان رضى الله عنه بالإضافة إلى مشاغله العلمية ، ومواظبته على العبادة والقيام بواجبات الإمامة في الفتاوى وصلوات الجماعة ، كان لا ينسى أن يراجع آراء من سبقه من المجتهدين ومناقشتها ، وترتيب الفتاوى على ضوءها ، واستنتاج أحكام الشرع على ضوء ما يأمر به الشرع والعقل ، كان لا ينسى رعاية أحوال الطلاب الذين اجتمعوا في قم بغية الاستفادة والتعلم على يده من تجاوز عددهم الألفين ، كان مع هذا كله لا يغفل عن تأليف الرسائل العملية في الأحكام والعبادات ، وإيفاد العلماء للإرشاد وتدريب العامة إلى أنحاء إيران وخارجها حتى الهند وباكستان وسوريا ولبنان والمدينة المنورة وبعض العواصم الأوروبية مثل باريس وغيرها ، وأما الأمر الذى مهد بصورة خاصة الزعامة لهذا العلامة فقد كان إلى جانب ورعه وتقواه المهمة وسعة الصدر صرف مئات الآلاف من الجنيهات في كل عام لمساعدة الفقراء والمعوزين خصوصا طلاب العلم من وجوه البر والخيرات التي كانت تصل إليه بواسطة مقلديه وأتباعه ، فكان أكثر طلاب العلوم الدينية في النجف إذا لم نقل كلهم بما فيهم العلماء الكبار يعيشون بما يصل إليهم من وجوه البر التي يبعث بها السيد الإمام البروجردى ، فضلا عن ذلك فإنه لم يغفل عن أن يترك من بعده مباني دينية تذكر بعده مثل مبنى مكتبة الإمام أمير المؤمنين على بن أبي طالب في النجف ، والمدرسة العلمية المعروفة باسمه هناك ، والجامع التذكاري العظيم ، والمدارس الدينية في مدينة قم ، وبنتيجة هذه الأعمال وغيرها مما لا يسع المجال لعهده ، تلقى الشعب الإيراني والعالم الشيعي نبأ وفاته كأكبر مصاب للإسلام في العهد الحاضر وحزن الناس عليه في كل مكان بما فيهم الملوك والأمراء والوزراء والأثرياء والفقراء وهذا لعمري جزاء من أخلص في عمله وعمله ، وكرس حياته لخدمة الإسلام وأهله ، رضى الله عن الفقيد ، وجزاء عن دينه وأمه خير الجزاء .

اسمعوا أيها المسلمون :

العالم المسيحي يعمل الآن على التكتل ، ويحاول رجال الدين فيه أن يأتلفوا ويتحدوا ، على ما بينهم من فروق جوهرية في العقيدة ، وفي الكتب التي يدينون بها ، وهناك نشاط كنسي واسع النطاق لتحقيق هذا الأمل ، فالصلوات تقام ، والنشرات توزع ، والبرقيات ووكالات الأنباء والمؤتمرات كلها قائمة على قدم وساق تؤيد الاجتماع والوحدة ، وتدعو إليهما في إلحاح ومثابرة .

فليسمع المسلمون ذلك ، وليعرفوا مرماء وأغراضه القرية والبعيدة .

إن هذا التكتل يراد به الوقوف صفاً واحداً أمام دعوة الإسلام ، بعد أن فشلت جمعيات التبشير ودعايات أهل الأغراض الاستعمارية من المستشرقين ، ورضى الله عن أمير المؤمنين على بن أبي طالب إذ يقول في بعض خطبه :

« يا عجا كل العجب ، عجب يمت القلب ، ويشغل الفهم ، ويكثر الأحزان ! من تصافر هؤلاء القوم على باطلهم ، وفشلكم عن حقكم ، حتى أصبحت غرضاً ترْمُون ولا ترْمُون ، ويُغار عليكم ولا تُغيرون ، ! »

فإذا كان بقي في بعض طوائف الأمة الإسلامية من يتنكبون طريق الألفة ، ويعملون على بث الفرقة ، وإحياء العداوات البغيضة التي عتق عليها الزمان ، فإننا نوجه إليهم هذا الكلام العلوي الحكيم ، متعجبين من موقفهم إزاء إخوانهم المؤمنين ، مع موقف أعداء الإسلام في التأليف والدعوة إلى الوحدة .

وهذه مقتطفات مما اشتملت عليه آخر نشرة من قسم النشر والاستعلامات المسيحي :

نشرة قسم النشر والاستعلامات
للجلس الكنسي الدولي مركزها جنيف :

أسبوع الصلاة من أجل الوحدة :

جنيف — مرة أخرى يجتمع مسيحيو أكثر من خمسين قطرا في الأيام من

١٨ إلى ٢٥ يناير سنة ١٩٦٢ ، وسوف يصلون من أجل الوحدة .

إن موضوع أسبوع سنة ١٩٦٢ سيكون : الخدمة ، لأننى بينكم نخادم - انجيل
لوقا ٢٢ - ٢٧ .

وهو فى الوقت نفسه أحد الموضوعات الثلاثة التى ستدرسها جمعية المجلس الكنسى
الدولى التى ستعقد بنىودلى - الهند - ابتداء من ١٨ نوفمبر إلى ٦ ديسمبر سنة ١٩٦١ .
أن قسم العقيدة والنظام الأساسى من المجلس الكنسى الدولى الذى ينظم منذ سنوات
عدة أسبوع الوحدة قد أصدر مرشداً صغيراً يستوحى صلوات ومطالعات من
التوراة ، كما أصدر كتيبا لجماعة الكاثوليكين الرومانيين يعالج الموضوع نفسه .

ويوجه الأستاذ لوкас فيشر سكرتير قسم العقيدة والنظام الأساسى الأنظار
إلى تزايد عدد الذين يحضرون أسبوع الصلاة ، ويسعده بصفة خاصة مشاركة البلاد
الآسيوية فى هذا العمل .

« قريبا تفتح الجمعية الثالثة للمجلس الكنسى الدولى » .

جنيف — من ١٨ نوفمبر إلى ٦ ديسمبر ، يجتمع ممثلو ١٧٥ كنيسة ، هم أعضاء
المجلس الكنسى الدولى بنىودلى ، ومنهم البروتستانتيون ، والانجليكانيون ،
والأرثوذكسيون ، والكاثوليكون ، ويبلغ عددهم ألفا ، منهم ٦٢٥ مندوبا رسميا ،
والباقيون مراقبون ومستشارون ومندوبون عاديون ومدعوون .

ولإنها للمرة الأولى التى تنعقد فيها جمعية المجلس الكنسى الدولى فى آسيا .
لذا انعقد الاجتماعان السابقان أحدهما فى امستردام ، والآخر فى إيفانستون -
الولايات المتحدة .

ومن بين القرارات المهمة التى ستتخذها الجمعية الاعتراف باندماج المجلس
الكنسى الدولى ، ومجلس التبشير الدولى ، وكذلك يتحقق توحيد أكبر هيئتين
مسيحيتين دوليتين : وحدة وتبشيرا .

كذلك تتخذ الجمعية قراراً بشأن مرشح الكنيسة الروسية الأرثوذكسية لعضوية
المجلس الكنسى الدولى ، وبما هو جدير بالملاحظة أنه سيحضر جمعية بنىودلى
مراقبون كاثوليكون ورميون عددهم خمسة عيقتهم سكرتيرية الفاتيكان من أجل

وحدة الأمة المسيحية . ولم يحدث من قبل أن حضر انعقاد الجمعية مراقبون رسميون من الكاثوليكين .

إن الموضوع الأساسى الذى سيعرض على جمعية « عيسى المسيح نور الكون » يتفرع إلى ثلاثة أقسام : الشهادة ، والخدمة ، والوحدة . وسيعالج موضوع الوحدة الأستاذ جوزيف ستلر الفقيه اللوثرى الأستاذ بجامعة شيكاغو . وموضوع الشهادة الأستاذ دفينندان مدير المعهد المسيحى لدراسة الدين والمجتمع ببينجالير « الهند » وموضوع الخدمة الأستاذ نائيك الأستاذ بجامعة دوشيشا بكيوتو « اليابان » .

تاكيناكا :

وابتداء من جلسة الأحد بعد الظهر يتناول المندوبون دراسة مشروع ضم المجلسين : المجلس الكنسى الدولى ، ومجلس البعثات التبشيرية الدولى ، وإن كان قد سبق أن وافقت أغلبية الأعضاء ، وهكذا يتحقق توحيد أكبر هيئتين مسيحيتين تسعيان فى القرن العشرين لتحقيق الوحدة المسيحية لتصبحا هيئة واحدة .

لندن — صرح اللورد فيشر أوف لامبث رئيس أساقفة كنتربرى السابق صرح أمام المجلس البريطانى للكنائس أن كنيسة روما لم تعد بعد عدوا ، بل أصبحت حليفة للكنائس الأخرى ، وأن ذلك لتطور مدهش ، بل فصل جديد من فصول التاريخ العام وفصول التاريخ المسيحى بصفة خاصة ، إن الخلاص أو السلامة لا يبدأ إلا حين يعترف الإنسان بأخطائه ويعلن أسفه ، ولقد بدأت كنيسة روما تعقل هذا ، وكذلك بدأنا نحن .

القدس — صرح الراعى هنريك جروبر من برلين الغربية بأنه يجب أن تكون علاقات ودية بين اليهود والمسيحيين على أسس جديدة بحيث تتمتع الكنائس المسيحية عن مباشرة التبشير فى الأوساط اليهودية ، فلقد فقدت الكنائس هذا الحق بعد الذى جرى بين اليهود والنصارى ؟

رجاء من التقريب

إلى الكتاب والباحثين

١ - نرجو من الكاتب الإسلامى أن يحاسب نفسه قبل أن يخط أى كلمة ، وأن يتصور أمامه حالة المسلمين وما هم عليه من تفرق أدّى بهم إلى حضيض البؤس والشقاء وما نتج عن تسمم الأفكار من آثار تساعد على انتشار اللادينية والإلحاد .

٢ - ونرجو من الباحث المحقق - إن شاء الكتابة عن أية طائفة من الطوائف الإسلامية - أن يتجرى الحقيقة فى الكلام عن عقائدها ، ولا يعتمد إلا على المراجع المعتبرة عندها ، وأن يتجنب الأخذ بالشائعات وتحميل وزرها لمن تبرا منها ، وألا يأخذ معتقداتها من مخالفيها .

٣ - ونرجو من الذين يحبون أن يجادلوا عن آرائهم أو مذاهبهم أن يكون جدالهم بالتي هي أحسن ، وألا يجرحوا شعور غيرهم ، حتى يمهّدوا لهم سبيل الاطلاع على ما يكتبون ، فإن ذلك أولى بهم ، وأجدى عليهم ، وأحفظ للبودة بينهم وبين إخوانهم .

٤ - من المعروف أن سياسة الحكم والحكام ، كثيراً ما تدخلت قديماً فى الشؤون الدينية ، فأفسدت الدين وأثارت الخلافات لا لشيء إلا لصالح الحاكمين ، وتثبيتاً لأقدامهم ، وأنهم سخطوا - مع الأسف - بعض الأقلام فى هذه الأغراض ، وقد ذهب الحكام وانقضوا ، بيد أن آثار الأقلام لا تزال باقية ، تؤثر فى العقول أثرها ، وتعمل عملها فعليتنا أن نقدر ذلك ، وأن نأخذ الأمر فيه بمنتهى الحذر والحيلة .

*** **

وعلى المجلة نرجو ألا يأخذ أحد القلم ، إلا وهو يحسب حساب العقول المستنيرة ، ويقدم مصلحة الإسلام والمسلمين على كل اعتبار .

من القانون الأساسي لجماعة التقريب

المادة الثانية

أغراض الجماعة هي : -

أ - العمل على جمع كلمة أرباب المذاهب الإسلامية و الطوائف الإسلامية ، الذين باعدت بينهم آراء لا تمس المقائد التي يجب الإيمان بها .

ب - نشر المبادئ الإسلامية باللغات المختلفة وبيان حاجة المجتمع إلى الأخذ بها .

ج - السعي إلى إزالة ما يكون من نزاع بين شعبين أو طائفتين من المسلمين ، والتوفيق بينهما .

فهرس

٣	كلمة التحرير
٥	تفسير القرآن الكريم
١٩	لفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت
٢٣	لحضرة صاحب السباحة الأستاذ محمد تقى النسي
٣٣	لحضرة الكاتب الفاضل الأستاذ أحمد محمد بربرى
٤٩	لأستاذ على الجندى
٦٣	لفضيلة لأستاذ الشيخ محمد محمد المدنى
٨٥	لفضيلة المغفور له الدكتور محمد عبد الله دراز
٩٢	لفضيلة الأستاذ الفيح على محمد حسن العمارى
١٠١	أما اللغة
١٠١	أبناء وآراء
١٠٤	فقيد الإسلام الإمام (البروجردى)
١٠٧	لمحة عن تاريخ الفقه
	اسمعوا أيها المسلمون

رَسَالَةُ الْإِسْلَامِ

مَجْلَدٌ إِسْلَامِيٌّ عَالِيٌّ
تَتَمَدُّ عَنْ دَارِ الْقُرْبَيْنِ إِلَى الْمَدَائِنِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِالْكَلَامِ

(العدد ٤٩) المجموعة الثانية

شعبان ١٣٨١ هـ — يناير ١٩٦٢ م

رئيس التحرير : محمد محمد الدلفى مدير الإدارة : عبد العزيز محمد عيسى
الإدارة : ١٩ شارع حشمت باشا بالزمالك . القاهرة - تليفون ٨٠٤٦٨٩
قيمة الاشتراك فى السنة للأفراد : خمسون قرشاً مضمراً أو ما يكاد لها

رسالة الإسلام

مجلة إسلامية عالمية

تصدر عن دار البقرية بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

العدد ٥٠
أبريل ١٩٦٢

المجموعة الثانية
ذو القعدة ١٣٨١ هـ

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً
وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونُ
"قرآن کریم"



هناك مجاهدون ، وهناك محترفون في زى المجاهدين :

فإذا رأيت العمل الكثير ، والكلام القليل ، والحياء ، والاستخفاء ، وإنكار النفس ، والزهد في المدح ، والبعد عن الضجيج ، ومحبة النصحاء ، وتقريب الحكماء ، فاعلم أن هناك الجهاد الصادق .

وإذا رأيت الكلام الكثير ، والعمل الضئيل ، وعلو الصوت كأنه جلبة في ميدان حرب ، والحرص على الظهور ، والتعرض للأضواء ، والإنصات إلى المادحين ، وكراهية الناصحين ، وتقريب الضعفاء ، والخوف من الأقوياء ، فاعلم أن هناك لونا من ألوان الاحتراف سمي زورا وخداعا باسم الجهاد .

وإن شئت أن تلخص ذلك كله في جملة قصيرة ؛ فقل : « إنما الجهاد هو الإيثار والتضحية ، لا الأثرة والأنانية » .

إن المجاهد الحق رجل صفا من كل شائبة من شوائب الأثرة ، فلم يعد يرى نفسه . إنه لا يرى إلا المثل الأعلى الذى تجلى له واضحا لا يحول دونه حائل ، وبدأ أمام بصره وبصيرته جميلا أخذا لا يستطيع عنه انصرافا .

إنه يرى الله فى مثله الأعلى فيعشقه ، ويصدق فى عشقه إلى درجة التفانى ، ذلك بأن المثل العليا ما هى إلا أقباس من نور الله الذى أشرقت به الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة .

لذلك نرى المجاهد الحق منبعثا فى جهاده لا يدرى على شيء ، ولا يهاب شيئا ، بل نراه وكأنه ليس هناك شيء حتى يلقى عليه ، وليس هناك شيء حتى يهاجمه أو يتفهمه دونه .

فلا عرض الدنيا يدفعه ، ولا مرض القلب يمنعه ! .

ذلك هو المجاهد لتكون كلمة الله هي العليا .

سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الرجل يقاتل للنعم ، والرجل يقاتل ليُذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، من في سبيل الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ؛ فهو في سبيل الله . وفي حديث آخر : « إن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة رجل استشهد ، فأُتِيَ به ، فعرفه نعمته ، فعرفها ، قال : ما عملتَ فيها ؟ قال : قاتلتُ فيك حتى استشهدتُ ، قال : كذبتُ ، ولكن قاتلتُ لأن يقال هو جريء وقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، .

والمجاهد الحق لا يكون إلا دُهبة ، من الله ، يهبها بمحض الفضل ، لامة من الأمم ، أو لفكرة من الفكر ، أو لدعوة من الدعوات .

وواحد من هؤلاء خير من الآلاف ، بل خير من الملايين ! .

أما المحترفون المتكلفون ، فإنما هم بغاة عَرَضَ زائل ، وحظ عاجل ، وليس ذلك من الله في شيء ، لهذا يكلمهم الله لأنفسهم ، وأنفسهم خاوية ، فهم يحاولون ملء فراغها بما يثرثرون ويهرجون ، يَئيد أن الناس لا يلبثون أن يعرفوهم ويكشفوا زيفهم وتصنعهم وفساد قلوبهم ، وتلك سنة الله في خلقه :

« أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يُخرجَ الله أضغانهم ؟ ولو نشاء لأريناكم فلعرقتهم بسياهم ، ولتعرفنَّهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم ، ولنبليكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلي أخباركم ، صدق الله العظيم ؟ »

محمد محمد المرقى

نَفْسِ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ

محاضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود سلتوت
شيخ الجامع الأزهر

سُورَةُ التَّوْبَةِ

— ٢ —

أسماء السورة — سورة مستقلة — ترك التسمية في أولها —
تقديم لإعلان البراءة من المفكرين — على يؤذن في الناس يوم
الحج الأكبر بآيات البراءة — المفاضلة بين أبي بكر وعلى —
هما عينا جمال وجلال — آيات المفكرين — آيات أهل الكتاب —
آية تقرير البراءة — آية المهلة — الحكمة في المهلة — الحكمة في
التقدير بأربعة أشهر — آية إعلان البراءة — آية لإتمام مدة
المهد للدوفين — آية معاملة النصر والنائب — آية الأمان —
توسع الإسلام في الأمان .

أسماء السورة:

ويحذر بنا الآن وقد فرغنا من هذا التقديم أن نعود فنقول :

إن هذه السورة قد عرفت من العهد الأول بجملة أسماء ، تدل بمجموعها على
ما اشتملت من المبادئ والمعاني التي يجب مراعاتها في معاملة الطوائف كلها ، مؤمنهم ،
ومنافقهم ، وكتائبهم ، ومشركيهم .

ومن تلك الأسماء وهو أشهرها : التوبة ، وهو يشير إلى ما تضمنته السورة
من تسجيل توبة الله وتمام رضوانه على المؤمنين الصادقين ، الذين أخلصوا في مناصرة

الدعوة ، وصدقوا في الجهاد مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى وصل بهم إلى الغاية ، وذلك في قوله تعالى من السورة : « لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريقتهم ثم تاب عليهم لأنه بهم رموف رحيم ، وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا ألا ملجأ من الله إلا إليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم » .

ولا ريب أن تسجيل هذه التوبة للؤمنين بعد أن كابدوا ما كابدوا في سبيل نصرة الحق والدين لما يقوى روح الإيمان في قلوبهم ، ويعد بهم عن مزالق المخالفة أو التقصير ، وسنعمل كيف فعلت هذه التوبة في نفوس هؤلاء الثلاثة الذين خُلفوا عن غزوة تبوك ؛ وهذا نوع من التربية القوية التي تحفز النفوس إلى الاستمرار في عمل الخير ، وتشجعها على اقتحام ما يكون من عقبات في طريق الفوز برحمة الله ورضوانه .

ومن الأسماء : « براءة » وهو يشير إلى ما تضمنته السورة في أولها من قطع عصمة مشركي جزيرة العرب على الإطلاق ، وعصمة غيرهم حتى يخضعوا لسلطان الإسلام ، والعودة بالجميع إلى حالة الحرب التي كانت بينهم وبين المسلمين قبل معاهدات السلم والأمان ، وذلك في قوله تعالى : « براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين » وقوله : « وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله » .

وقد عرفت بعد هذين الاسمين بأسماء : كالخافرة ، والمثيرة ، والفاضة ، والمنكدة ، وغيرها مما احتفظت به كتب التفسير ، وهي ألقاب أطلقت عليها باعتبار ما قامت به من حفر قلوب المنافقين ، وإثارة أسرارهم ، وفضيحتهم بها ، وتنكيلها لهم ، وقد ورد عن ابن عباس - وقد ذكرت له التوبة - أنه قال : « هي الفاضحة ، ما زالت تنزل فيهم وتنال منهم حتى ظننا أنها لا تبقى أحداً إلا ذكرته : ومنهم ، ومنهم ، ومنهم » ، ويشير بهذا إلى ما جاء في السورة من أصناف المنافقين : « ومنهم من يقول

ائذن لي ولا تفتني ، ألا في الفتنة سقطوا ، . . . ومنهم من يلزك في الصدقات ، فإن أعطوا منها رضوا ، وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون ، . . . ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن ، . . . ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين ، فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون ، . . . ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرمًا ويتربص بكم الدوائر ، . . . ومن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق ، لا تعلمهم ، نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ، ثم يردون إلى عذاب عظيم ، . . . والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد لهنهم لكاذبون ، .

سورة مستقلة :

وهذه الأسماء وغيرها مما ثبت لإطلاقة على السورة من الصدر الأول ، لم يُعرف إطلاق واحد منها على السورة التي قبلها وهي سورة الأنفال ، كما لم يعرف أن أطلق اسم الأنفال على هذه السورة ، وبذلك احتفظت كل من السورتين منذ العهد الأول بما لها من اسم لم تشاركها فيه صاحبتها ، وكما احتفظت كل من السورتين بما لها من اسم ، احتفظت كل منهما بوقت نزولها ، فسورة الأنفال نزلت بعد غزوة بدر ، أي في السنة الثانية من الهجرة ، وسورة التوبة نزلت بعد تبوك ، وبعد خروج أبي بكر على رأس المسلمين إلى الحج ، أي في أواخر السنة التاسعة ، وكما احتفظت كل منهما بهذا وذاك ، احتفظت كل منهما بهدفها الخاص ، فسورة التوبة عاجلت شتونها حدثت بعد زمن طويل من نزول سورة الأنفال ، ومعرفتها باسم سورة الأنفال ، وسورة الأنفال عاجلت شتونها حدثت قبل نزول سورة التوبة ولم يرد لها ذكر فيها .

ولا شك أن كل هذه الاعتبارات الواضحة البينة ، والمحقة في السورتين من الصدر الأول ، تدل دلالة واضحة على أنهما سورتان منفصلتان ، وأن عدما سورة واحدة رأى لا قيمة له ، كما لا قيمة لاشتباه في استقلال كل منهما حتى يقال تركت البسمة بينهما نظراً لاحتمال وحدتهما ، وتركتهما بينهما فرجة نظراً لاحتمال انفصالهما .

ترك التسمية في أولها :

أما ترك التسمية بينهما فلأنها لم تنزل بينهما كما نزلت بين كل سورة وسابقتها ، ولم تكن كتابتها بين السورتين أو تركها إلا بتوقيف ووحى ، وقد عرف مع ترك التسمية بينهما - كما قلنا - أنهما سورتان مستقلتان من عهد النبي صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا . وقد جاء كذلك في المصاحف الأولى ، مصحف عثمان ، وعلى ، وابن عباس ، فلا معنى بعد هذا كله لإثارة آراء قد تمس من قرب أو بعد قداسة تنظيم كتاب الله وترتيبه بناء على روايات ضعيفة أو موضوعة .

ولعل حكمة ترك التسمية في أولها هي ما قاله على لابن عباس حينما سأله عن عدم كتابتها « من أن التسمية أمان ورحمة ، وهذه السورة نزلت بالسيف ونبذ العهود وليس فيها أمان » (١) .

ونحن نؤمن بعد دراسة كتاب الله أنه في تفصيل سورة وآياته ، وترتيب سورة وآياته ، لم يكن أثراً لاجتهاد مجتهد ، وإنما كان توقفاً ووحياً أمر به النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ونفذه قبل أن يلحق بالرفيق الأعلى .

وإذ فرغنا من الكلام على أسماء السورة وعلى وحدتها واستقلالها ، فلنتناول موضوعاتها بالتفصيل المناسب .

تقديم لإعلان البراءة من المشركين :

قلنا : إن سورة التوبة آخر سورة أحكامية نزلت من القرآن الكريم ، وقلنا : إن نزولها كان في السنة التاسعة ، وهي السنة التي تمت فيها مراحل الجهاد المحمدي في سبيل تأمين الدعوة والعمل على بعث التوحيد في القلوب ، والتي كل فيها بفتح مكة لإحساس المشركين قوة المسلمين ونجاح دعوتهم وغلبة سلطانهم ، فقد فتحوا

(١) ولا يرد على هذه الحكمة أن سورة المطففين ، والهمزة ، والمسد ، نزلت القسمية في أولها ، ولا تناسب بين الويل والهلاك ، وبين الرحمة والأمان ، لأن المقصود من سورة التوبة رفع الأمان الديني عن جماعة الممركين ، وتسليط المؤمنين عليهم بالقتال ، ولا كذلك تلك السور ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

قبلها مكة ، وعادوا إليها بعد أن أخرجوا منها ، ودخلوا المسجد الحرام بعد أن صدوا عنه ، وحيل بينهم وبينه ، وانتصروا في حنين ، وحاصروا الطائف ، وفيها انسحب الروم داخل بلادهم ليتحصنوا من جيش المسلمين الذي خرج لغزوهم بقبوك ، والروم هم الذين غلبوا الفرس واستردوا منهم الصليب ، وجاءوا به إلى بيت المقدس وكان لهذا الانسحاب هزة عفيفة في شبه الجزيرة ، دفعت بكثير من القبائل العربية إلى المسارعة بالدخول في حوزة الإسلام . وفي تلك السنة أيضاً ، وفي شهر ذي القعدة منها ، أُمِر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أبا بكر على المسلمين في أداء فريضة الحج لأول مرة يؤدونها بصفة عامة بعد أن خلص لهم السلطان على مكة ، وعلى مشاعر الحج كلها . ولكن مع هذا كله لا تزال فلول المشركين المتفرقة في شبه الجزيرة تقصد - على ما عهدت من قبل ، وعلى ما بين العرب والرسول من عهد : ألا يُصد أحد عن البيت ، وألا يخاف أحد في الأشهر الحرم - لا تزال هذه الفلول بمقتضى هذا تقصد بيت الله الحرام لتؤدي مناسكها على منهاجها الجاهلي : شرك في السجود ، شرك في التلبية ، عُرى في الطواف . ولا ريب أن اجتماع منهاج العبادة الشركية الضالة مع منهاج العبادة التوحيدية المستقيمة في بيت الله الواحد ، الذي بعث الرسل من مبدأ الخليفة لدعوة الناس إلى توحيده وإخلاص العبادة له ، والذي برأ هذا البيت لإبراهيم ، ألا تشرك بـ شيئاً وطهر بئى للطائفين والقائمين والركع السجود ، وفي الوقت الذي خلصت فيه ولاية هذا البيت لعبادة المؤمنين الموحدين - اجتماع لا يقره عقل ، ولا يقبله سلطان . وما كانت الرسالة المحمدية التي ختم الله بها رسالاته إلى خلقه ، وما كان هذا الجهاد الذي قام به محمد وصحبه إلا وسيلة لتطهير العالم من هذه العبادة الشركية الضالة ، التي زل بها العقل البشرى وأودت بكرامة الإنسان ، والتي كانت في حقيقتها ومعناها تمثل بما لها من تقاليد وعادات أخفش نظام عرفه البشر إلى يومنا هذا ، كان فيه وأد البنات وإكراههن على البغاء ، وعضلن عن الزوج طمعاً في مالهن ، وإرث النساء كرها ، كان فيه استغلال حاجة المحتاجين في أقبح صور الاستغلال ، كانت فيه الإباحة الخلقية والجنسية إلى حد تجعل منه الإنسانية.

فالشرك بما يحمل في طياته من هذه الشرور والمآثم ثورة جامعة على الإيمان وما يحمل في طياته من خير وصلاح ، وليس من المعقول أن يبقى منبع الشر العام إزاء منبع الخير العام ، وإلا اضطرب الخير ، واستهدف لتيارات الشر ، والتوت طرق الهدى والصلاح . ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق .

وليس من المعقول أيضا وقد وقف المشركون مع المؤمنين الموحدين هذه المواقف الشديدة التي قصها التاريخ علينا ، والتي كان منها صدمهم عن المسجد الحرام ، والسخرية بهم في عبادة الله الواحد - ينفثون غازاتهم السامة في جو الإيمان الطاهر النقي « إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس ، سواء العاكف فيه والباد ، ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ، ، هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفاً أن يبلغ محله ، ، وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أوليائوه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون ، وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ، .

لهذا كله اقتضت الحكمة الإلهية التي تهدف إلى تطهير الأرض من الشرك ، وتهدف إلى الإصلاح البشري العام - وقد وصل المسلمون بفضل الله إلى ما وصلوا من السداد والحكمة والسلطان والقوة ، وممكن لهم في الأرض - أن يوضع حدٌ نهائي لهذه العبادة الباطلة وما يتبعها من نظم فاسدة ، وأن يحدد للؤمنين - أولياء الله في أرضه - الروح المعنوي أو القانون الأساسي الذي يسرون على مقتضاه بالنسبة إلى هؤلاء الذين عرفت ثورتهم بعقيدتهم ونظمهم على التوحيد ، وعلى نظم الخير والصلاح ، وعلى الفضيلة الإنسانية ، وعلى مصدر التحليل والتحريم .

وما هو إلا أن خرج أبو بكر رضى الله عنه في هذه السنة التاسعة على رأس المسلمين لتأدية فريضة الحج حتى نزلت أوائل سورة « براءة » ترشد إلى ما وضعه الله أساساً فيما يجب أن يعامل به أرباب الثورة الجامحة وهم المشركون ، وفيما يجب

أن يعامل به هؤلاء الآخرون الذين حالفوهم على الكيد والإيقاع بالمسلمين أكثر من مرة، والذين انحرفوا عما أنزل إليهم من أهل الكتاب.

على يؤذن في الناس يوم الحج الأكبر بآيات البراءة :

وقد انتهزت فرصة هذا الاجتماع العام في موسم الحج لتبليغ الإنذار الإلهي الكريم، إذ الحق النبي صلى الله عليه وآله وسلم ابن عمه علياً رضي الله عنه - جرياً على عادة العرب فيمن يبلغ عن الرئيس - ليبلغ الناس عنه هذه الآيات، ويؤذن بها فيهم يوم الحج الأكبر، ولم يكد على يقترب من أبي بكر في المسير حتى سمع أبو بكر رغاء، فوقف وقال : هذا رغاء ناقة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولما وصل إليه على قال له : أمير أم مأمور؟ فقال على : مأمور. فضيا، ولما كان يوم التروية خطب أبو بكر بصفته إمام الحج، وعرف المسلمين مناسكهم وحثم عليها، وفي يوم النحر قام على رضي الله عنه بإرشاد أبي بكر عند جرة العقبة وقال : يا أيها الناس : إني رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم إليكم، فقالوا : بماذا؟ فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية : أوائل سورة التوبة، ثم قال : أمرت بأربع : لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عهد عند رسول الله فهو إلى مدته. وبتلاوة على لهذه الآيات، وما نادى به الناس بعدُ أعلنت الكلمة النهائية للإسلام في شبه الجزيرة، وتمت التصفية بين الشرك والإيمان، وقد أثمر هذا الإعلان ثمرته الطيبة المباركة، فلم يكد يرجع الناس وينتشر أمر هذا التبليغ، ويصل إلى أطراف البلاد حتى ازدحمت المدينة بوفود القبائل الباقية على شركها معلنة إسلامها، وبذلك تمت كلمة ربك للوحدين، وهكذا يفعل الحزم، وتفعل أوامر من عرفوا بالحزم، وحسبهم أن يعلنوا أمرهم ولأن فيه لأعظم غناء عن توقيع العقوبة التي يكفي إعلانهم إياها في تطهير الجو من أسبابها.

المفاضلة بين أبي بكر وعلى :

هذا وقد شغل جماعة من المفسرين والمؤرخين الناس بحديث المفاضلة بين أبي بكر وعلى في هذا المقام، حتى خرجوا بهم عن النظر فيما يوحى به موقف

الخليفتين من وجوب التعاون وجمع الكلمة ، وتوحيد الخطة فيما يركز الدعوة ، ويركز الدولة ، ويرد عنها طغيان المعتدين . ولست أعتقد أن مؤمنا بهذا الرعيل الأول وفضله كله في الإسلام يزعج بنفسه إلى تجريد هذه المواقف السامية عن معانيها الفاضلة ، ثم يدفع بها إلى نزاع شخصي في تفضيل عليّ على أبي بكر أو أبي بكر على عليّ ، فليكل من الخليفتين مواقفه وتاريخه ، ولكل من الخليفتين مكانته وفضله ، ولو أن المسلمين لم تدخل عليهم عوامل التفرقة التي نرى أصولها مدونة بأيديهم في كتبهم ، لما وصلت حالهم إلى ما نحن فيه اليوم من تفرق الكلمة وضعف السلطان ، وانحياز كل فريق منهم إلى فريق ، ولكن هكذا قدر ، وهكذا كان ، والأمر لله من قبل ومن بعد ١ .

هما عينا جمال وجلال :

ويروقني ما قرأته لبعض العلماء في حكمة إفاضة أبي بكر أميراً للناس في حجهم وفي نيابة علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في هذا التبليغ الإلهي . قال : إن الصديق رضي الله تعالى عنه كان مظهراً لصفة الرحمة والجمال ، كما يرشد إليه موقفه في حادث أسرى بدر ، وما جاء عنه من قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « أرحم أمي بأمي أبو بكر ، فأحال إليه عليه الصلاة والسلام أمر المسلمين في حجهم الذي هو مورد الرحمة . أما علي فقد كان كرم الله وجهه أسد الله ومظهر جلاله ففوض إليه نقض عهد الكافرين الذي هو من آثار الجلال وصفات القهر ، فكانا معاً في هذا الموسم كعنين فوارتين ، تفور من إحداها صفة الجمال ، وتفور من الأخرى صفة الجلال ، فيتلقى المسلم في هذا الحفل من عين الجمال ، ويتلقى الكافر فيه من عين الجلال ، وهكذا العزة تعتمد الجلال والجمال ، فلا غنى بأحدهما عن الآخر . فرحم الله علياً ورحم الله أبا بكر .

آيات المشركين :

هذا وقد تضمنت الآيات التي أرسل بها عليّ وتلاها على الناس ، مما يختص بالمشركين ما يأتي :

- أولاً : تقرير البراءة ورفع العصمة عن الانفس والأموال .
 ثانياً : منحهم هدنة مقدارها أربعة أشهر .
 ثالثاً : إعلان الناس جميعاً يوم الحج الأكبر بهذه البراءة .
 رابعاً : إتمام مدة العهد لمن حافظ منهم على العهد .
 خامساً : بيان ما يعاملون به بعد انتهاء أمد الهدنة أو مدة العهد .
 سادساً : تأمين المستجير حتى يسمع كلام الله .
 سابعاً : بيان الأسباب التي أوجبت البراءة منهم وصدور الأمر بقتالهم .
 ثامناً : إزالة وساوس ، قد يخطر في بعض النفوس أنها تبرر مسألة المشركين ، أو البقاء معهم على العهد .
 وقد استغرقت هذه الموضوعات الأساسية من أول السورة : « براءة من الله ورسوله » ، إلى نهاية الآية الثامنة والعشرين « يأياها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » ، وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء ، إن الله عليم حكيم » .

آيات أهل الكتاب :

- وتضمنت الآيات فيما يختص بالمنحرفين من أهل الكتاب ما يأتي :
- أولاً : الأمر باستمرار قتالهم الذي بدءوا به حتى تبدو عليهم آية الخضوع لسلطان الإسلام ، وذلك بدفع الجزية للمسلمين .
- ثانياً : بيان صفاتهم التي بها قرر استمرار قتالهم بعد عدوانهم حتى يخضعوا .
- ثالثاً : أرشدت الآيات - في هذا السياق - إلى خطة رؤسائهم الدينيين في سلب أموال الناس بالباطل ، والصد عن سبيل الله ، وأشارت إلى سوء ذلك ، وسوء عاقبة كنز الأموال وعدم إنفاقها في سبيل الله ، تحذيراً للتؤمنين عن الوقوع في خطتهم الممقوتة .
- وقد استغرقت هذه الموضوعات من الآية التاسعة والعشرين « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون

دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، إلى نهاية الآية الخامسة والثلاثين ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ، . ثم قفت الآيات ببعض تصرفات في الحل والحرمة كان يفعلها المشركون في الأشهر الحرم إمعاناً في تلبية الهوى والشهوة ، وأهمها ، النسيء ، الذي قال الله فيه : **« إنا أنسى زيادة في الكفر يُضَلُّ به الذين كفروا ، يحلون عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله زَيْنَ لهم سوء أعمالهم ، والله لا يهدي القوم الكافرين ، . »**

وبذلك كانت الآيات التي عرضت لهذه الموضوعات ، والتي بلغها على الناس في حج السنة التاسعة : **« سبعا وثلاثين آية ، هذا هو الإجمال . »**

أما التفصيل فإليك القول فيه :

آية تقرير البراءة :

ففي الأول وهو تقرير البراءة ورفع العصمة بالنسبة للمشركين يقول الله تعالى : **« براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين ، والبراءة من الشيء : التخلص منه والتباعد عنه ، ومنه قوله تعالى : « قل إنما هو إله واحد وإنني بريء مما تشركون ، ، « وإن كذبوك فقل لي على ولكم علمكم أأنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون ، ومنه : « إذ تبرأ الذين اتَّبَعُوا من الذين اتَّبَعُوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ، والمعنى أن الله قطع ما بينه وبين المشركين من صلات ؛ فلا عهد ، ولا تعاهد ، ولا سلم ، ولا أمان ، وتركهم تعمل فيهم سيوف المؤمنين حتى يقتوموم أو يبيدوهم . ولا يدخل في هذا التبري قطع رحمته العامة عنهم ، التي كتبها على نفسه من جهة أنه الرب الخالق ، وأنهم المخلوقون المربوبون ، فهو مع هذا التبري - لا يزال من هذه الجهة يرحمهم بمنح الحياة ، ومواد الرزق . والتمكين من العمل ، حسب تقديره العام وسنته الشاملة في خلقه . ولو أن التبري كان على إطلاقه لما عاش كافر طرفة عين ، ولما استطاع كافر أن يقف في وجه مسلم . فالآية تقرر حكماً تكليفياً للسليين في شأن معاملة المشركين ، ومعناه أن**

يحظر على المسلمين أن يعاهدوهم أو يُبقوا على ما بينهم وبينهم من عهد ، ويرشد إلى هذا ضم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى الله سبحانه في هذه البراءة ، والرسول لا شأن له مع الله في سننه الكونية التي هي من مقتضيات الربوبية العامة ، وفي القرآن ما يشير إلى أن كثرة الرزق ، وعرض الحياة الدنيا ، والتقلب في البلاد ، قد تكون عند الله من وسائل الإملاء وتهينة الطغيان للكافرين المفسدين ، لا يفرنك تهاب الذين كفروا في البلاد ، متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ، ، والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملئ لهم إن كيدى متين ، ، ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن ، لبيوتهم سُقُفًا من فضة ومعارض عليها يظهرهم ، ولبيوتهم أبواباً وسُرى عليها يتكئون ، وزخرفاً ، وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا ، والآخرة عند ربك للبتقين .

وباعتبار أن الآية - كما قلنا - تقرر حكماً شرعياً ، والمشرع هو الله ، أضيف صدور البراءة إليه سبحانه ، ولمكانة الرسول في القرب منه والتبليغ عنه ، وتنفيذ ما يُبلغ عطف عليه في هذا المقام ، وقيل : « براءة من الله ورسوله » .

ولما كان التعاهد بين المؤمنين وغيرهم تنفيذاً لأمر الله به ، وأصله حق لجماعتهم ، وإنما يقوم الإمام به نائباً عن الجماعة ، أضيف إلى جماعة المسلمين ، وقيل : « عاهدتم » ، وكثيراً ما ينسب القرآن الأحكام العامة لجماعة المؤمنين « يأياها الذين آمنوا كُتِبَ عليكم القصاص في القتلى » ، « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها » .

وقد يبدأ الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم يخاطب الجماعة بالحكم « يأياها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ، وهذا ونحوه - وهو كثير في القرآن - تقرير لمبدأ : أن الجماعة مصدر السلطات ، وأن الإمام يقوم بالنيابة عنها في التشريع والتنفيذ بما يراه محققاً لمصلحتها ، التي كَفَّوْضَتْ إليه النظر فيها .

ويؤخذ من تقرير البراءة من المشركين في هذه الآية جواز نبذ العهود لمن كان بيننا وبينه عهد متى رأى الإمام مصلحة الأمة في ذلك كأن خيف منهم خيانة

أو نقضوا شيئاً من شروط المعاهدة ، أو وضعت المعاهدة على غير شرط احترامها الشرعى ، وذلك كله أخذاً من هذا المقام ، ومن قوله تعالى فى سورة الأنفال : « ولما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء » .

كما يؤخذ أن عقد المعاهدات إنما هو حق للجماعة يوافق عليه أصحاب الرأى والاختصاص فى موضوع المعاهدة وما هو فى مصلحة الجماعة ، ثم يباشرها الإمام بعد ذلك نيابة عن الجماعة .

آية المهلة :

وفى الثانى - وهو تقرير لإعطاء المهلة - يقول الله تعالى : « فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين ، والسياحة فى الأرض : التنقل فيها حيث يشاءون ، والمراد منها منحهم حرية السير والتنقل دون أن يتعرض أحد لهم ، والخطاب فيها للمشركين على طريقة الالتفات من الغيبة إلى الحضور ، لقصد تهية خطابهم بالوعيد المذكور بعد « واعلموا أنكم غير معجزي الله ، وقد عاد فى الثانية إلى الغيبة إشعاراً بسبب ذلك الوعيد ، وهو الكفر بالله ودينه » وأن الله مخزي الكافرين ، وإرشاداً إلى أن الخزي لا يختص بهؤلاء المشركين الحاضرين المخاطبين ، وإنما هو شأن الله وسنته مع كل من تحقق فيه الكفر إلى يوم الدين « فإجزاء من يفعل ذلك منكم لإلا خزي فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب » ، « كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ، فأذاقهم الله الخزي فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » ، « فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون » ، ومنه فى هذه السورة : « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم » .

الحكمة فى المهلة :

والحكمة فى إعطاء هذه المهلة . أولاً : تمكينهم من النظر والتدبر لاختيار ما يرون فيه مصلحتهم من الدخول فى الإسلام أو الاستمرار على العداء .

وثانياً : تحقيق رحمة الله بهم حيث لم يضيق عليهم أمر المهلة ، على رغم أنهم مشركون ، وأنهم ناكثون ، وأنه لا وفاء لهم .

ومن البين أن الأربعة الأشهر المذكورة تبتدىء حين إعلامهم بهذا الوضع الجديد ، وليس المراد منها الأشهر الحرم المعروفة ، ولا محل للخلاف في هذا ، وإن أكثر المفسرون فيه . ثم ذلت الآية بما يقرر في نفوس المشركين أن ذلك الإهمال ليس عن تردد أو خوف ، وأنهم وإن تمكنوا به من جمع العدد والعدد لمحاربة المؤمنين إذا استقر رأيهم على المحاربة - فإنه لا يُفوّت ما يريد الله بهم إذا أصروا على الشرك ، وأنهم - منحوا مهلة ، أم أخذوا غرة - غير قادرين على تعجيز الله عنهم ، أو تخليص أنفسهم منه ؛ فلا مفر لهم أينما كانوا وكيف كانوا ، ولا بد أن تلحقهم سنة الله في الكافرين من الإخزاء والإذلال ، إن الذين يحادّون الله ورسوله أولئك في الآذلين ، كتب الله لأغلبين أنا ورسلي إن الله قوى عزيز ، ٢٠ ، ٢١ / المجادلة .

الحكمة في التقدير بأربعة أشهر :

ولعل الحكمة في تقدير تلك المهلة بأربعة أشهر أنها هي المدة التي كانت تفي إذ ذاك بحسب ما يألون ، لتحقيق ما أبيع لهم من السياحة في الأرض ، والتقلب في شبه الجزيرة على وجه يمكنهم من التشاور والأخذ والرد ، مع كل من يريدون أخذ رأيهم في تكوين الرأي الأخير ، وفيه فوق هذا مسaire للوضع الإلهي في جعل الأشهر الحرم من شهور السنة أربعة ، منها أربعة حرم ، على أنا نجد في القرآن جعل الأربعة الأشهر أمداً في غير هذا ؛ فدة إلباء الرجل من زوجه أربعة أشهر ، وعدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر ... ولعل ذلك - وراء ما يعلم الله - أنها المدة التي تكفي بحسب طبيعة الإنسان لتقليب وجوه النظر فيما يحتاج إلى النظر ، وتبدل الأحوال على وجه تستقر فيه إلى ما يقصد فيه .

ويؤخذ من تقرير الهدنة للأعداء في هذا المقام تقرر مبدأ الهدنة والصلح في الإسلام ، طلبها العدو أم تقدم المسلمون بها ، وأصل ذلك مع هدنة المشركين هذه قوله تعالى في سورة الأنفال : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » ، وأن مدتها تكون على حسب ما يرى الإمام وأرباب الشورى المقررة في قوله تعالى : « وشاورهم في الأمر » .

آية إعلان البراءة :

وفي الثالث :- وهو إعلان الناس بهذه التصفية - يقول الله تعالى : « وأذانٌ من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله ، فإن تبتم فهو خير لكم ، وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ، وأسند الأذان - وهو الإعلام بالبراءة - إلى الله ورسوله ، كما أسندت البراءة إليهما لإعلاء شأنه ، وتأكيده لأمره ، وإشارة إلى أن البراءة ، وإن كانت أترأ من آثار الغضب الإلهي ، وقد أضيفت إلى الله أيضا ، فإن إعلانها بهذه المدة ، وعلى هذا الوجه ، رحمة منه في الغضب ، وقد زاد مقتضى رحمته هنا على مقتضى غضبه ، ففتح لهم باب القبول والسلامة من عاقبة هذا الإنذار وإعلانه ، وأطمعهم في التوبة عن الشرك ومخازيه ، وأردف الأذان بذلك فقال : « فإن تبتم فهو خير لكم ، ثم عطف عليه الوعيد بالخزي في الدنيا ، والعذاب الأليم في الآخرة إذا لم يلبوا دعوة السلم ، ويظهروا أنفسهم بالتوبة والإيمان » وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ، وفي هذا إيحاء بسلوك طرق السلم والإصلاح عن طريق الوعظ والإرشاد قبل التهديد بالعقوبة والأخذ بالشدّة ، وكثيراً ما تغنى الموعظة الحسنة عن العقاب الذي لا يقصد لذاته . « ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً علياً » ، وإنما جعل إعلان البراءة وما يتبعها إلى الناس جميعاً مؤمنهم وكافرهم ، لأنها مما يجب أن يعلمها الناس جميعاً لتعلق أحكامها بالجميع ، ومن هنا جعل وقتها يوم الحج الأكبر ، الذي يضم أكبر عدد يمكن إذاعة الخبر عن طريقه في جميع أنحاء البلاد ، وكانت هذه هي الطريقة الوحيدة للتبليغ العام ، وأصح ما قيل في يوم الحج الأكبر أنه يوم النحر ، وقد صحت الروايات بأن علياً رضي الله عنه أذن بالبراءة عند جرة العقبة ، وذلك في منى يوم النحر .

وفي الالتفات من الغيبة أولاً إلى الحضور ثانياً تهية الجو لامتنال النصيح والحد من العقاب . ودل قوله : « وبشر الذين كفروا » ، بالخطاب لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم على أن المراد بالعذاب الأليم هو عذاب يوم الدين الذي لا يُعرف

إلا عن طريق الوحي وتبليغ الرسول ، وهو غير الخزي الناجز الذي يصيبهم في الدنيا ، والذي توعدوا به في خطابهم ، باعتبار وصف الكفر في قوله : « واعلموا أنكم غير معجزى الله وأن الله مخزى الكافرين » .

ويؤخذ من هذا أن الإسلام يقرر في حالة نبذ العهود لزوم إعلان العدو بذلك النبذ ، على وجه يمكن العدو من إيصال خبر النبذ إلى أطراف بلده وأنحاء مملكته ، وفي ذلك يقول الكمال بن الهمام الفقيه الحنفى وهو بصدد قوله تعالى : « وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء » . « لأنه لا يكفي مجرد إعلانهم ، بل لا بد من مضى مدة يتمكن فيها مملكتهم بعد علمه بالنبذ من إنفاذ الخبر إلى أطراف مملكته ، ولا يجوز للسليين أن يغيروا على شيء من أطرافهم قبل مضى تلك المدة ، وذلك كله أثر من آثار وجوب رعاية العهد ، والبعد عن النكث بكل ما يستطاع .

آية إتمام مدة العهد للموفين :

وفي الرابع : - وهو إتمام مدة المعاهدة بالنسبة لمن حافظ عليها ولم يُعرف بالنكث - يقول الله تعالى استثناء من المشركين السابقين : « إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين » .

والآية تدل على أن المراد بالمشركين الذين تبرأ الله ورسوله منهم وأعطوا مهلة الأربعة الأشهر ، هم الذين عرفوا بنكث العهود ، إما لإخلالاً بشروطها أو انتقاصاً لشيء منها ، أو معارضة للأعداء على المؤمنين ، أما الذين عاهدوا ولم يخلوا بشرط من الشروط ولم ينتقصوا المعاهدة شيئاً مما حوته ، ولم يظاهروا ويعاونوا على المسلمين أحداً ما بشيء ما من عدد أو عدد أو رأى ، فإن هؤلاء يجب إتمام عهدهم إلى مدتهم ، وفاء بوفاء ، وعهداً بعهد ، وكرامة بكرامة . ثم تذييل الآية بما يرشد إلى أن إتمام العهد إلى مدته مع الموفين بعهدهم ، من تقوى الله التي يحجبها لعباده ، ويجب بها عباده « إن الله يحب المتقين » .

والآية صريحة فيما قررناه من جواز إباحة إلغاء المعاهدة متى أخل فيها أحد الطرفين بشيء من التزاماتها . وفي تنكير كلمة : « شيئاً » ، وكلمة : « أحداً » ، في الآية ،

دلالة على أن انتفاص المعاهدة أى شيء عظيم أو حُقر ، وأن المظاهرة ولو لفرد واحد ، وبأى وسيلة كانت ، مبيحة لنبد العهد . وهذا مبدأ فطرى تقررره العقول السليمة والطبائع المستقيمة ، ولا يأباه ويشور عليه إلا من فسدت نيته ، واتخذ العهد بينه وبين الناس دخلاً بينهم ، أن تكون أمة هى أربى من أمة ، وهكذا الإسلام يحذر من اتخاذ المعاهدات للاحتيال على استلاب الضعفاء ، ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا سوء بما صددتم عن سبيل الله ، ، تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة ، .

هذا هو الأساس الذى يجب أن تكون عليه المعاهدات فى نظر الإسلام ، فلينظر الناس ما تقوم به أمم الحضارة الحديثة من معاهدات كانت مصدراً لنكبة العالم ، وليعتبر بذلك أولو الأبصار .

آية معاملة المصرى والتائب :

وفى الخامس : - وهو بيان ما يعامل به المشركون بعد انتهاء الهدنة أو تمام المدة - يقول الله تعالى : « فإذا انسלخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذلهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم » .

سبق أن الله أعطى المشركين الناكثين هدنة قدرها أربعة أشهر ، وأوجب لإتمام مدة العهد للمحافظين ، وبذلك كانت الأربعة الأشهر أشراً محرماً فيها قتالهم ، فهى بالنسبة إلى قتالهم أشهر حرم ، وهذه الآية تقرر أنه إذا انسلخت هذه الأشهر وانطوت صفحاتها ، وظل المشركون على شركهم وعنادهم ، فإنه يجب أن تفعلوا بهم كل الوسائل المعبودة فى القتال : « اقتلهم » فى أى مكان تظفرون بهم ، « وخذلهم » وهو كناية عن « الأسر » وكانت العرب تعبر عن الأسير « بالأخذ » ، « واحصروهم » وهو منعهم من الخروج إذا تحصنوا فى معاقلم ، وعمله إذا كان فى مهاجمة الحصون ضرر كبير على جيش المسلمين ، وإلا وجبت المهاجمة . وعلى كل فالأمر فى ذلك يرجع إلى رأى القيادة الحكيمة « واقعدوا لهم كل مرصد » والمرصد موضع الرصد ، والرصد : الاستعداد للترقب ، أى اقعدوا لهم فى مواضع المراقبة

وهو كناية عن أخذ الطرق عليهم، وسد السبل في وجوههم، حتى تنقطع عنهم وسائل العيش، ويحال بينهم وبين القلب في البلاد، فتضعف شوكتهم، وينزل بهم الدمار. والقعود لهم في كل مرصد، يشمل ما كان ظاهراً جلياً على مرأى منهم ومسمع، وما كان خفياً عن أنظارهم من الكون لهم في أماكنهم، أو مسالكهم، أو أينما كانوا. ولا ريب أن هذه الوسائل الأربع هي الوسائل الطبيعية الفطرية في مهاجمة الأعداء، ولا يخلو منها قتال في عصر، والآية بهذا العموم في إباحة هذه الأنواع ترشد إلى إباحة استعمال ما يجد من وسائل الكيد للأعداء، والعمل على هزيمتهم، بشرط عدم تجاوز الحد الإنساني، مادام العدو لم يتجاوزته، وإلا فغازات بغازات وذرية بذرية وجزاء سيئة سيئة مثلها، فإذا أسرفوا وتجاوزوا إلى ما لا تستطيع البشرية الفاضلة احتماله، بما لا يتفق وحرمان الله ضاعفنا عقابهم بما لا ينتهك الحرمات المقدسة. ثم ذلت الآية على نحو ما سبق بما يفتح لهم باب القبول عند الله ويرفع عنهم سيف الحق «فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة غفلوا سيلهم»، والقصد: إن تحقق دخولهم في جماعة المسلمين، فلبسوا دعوة الإيمان، والتزموا أحكامه، سواء ما يرجع إلى حق العبودية، وأساسه «الصلاة»، وما يرجع إلى الجماعة، وأساسه «الزكاة»، غفلوا سيلهم، وكفوا عن قتلهم، وسرحوهم، وافتحوا لهم المسالك والطرق، ولا تعاملوهم بما كان منهم، فقد جبَّ إسلامهم شركهم وعصيانهم «إن الله غفور رحيم».

آية الأمان :

وفي السادس :- وهو تأمين من استجار منهم - يقول الله تعالى : « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون » .

بينت الآية السابقة حكم المصرين على شركهم، وهو أنهم يقاتلون أو يؤخذون... الخ، وبينت حكم التائبين عن الشرك الذين لبوا الدعوة ودخلوا في جماعة المؤمنين «فإن تابوا... الخ».

وجاءت هذه الآية تبين لنا حكم الفريق الثالث، وهو الفريق الذي لم يصر

على الشرك ، ولم يتب عنه ، وإنما هو مشرك بطرق باب الفهم والمعرفة حتى يطمئن قلبه ، وهو لذلك يطلب الجوار والأمان ، فهذا يرى الإسلام أن يمنح الجوار والأمان ، ويسمح له بالدخول فيما بين المسلمين ، والتعامل معهم ، والاختلاط بهم ، حتى يفهم حكم الله ودعوته ، فإن اطمأن ودخل الإيمان قلبه التحق بالمؤمنين ، وصار في الحكم كالتائبين ، وإن لم يشرح صدره للإسلام وأراد الرجوع إلى جماعته حرم اغتياله ، ووجبت المحافظة عليه حتى يصل مكان أمنه واستقراره ، وبذلك يصير في الحكم كالمصرين على الشرك ، يعامل بما به يعاملون ، من حل دمه وماله .

هذا وقد روى عن ابن عباس أنه قال : إن رجلاً من المشركين قال لعل رضى الله عنه : إذا أراد الرجل منا أن يأتي محمداً بعد انقضاء هذا الأجل لسماح كلام الله أو لحاجة قتل ؟ قال على : لا ، لأن الله يقول : « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره ، وهذا يدل على أن المشرك إذا طلب الجوار يعطاه وإن لم يكن لأجل سماح كلام الله . وعلى ذلك تكون د حتى ، في قوله تعالى : « فأجره حتى يسمع كلام الله ، للغاية لا للتعليل .

توسع الإسلام في الأمان :

وهذه الآية كانت أصلاً عند الفقهاء في إباحة تأمين المشرك ، وقد توسع الإسلام في باب الأمان فقرر به عصمة المستأمن ، وأوجب على المسلمين حمايته في نفسه وماله مادام في دار الإسلام ، وجعل للأفراد المسلمين حق إعطاء ذلك الأمان يسعى بذمتهم أداناهم ، ولم يشترط في ذلك إلا ما يحفظ على المسلمين سلامتهم بأن لا تبدو على المستأمن مظاهر الركون إلى التجسس على المسلمين ، ولا ينسئ الإسلام - وهو يعطى هذا الحق للأفراد - حق الإمام المهيمن على شئون المسلمين ، بل جعل له بمقتضى هيئته العامة ، وتقديره لوجود المصلحة ، حق إبطال أى أمان لم يصادف محله ، ولم يستوف شروطه ، كما له أن ينتزع ذلك الحق من الأفراد متى رأى المصلحة في ذلك .

والإسلام يبيع بهذا الأمان التبادل التجارى والصناعى والثقافى ، وفي سائر الشئون ما لم يتصل شيء منها بضرر الدولة ، ومن هذا يحرم عليهم بيع السلاح والعتاد الحربى إلى أعداء الإسلام ، وقد كان للإسلام من مشروعية الأمان وسيلة

قوية لنشر دعوته ، وإيصال كلمة الله إلى كثير من الأقاليم النائية من غير حرب ولا قتال . ويقرر الفقهاء أنه يجب على الإمام ملاحظة السير على المستأمن في توقيت مدة الإقامة ، بحيث لا تكون قليلة كالشهر أو الشهرين ، فإن في ذلك إلحاق العسر به ، خصوصاً إذا كانت له معاملات يحتاج في قضائها إلى زمن طويل ، على أن المدة القليلة لا تنفي بالغرض الديني المقصود ، وهو تفهمه لحقيقة الدعوة عن كتب .

وقد ذيلت الآية بهذه الجملة : « ذلك بأنهم قوم لا يعلمون » أي أننا أبجنا لكم أو أوجنا عليكم لإجابتهم إلى الجوار ، رافة بهم وشفقة عليهم ، ورعاية لحالتهم التي نشئوا فيها ، وهي حالة الجهل الذي يصح أن يعذر به صاحبه ، ولا يؤاخذ بما اكتسب في حضائنه ، وفيه إرشاد إلى معاملة أرباب الجهالة المستأصلة بالحلم والعفو والتيسير ، وذلك كله من مبادئ الإسلام « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » .

وفي السابع : - وهو بيان الأسباب التي أوجبت البراءة من عهودهم ، ونبذ التعاهد معهم ، وصدور الأمر بقتالهم - يقول الله تعالى : « كيف يكون للشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين ، كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون ، اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً فصدوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون ، لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون ، فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون ، وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون ، ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدوكم أول مرة أتخشونهم قاله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين ، قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ، ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم ، أم حسبكم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خير بما تعملون » .

مِيرَاثُ الْإِنْتَى

بَيْنَ السَّنةِ وَالشَّيْعَةِ (*)

لمفسرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد جواد مغنیه

رئيس المحكمة الشرعية الجعفرية العليا ببيروت

يختلف السنة والشيعة الإمامية في الميراث بوجه عام ، وبوجه خاص في ميراث
الانثى ، ومن يتقرب بها ، وإليك بعض الأمثلة :

إن المذاهب الأربعة يحرمون من الميراث بنت الأخ لأبوين أو لأب ،
ويورثون أخاها لأمها وأبيها ، فلو ترك الميت ابن أخ وبنت أخ لأبوين أو لأب ،
اختص الذكر بالميراث دونها ، مع أن الاثنين من مصدر واحد ، ومرتبة واحدة .

وكذلك لو ترك ابن عم وبنت عم لأبوين ، فالميراث كله لابن العم دون بنت
العم ، مع أنها أخته لأمه وأبيه .

وكذا لو ترك جدا لأب ، وجدا لأم فقط اختص أب الأب بالتركة دون أب
الأم ، لأن الأول يتقرب إلى الميت بالذكر ، والثاني يتقرب إليه بالانثى .

أما الشيعة الإمامية فيعطون للتقرب بالأب من الأجداد الثلثين ، وللتقرب
بالأم الثلث ، عملاً بقاعدة « يأخذ كل نصيب من يتقرب به » .

وكذلك لو ترك بنت ابن ، وبنت بنت ، تأخذ بنت الابن - عند المذاهب
الأربعة - النصف بالفرض ، والباقي لذى عصبة ، ولا شيء لبنت البنت ، لأن الأولى
تتقرب إلى الميت بالذكر ، والثانية بالانثى .

(*) من كتاب : « الوصايا والموارث على المذاهب الخمسة » .

أما الإمامية فيعطون لكل واحدة نصيب من تقربت به ، فتأخذ بنت الابن الثلثين ، وهو نصيب أبيها ، وبنت البنت الثلث ، وهو نصيب أمها .

بل قال المالكية والشافعية : إن أولاد البنت ، وأولاد الأخوات ، بنات الإخوة ، وأولاد الإخوة لأم ، والعمات من جميع الجهات ، والعم لأم ، والأحوال والحالات من أية جهة ، وبنات العم ، والجد لأم ، كل هؤلاء لا يرثون شيئاً بالمرّة في جميع الحالات ، وإن شأنهم شأن الأجانب بالقياس إلى الميراث ، فلو مات إنسان ولا رحم له إلا واحد من هؤلاء تعطى تركته لبنت المال ، لأنهم ليسوا بذى فرض في كتاب الله ، ولا عصة

وقال الحنفية والحنابلة : إن هؤلاء الذين يسمون بذوى الأرحام يرثون في مرتبة متأخرة عن أصحاب الفروض والعصبات ، فإذا لم يكن للبنت ذو فرض أو عصة استحق الإرث سائر أرحامه .

ولاحظت ، وأنا أتبع الميراث عند المذاهب الأربعة ، أنه لولا نص القرآن الكريم على ميراث البنت والأخت لأب ، والإخوة والأخوات لأم ، لكان شأنهن في الحرمان شأن غيرهن من الإناث ، ومن يتقرب بهن .

وليس من شك أن هذه عادة جاهلية ، حيث كان الميراث عند أهلها على أساس التعصب والانتصار للرجل ، ولذا حصروا الإرث بالولد الأكبر الذى يحمل السلاح ويقاتل ، فإن لم يكن من الأولاد من يحمل السلاح أعطوا الميراث لعصة الأب .

وبالإجمال إن الأنثى إنما ترث عند السنة إذا كان لها فرض منصوص عليه في كتاب الله ، أو اقتضى القياس مساواتها لصاحبة الفرض ، كالخاق بنت الابن بالبنت للصلب .

أما الإمامية فقد ساووا في استحقاق أصل الميراث بين الذكور والإناث ، كما يتضح مما يأتى . ومهما يكن ، فإن الغاية من هذا البحث هى المسألة المعروفة بين الفقهاء بالتعصيب ، والمراد بالتعصيب هنا توريث العصة مع ذى فرض قريب ، كما إذا كان للبنت أو أكثر ، وليس له ولد ذكر ، أو لم يكن له أولاد أصلاً لا ذكور ولا إناث ، وله أخت أو أخوات ، وليس له أخ ، وله عم ، فإن مذاهب

السنة تجعل أخت الميت شريكاً مع ابنته أو بناته ، فيأخذ الأخ مع البنت النصف ، ومع البنين فأكثر الثلث ، كما تجعل العم أيضاً مع الأخت أو الأخوات كذلك .

وقال الإمامية : إن التعصيب باطل ، وإن ما بقي من الفرض يجب رده على صاحب الفرض القريب ، فالتركة بكاملها للبنت أو البنات ، وليس لأخت الميت شيء ، وإذا لم يكن أولاد ذكور ولا إناث ، وكان له أخت أو أخوات ، فالمال كله للأخت أو الأخوات ، ولا شيء للعم ، لأن الأخت أقرب ، والأقرب يجب الأبعد .

ومرجع الخلاف بين السنة والشيعة في ذلك إلى حديث طاوس ، فلقد اعترف به السنة ، وأنكره الشيعة ، وهو : « ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فالأولى عصبة ذكر ، وروى بلسان آخر : « فما بقي فهو لرجل ذكر ، فالبنت صاحبة فرض ، وهو النصف ، وأقرب رجل إلى الميت بعدها أخوه ، فيعطى النصف الباقي ، وكذا إذا لم يكن له ولد أبداً ، وله أخت تأخذ النصف بالفرض ، والنصف الآخر يأخذه عم الميت ، لأنه أقرب رجل إلى الميت بعد أخته .

والشيعة الإمامية لا يثقون بحديث طاوس ، وينكرون نسبته إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، لأن الراوى ضعيف عندهم ، ولو وثقوا به لقالوا بمقالة السنة ، كما أن أهل السنة لولا ثقتهم بهذا الحديث لقالوا بمقالة الشيعة الإمامية ، وبعد أن أبطل الإمامية نسبة الحديث إلى النبي استدلوا على بطلان التعصيب بالآية السادسة من سورة النساء : « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً » .

فقد دلت هذه الآية على المساواة بين الذكور والإناث في استحقاق الإرث ، لأنها حكمت بالنصيب للنساء كما حكمت به للرجال ، مع أن القائلين بالتعصيب قد فرقوا بين النساء والرجال ، فيما إذا كان للميت بنت وأخ وأخت فإنهم يعطون النصف للبنت ، والنصف الآخر للأخ ، ولا شيء للأخت ، مع أنها في رتبته ، ومساوية له ، وكذا لو كان له أخت ، وعم وعمته ، فإنهم يوزعون التركة بين الأخت والعم

دون العمة، فالقرآن الكريم نص على توريث النساء والرجال، وهم يورثون الرجال، ويهملون النساء، وبهذا يتبين أن القول بالتعصيب باطل، لأنه مستلزم للبطل (١).
وقيل: إن إعطاء التركة بكاملها للبنت أو البنات يتنافى مع الآية الحادية عشرة من سورة النساء: «فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك، وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد، وكذلك إعطاء التركة للأخت وحدها يخالف لنص الآية الخامسة والسبعين بعد المائة من سورة النساء: «إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها إن لم يكن لها ولد فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك».

حكم القرآن بالنصف للبنت، وبالثلثين للبنتين فأكثر، وحكم أيضا بالنصف للأخت، وبالثلثين للأختين، وخالف الإمامية هذا الحكم صراحة.
وأجاب الإمامية عن الآية الأولى:

١ — إن القرآن فرض الثلثين للبنتين فأكثر، وفرض النصف للبنت المنفردة، ولا بد من وجود شخص ما يرد عليه الباقي من الفرض، والقرآن لم يعين هذا الشخص بالذات، وإلا لم يقع الخلاف، والسنة النبوية لم تتعرض له من قريب أو بعيد، لأن حديث «ألقوا الفرائض، غير صحيح كما قدمنا، فلم يبق ما يدل على تعيين من يرد عليه الباقي إلا الآية السادسة من سورة الأحزاب: «وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله، حيث دلت على أن الأقرب أولى ممن هو دونه في القرابة، وليس من شك أن البنت أقرب إلى الإنسان من أخيه، لأنها تقترب به بلا واسطة، والأخ يقترب إليه بواسطة، فيتعين والحال هذه، الرد على البنت أو البنيتين دون الأخ.

٢ — قال الحنفية والحنابلة: إذا ترك الميت بنتاً أو بنات، ولم يوجد أحد من أصحاب الفروض ولا العصباء (٢) فالملال كله للبنت، النصف بالفرض، والباقي

(١) تعرض فضيلة الفيض محمد أبو زهرة في كتاب: «الميراث عند الجعفرية» لأدلة الإمامية على نفي التعصيب، ولم يفر إلى دليلهم هذا من قريب أو بعيد.
(٢) الأخوات لأبوين أو لأب عصبه مع البنت، ويشتركون معها في الميراث، كالإخوة لأبوين أو لأب.

بالرد ، وكذلك للبنتين ، الثلثان فرضاً ، والباقي رداً ، وإذا كانت الآية لا تدل على نفي الرد على أصحاب الفروض في هذه الحال ، فكذلك لا تدل على النفي في غيرها ، لأن الدلالة الواحدة لا تتجزأ .

وأيضاً قال الحنفية والحنابلة : « إذا ترك الميت أمّاً ، وليس معها أحد من أصحاب الفروض والعصبات تأخذ الأم جميع التركة ، الثلث بالفرض ، والثلثين بالرد ، وإذا أخذت الأم جميع التركة ، فكذلك يجب أن تأخذها البنت ، لأن الاثنتين من أهل الفروض .

٣ - اتفق الأربعة على أن الميت إذا ترك أباً وبنتاً يأخذ الأب السدس بالفرض ، وتأخذ البنت النصف بالفرض كذلك ، والباقي يرد على الأب وحده ، مع أن الله سبحانه قال : « ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد ، فكما أن هذا الفرض في هذه الآية لا يبنى أن يكون للأب ما زاد على السدس كذلك الفرض في قوله تعالى : « فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلها النصف » لا يبنى أن يكون للبنات ما زاد على الثلثين ، وللبنت ما زاد على النصف ، بخاصة أن فرض البنات والأبوين وارد في آية واحدة وسياق واحد .

٤ - قال الله سبحانه : « واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان » نصت هذه الآية على أن الدّين يثبت بشاهدين ، وأيضاً يثبت بشهادة رجل وامرأتين ، مع أن بعض المذاهب الأربعة أثبتت بشاهد ويمين ، بل قال مالك : يثبت بشهادة امرأتين ويمين ، فكما أن هذه الآية لا تدل على أن الدّين لا يثبت بشاهد ويمين كذلك آية الميراث لا تدل على عدم جواز الرد على البنت والبنات ، والأخت والأخوات .

وأجاب الإمامية عن الآية الثانية ، وهي : « إن امرؤ هلك ليس له ولد » بأن لفظ الولد يطلق على الذكر والأنثى ، لأنه مشتق من الولادة الشاملة للابن والبنت ، ولأن القاسم المشترك بين الإنسان وأقاربه هو الرحم ، والرحم يعم الذكور والإناث على السواء ، وقد استعمل القرآن الكريم لفظ الأولاد في الأبناء والبنات ،

فقال : « يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين » ، وقال : « ما كان لله أن يتخذ من ولد ، أى لا ذكراً ولا أنثى ، وجاء في الحديث الشريف : « الولد للفراش » ، وقال الفقهاء : تجب نفقة الولد على والده ، وما إلى ذلك من الاستعمال الذى يثبت أن لفظ الولد يدل على الأنثى والذكر . وعليه فكما أن الابن يحجب الأخ كذلك البنت تحجب ، هذا ، بالإضافة إلى أن ما أجيب به عن ميراث البنت يحجب به عن ميراث الأخت أيضاً .

ثم أن الإمامية أوردوا على القول بالتعصيب إشكالات عديدة ، وإلزامات يأبأها الطبع ، ولا تتفق مع القياس ، من ذلك ما جاء في كتاب الجواهر : من أنه لو كان للبنت عشر بنات وابن فيأخذ الابن في مثل هذه الحال السدس ، والبنات خمسة أسداس ، ولو كان مكان الابن ابن عم للبنت ، أى أنه ترك عشر بنات وابن عم ، فعلى القول بالتعصيب يأخذ ابن العم الثلث ، والبنات الثلثين ، وعليه يكون الابن أسوأ حالا من ابن العم .

... هذا ، إلى أن الإنسان أرفأ بولده منه بإخوته ، وهو يرى أن وجود ولده ذكراً كان أو أنثى امتداد لوجوده ، ومن هنا رأينا الكثير من أفراد الأسر اللبنانية الذين لهم بنات فقط يبدلون مذهبهم من التسنن إلى التشيع لا شئ إلا خوفاً من أن يشترك مع أولادهم في الميراث الإخوة والأعمام .

ويفكر الآن جماعة من رجال السنة بالعدول عن القول بالتعصيب والأخذ بقول الإمامية ، تماماً كما عدلوا عن القول بوقوع الطلاق ثلاثاً بلفظ واحد ، وعن القول بعدم صحة الوصية للوارث ، وغيرها . وقد مهدنا لهم بهذا المقال ، ووضعنا بين أيديهم المصادر والأدلة ، ونرجوا أن يضعوها موضع البحث والدرس .

ديمقراطية الثقافة والتعلم في الإسلام

للمؤستاذ الدكتور على عبد الواحد وافي

تتماز النظم التربوية في الإسلام بأنها نظم ديمقراطية النزعة ، تحقق تكافؤ الفرص بين الناس ، فتجعل التربية والثقافة والتعلم حقاً مشاعاً لجميع الأفراد ، كحقهم في الماء والهواء ، لا تفرق في ذلك بين رجل وامرأة ، ولا بين حر ورفيق ، ولا بين عربي وأعجمي ، ولا بين شريف ووضيع ، ولا بين مسلم وغير مسلم ؛ الناس كلهم في نظرها سواسية في هذا الحق كأستان المشط ، ولكل إنسان في نظرها الحق المطلق في أن ينال ما يشاء أن يناله من حظ في الثقافة ، بل لأنها لتوجب عليه أن يطلب من العلم والتربية القدر اللازم لاستقامة أمور دينه ودنياه .

* * *

فالنظم التربوية في الإسلام ، لا تفرق بين الرجل والمرأة في حق التربية والتعلم ؛ بل تعطى المرأة الحق نفسه الذي تعطيه الرجل في هذه الشؤون ، فتبيح لها أن تحصل على ما تشاء الحصول عليه من علم وأدب وثقافة وتهذيب ، بل لأنها لتوجب عليها ذلك في الحدود اللازمة لوقوفها على أمور دينها ، وحسن قيامها بوظائفها في الحياة ، وقد حث الرسول عليه الصلاة والسلام النساء على طلب العلم ، وجعله فريضة عليهن في هذه الحدود ؛ فقال عليه الصلاة والسلام : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » وضرب عليه السلام أروع مثل في الحرص على تعليم المرأة وثقيفها بما فعله مع زوجته حفصة أم المؤمنين ، فقد روى البلاذري في كتابه « فتوح البلدان » أن الشفاء العدوية ، وهي سيدة من بنى عدى ، رهط عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، كانت كاتبة في الجاهلية ، وكانت تعلم القتيات ، وأن حفصة بنت عمر أخذت عنها القراءة والكتابة قبل زواجها بالرسول عليه الصلاة والسلام ، ولما تزوجها النبي

صلى الله عليه وآله وسلم طلب إلى الشفاء أن يتابع تثقيفها ، وأن تعلمها تحسين الخط وتزيينه كما علمتها أصل الكتابة ، وروى الواقدي أن عائشة وأم سلمة زوجتي الرسول عليه السلام تعلمتا القراءة والكتابة ، وأنهما كانتا تقرأن ، ولكنهما لم يجيدا الكتابة . وتدل شواهد كثيرة على أن أبواب التربية والتعلم بمختلف صنوفها كانت مفتحة على مصاريعها للبنت العربية منذ عصر بني أمية ، وأنه قد نبغ بفضل ذلك عدد كبير من النساء العربيات ، وبرّزن في علوم القرآن والحديث والفقه واللغة والأدب وشتى أنواع المعارف والفنون ، بل لقد كان منهن معلّات فضليات تخرج عليهن كثير من أعلام الإسلام ، فقد روى ابن خلكان أن السيدة نفيسة بنت الحسين ابن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضى الله عنها وعنه كان لها بمصر مجلس علم حضره الإمام الشافعي نفسه ، وسمع عليها فيه الحديث ، وعدّ أبو حيان من بين أساتذته ثلاثا من النساء ، هن : مؤنسة الأيوبية بنت الملك العادل أخى صلاح الدين الأيوبي ، وشامية التيمية ، وزينب بنت المؤرخ الرحالة الشهير عبد اللطيف البغدادي صاحب كتاب : « الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعينة بأرض مصر » .

ولا يفرق الإسلام كذلك بين الحرة والأمة في حق التربية والتعلم ، بل إن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يبحث على تعليم الحرة ولم يرغب في تثقيفها بمقدار ما بحث على تعليم الأمة ، ورغب في تثقيفها وتأديبها . فقد روى البخاري في صحيحه عن أبي بردة عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيما رجل كانت عنده وليدة (أى أمة) فعلبها فأحسن تعليمها ، وأدبها فأحسن تأديبها ، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران .

وينبشنا التاريخ الإسلامى أن فرص الثقافة والتعلم كانت متاحة للجوارى على الأخص في أوسع نطاق في مختلف العصور الإسلامية ، وأن هذه الفرص قد آتت ثمرتها الطيبة ، فأنشأت من الجوارى مئات من المبرزات في علوم القرآن والحديث والفقه واللغة والأدب ، وشتى أنواع المعارف والفنون ، وكتب التاريخ والأدب

العربي - وخاصة كتاب الاغانى - مملوءة بأخبار هؤلاء الجوارى وما بلغته من شأو بعيد في ميادين الآداب والعلوم ، وما كانت لها من فضل في النهوض بالثقافة الإسلامية والعربية . بل إن هذه الآثار لتدل على أنه قد نبغ من الجوارى معلمات فضليات تخرج عليهن كثير من أعلام الإسلام ، فمن ذلك ما أخبر به المقرئ في كتابه « نفع الطيب » عن جارية ابن المُطَرِّف اللغوى ، فقد ذكر أنها أخذت عن مولاهما النحو واللغة ، ولكنها فاقتة في ذلك ، وبرعت في العروض على الأخص ، ولذلك كانت تسمى « العروضية » ، وأنها كانت تحفظ عن ظهر قلب كتابى الكامل للبرد والامالى لأبى على القالى وتشرحهما ، وأنه قد درس عليها كثير من العلماء هذين الكتابين ، وأخذوا عنها العروض ؛ وما أخبر به ابن خلكان عن شهدة الكاتبة التى كانت جارية فى الأصل ، فقد ذكر أنه كان لا يشق لها غبار فى العلم والآداب والخط الجيد الجميل ، وأنه قد سمع عليها ، وأخذ عنها خلق كثير .

ومن هذا يظهر أن الإسلام قد هيا للنساء على العموم فرصا للتربية الراقية ، من انتهزنها منهن ببلغن أعلى المراتب التى قدر للرجال بلوغها ، فلم يكن السبب فى الجهل الذى كان فاشيا بين النساء المسلمات فى الجيل الماضى راجعا إلى النظم التربوية فى الإسلام ، وإنما كان السبب فى ذلك راجعا إلى انحراف المسلمين عما سنه الإسلام من نظم فى شئون التربية والتعليم . وإذا كانت الأمم الإسلامية قد اتجهت فى العصر الحاضر إلى تربية البنات وتنقيفها ، فإنها فى ذلك لم تأت بدعا من العمل ، وإنما أحيت سنة صالحة سنّها النبي صلى الله عليه وسلم ، وأخذ بها الخلفاء والأمراء من بعده .

وكما لا يفرق الإسلام بين الرجل والمرأة فى حق الثقافة والتعلم ، كذلك لا يفرق فى هذا الحق بين الحر والعبد ، ولا بين العربى والأعجمى ، ولا بين المسلم وغير المسلم ، فقد فتحت لهذه الطوائف جميعاً فى ظل الإسلام وبفضل تعاليمه ، وفى مختلف عصوره أبواب الثقافة والتعلم على مصاريعها ، ووصل آلاف من العبيد والموالى والاعاجم وغير المسلمين فى ميادين العلوم والآداب إلى آفاق لم يصل إلى مثلها مشاهير الأحرار

والعرب والمسلمين ، بل إن معظم الفضل في النهوض بعلوم القرآن والحديث والفقه والأصول والتوحيد واللغة والفلك والطبيعة والرياضة والفلسفة والطب والموسيقى ليرجع إلى الأعاجم بفضل ما أتاحه لهم الإسلام من فرص للتربية والثقافة العالية .

* * *

ولا يفرق الإسلام كذلك بين الشريف والوضيع في حق الثقافة والتعلم ، ومن أروع ما يروى في هذا الصدد ما حدث به أبو بكر بن جابر خادم أبي داود صاحب كتاب السنن المشهور ؛ قال : كنت مع أبي داود ببغداد ، فصلينا المغرب ، إذ قرع الباب ففتحته ، فإذا الأمير أبو أحمد الموفق يستأذن ، فأذن له أبو داود ، فدخل وقعد ، ثم أقبل عليه أبو داود وقال :

ما جاء بالأمير في مثل هذا الوقت ؟

قال ، ثلاثة أمور :

قال ، وما هي ؟

قال ، تنتقل إلى البصرة فتتخذها وطناً ليرتحل إليه طلبة العلم من أقطار الأرض .

قال : هذه واحدة ؛ هات الثانية .

قال : تروى لأولادى كتاب السنن .

قال : نعم ، هات الثالثة .

قال : تفرد لهم مجلساً للرواية ؛ فإن أولاد الخلفاء لا يقعدون مع العامة .

فقال أبو داود : أما هذه فلا سبيل إليها ؛ فإن الناس شريفهم ووضيعهم في العلم سواء ، وكان ما أراد أبو داود ؛ فكان أولاد الموفق يحضرون مجلسه فيسمعون حديثه مع عامة الشعب .

* * *

فالنظم التربوية في الإسلام تمتاز عن نظائرها في نظم الأمم الأخرى بأنها نظم ديمقراطية النزعة ، تسعى بين جميع الناس في حق التربية والتعلم ، ولا توحد أبواب الثقافة أمام كائن من كان .

وبحسبنا لبيان ما وصلت إليه النظم التربوية الإسلامية من سمو في هذا السبيل بالقياس إلى الشرائع الأخرى أن نوازن بينها وبين ما يعدونه أرقى نظام ديمقراطى قبل الإسلام ، وهو نظام حكومة أثينا في العصور السابقة لليلاد المسيحى ، فقد كانت قوانين أثينا لا تتيح فرص الثقافة والتعلم إلا للأحرار من ذكور اليونان ، بينما توصدها إيصاداً تاماً أمام النساء والعبيد والموالى والأجانب ، ولقد عبّر عن وجهة نظرهم هذه أصدق تعبير ، وصاغها في صورة نظرية عليية ، كبير فلاسفتهم أرسطو ، إذ يقرر في كتابه « السياسة » أن الآلهة قد خلقت فصيلتين من الأناسى : فصيلة زودتها بالعقل والإرادة وهى فصيلة اليونان ؛ وفصيلة لم تزودها إلا بقوى الجسم وما يتصل اتصالاً مباشراً بالجسم كالغريزة والعادة ، وهى فصيلة العبيد والموالى والأجانب . وبفضل هذا التقسيم يتحقق توزيع الأعمال على الوجه الذى يتفق مع طبائع الأشياء ، فيقوم العبيد والموالى والأجانب بالأعمال الجسمية التى زودوا بالقدره عليها ؛ بينما يتفرغ اليونان لما عدا ذلك من الأعمال العقلية والإرادية الراقية التى يقتضيها العمران الإنسانى ، والتى زود هؤلاء بالكفايات اللازمة لها ، ومن أجل ذلك يرى أرسطو أنه من الواجب أن يقصر نطاق التعلم والثقافة العقلية على اليونانيين . أما من عداهم من العبيد والموالى والأجانب فليس فى طبيعتهم أى استعداد لتلقى العلوم والمعارف . ولذلك يجب أن يقتصر فى تربيتهم على إعدادهم للأعمال الجسمية التى خلقوا من أجلها ، وهى أعمال الصناعة والزراعة وما إلى ذلك . وكذلك شأن النساء فى نظره : فإن الطبيعة لم تزودهن بأى استعداد عقلى يعتد به . ولذلك يجب أن تقتصر تربيتهن على شئون تدبير المنزل والحضانة والأموه .

ولم يكن أرسطو فى ذلك معبراً عن رأيه الشخصى ، وإنما كان مسجلاً لما كان يجرى عليه العمل فى حكومة أثينا ، التى يعدون نظامها أرقى نظام ديمقراطى فى الأمم السابقة للإسلام ٩

من ثمرات المعقول والمنقول

للساعر الاربب الاستاذ على الجندى

العميد السابق لكلية دار العلوم

تعظيم الأولياء :

كان السلطان قايتباى يترغ وجهه على أقدام ولى الله الشيخ عبد القادر الدشوطى
وكان الشيخ يتطور على مذهب الصوفية : أى يظهر فى غير جسد واحد ، وقد حلف
اثنان بالطلاق فى زمنه أن الشيخ نام عند كل منهما إلى الصباح فى ليلة واحدة فى
مكائين ، فأفتى شيخ الإسلام جلال الدين السيوطى بعدم وقوع الطلاق .

ولما أراد السلطان قايتباى السفر إلى الفرات استأذن الشيخ فأذن له ، قال
فكان طول الطريق يمشى أمام الركب ، فإذا أراد السلطان النزول إليه يحنق .

فلما دخل السلطان حلب وجد الشيخ فى زاوية بها مريضا بمرض البطن منذ
خمسة شهور ١١ فكثرت التحير والتعجب من ذلك ١١ .

ينام فى الكنيسة :

كان الشيخ إبراهيم بن عصفير الصوفى ينام كثيرا فى الكنيسة ، ويقول : إن
النصارى لا يسرقون النعال فى الكنيسة بخلاف المسلمين ١١ .

وأقول للشيخ : إن نعال المصلين بالمساجد لا تزال تسرق حتى اليوم ، ولا حول
ولا قوة إلا بالله ١١ .

أنواع السالكين :

كان السيد محمد المغربى الشاذلى يقول : السالكون ثلاثة : جلالى وهو إلى
الشرعية أميل ، وجمالى وهو إلى الحقيقة أميل ، وكالى جامع لهما على حد سواء ،
وهو منهما أكل وأفضل .

نبوغ مبكر :

قال ابن جرير الطبري : حفظت القرآن ولى سبع سنين ، وصليت بالناس وأنا ابن ثمانى سنين ، وكتبت الحديث وأنا ابن تسع .

ورأى لى أبى فى النوم : أنى بين يدى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكانت معى غلالة مملوءة حجارة ، وأنا أرمى بين يديه ، فقال له المعبر : إنه إن كبر نصّح فى دينه ، وذب عن شريعته .

قال : فحرص أبى على معونتى فى طلب العلم وأنا حينئذ صبي صغير .

لا ينسى الله أحبابه :

روى الخطيب البغدادى : أن الرحلة جمعت بمصر بين محمد بن جرير الطبري . ومحمد بن إسحاق بن خزيمة ، ومحمد بن نصر المروزي ، ومحمد بن هارون الرويانى ، وحدث أنهم أرمّلوا ^(١) ولم يبق عندهم ما يقوتهم وأضرّ بهم الجوع ١١ فاجتمعوا ليلة فى منزل كانوا يأوون إليه ، فاتفق رأيهم على أن يُسهموا ويضربوا القرعة ، فمن خرجت عليه سأل لأصحابه الطعام ، فخرجت القرعة على محمد بن إسحاق ، فقال لأصحابه : أمهلونى حتى أتوضأ وأصلّى صلاة الخيرة .

قال فاندفع فى الصلاة ، وإذا هم بالشموع وأحد الخصيان من قبّل الوالى يدق الباب ، ففتحوا له فنزل عن دابته ، فقال : أيكم محمد بن نصر ؟ فقيل : هو هذا ، فأخرج صرة فيها خمسون دينارا فدفعها إليه . ثم قال : أيكم محمد بن جرير ؟ فقالوا : هو ذا ، فأخرج صرة فيها خمسون دينارا فدفعها إليه . ثم قال : أيكم محمد بن هارون ؟ فقالوا : هو ذا ، فأخرج صرة فيها خمسون دينارا فدفعها إليه . ثم قال : أيكم محمد بن إسحاق ؟ فقالوا : هو ذا يصلّى ، فلما فرغ دفع إليه الصرة وفيها خمسون دينارا ١١ . ثم قال : إن الأمير كان قائلاً ^(٢) بالأمس ، فرأى فى المنام خيالا يقول له : إن المحامد طووا كشحم جياعا ، فأنفذ إليكم هذه الصرار ، وأقسم عليكم إذا نفدت أن تبعضوا إليه أحدكم ١١ .

(١) أرمّل الرجل : فقد زاده .

(٢) القائل : النائم فى نصف النهار .

في الجمعة ساعة سعد لا ساعة نحس :

من الاعتقاد الفاسد الشائع أن في يوم الجمعة ساعة نحس ، ومن الغريب أن الذي يعتقد ذلك هم المسلمون ، مع أنه جاء في الحديث : أن الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - قال : « خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة : فيه خلق آدم ، وفيه أسكن الجنة ، وفيه أهبط ، وفيه تقوم الساعة ، وفيه ساعة - وقبض على أصابعه يقلبها - لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله تعالى فيها خيراً إلا آتاه الله إياه » .
قال عبد الله بن سلام : قد علمت أي ساعة هي ؛ هي آخر ساعات النهار من يوم الجمعة .

رأى في هابيل وقايل :

حدث سفيان بن وكيع عن سهل بن يوسف عن عمرو عن الحسن قال : كان الرجلان اللذان في القرآن « وائل عليهما نبأ ابني آدم بالحق » من بني إسرائيل ، ولم يكونا ابني آدم لصلبه ، وإنما كانا القربان في بني إسرائيل ، وكان آدم أول من مات .
شيث بن آدم :

اسمه هبة الله ، وهو بالعربية : شث ، وبالسريانية شاث ، وبالعبرانية : شيث ، وإليه أوصى آدم ، وإلى شيث أنساب بني آدم كلهم اليوم ، وذلك أن نسل آدم من غيره انقرض وباد .

لا يعترفون بالطوفان :

الفرس لا يعترفون بالطوفان ، ويقولون : لم يزل الملك فينا من عهد « جيومرث » ، وجيومرث هو آدم يتوارثه آخر عن أول إلى عهد فيروز بن يزدجرد بن شهریار . ولو كان للطوفان حجة لكان نسب القوم قد انقطع ، وملكهم قد اضمحل . وبعضهم يقر بالطوفان ، ويزعم أنه كان في إقليم بابل وما قرب منه ، وأن مساكن ولد « جيومرث » كانت بالمشرق فلم يصل ذلك إليهم .

صحف إبراهيم :

أنزل على إبراهيم - عليه السلام - عشر صحائف ، وكانت كلها أمثالا ، كما جاء في الحديث ، من ذلك : « أيها الملك المسلط المبطل المغرور ، إنى لم أبعثك لتجمع

الدنيا بعضها إلى بعض ، ولكن بعثتك لتردّ عني دعوة المظلوم ، فإني لا أُردها وإن كانت من كافر .

« وعلى العاقل - ما لم يكن مغلوباً على عقله - أن يكون له ساعات : ساعة يناجي فيها ربه ، وساعة يفكر فيها في صنع الله - عز وجل - وساعة يحاسب فيها نفسه فيما قدم وأخر ، وساعة يخلو فيها لحاجته من الحلال في المطعم والمشرّب ، .

حقيقة التصوف :

التصوف : زبدة عمل العبد بأحكام الشريعة ، إذا خلا عمله من الملل وحفظ النفس ، كما أن علم المعاني والبيان زبدة علم النجوى ، فمن جعل التصوف علماً مستقلاً صدق ، ومن جعله من عين أحكام الشريعة صدق .

من يصلح للتصوف :

أجمع القوم : على أنه لا يصلح للتصوف والتصدر في طريق الله - عز وجل - إلا من تبحر في علم الشريعة وعلم منطوقها ومفهومها ، وخاصها وعامها ، وناسخها ومنسوخها ، وتبحر في لغة العرب حتى عرف مجازاتها واستعاراتها وغير ذلك ، فكل صوفي فقيه ولا عكس .

الإمام أحمد والصوفية :

كان الإمام أحمد بن حنبل - رضى الله عنه - يبحث ولده على الاجتماع بصوفية زمانه ، ويقول : إنهم بلغوا في الإخلاص مقاماً لم يبلغه .

لا تسرع إلى تكفير الناس :

سئل شيخ الإسلام تقي الدين السبكي عن حكم تكفير غلاة المبتدعة وأهل الأهواء ، والمتفوهين بالكلام على الذات العلية ، فقال : اعلم أيها السائل ، أن كل من خاف الله - عز وجل - استعظم القول بالتكفير لمن يقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، إذ التكفير أمر هائل عظيم الخطر ؛ لأن من كَفَّرَ شخصاً بعينه ، فكأنه أخبر أن عاقبته في الآخرة الخلود في النار أبد الآبدين ، وأنه في الدنيا مباح الدم والمال ، والخطأ في ترك ألف كافر أهون من الخطأ في سفك مجسم من دم امرئ .

مسلم ، وفي الحديث : « لأن يخطئ الإمام في العفو أحب إلى من أن يخطئ في العقوبة ، فابق الحكم بالتكفير إلا لمن صرح بالكفر ، واختاره ديناً ، ووجد الشهادتين ، وخرج عن دين الإسلام جملة .
ذو النون المصري وعلباء عصره :

اجتمع جماعة من علماء إخميم وركبوا زورقا ليمضوا به إلى السلطان بمصر ، ليشهدوا على ذي النون بالكفر ! فلما علم بذلك قال : اللهم إن كانوا كاذبين فغرقهم ! فانقلب بهم الزورق فغرقوا جميعاً والناس ينظرون ! فقيل له : وما ذنب رئيس المركب حتى يغرق مثلهم ؟ فقال : لأنه حل الفساق !

كلمات عبقرية للإمام علي - عليه السلام - :

قال أبو عبيدة : ارتجز الإمام تسع كلمات ، قطع الأطايع عن اللهاق بواحدة منهن ، ثلاث في المناجاة ، وثلاث في العلم ، وثلاث في الأدب .

فأما التي في المناجاة فقولُه : كفاني عزاً أن تكون لي ربا ، وكفاني غمراً أن أكون لك عبداً ، أنت لي كما أحب فوفقتي لما تحب .

وأما التي في العلم فقولُه : المرء مخبوء تحت لسانه ، فتكلموا تُعرفوا ، ما ضاع امرؤ عرف قدره .

وأما التي في الأدب فقولُه : أنعم على من شئت تكن أميره ، واستغن عن شئت تكن نظيره ، واحتج إلى من شئت تكن أسيره .

ومن قوله : موت الإنسان بعد أن كبر وعرف ربه خير من موته طفلاً ، وإن دخل الجنة بغير حساب .

الفتية كل الفقيه من لا يُقنط الناس من رحمة الله ، ولا يؤمّنهم من عذاب الله ، ولا يرتخص في معاصي الله ، ولا يدع القرآن رغبة منه إلى غيره .

وكان يقول : القلوب أوعية ، وخيرها أوعاها ، ثم يقول : هاه . هاه . إن ههنا علما - ويشير إلى صدره - لو أصبت له سمكة . ومن قوله : أقدر أن أستخرج وقر^(١) بعير من العلوم من معنى حرف « الباء » .

(١) الوقر بالكسر : الحمل الثقيل أو أعم .

من تاريخ الحسين السبط :

حجّ - عليه السلام - خمسا وعشرين حجة ماشيا ، وجنائبه نقاد بين يديه .
ولما أحملت رأسه إلى مصر ، مشى الناس أمامه حفاة من مدينة غزة إلى مدفنه تعظيما له .

دعاء الصالحين على أعدائهم :

كان عامر بن عامر بن قيس التابعي إذا تشوش من إنسان ودعا عليه يقول :
اللهم أكثر ماله ، وأصح جسمه ، وأطل عمره .

التزوج من الفقيرات :

كان علقمة بن قيس يتزوج بنات الفقراء تواضعا ، ولم يخلف بعد موته إلا رداء
وُبرداً رثا ، ومصحفاً .

كل طبقة خير من بعدها :

كان الربيع بن خيثم يقول : لقد أدركنا أقواما كنا نعد أنفسنا في جنهم لصوصا
وكان الحسن البصري يقول : أدركنا أقواما كانوا فيما أحل الله لهم أزهد منكم
فيما حرم عليكم .

اعتزال الناس :

لما اعتزل عروة بن الزبير في قصره بالعقيق ، وترك الصلاة في مسجد الرسول
عليه الصلاة والسلام سئل في ذلك ، فقال : رأيت مساجدهم لاهية ، وأسواقهم لاغية ،
والفاحشة في فجائهم عالية ، فكان فيما هنالك عمام فيه عافية ارضى الله عن عروة
ليت شعري ما ذا كان يفعل ويقول لو بلى بالعيش في زماننا ١٩ .

كلام لا يخرج إلا من بيت نبوة :

كتب ملك الروم إلى عبد الملك بن مران يتهده ويتوعده ، ويخلف له : ليحملن
إليه مائة ألف في البر ومائة ألف في البحر أو يؤدى إليّ الجزية .

فكتب عبد الملك إلى الحجاج : أن اكتب إلى محمد بن الحنفية تهده وتوعده ،
ثم أعلني بما يرد عليه .

ف فعل الحجاج ما أمره به ، فكتب إليه ابن الحنفية - رضى الله عنه - يقول :
 إن لله - عز وجل - ثلثمائة وتسعين نظرة إلى خلقه ، وأنا أرجو أن ينظر الله إلى
 نظرة يمنعني بها منك . فبعث الحجاج بذلك الكتاب إلى عبد الملك ، فكتب مثله
 إلى ملك الروم . فلما وصل إليه قال : ما خرج هذا منه ، ولا كتب به هو ، ولا
 يخرج هذا إلا من بيت نبوة .

أدب البسيتين :

قال الإمام على - عليه السلام - إذا دخلت البسيتين فأطل تأملها ، فإن فيها
 جلاء للبصر ، وارتياحاً للهم والفكرة ، وتكرمة للطباع ، وتسكيناً للصداع .

فائدة الذكر والاستغفار :

كان محمد الباقر - رضى الله عنه - يقول : إن الصواعق تصيب المؤمن وغير
 المؤمن ، ولا تصيب الذاكِر لله تعالى .

وكان جعفر الصادق - رضى الله عنه - يقول : من استبطأ رزقه فليكثر من الاستغفار .

الأدب مع الله :

كان مطرّف بن عبد الله بن الشَّخِير يقول : أَجَلُّوا اللهَ أن تذكروا عنده
 الحمار والكلب ، فيقول أحدهم لكليه : أخزأك الله !! فعل الله بك كذا وكذا !! .
 وكان يقول : لا يقل أحدكم إن الله تعالى يقول ، ولكن ليقل : إن الله تعالى قال .

من أعظم الذنوب :

كان أبو العالية يقول : من أعظم الذنوب أن يتعلم الرجل القرآن ، ثم ينام عنه
 ولا يتعهد به .

حج الأطفال :

كان محمد بن المنكدر يحج بالأطفال ، ويقول : نعرضهم على الله تعالى لعله
 ينظر إليهم .

الزهد في عطاء السلطان :

دخل سليمان بن عبد الملك المسجد النبوى ، فرأى صفوان بن سليمان فأعجبه

سمته ، فأرسل إليه ألف دينار ، فقال صفوان لحامل المال : أنت غلطت لست المقصود بذلك ، فاذهب إلى مولاك واستثبته ، فلما ذهب الغلام ، هرب صفوان من المدينة حتى خرج سليمان ا .

النوم و فاة :

كان مجاهد بن حنين يقول : ليسكن آخر كلام أحدكم عند منامه : لا إله إلا الله ؛ فإنها وفاة لا يدرى لعلها تكون منية .

أدب الإصغاء :

كان عطاء بن أبي رباح إذا حدثه أحد بحديث - وهو يعله - يصغى إليه كأنه ما سمعه قط لئلا ينجل الرجل . أقول : وفي ذلك يقول أبو تمام :

من لي بخُلصان إذا عاشرته وجهلت كان الحلم ملء إهابه
وإذا ظلمت إلى المدام شربت من أخلاقه ، ونهكت من آدابه
وتراه يصغى للحديث بقلبه وبعقله ، ولعله أدري به

حلم الصالحين :

صبت جارية ميمون بن مهران على رأسه مرقا فأحرقته ، فارتعدت من الخوف ؛ فقال لها : لا بأس عليك أنت حرة لوجه الله تعالى .

علامة إجابة الدعاء :

كان سعيد بن جبير يقول : علامة الإجابة حلاوة الدعاء ؛ وكان له ديك يقوم على صياحه ، فلم يصح الديك ليلة ، فنام سعيد عن ورده ، فدعا على الديك فأت لوقته ؛ فعزم ألا يدعوا على شيء بعدها ا .

أقول : دعا على الحجاج قبل قتله بقوله : اللهم لا تسلطه على أحد بعدى ، فلم يسلط الحجاج على قتل أحد بعده ، وعاش بعده خمس عشرة ليلة ؛ ووقعت الأكلة في رجله ، وكان يصيح : مالى وسعيد بن جبير ، كلما أردت النوم أخذ برجلي ا .

الفقيه والعالم :

قيل مرة للشعبي يا فقيه ، فقال : لست بفقيه ولا عالم ، إنما نحن سمعنا حديثا ،

فنحن نحدثكم بما سمعنا ، وإنما الفقيه من توزع عن محارم الله ، والعالم من خشى الله بالغيب .

سعة لا اختلاف :

كان إذا ذكر الاختلاف عند طلحة بن مصرف يقول : لا تقولوا : الاختلاف ولكن قولوا : السعة .

طيب الرائحة ونظافة الثوب :

كان مكحول الدمشقي يقول : من طاب ريحه زاد عقله ، ومن نظف ثوبه قلَّ همّه .
أئمة العدل :

كان سفيان الثوري يقول : أئمة العدل : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وعمر ابن عبد العزيز ، ومن قال غير هذا فقد اعتدى .

تواضع الشافعي وكرمه :

كان الشافعي يقول : وددت أن الخلق تعلبوا هذا العلم على ألا ينسب إلى منه حرف . قال شيخ الإسلام زكريا الأنصاري : وقد أجابه الحق - سبحانه وتعالى - إلى ذلك ؛ فلا يكاد يسمع في مذهبه إلا مقالات أصحابه : قال الرافعي ، قال النووي ، قال الزركشي ، ونحو ذلك .

وقدم من الين بعشرة آلاف دينار ، فضرب خبائه خارج مكة ، فكان الناس يأتونه فما برح حتى فرقها كلها ، وما سأله أحد شيئاً إلا أحر وجهه حياء من السائل .

شيوخ مالك :

أخذ مالك العلم عن تسعمائة شيخ ، منهم ثلثمائة من التابعين ، ومع ذلك فكان يقول : ليس العلم بكثرة الرواية ، إنما هو نور يضعه الله في القلب .

كرهه القضاء :

قال ابن الجوزي : لما دعا أبو جعفر المنصور أبا حنيفة ، وسفيان الثوري ، ومسعرا ، وشريكا لتولى القضاء ، قال أبو حنيفة : أختن فيكم تخميناً : أما أنا فأحتال وأتخلص ، وأما مسعر فيتحاقد ويتخلص ، وأما سفيان فيهرب ، وأما شريك فيقم ،

وكان الأمر كما قال . وكان من تحامق مسعر أنه قال للنصور لما دخل عليه : كيف حالك ؟ وكيف عيالك ؟ وكيف حمرك ؟ وكيف دوابك ؟ فقال : أخرجوه فإنه مجنون ! .

ولما بلغ الثورى أن شريكا ولى القضاء هجره وقال له : قد أمكنك الحرب فلم تهرب .
التقرب بالقرآن :

رأى الإمام أحمد بن حنبل رب العزة فى المنام ، فقال : يارب ، ما أفضل ما يتقرب به المتقربون إليك ؟ فقال : بكلامى يا أحد ، فقال : يارب يفهم أو يفهم فهم ؟ فقال : يفهم ويفهم فهم . قال شيخ الإسلام زكريا الأنصارى : الفهم خاص بالعلماء ، ويفهم الفهم خاص بالمحققين من العارفين ، إذ يفهمونه بالكشف والذوق ، لا الفهم والفكر المعروفين .

السكوت عن تفسير حديث :

كان سفيان بن عيينة يقول : من فسر حديث : « من غش فليس منا » ، على أن المراد : ليس هو على هدينا وحسن طريقتنا ، فقد أساء الأدب . فإن السكوت عن تفسيره أبلغ فى الزجر . يريد - رضى الله عنه - بذلك التغليظ على أهل الغش ، وأنهم ليسوا من الدين فى قليل ولا كثير .

فضل الإمام :

كان الإمام أحمد يقول : لم يجيء لأحد من الصحابة فى الفضائل ما جاء لعلى ابن أبى طالب - عليه السلام - .

استجمام النفس :

كان مسعر بن كدام - بكسر الكاف - ينشد الشعر عقب الصلاة ، ويقول : إن النفس تكون هكذا وهكذا ، وكان مع ذلك إذا خطر على باله يوم القيامة يبكى حتى يرثى له الحاضرون ؛ وكان من ورعه إذا دعا على من آذاه أن يجعله محدثا أو مُفتيا .
العلم وحفظ القرآن :

كان عبد الله بن المبارك يقول : إذا تعلم أحدكم من القرآن ما يقيم به صلاته ، فليشتغل بالعلم فإن به تعرف معانى القرآن .

كيف أصبحت :

قيل لعبد العزيز بن أبي دواد : كيف أصبحت ؟ فبكى ، فقيل له فى ذلك ، فقال : كيف حال من هو فى غفلة عظيمة عن الموت ، مع ذنوب كثيرة قد أحاطت به ، وأجل يسر كل ساعة فى عمره ، ولا يدري أىصير إلى جنة أم إلى نار .

عُرُوس العُباد والزهاد :

كان ابن المبارك يسمّى محمد بن يوسف الأصهبانى : عُرُوس العُباد والزهاد . وكان الأصهبانى يحبى الليل شتاءً وصيفاً ، وكل ما كان منه أن يتمدد بعد طلوع الفجر ساعة ثم يقوم ويتوضأ ، فكان إذا أصبح روى وجهه كأنه وجه عروس ! وكان إذا رأى نصرانياً أكرمه وأتحفه ؛ يبتغى بذلك ميلاً إلى الإسلام .

أكبر مروءة من الخليفة :

مرض يوسف بن أسباط الزاهد مرة ، فأتوه بطبيب من أطباء الخليفة - وهو لا يعلم - فلما أراد الانصراف أعلوه بذلك ، فقال : ما أجرته فى العادة ؟ قالوا دينار . فقال : أعطوه هذه الصرة ، ففتحوها فإذا فيها خمسة عشر ديناراً ، فسئل فى ذلك ، فقال : حتى لا يعتقد أن الخليفة أكبر مروءة من الفقراء .

كيف تجد للقراءة حلاوة ؟ :

قال مسلم بن ميمون الخواص : كنت أقرأ القرآن فلا أجد له حلاوة ، فقلت لنفسى : اقرئيه كأنك تسمعيه من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فجاءت حلاوته . ثم أردت زيادة فقلت : اقرئيه كأنك تسمعيه من جبريل حين ينزل به على الرسول - عليهما السلام - فزادت حلاوته ، ثم قلت : اقرئيه كأنك تسمعيه من رب العالمين ، قال : فجاءت الحلاوة كلها ! .

ما ألقى على الأنبياء :

ما ألقى على الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - يعبر عنه بالوحى وبالشرع ، فإن كان منسوباً إلى الله تعالى بحكم الصفة ، سمى قرآناً وفرقاناً وتوراة وإنجيلاً وزبوراً وصحفاً ، وإن كان منسوباً إلى الله تعالى بحكم الفعل لا بحكم الصفة سمى حديثاً وخبراً وسنة .

والرسول يدعو إلى الله ابتداء بخلاف الولي فإنه يدعو إليه بحكاية دعوة الرسول
ولسانه ، لا بلسان محدثه هو ، ولهذا لو قال الولي بما يخالف حكم الرسول لم يتبع
في ذلك ، ولم يكن على بصيرة ، لأن من كان على بصيرة لا تتطرق إليه تهمة .

نهاية الفقيه مبدأ الفقير :

قال بعض العارفين : نهاية الفقيه مبدأ الفقير ، لأن أعلى أحوال الفقيه أن يخلص
في علمه وعمله لله تعالى ، ويشهد إخلاصه ولا يطلب عليه ثوابا ، ولا يذوق غير هذا .
وذلك أول دخول المريد في الطريق ، ثم يترقى إلى مقامات وأحوال بحسب حظه
ونصيبه إلى أن يغيب عن ملاحظة نفسه ، هذا كله بما كشف له من جلال سيده وعظمته .

استغراق أهل الذكر :

كان الجنيد - رحمه الله - يقول : مكثت نحو عشر سنوات أتوقف في قولهم :
يبلغ الذكر إلى حد لو ضرب معه وجهه بالسيف لم يحس به ، حتى وجدنا الأمر
كما قالوا . وفي أخبار الزبير بن العوام - رضى الله عنه - أنه كان كثير الخشوع في
الصلاة ، فتحدث بعضهم : أنه يرائي في ذلك ، فكان أن صبوا على رأسه ووجهه
ماء حاراً كشط جلدة وجهه وهو لا يشعر ، فلما فرغ من صلاته وصحا قال : ما هذا ؟
فاخبروه الخبر ، فقال : غفر الله لهم ما فعلوا ، ومكث زماناً يتألم من وجهه .

الصالحون على خطر فكيف بغيرهم :

قال الغزالي - رحمه الله - : إن العبد ليسجد السجدة وفيها من الخشوع والخضوع
ما يظن أنه بلغ به إلى أعلى عليين ، ولو قسمت ذنوبه في تلك السجدة على جميع
أهل الأرض لأهلكتهم ! .

المعارف القرآنية لا تحصى :

روى عبد الوهاب الشعراني : أن شيخه ذكر في تفسير سورة الفاتحة مائتي ألف
علم وتسعة وتسعة وتسعين علماً .

قوة مراس العارفين :

قال الحسن : ما رأيت أعبد من السرى السقطي - رحمه الله - أتم عليه ثمان
وتسعون سنة ، ما روى مضطجعا إلا في علة الموت ! .

إبليس أعلى أدبا من بعض الناس :

كان أبو الحسن الشاذلي يقول : احذر أن يكون إبليس أعلى منك في الأدب مع الله تعالى ، فقيل له : وكيف ذلك ؟ قال : لأنه لم ينازع الله تعالى في وصف من أوصافه قط ، وقال : إني أخاف الله رب العالمين ، وغاية أمره : أنه خالف الأمر فاستحق اللعنة والطرده ، ومخالفة الأمر أهون من طلب العبد أن يكون شريكا لله عز وجل فيما يستحقه من عباده .

مناظرة بين إبليس وبين التستري :

قال سهل بن عبد الله التستري : لقيت إبليس فعرفته ، وعرف مني أنني عرفته فوقعت بيننا مناظرة ، وقال لي وقلت له ، وعلا بيننا الكلام وطال النزاع بحيث وقف ووقفت ، وحار وحررت ، وكان من آخر ما قال لي : يا سهل ، إن الله تعالى يقول : « ورحتي وسعت كل شيء ، فعم ولم يخص ، ولا يخفى عليك أني شيء من الأشياء بلا شك ، لأن لفظة « كل » تقتضي العموم والإحاطة ، و « شيء » أنكر النكرات ، وإذن فقد وسعتني رحمتي ١١ قال سهل : فوالله لقد أخرجني وحيرني بظفره بمثل هذه الآية ، فإنه فهم منها ما لم أفهم ، وعلم منها ما لم أعلم ، فبقيت حائرا متفكرا ، وأخذت أتلو الآية في نفسي ، فلما بلغت قوله تعالى : « فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون » سررت وتخيلت أني ظفرت بحجة ، وظهرت عليه بما يقطعه ١١ فقلت : يا ملعون ، إن الله تعالى قيد رحمتي بنعوت مخصوصة مخرجها من ذلك العموم ، فقال - عز وجل - : « فسأكتبها للذين يتقون » الآية ، فتبسم إبليس ، وقال يا سهل ، ما كنت أظن أن يبلغ بك الجهل هذا المبلغ ! ألسنت تعلم يا سهل أن التقييد صفتك لا صفته ١١ قال سهل : فوالله لقد أخرجني ١١ ورجعت إلى نفسي ، وغصصت برقي ، وما وجدت جوابا ، ولا سددت في وجهه بابا ، وعلمت أنه طمع في مطمع عنده ، وانصرف وانصرف . ثم قال سهل : فهمت أن آخذ عن إبليس طريق المعرفة ، وإن لم ينتفع بها هو ، لقول بعضهم : انظر ما قال ، ولا تنظر إلى من قال .

قيام القيامة :

حينما أُرِجف المنجمون الهنود بقيام القيامة ، وزلزل الناس زلزالاً شديداً ، سأل التلفزيون العربي الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت وبعض العلماء عن أشرطة الساعة . أما الإمام الأكبر فقد كان عند حسن ظن الإسلام والعلم به ، فقد فزع إلى الكتاب العزيز الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فسرد بعضاً من أشرطة الساعة مثل تكور الشمس ، وانكدار النجوم ، وتسجير البحار ، ونسف الجبال الخ . وهى أشرطة كثيرة حفلت بها قصار المقصّل ، وانفرد بها القرآن الكريم دون الكتب السماوية جميعاً . والعلم الحديث فى آخر نظرياته يؤمن بها ، وهى أكبر دلائل صدق محمد النبي الأُمّى - صلوات الله وسلامه عليه - ١١ .

أما غير الأستاذ الأكبر فقد استباح معارفه من الأحاديث الضعيفة ، والأخبار الأسطورية ، والإسرائيليات الباطلة ، التى ثخنت بها كتب السنة والسِّيَر بحسن نية وسوء نية على يد كعب الأخبار ، وتميم الدارى ، وأبى هريرة ، وغيرهم من نحو ظهور المسيح ، أو المسيح الدجال ، ونزول عيسى - عليه السلام - من السماء ١١ وفات هؤلاء أن المسيح الدجال ظهر ألوف المرات فى شخوص الدعاة إلى الزندقة والإلحاد والباطل والضلال ، والنحل الزائفة ، والأهواء المردية ، والمبادئ الهدامة ، والسياسات الفاشية ، وعددهم لا يحصى على مدى التاريخ .

أما نزول المسيح بن مريم من السماء فردّه إلى الاعتقاد بأنه رفع بحسده بعد أن نجاه الله تعالى من الصّلب ، والقرآن صريح فى موته موتاً طبيعياً ، قال تعالى : «... إنا متوفيك ورافعك إلىّ ، والوفاء نصّ عربى لا يحتمل التأويل » ورافعك إلىّ ، أسلوب عربى معروف لمن نزل القرآن على لغتهم ، يساوى تماماً قولهم : قابضك إلىّ ، وقبضه الله إليه ، ولحق بالرفيق الأعلى ، واختاره الكريم إلى جواره الخ . وهناك آية أخرى أكثر صراحة من ذلك ، وهى قوله تعالى : « فلما توفيتى كنت أنت الرقيب عليهم ... » أى على بنى إسرائيل الذين بعثتني لهم ، فبلغتهم رسالتك ، ثم قبضتني إليك بالموت ، وعلمهم بعد ذلك موكلوك إليك .

وعقيدة رفع المسيح عليه السلام بجسده حيا إلى السماء أضخم أسطورة تسربت إلى كتب السنة ، وتقدسست إلى معتقدات العامة وبعض الخاصة مع الأسف الشديد ، ويطول الكلام إذا فصلنا الحديث عنها ، ولكننا نقول إجمالا إنها مسايرة للعقيدة المسيحية التي تقول : إن المسيح بعد صلبه مكث في القبر ثلاثة أيام ، ثم تغلب بقوة اللاهوت على الموت ، وطار إلى السماء وجلس عن يمين الآب ، وسينزل في آخر الدنيا للدينونة الكبرى بين الناس . ولا ضير على المسيحيين أن يعتقدوا هذا ، لأن المسيح في نظرهم لآله نزل ليظهر البشر من خطيئة آدم بدمه الإلهي ، ثم رجع إلى مقره ، وسيعود مرة أخرى للفصل بينهم .

ولكن ما معنى أن يعتقد المسلمون أن المسيح رفع إلى السماء حيا بجسده ، ليقب ما شاء الله أن يبقى لايأكل ولا يشرب لابسا ثوب الريش ، ثم ينزل لأمر عظيم كجأزة الناس - على حسب العقيدة المسيحية ، ولكن لشيء هين صغير حقير هو قتل المسيح الدجال ، كأن المسيح لا يقتله إلا مسيح ١ .

وخطورة هذه العقيدة على الإسلام أنها تلقى الشك على إنسانية المسيح التي قررها التنزيل الحكيم في غير آية تقريراً صريحاً تناولها من جميع جهاتها ، حتى لا يتخالفنا الشك في ذلك ١ .

ذلك أنه من غير المعقول أن يكون المسيح بشرا وقد مضت عليه ألفا سنة بلا طعام ولا شراب ولا نوم ، ثم ماذا نقول : إذا لم تقم القيامة إلا بعد مليون سنة مثلا ، أو بعد خمسة وأربعين مليوناً من السنين ، وهو العمر المقدّر ولو بالتقريب للشمس أم المجموعة الشمسية ؟

أنقول : إن المسيح لا يزال حيا أيضا ، وإنه إنسان ، وسينزل لقتل الدجال المزعوم ١ . ونحن نقول لهؤلاء العلماء : اتقوا الله في دينكم الواضح الصريح المتين الوثيق ، الذي جاء ليقضى على الخرافات والخزعبلات ، مؤيداً بسلطان العلم والعقل ١ لأنكم باعتناق هذه العقائد المعرقة في الأوهام تشككون المسلمين في دينهم ، وتصدون غير المسلمين عن الإسلام ، وتظاهرون - من حيث لا تشعرون - بأباطيل الملل الأخرى الذي جاء القرآن الكريم مهيمناً عليها ، ومصححاً لها ، وأخذاً بنواصيها إلى الحق والصواب .

إن المسيحيين يقولون في تبشيرهم : إن المسلمين أكثر مسيحية منا ! هم يقولون مثلاً : إن المسيح كلمة الله ، وإنه ولد من غير أب ، وإنه كان يحيا الموتى ، ويبرئ الأكمه والأبرص - وإن زادوا بإذن الله - ويزيدون علينا : أنه كلم الناس في المهد وذلك لم يثبت عندنا ، ثم إنهم ينزهونه عن الصلب ، ونحن نقول صلب وكلل بإكليل شوك وبُصِقَ عليه ، وهم بعد ذلك يعترفون معنا بأنه رفع بجسده حيا إلى السماء ، وسينزل منها قبيل القيامة ليدين الناس في عقيدتنا ، ويقتل الدجال في عقيدتهم وليس من المعقول ولا من المقبول أن يبقى بشرًا حياً آلاف السنين أو ملايين السنين ، فلم يبق إلا أن يكون المسيح لاهياً وإن كره المسلمون ! .

من هذا القول يتبين مبلغ جناية هذه العقيدة الزائفة على الإسلام والمسلمين ، وستزداد جنايتها جسامه وخطراً بتاريخ الزمان حيث تنقضى القرون المتطاولة ، والدجال لم يخرج والمسيح لم ينزل ، ولا نعدم ناعقا من أنصاف العلماء يسك مسامع الموحدين بأن المسيح سينزل ليقتل الدجال ، وليس الدجال إلا هذا العالم الضال المضلل . ورجاؤنا في الإمام الأكبر أن يقول كلمة في هذه المسألة يشفي بها صدور المؤمنين ، فقد تعبنا في رد ولدى الطالب بكلية الصيدلة - وهي كلية عليية محضة - إلى بشاشة الإيمان ، بعد أن سمع أن المسيح الإنسان لا يزال حياً حتى اليوم ، وسوف يزال حياً إلى يوم الدين ، في عقيدة بعض الغافلين ! .

ولعله من العجب العاجب أن رجلاً من هؤلاء العلماء يجهد نفسه في تأليف كتاب يقيم فيه الأدلة والبراهين على أن المسيح حي ، وأنه سينزل في آخر الدنيا ، كأن المسيحية محتاجة إلى مثله ، فياليت يعرف أنه ألف في المسيح من الكتب ما يملأ رحاب الأرض ! .

فبخ لك ، ومرحى مرحى لك أيها العالم العلامة ! لأنني زعيم لك بأنك ستطبع كتابك آلاف المرات ، وستكسب منه الأموال ، وتبنى العمارات ، وفوق ذلك سيمنحك رئيس قصر الفاتيكان وساماً فاخراً تزين به صدرك . هل جزاء الإحسان إلا الإحسان .

من الجنديات : عظة الموت :

المنايا على النفوس حوائم
عش - كما شئت - مُكثِرًا أو مُقِلًّا
سَرَّحَ الظَّرْفَ . هل ترى غير موتى
لُجَّةٌ . فَعَرُّهَا بِسَاطِ الْأَوَالِ
أَيْنَ دَلَّيْهَا ، ؟ قد طوى الدهرُ لَهَا
ليس يُجِدِي عَلَيْكَ - والعيشُ فَانٍ -
فَهَرَّ الموتُ نَابَهُ فَارَقَ الدُّنْيا

كلُّ حَيٍّ يُوَمِّلُ الْخُلْدَ وَاهِمٌ
سوف تَلْقَى الرَّدَى وَأَنْفُكَ رَاغِمٌ
: مِنْ حَصِيدٍ تَحْتَ التُّرَابِ ، وَقَاتِمٌ
وعَلَيْهَا مَنْ أَمَهَلَ الموتُ عَائِمٌ
نَ وَالْوَيَّ مِنْ قَبْلِهِ بِالْقَشَاعِمِ^(١)
غَيْرُ ذِكْرَى كَطَيْبِ نَبْهَا المَوَاسِمِ
يَا فَهَزَّ الْقُرَى ، وَرَجَّ العَوَاصِمِ

* * *

عَدَلَ الْقَبْرِ بَيْنَنَا فِي حَظُوظِ
حَلٍّ فِيهِ عَلَى الضَّعِيفِ أَخُو الْبَطِ
وَتَحَلَّى عَنْ سَيْفِهِ كُلِّ غَازِ
الرُّفَاتُ السَّحِيقُ فِيهِ يَنَادِي
هَلْهِنَا الْمَالُكَوْنَ لِلدُّودِ مَلِكٌ
وَالْوَجْهُ الصَّبَاحُ شَاهَتُ كَأَن لَمْ

مَيَّرْتَنَا . وَالْقَبْرُ أَعْدَلُ حَاكِمِ
ش ، وَسَاوَى الْفَقِيرُ رَبَّ الدَّرَاهِمِ
وَسَلَا عَنْ حَبِيبِهِ كُلِّ هَائِمِ
: اذْكُرُوا الموتَ . مَا مِنْ الموتِ عَاصِمِ
وَعِظَامُ الْوَرَى عِظَامُ رَوَائِمِ
تَك بِالْأَمْسِ نَاضِرَاتِ نَوَاعِمِ

* * *

تلك دنيا . سرورها فلتات
ضحكاتُ الثغور . أصدقُ منها
خَدَعَتْنَا بَلِينَهَا فَهَلَكْنَا
لو رَجَعْنَا إِلَى النَّهْيِ لَاَعْرَفْنَا

خَاطَفٌ كَالسَّرَابِ . وَالْحُزْنُ دَائِمِ
عَبَرَاتُ مَلَأُ الْعِيُونَ سَوَاحِمِ
نَاقِعُ السَّمِّ تَحْتَ لَيْنِ الْأَرَاقِمِ
أَنْ أَعْرَاسَهَا طَرِيقُ الْمَآتِمِ

(١) لقمان : لقمان بن عاد ، وله قصة تروىها الكتب . والقشاعم : النشور الكبيرة .

فالشجى

لمضرة الطالب الفاضل الأستاذ أحمد محمد بربرى

بأبى جاره ما يذل	بزى الدهر وكان غشوما
ذكت الشغرى فبرد وظل	شامس فى القر حتى إذا ما
وندى الكفين شهم مُدلى	يابس الجنين من غير بُوس
حلّ ، حل الحزم حيث يحل	ظاعن بالحزم حتى إذا ما
وإذا بسطو فليث أبلى	غيث مزين غامر حيث يجدى
وإذا يغزو فسمع أزل	مسبل فى الحى أحوى رقل
وكلا الطعمين قد ذاق كل	وله طعمان أرى وشرى

يقول : إن الدهر الغشوم سلبه أيا لا يذل جاره ، فهو الشمس إذا كان قر الشتاء ، والظل والبرد إذا كانت حمارة القيظ ، والشغرى نوء الصيف أو علامته عندهم . يابس الجنين فى غير اضطرار فهو يؤثر غيره بالطعام والشراب ، ولقد كانوا يتمدحون بالضمور ويرون من أكبر ما يشين الرجل أن يحمل اللحم والشحم على خلاف المرأة التى يجب أن تكون هيفاء مقبلة بعجزاء مدبرة . وهذا الندى الكفين الشهم الواقع ببلائه ، حازم فى جميع أحواله ، حل أو ارتحل . إذا وهب أجزل العطية فهو غيث ، وإذا سطا عظمت الرزية فهو ليث ، مسبل لإزاره فى الحى إذا كانت السلم ، يأكل ويشرب ، فهو أسمر ممتلىء الجسم عكس حاله فى الحرب ، فهو فيها كابن الذئب - السمع - الأزل . إنه العسل - أرى - حلاوة ، والحنظل - شرى - مرارة ، حسب المناسبات ، ولقد يجربه كلا الفريقين : الصديق والعدو فى كلتا الحالين .

قلت : هو يابس الجنين ، ثم هو في الوقت نفسه د رفل ، أى كثير اللحم ..
إن هؤلاء الصعاليك لا يبالون أن يناقضوا ... وددت لو ابتلى بما ابتلى به أبو العتاهية .
لإذ جرى حديث بينه وبين أحد علماء الكلام ، فناقض الشاعر فكشفه العالم المتكلم
في حضرة أحد خلفاء بني العباس ...

قال : رويدك فما ناقض تأبط شرا ، ولكنه أراد المعاني الثانية من الكناية ...
أنسيت : فلان كثير الرماد ، ومهزول الفصيل ، وجبان الكلب . إنما في د البيان ،
تساوى ضرب زيد عمرأ في النحو ، إن تأبط شرا أو الشنفرى إذا كانت السلم أسبل
إزاره ، ونحر للشرب الكرام فيأكلون ويسكرون ويأكل ويسكر معهم ، والأكل
والشرب ورغاء البال من شأنها أن تملأ الجسم دما ولحما وشحما ، فامنهم إلا أحوى رفل .
لقد كانت الحمر في الجاهلية إحدى المتع الثلاث الشهيرة التي عبر عنها طرفة بن العبد
أصدق تعبير حين قال :

ولو لا ثلاث هن من عيشة الفتى	وجدك لم أحفل متى قام عودى
فهن سبق العاذلات بشربة	كيت متى ما تعل بالماء تزبد
وكرى إذا نادى المضاف مجنبا	كسيد الغضا نهمته - المتورد
وتقصير يوم الدجن والدجن مظلم	بهكنه تحت النجاء الممدد

خمر ونساء ونجدة عبر عنها بإغاثة الملهوف إذا أحبط به - المضاف - الذى هو
كذئب الغضا ، ولعلك تذكر أن جلة أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم كانوا
يأكلون ويشربون عند كبير منهم فى مأدبة دعاهم إليها حين نزلت آية التحريم ،
وأن شاباً من شباب المسلمين لم يتركهم يستمتعون بسكرتهم تلك الأخيرة ، بل سعى
إليهم مسرعاً بنبأ التحريم فأهرقوها ... ولست أدري أكانوا قد شربوا منها أم أن
صاحبهم بلغهم قبل أن يذوقوها ، ومهما يكن من أمر فإنه لم يكن من حظ تأبط شرا
أن يدرك الإسلام ، ولا بد أنه قتل شابا ... فأنت تعلم أن أبا كبير الهذلى أدرك
الإسلام وأسلم ، وأراد النبي صلى الله عليه وآله وسلم على أن يحل له الزنا ، فأقنعه
عليه الصلاة والسلام بأنه فاحشة وساء سبيلا ... وأنه فى الجاهلية أراد أن يتزوج
أم تأبط شرا ، وكان هذا صيلا لما يضح أمره فأوضحه لأبي كبير فلم يسمعه إلا أن

ينصرف عن امرأة ابنها هذا المغشم ... الذكى الفؤاد الذى إذا نبذ بالحصى أحس كأن الجبل قد تزلزل ... وأحسبنا عرضنا قبل للقصة . والذى يعنيننا الآن أن أبا كبير حين أسلم كان ما يزال به فضلة ... بل لعلها أكثر من فضلة ، فلقد كان يتفتى ويريد الرسول على أن يحل له ما حرم الله ... فلو أنه قدر لتأبط شرا أن يعيش لكان من شباب المسلمين فهو فى حكم ابن أبى كبير الهدلى .

قلت : أو لكان من شباب المشركين .. فإن ذلك به أشبه .. أقلم يكن خليعا قاطع طريق لا يبالى على أى جنب كان فى الشيطان مصرعه ؟

قال : ولقد كان أبو ذر الغفارى رضى الله عنه قاطع طريق فى الجاهلية .. كان يقطعها رئيس عصابة من قومه أو من غيرهم ، بل كان يقطعها أكثر ما يقطعها وحيدا ، إذ كان يؤثر العمل الانفرادى : يعمل « جحيشاً ويعرورى ظهور المهالك » نهج تأبط شرا .. فلما كان الإسلام ودخله أبو ذر كان من شأنه ما تعرف .. كان أزهده الناس فى الدنيا .. عاش وحيدا ومات وحيدا ، وهو هو الذى قال عنه صلى الله عليه وآله وسلم إنه أصدق الناس لهجة .. فأنت إذا قست الغائب بالشاهد استنبطت أنه لو قدر لتأبط شرا أن يدرك الملة السمحة لكان خيفاً مسلماً وما كان من المشركين ، على أنه من اصطلاح على تسميتهم بأهل الفترة ، أى من الناجين : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » يقول ذلك رب العزة الرحمن الرحيم .

قلت : لقد استثنى من حكم الفترة جماعة مخصوصة ، منها : امرؤ القيس ، وحاتم الطائي ... وليس هذا الاستثناء فيما أرى إلا افتراء على الله ، وتزييداً واستظهاراً عليه « وما كان ربك نسيا » .

قال : فهذا أمر بين ولا مشكلة ، إنها قاعدة عامة ، خذها عني ولا تبال ، ولا تعباً كثيراً ولا قليلاً بما يقال ويعاد .. إذا وجدت تضارباً أو تعارضاً أو منافاة أو خلافاً أو تضاداً أو تناقضاً ، أو بعبارة يفهمها الناس جميعاً : إذا وجدت كلاماً لا يفسق وكتاب الله ، وقيل لك إنه كلام رسول الله ، فقل : بل افتراء على رسول الله فإذا قال سبحانه وتعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » ، وقيل لك إن زيدا وبكراً وهنداً ودعدا مستثنون من هذا الحكم ، فقل : كذب ولا استثناء ، وإذا قال

عز وجل : « يسألونك عن الألهة ، قل هي موافيت للناس ، وقيل لك : إن رسول الله قال عن قرص الشمس جوهره كذا أو شكله كيت ، فقل : إفك وزور .. لقد سألوأ عن « المساهية » كما يقول أصحاب المصطلحات ، فأجاب بالفائدة .. وما كان صلى الله عليه وسلم ليتجه اتجاهأ غير ما وجهه ربه ، ولقد وجهنا سبحانه وتعالى وجهة التفكير والتدبر فى أنفسنا وفيما خلق من دابة وفى السموات والأرض والجبال والشجر ، إلا أنه لم يضع أصول الكيمياء والطبيعة والفلك وضعأ مباشراً فى الكتاب المبين .. على أن ثم إشارات وعلامات وتوجيهات لا تقبل الجدل ، هل تعرف التأويل ؟ هل تعرف ما تسميه المتصوفة الإشارة ؟ إنها لى هى السبيل نفسها بالقياس إلى علماء الكونيات والنفسيات ووظائف الأعضاء وغيرها من صنوف العلم الإنسانى .

قلت : هذا عود على بدء . إذ كنا عرضنا لهذا الموضوع فى حديث سلف ، قرأت بعده لأستاذنا العلامة الجليل المرحوم الشيخ محمد عبد الله دراز فى كتابه المكتوب بالفرنسية « تبصير بالقرآن Gmitiaton au coran » تحت عنوان الحقائق العلمية ما يلى منقولاً إلى العربية : « ولكن القرآن ، فى دعوته إلى الإيمان والفضيلة ، لا يستنبط العبر من سنن الأولين والأحداث المنصرمة فحسب ، بل يستخدم أيضاً وللغاية نفسها الظواهر الكونية الثابتة ، ويوجه انتباهنا إلى التواميس الدائمة التى لا يتحدث عنها لذاتها ، بل غرضه الوحيد منها تذكرتنا بالخالق ، وإذن نشهد أن الصور التى يصوغها فيها تتفق بمنتهى الدقة والمقررات العلمية فى أحدث صورها ، مثلاً :

(١) المصدر الحقيقى الذى تنبعث منه جرثومة حياتنا ، قال تعالى : « فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب » (١) .

(٢) الأطوار المختلفة للخلق فى بطن الأم ، قال تعالى : « يأيتها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ، ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم

طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً ، وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، (١) .

« ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاماً ، فكسونا العظام لحماً ، ثم أنشأناه خلقاً آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، (٢) .

(٣) عدد التجويفات المطلوبة التي في أعماقها يتم ذلك الخلق ، قال تعالى : « خلقكم من نفس واحدة . ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأتى تصرفون ، (٣) .

(٤) الأصل المائي لكل شيء حتى ، قال تعالى : « أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون ، (٤) .

(٥) تكون المطر ، قال تعالى : « الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً ، فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله ، فإذا أصاب به من يشاء من عباده ، إذا هم يستبشرون ، (٥) .

(٦) الشكل الدائري للسماء والأرض ، قال تعالى : « خلق السموات والأرض بالحق ، يكور الليل على النهار ، ويكور النهار على الليل ، وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ، ألا هو العزيز الغفار ، (٦) . مع عدم صدق استدارة الأخيرة في أطرافها ، قال تعالى : « أولم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها ، والله يحكم لا معقب لحكمه ، وهو سريع الحساب ، (٧) . « بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها ، أفهم الغالبون ، (٨) .

(١) الحج : آية ٥ . (٢) المؤمنون : الآيات ١٢ ، ١٣ ، ١٤ . (٣) الزمر : آية ٦

(٤) الأنبياء : آية ٣٠ . (٥) الروم : آية ٤٨ . (٦) الزمر : آية ٥ . (٧) الرعد :

آية ٤١ . (٨) الأنبياء : آية ٤٤ .

(٧) جرى الشمس نحو نقطة معينة ، قال تعالى : « والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم » ، (١) .

(٨) طريقة المجتمعات الحيوانية عامة في حياتها حياة جماعية ليست أقل انسجاماً من الجماعة الإنسانية ، قال تعالى : « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون » ، (٢) .

(٩) وصف حياة النحل خاصة ، قال تعالى : « وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ، ثم كلّي من كل الثمرات ، فاسلكي سبل ربك ذللاً ، يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون » ، (٣) .

(١٠) زوجية النبات والمخلوقات الأخرى التي لم تكن معروفة حين نزول القرآن ، قال تعالى : « سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون » ، (٤) . « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » ، (٥) .

(١١) تلقيع الرياح ، قال تعالى : « وأرسلنا الرياح لواقح ، فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين » ، (٦) .

في اختيارنا هذه النصوص لهذه الفقرة عنيانا أن نتجنب العيب المزدوج الذى يمكن أن يؤخذ على هذا المنهج الذى عرف باسم منهج التوافقية Con cordence وهو يتلخص في تفسير النصوص الموحاة بحيث تتفق وتتألف العلم ، فلقد دفعت الحاسة الدينية بعض المفسرين المحدثين إلى تجاوز الغاية في سبيل هذا الاتجاه التوافقي لدرجة الخطر على العقيدة نفسها ، فهم يخطئون تارة بعدم احترام النص وإرهاقه ليقول ما لا يجوز أن يقال بحكم متن اللغة وأحكامها ، وتارة بالمبالغة في احترام آراء العلماء متمشين معهم حتى في الفروض التي لا يمكن تحقيقها أو المتناقضة ، إذا تجنبنا ذلك التعسف المزدوج ، فرأينا أننا لا نستحسن هذا الاتجاه لحسب ، بل نرى من

(١) يس : آية ٣٨ . (٢) الأنعام : آية ٣٨ . (٣) النحل : آية ٦٨ ، ٦٩ .

(٤) يس : آية ٣٦ . (٥) الذاريات : آية ٤٩ . (٦) الحجر : آية ٢٢ .

الضرورى أن تقابل بين مقررات الوحى الذى يتم فى لحظة ، وبين المقررات العلية التى كانت ثمرة المراقبة المنهجية البطيئة ، فإن القرآن نفسه يدعونا إلى كشف أصله الإلهى بالتأمل فيه من ناحية ، ومن ناحية أخرى بمشاهدة الدلائل التى أودعها الخالق الكون ، وأودعها ذواتنا أيضا ، فهى كلها تشهد شهادة بينة بحقيقته المطلقة ، قال تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » (١) ، وقال سبحانه : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد » (٢) .

واقع الأمر أنه لا تفسير فى الأمثلة التى سقناها ، بل هو شهود لتوافق عجيب بين منطق الآيات القرآنية نفسها ، وبين المنطوق العلمى الذى كان نتيجة دراسات طويلة المدى عبر القرون ، لم تؤد إلى شئ ثابت ثبوتاً نهائياً إلا بفضل تعاون الرجال المختصين ، الذين عنى كل منهم بالفرع الذى يخصه فى حيزه المحدد . . . أفلتك مصادفة اتفاقية ؟ أو ممكن فى عهد الجاهلية أن رجلاً مجرداً من كل جهاز موكولا إلى مجرد نور فطرته وملاحظاته المحدودة جدا يعالج « زيادة على عمله الأصلى الأخلاقى الدينى الاجتماعى ، مواد التشريح ، والظواهر الجوية ، والكونيات العامة ، وعلم النفس الحيوانى والإنسانى ، وفروع علوم آخر ما تزال تستلزم أجهزة عليية جد متقنة ، وتجارب جماعية يكمل بعضها بعضا . . ثم يعطينا عن كل موضوع صيغا عامة دائمة دون أن تكون فى أى منها أقل أثر لوهم من أوهام عصره وببئته .. ومن خياله الخاص ؟

قال : فخذ ما يقوله الخبر دراز - أحله الله دار المقامة من فضله - مربوطا بما قرناه فى حديث سلف . . كل قانون على لا يعد نهائياً إلا باعتبار ما كان ، فأما باعتبار ما سيكون فهو لا بد غرض التعديل والتحوير والتطوير ، فلك هى القاعدة العلية النهائية الوحيدة مقولة أقطاب العلم أنفسهم ، وأخرى يشهدونها ولا تدخل فى حيز بحثهم ودرسهم ، أعنى قيام نظام الكون على أحسن حال : ليس فى الإمكان أبدع مما كان . . .

قلت أرجو أن تستمر فيما نحن فيه . . . إن نقص الأرض من أطرافها حال مشهودة ، فهى غير صادقة الاستدارة ، ولكن قوله تعالى : « نأتى الأرض ننقصها ، يشعر أن العمل ما زال قائما .

قال : لك فى هذا وجهان . . فإن مقتضى طبيعة الأشياء أن تصدق الاستدارة على توالى كرات الأيام والأعوام . . فهى تدور . . وما تزال تدور إلى ما شاء الله ، فشأنها أن تستكمل التدوير أو التكوين ، ولكن سبحانه وتعالى ما يزال يأتيها ينقصها من أطرافها ، هذا وجه . والثانى أن نقص الأرض من أطرافها لم يتم فى لحظة أو يوم أو سنة أو قرن . . إنه عمل تطورى اقتضى ألوف الألوف من السنين أو من القرون ، فلست أدري ما يدرىه المختصون بهذه الشؤون ، والعرب تعبر عن الفعل الماضى الذى استمر أو تكرر بصيغة المضارع . تقول : افعل كذا ، أو قد افعل كذا ، يعنى فعلت كثيرا وتكرارا : « قد أشهد الغارة الشعواء ، يعنى شهدا كثيرا » قد أترك القرن مصفرا أنامله ، يعنى فعل ذلك كثيرا « ولقد أجمع رجلى بها ، يعنى جمع رجليه على فرسه كثيرا « ولقد أعطيها كارهة ، يعنى ردها كثيرا إلى حومة الحرب وهى كارهة من شدة البأس ، والأمثلة كثيرة فى الأدب العربى وفى القرآن ، وأكثرهم لا يفتن لها فافهم . . نأتىها ننقصها : نأتى هنا من أفعال الشروع . . قلت : فهمت ولا داعى للإطالة .

قال : لو صبرت .. ولكنك عجول عجلة إضافية فوق المقول فيها : خلق الإنسان عجولا . . إن الآيات التى استشهد بها الشيخ دراز ووجهة نظره فى حاجة إلى التعقيب ، ولست أدري : لماذا اخترت من بينها آية نقص الأرض من أطرافها ؟ .

قلت : لأنها وحدها من جملة ما استشهد به قد يقبل رأيه فيها الأخذ والرد ، فأما سائر الآيات فإن الأمر فيها شهود وليس تفسيراً على حد تعبيره .

قال : شهود وما أدراك ما الشهود ؟ إنه من مصطلحات القوم والأستاذ العلامة محمد عبد الله دراز - طيب الله ثراه ولقاءه نضرة وسرورا - من القوم إن لم تكن تعلم .. هو من أعلام الشريعة والطريقة سواء . ألا تذكر ما كتب فى رسالة الإسلام ؟ .

قلت : وأذكر كتابيه بالفرنسية عن القرآن ، وأشهد أنه ليس لها فى المكتبة العربية نظير .

قال : ومن أنت حتى تشهد أو لا تشهد .. فأما أنا فبوصف كوني شيخا أعبر عن « المشيوخاء » جمعا من حيث ردى إلى أرذل العمر في الأقل ، إلا يكن من حيث صدارة الإفتاء - أقرر أننا لا يفرق « العادم النظير » إلا من باب « المقصور والمدود » .

قلت : انقلوا كتابي الشيخ دراز إلى العربية يكن لكم عادما نظير خلا عادم نظير ابن مالك .

قال : انقلهما أنت .

قلت : إذا أجزتموني فعلت .

قال : الإجازة تتطلب توافر شروط وزوال موانع .

قلت : لا شروط ولا موانع في الملة الإسلامية ما تحققت الأهلية .

قال : ولا إجازة شكلية وحسبك أنك من الأمة التي قال فيها أصدق القائلين : « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدوني » .

قلت : ما دمنا في الشروط والموانع ووحدة الأمة الإسلامية ، فأنا واحد من الأمة الإسلامية ، وفي الوقت نفسه واحد من الأمة العربية ، والرأى عندي - أو عند من هو خير مني - أن قيام الوحدة العربية شرط في قيام الوحدة الإسلامية ، أو كما قلت في موضع آخر لإنهما بمثابة المقدمة والنتيجة .

قال : المسألة أوسع من أن تأتي ذيل حديث ، فلنؤجل النظر فيها إلى حديث قابل . على أنه لا يفوتني أن أقرر لك ما سبق أن قررت ، وسأظل أقرر ما حييت : أنه لا إسلام دون وحدة ، أو كما قال شيخى - رضى الله عنه وأنزله أعلى عليين مع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين - كان الإسلام ولم تكن صلاة ولا صوم ولكنه لم يكن قط بدون وحدة . لله ما أنفس ما قد أمدك ببعض ما قد يمدني حال حياته ، تلك الحياة الدنيا على أن « أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » الذين لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، لا ينقطع بانتقالهم إلى الرفيق الأعلى إلا أن يصبح المدود غير أهل للدد ، وجارى الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . وعلى الله قصد السبيل ومنها جاز ولو شاء لهداكم أجمعين ؟

بساطة العقيدة وسير التكليف

— ٢ —

٦ — ومن الأصول المقررة في الشريعة الإسلامية تلك القاعدة التي تضمنها قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى » .

وهي قاعدة ذات أثر فعال في التوجيه والتربية ، وفيها نفع عظيم للمجتمع ، ويرتبط بها الحكم الشرعي في الجهرة العظمى من أفعال المكلفين ، وبيان ذلك يرجع إلى ما يأتي :

١ — القرآن الكريم والسنة المطهرة متضافران على تقرير هذه القاعدة ، وإثباتها أصلاً من أصول هذه الشريعة المحكمة .

فما رود في القرآن الكريم قوله تعالى في سورة الزمر : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ، ألا الله الدين الخالص » ، وفي سورة محمد : « فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم » ، وفي سورة البينة : « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين خفاء » ، و« يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة » . فهذه الآيات ، وكثير غيرها ، واضحة في أن أساس الأعمال هو الإخلاص والنية الصالحة ، والآية الأخيرة تقول : « وما أمروا إلا ليعبدوا الله ، بإدخال اللام على الفعل الواقع بعد « أمروا » ، وكان الظاهر أن يقال : « وما أمروا إلا أن يعبدوا » ، ولكن المفعول حذف ليعم الكلام جميع الأفعال التي يفعلها المكلفون ، واكتفت الآية بذكر الغاية التي يراد الوصول إليها ، وهي : « ليعبدوا الله مخلصين له الدين » ، فكأنها تقول : « إنهم أمروا بأن يصدقوا بكل فعل يفعلونه لإرضاء الله تعالى وإبتغاء وجهه ، فتصير بذلك أفعالهم كلها عبادات لله خالصة .

ومما ورد في السنة المطهرة - تقريراً لأن المعول عليه هو القصد ، فإن كان خيراً قبل وأثيب صاحبه عليه ، وإن كان شراً رد على صاحبه وحمل مافيه من وزر - قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « الخيل لثلاثة : هي لرجل أجر ، ولرجل ستر ، وعلى رجل وزر ، فأما الذى هي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله فأطال لها في مرج أو روضة ^(١) ، فما أصابت في طيلها ^(٢) من المرج أو الروضة كانت له حسنات ، ولو أنها قطعت طيلها فاستنت شرفاً ^(٣) أو شرفين كانت آثارها وأروانها حسنات له ، ولو أنها مرت بنهر فشربت ولم يرد أن يسقيها كان ذلك له حسنات ، ورجل ربطها تغنياً وتعقفاً ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها ، فهي له ستر ، ورجل ربطها غفراً ورياء ونواء لأهل الإسلام فهي له وزر . »

فالتصرف هنا في مال مملوك ، وقد اعترفت الشريعة منه بفرضين وأنكرت غرضاً . فالغرض الأول موافق لمصلحة الجماعة العامة من حيث هو تبرع بأداة من أدوات الجهاد في سبيل الله ، ويترتب عليه مصلحة خاصة تابعة إلى المتبرع ، إذ أن صلاح العامة سيعود عليه بجزء من الصلاح في نفسه وماله وأهله وسائر مرافقه ، وإن كان هذا الحظ مغموراً في الحظ العام ، ومثل هذا يرضاه الله تعالى ، بل يستحبه ويندب إليه ، لأن الأمم إنما تستقيم وتصلح إذا كثرت فيها أمثال هؤلاء الأجواد السابقين إلى المكرمات في سبيل الإصلاح العام . وصاحب الغرض الثاني ، وإن كان ربط خيله ابتغاء مصلحة له وحظ من حظوظ الدنيا ، فإنه مقبول محمود ، لأنه احتفظ بمال ينمي ويدخر مصالحه ويتغنى به العفاف واتقاء عادية الزمان ، وأن يستره الله فلا ينكشف بالحاجة إلى الناس ، وإنما كان هذا قصداً حسناً موافقاً لما يريد الشارع ، لأن صلاح الأمة مستمد من صلاح أفرادها ، والأمة التي تتكون

(١) المرج : ما أعد للرعى وفيه الكلاً والعشب ، والروضة : ما أعد للتنزه والترفيه ، وفيه الماء والخضرة .

(٢) الطيل : الطول - بكسر ففتح فيها - هو الحبل الذى يطول به اللدابة لتمكن من الرعى مربوطة .

(٣) استنتت الفرس . عدت لإقبالاً وإدباراً . وشرفاً أو شرفين : أى أو شوطين .

من أفراد أقوياء سعداء ليسوا عالة على مجتمعهم ، هي الأمة القوية السعيدة .
أما صاحب الغرض الثالث فإنه ابتغى حظاً دنيوياً صرفاً لا تعترف به الشريعة ،
حين أراد الفخر والرياء ، وابتغى عداً للحق ومناوأة له حين ربطها نواء لأهل
الإسلام - أى قصداً لمعاداتهم ومناوأتهم - وذلك يناقض الإسلام ، ولا يرضى به الله ،
فهو على صاحبه وزر .

* * *

٢ — وبهذا يتبين أن في وسع المؤمن أن يقصد مع الامتثال لله في تأدية
العبادة أو التصرف قصداً تابعاً ، فيه حظ من حظوظ الدنيا ، ولكن على شريطة
أن يكون ذلك الحظ معترفاً به ، غير منكر في الشرع ، ويتفرع على ذلك أمثلة
كما ذكره أهل الفقه :

فن ذلك أن يقصد الإنسان بالصلاة في المسجد الانس بجيرانه وأصدقائه ،
حيث يلقام فيه ، ويتحدث إليهم ، ويشاورهم ويجالسهم ، فلا بأس بهذا القصد ،
وليس فيه ما يفسد نية العبادة أو يشوبها بما هو مناف لها .

ومن ذلك أن يقصد المرم إلى الصيام احتفاءً لآلئ يحمده ، أو مرض يتوقعه ،
أو بظنة تقدمت له ، وأصل ذلك - مع مبدأ النية الحسنة - قول رسول الله صلى الله
عليه وآله وسلم : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض
للبصر ، وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » ، فقد شرع
الحديث أن يقصد الشباب إلى الصوم ليكون لهم وجاء ، أى حصانة ، وردا عن
الوقوع فيما حرم الله .

ومن ذلك أن يقصد مع الحج رؤية البلاد ، أو التخفف من أقال الحياة ،
أو الابتعاد بعض الوقت عن جو لا يناسبه ، فإنه لا بأس بذلك ، وفي القرآن الكريم :
« ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة
الأنعام ، وفيه أيضاً : « ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم » .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدخل في الصلاة يستريح إليها

من تعب الدنيا ، ويجد فيها لذته وراحة نفسه ، وهو القائل صلوات الله وسلامه عليه : « وجعلت قرة عيني في الصلاة » فالصلاة عبادة ، والاستراحة بها أو إليها من متاع الحياة حظ من الحظوظ النفسية الدنيوية ، ولكنه من جنس ما يأذن فيه الشارع ، ومما لم يعد مفسدة تفسد ، أو شائبة تشوب .

وقل مثل ذلك في تعلم العلم ابتغاء رفعة الشأن ، أو الاحتماء به من الظلم ، وفي الصدقة يتبني بها - مع الإحسان إلى المحتاجين - أن يذوق لذة العطاء والتفضل ، وقد كان المأمون يعفو عن المسيئين إليه ويقول : « لو علم الناس مالنا في العفو من اللذة لتقربوا إلينا بالجنايات » والعفو منزلة يندب إليها القرآن في مثل قوله : « والعافين عن الناس » فهو عبادة ، والاستراحة إليه واللذة به ، حظ من الحظوظ الدنيوية لا ينافي هذه العبادة ، لأنه ليس من الحظوظ المذمومة المنهى عنها .

وفي الفقه : يستحب الوضوء لمن أراد أن يتردد به صيفا ، ويستحب للإمام أن ينتظر بالركوع حتى يتيح لإدراك الركعة للسبوق ، ويندب له أن يخفف من الصلاة لأجل الشيخ الكبير ، وللضعيف ، ولصاحب الحاجة ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يفعل ذلك ، وهو القائل : « إني لأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي مخافة أن تفتن أمه » .

٣ — ويقابل هذا الإحسان والتفضل بقبول إرادة الحظ الدنيوي إذا كان معترفا به من الشارع . رفض الشريعة ما يقصد إليه أصحاب الحيل من غايات مستترة ومقاصد ملتوية ، فإن الله تعالى يعكس عليهم مقاصدهم ويعاقبهم بضد ما أرادوا ، لأنهم سلكوا إلى حظوظهم سبيلا ملتوية « يخادعون الله وهو خادعهم » .

وقد كانت أول عقوبة أوقعها الله على البشر عقوبة من هذا الجنس ، وهي عقوبة أبويना آدم وزوجه بإخراجهما من الجنة لما عصيا الله بالأكل من الشجرة وقد نهاهما عنها ، فقد خدعهما الشيطان بقوله : « ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين » فأرادا الخلود ، وهو حظ نفسى التمساه من غير حله ، فعاقبهما الله بضده ، وهو الإخراج والحرمان .

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تفيد أن الله تعالى يعاقب أصحاب المقاصد السيئة بضد ما قصدوا ، ومن ذلك قوله تعالى : « وأتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا ، كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا ، وقوله عز اسمه : « واتخذوا من دون الله آلهة لهم ينصرون ، لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون . » ولا يحق المكر السيء إلا بأهله . »

وفي الفقه من ذلك : جلد القاذف لأنه لمز صاحبه بما لو ثبت لاستوجب الجلد فعوقب بأن حد هو . ومنها أن من عقد على معتدة تأبد تحريمها عليه ، ومن قتل ليرث حرم الميراث ، ومن طلق امرأة في مرض موته لينعها الميراث ورثت ، ومن اصطاد صيداً في الحرم ، أو اصطاد وهو محرم ولو في الحل ، حرم عليه أكل صيده ووجبت عليه كفارة مثل ما قتل من النعم ، وقاطع الطريق تقطع أطرافه ، والناظر من كوة أو نحوها متطلعا الى جاره لو فقا الجار عينه يعود أو نحوه لم يكن عليه شيء وكانت هدرا .

إلى غير ذلك من الأحكام التي تتفرع على أصل المعاملة بضد المقصود ، والمعاقبة بعقوبة من جنس الذنب ، وذلك كله مبنى على اعتبار نية الفاعل ، وتقدير مقصده . وبهذا يتبين أن الشريعة الإسلامية قد قررت بهذا الأصل مبدأ يقوم على أساس من العدل والوسطية ، ويؤدي الى تقويم خلقى للأفراد يترتب عليه صلاح كبير للمجتمع ، وتخفيف كثير من مآرب أصحاب الغايات الفاسدة المفسدة .

٧ — ومن ذلك هدى الإسلام - كتابا وسنة - في الصدقة ، وتبدو مظاهر الوسطية ، فيها من جوانب عدة :

١ — ففيا يرجع الى الجود بها نجد أن الطريقة المثلى التي يشرعها الإسلام في ذلك هي البذل الذي لا ينتهى بالبازل الى أن يصبح هو فقيراً محتاجا ، أو أن يخرج عن نسبة أكثر من الثلث ، والسر في ذلك أنه لا معنى لأن يصلح إنسان حال غيره بما يفسد به حال نفسه أو حال من يعولهم ، ثم إن البازل الذي ينشط للبذل وتقرى عليه نفسه ، ويسمى إليه قلبه ، ويسلم معه من عوامل التطلع وتعلق النفس

بما بذل ، إنما هو من يبذل الأقل ، ويبقى لنفسه الأكثر ، تلك سجايا النفوس فيما يعتاده الناس ، وفيما هو شأن وسطهم الذي لا عبرة بما قد ينزل عنه من الباخلين المقترين ، ولا بما يرتفع عنه من الأجواد المبرزين ، فإن التشريع عادة إنما يكون للوسط وما عليه الكثرة ، وما هو شأن الكافة .

ويتجلى هذا الجانب في السنة المطهرة تطبيقاً للنهج القرآني على نحو رائع .

روى أبو هريرة وحكيم بن خزام أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « خير الصدقة - أو أفضل الصدقة - ما كان عن ظهر غنى ، وهذا تعبير تصويري جميل عما لا يرهق صاحب المال ، وتأويله البياني على أحد وجهين : فأما أن يراد مثل قولهم : « فلان يأكل كل على ظهر يدي » ، أى أننى أنفق عليه ، والعادة أن النفقة على الغير لا تستغرق إلا جزءاً مقارباً من المال ، وليس الشأن فيها أن تستنفد المال كله . ولأما أن يكون على معنى أن صاحب المال يبذل صدقته من ظهر الغنى وما يتخلف عنه ، لا من أمامه وما هو في مقدمته ، فهو يعطى الفضل منه وما لو صور لكان جانباً خلفياً لا جانباً أمامياً .

ومهما يكن تأويل المعنى فإن المراد به واضح ، فرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يرشد الناس إلى الصدقة التي لا يضار معها المتصدق مادة ولا روحاً ، وقد كان يرد في كثير من الأحيان ما يخرج على هذا السنن من الصدقات ، فن ذلك ما رواه مسلم وغيره عن جابر بن عبد الله من « أن رجلاً أعتق عبداً له ، لم يكن له مال غيره ، فردّه عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وابتاعه نعيم بن النحام » وعن جابر أيضاً : « أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بمثل البيضة من الذهب ، فقال يا رسول الله هذه صدقة ما تركت لي مالا غيرها ، فحذفه بها النبي صلى الله عليه وسلم فلو أصابه لأوجعه ، ثم قال : ينطلق أحدكم فينخلع من ماله ثم يصير عيالا على الناس ، ١ .

وفي هذا الحديث يلح من الرجل المتصدق معنى يقرب من أن يكون تطلماً إلى ما أنفق وتشوقاً ، إذ يقول معتداً بما تصدق به : ما تركت لي مالا غيرها ، والاعتداد بها على هذا النحو يفيء أو يرمى إلى أن نفسه تبعت هذه الصدقة ، لأنها كل ماله وليس له من بعدها شيء ، والنفس البشرية نزاعة إلى أن تملك ، فإذا

خرجت من كل ما تملك عادت فتطلعت إلى ما أخرجت ، وكان لها نوع اتجاه إليه وارتباط به فهي تذكره وتعتد به ، ولعل هذا بعض السر في أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه رد هذه الصدقة ردا فيه شيء من العنف ، فحذف البيضة الذهبية حذفة لو كانت أصابت الرجل لأوجعته ، وتكلم مع هذا بما قال غير مخاطب به ذلك الرجل ، فكأنه أعرض عنه وأهمله إظهاراً لعدم الرضى بفعله ، ثم بين للناس سر عدم قبول مثل هذه الصدقة بأن ذلك يؤدي إلى أن يصبح صاحبها عالة على الناس - أى : وهذا أسلوب لا يصلح عليه المجتمع ، لأنه إذا كان قد سد خلة فقد فتح خلة .

وقريب من هذا الصنيع ما روى عن أبي سعيد الخدري من أنه دخل رجل المسجد ، فأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم الناس أن يطرحوا ثيابا ، فطرحوا ، فأمر له بشوين ، ثم حث عليه السلام على الصدقة ، فجاء فطرح أحد الثوبين ، فصاح به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « خذ ثوبك ! » فرفض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الصدقة كان سريعا عقب الفعل ، وكان على سبيل الصياح بالرجل ورفع الصوت المنبئ عن قوة العزم وشدة الحزم ، وما ذلك إلا لأنه لا يريد أن ينزل الرجل عن شطر ماله ، فإن الشطر قسم مساو ، وقل في الناس من ترضى طبيعته البشرية بأن يقاسم في ماله ولو كان قد أتاه على هذا الوجه من الصدقة ، لأنه أصبح ماله كإياه ، وحريصا عليه ، وله الأولوية في أن يتمتع به حساً ونفساً .

ومن الأحاديث المشهورة حديث الرجل الذي استأذن الرسول صلوات الله وسلامه عليه في أن يتصدق بماله كله ، فأبى ذلك عليه فلم ينزل حتى بلغ الثلث فقبل منه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يتصدق بالثلث وعرفه أن الثلث كثير ، أى أنه نسبة عالية كبيرة لا يستهان بها ، ينبغي أن يقف الحد الوسط عندها .

وهذا الهدى النبوى مأخوذ من القرآن الكريم ، إذ يقول الله عز وجل :

« ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً ، فإن قوله تعالى : « فتقعد ملوماً محسوراً » مرتبط بالهوى في قوله : « ولا تبسطها

كل البسط ، ولا يتفق في المعنى أن يكون مرتبطا بقوله : « ولا تجعل يدك مغلولة » لأن المحسور هو من أصابه الغم والحسرة والندم على ما فاتته ، فإذا جاءه اللوم وهو في حسرته وغمه ، كان ذلك من قبل لإسرافه وتضييعه ، لا من قبل منعه وقبضه .

ومن ذلك قوله تعالى : « وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » فالزكاة فريضة واجبة تصفها الآية الكريمة بأنها حق للزراع ، وتندب إلى إخراج هذا الحق يوم حصاده ، ولكنها مع هذه العناية تنهى عن الإسراف ، ولا تستحب للناس أن يزيدوا عما قدره الله ، فإن ذلك فيه معنى الاستظهار على الشارع ، ولذلك يقول المالكية : إن الشارع إذا حدد قدرا ، فإن الزيادة على ما حدده تكون بدعة ، فتارة تكون مبطللة كالزيادة في الصلاة ، وتارة تكون مكروهة ، كالزيادة في الزكاة ، وعبرة « الاستظهار على الشارع » هي عبارة المالكية ، تشبها لمن يفعل ذلك بمن يستظهر بشيء ، أى يحتاط به .

وقوله تعالى : « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا ، إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين » .

(ب) وفيما يرجع إلى المتصدق عليه ، يجعل الإسلام الحق الأول في الصدقة لمن يعوله المتصدق ، وذلك بقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « وابدأ بمن تعول » .

بل جعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما ينفقه الرجل على نفسه صدقة ، وجعل له الأولوية والتقدم ، يدل على ذلك حديث أبي هريرة : « أن رجلا قال يا رسول الله عندي دينار ، قال : تصدق به على نفسك ، قال : عندي آخر ، قال : تصدق به على زوجتك ، قال : عندي آخر ، قال تصدق به على ولدك ، قال : عندي آخر ، قال : تصدق به على خادمك ، قال : عندي آخر ، قال : أنت أبصر به » .

وفي حديث جابر ، من طريق مسلم ، عن الرجل الذي تصدق بالعبد ، فرد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صدقته ، وباع العبد لنعيم بن النجم وأعطى صاحبه ثمنه . قال عليه الصلاة والسلام له : « ابدأ بنفسك فتصدق عليها ، فإن فضل

شيء فلاهلك ، فإن فضل عن أهلك شيء فلذى قرابتك ، فإن فضل عن ذى قرابتك شيء فهكذ . وهكذا ، كأنه صلى الله عليه وآله وسلم يشير بذلك إلى النواحي الأخرى بعد هذه القرابات .

وفى هذا الهدى النبوى لإيحاء بمعنى كريم ، ذلك أن الصدقة يعبر بها عما ينفقه المرء على نفسه وأهله وقرابته ، كما يعبر بها عما يبذله المرء للفقراء والمساكين ، فليس فى هذا التعبير إذن ما يرغمه بعض الناس من إذلال للفقير وإشعار له بأنه حين يأخذ المال من الغنى يأخذ ما يهون به وتجرح كرامته ، فإن لفظ الصدقة مأخوذ من الصدق ، لأن واجب المتصدق أن يتحرى الصدق فى فعله ، ويضع ماله فى الموضع الذى يناسبه على ترتيب الاحتياج ، فكما لا يكون الإنسان حين يضع ماله فى حاجته أو حاجة أهله وقرابته متقبلاً ما فيه إهانة له أو جرح لكرامته أو كرامة من أنفق عليهم ، فكذلك لا يكون هذا إهانة ولا جرحاً لكرامة أصحاب المراتب التالية لهم من الفقراء والمساكين ، والقرآن يعبر بأن الصدقات حق للفقراء ، إذ يقول : « حق معلوم » ونحو ذلك .

وقد توسع النبى صلى الله عليه وآله وسلم أبعد من ذلك ، حيث أطلق على أفعال المعروف عامة اسم الصدقة ، فقال : « كل معروف صدقة » وأمر هذا مشهور معروف ، وإنما أذكره لبيان أن كلمة الصدقة كلمة كريمة لا تنطوى على معنى من معانى الإذلال أو الإهانة للفقير ، كما زعمه بعض الزاعمين ، وإنما ظنوا خطأ من مثل قوله تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكهم بها » فقالوا : هذا المال المأخوذ المسمى صدقة جعل سبباً للتطهير والتزكية ، وإنما يطهر الشيء ويتركبه إذا نقي عنه خبثه ورذاله ، فالصدقة المأخوذة من رذال المال ونفائته ، ولذلك يتحاماها أهل المروءات وأصحاب العلم العالية ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يقبل الصدقة لنفسه ، ولا على أحد من آل بيته ، وتفرع على ذلك اشتراط الفقهاء فيمن تصرف إليه الزكاة ألا يكون هاشمياً .

يقولون هذا فى معرض أن الصدقة بالنسبة إلى الفقير ، مهانة وتحقير ، ويفمزون بذلك هذا المبدأ الإسلامى منتفعين بالخلابة التى يخلب بها أبواب الفقراء دعاة مذاهب

معينة، والحقيقة أنه لا مهانة في الصدقة ولا تحقير إلا إذا استولى عليها من لا يستحقها من غنى لا حاجة له بها، أو قادر على الكسب ولكنه كسلان لا يعمل ولا يحتال، والإسلام قد حرم الصدقة على هذين، وفي ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تحل الصدقة لغنى ولا لذي مرة سوى»، وذو المرة هو القوى القادر على الكسب.

ومعنى كون الزكاة أو الصدقة مطهرة للناس ومزكية، أن من شأنها تهذيب النفوس وتنقيتها من الشح والأثرة، وتنميتها بما في الزكاة من جلب المودة والصدقة، فكأن نفوس الأغنياء تزداد وتنمو بانضمام الفقراء إليهم، وودهم إياهم، والغنى مهما كثر ماله، في حاجة إلى غيره ليعينه ويقوم في حاجته، فهو بذلك يكثر من قلة، ويقوى من ضعف، على حد المعنى المراد في قولهم: «المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه».

ثم إن الله تعالى أحلها للفقير، فهل يحل الله شيئاً وهو خبيث، أو ليس من الطيبات؟ وقصارى القول أن الصدقة في ذاتها مال طيب، ولكن يحرم هذا المال ويخبث إذا أخذه غير مستحقه أو سأل في غير حاجة، أو ألحف في سؤاله.

وتحريم الصدقة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مناطه علو مرتبته عن مستوى المكلفين بغناء النفسى، واعتماده القوى على ربه، ولأن الرسل يجب أن يكونوا في مرتبة من الصون يكونون بها في حماية من أن تتوجه إليهم الظنون أو الشبهات، وقد علمهم الله أن يقولوا لأقوامهم: «لا أسألكم عليه أجراً إن أجرى إلا على الله»، وليس كل ما منع منه الرسول راجعاً إلى فساد فيه أو خبث، فقد يكون ذلك لاعتبار آخر بالنسبة إليه.

أما آل بيته صلى الله عليه وآله وعليهم، فإن منعمهم من الصدقة لأن لهم سهماً مقررًا هو سهم ذوى القربى، فهم به أغنياء غير مستحقين للصدقة، ولذلك قرر الفقهاء أنه إذا منع أهل القربى حقهم من بيت المال، وكانوا فقراء جاز صرف الزكاة والصدقة لهم، ومن جاز له شيء فهو بالنسبة له حلال طيب ليس عليه حرج فيه، ولا غضاظة منه.

(ج) وفيما يرجع إلى إعلان الصدقة وإظهارها ، أو إخفائها وإسرارها ، نرى الإسلام يبيح هذا وذلك ، ويرشد إلى أن لكل موضعه ، فقد يكون إعلان الصدقة وإظهارها مقصودا به القدوة وإثارة حمية الجود في الناس ، وقد يكون المقام يقتضى الإسرار بها ، كما إذا أعطيت لذى احتياج طارئ بعد غنى ، أو قصد المخرج البعد عن مظاهر الرياء والتفاخر ، وفي القرآن الكريم : « إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم » ، وفي الحديث الشريف : « رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه » ، كما أنه في السنة مواطن كثيرة كان فيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدعو إلى الصدقة علانية ، وقبلها علانية ، كما يفعل الناس الآن في دعوات الاكتاب والتعاون .

ولا شك أن ظروف المجتمع فيها ما يدعو إلى هذا وذلك ، وأن الحكم الوسط العادل هو ملاحظة كل من هذه الظروف بما يناسبه .

بقى مما أريد ذكره في هذا المقام ، أن الإسلام لم يفعل شأن أهل الهمم ، وأولى العزائم الصادقة ، الذين هم فوق المستوى المألوف للناس ، فقد أباح لأمثال هؤلاء في ظروفهم ، ولا اعتبارات خاصة أن يتجاوزوا الحدود المعتادة وينفقوا من أموالهم ما شاموا ولو خرجوا منها كلها ، وذلك إنما رضيه الإسلام في ظروف تقتضى التوسع وملاحظة حال المجتمع عامة ، دون اعتداد بأمر الفرد المنفق خاصة ، ثقة به ، واطمئناناً إلى أنه لن يضيق ولن يتغير قلبه ، فعلى هذا يحمل كل ما ورد في الكتاب أو السنة مما يخالف ما قدمنا .

فن ذلك قوله تعالى في شأن الأنصار حين قدم إليهم المهاجرون : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » ، فإنه مدح لهم بأنهم على خصاصتهم وفقيرهم وحاجتهم يؤثرون المهاجرين على أنفسهم ، وإذا فلم يكن عطاؤهم عن ظهر غنى ، ولا بعد بقاء الكفاية لأنفسهم وذويهم .

ولكن المتأمل في هذا يعرف أن الظروف الطارئة في المجتمع الإسلامى يومئذ هي التي أوحى بأن يكون الجميع أمام المال سواء ، بل أن يشعر المهاجرون الذين

خرجوا من ديارهم وأموالهم ، بأنهم قد وردوا داراً فيها عرض ، وفيها حنان وإيثار ، ومثل هذا كما لو كان قوم في رحلة فانقطعت بهم السبل ، وليس معهم إلا طعام ملوك لبعضهم ، فإن لهم جميعاً حينئذ أن يشتركوا في هذا الطعام لكل نصيب ، ولذوى الهمم العالية والإيثار منهم أن يجودوا بأنصبتهم على غيرهم ولو كان بهم خصاصة .

ويقول الله تعالى نعيماً على قوم يسخرون من المتصدقين بالقليل لفقرهم :
 « الذين يلزقون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم ، فالذين لا يجدون إلا جهدهم هم الذين ورد ذكرهم في قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذ سأله سائل : أى الصدقة أفضل ؟ فقال : « جهد المقل ، وهذا خلق ينبغي أن يشجع ويرسخ في المجتمع ، ولا سيما عند النوازل ، وفي ظروف الجهاد ، فإن القليل إلى القليل كثير ، وإن المثل الذي يضربه المقل حين يجود بالقليل له تأثيره وسحره في حث القادرين على الجود والتعاون ؟ »

نظرة جديدة في مكي السور ومدنيها

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد المتعال الصعدي

- ٢ -

لم يبق بعد تمهيد ما سبق إلا أن نأخذ في تفصيل ما أجلناه ، وننظر في كل سورة قيل إنها تجمع بين المكي والمدني ، ولا نزيد أن نشعب القول في ذلك تشعييا ، ولا أن نستقصي كل ما قاله فيه المفسرون ، لئلا يؤدي بنا هذا إلى أن نطوّل فيه تطويلا مملا ، وقد آثرنا لهذا أن نفتصر على ما ورد في أول كل سورة في المصحف من الإشارة إلى ما ورد من الآيات المكية فيما هو مدني ، ومن الآيات المدنية فيما هو مكي ، وقد تجاوز هذا قليلا إذا اقتضى المقام منا أن نجاوز ، وسنرتب الكلام في هذا على ترتيب تلك السور في المصحف ، لنأخذها في هذا الترتيب سورة بعد سورة :

(١) سورة الفاتحة : هذه السورة أنسب السور لوضعها من القرآن موضع المقدمة له ، كما أنها أنسب السور للقراءة في الصلاة ، فهي إما أن تكون نزلت بمكة مع تشريع الصلاة لكونها ركناً من أركانها ، وإما أن تكون نزلت بالمدينة عند قرب تكامل القرآن لتكون مقدمة له ، ولا معنى للقول بأنها نزلت مرتين بمكة والمدينة جمعا بين القولين (١) ، لأن الجمع بين القولين ليس بواجب ، ولا يصح منا أن نقبله على حساب التاريخ ، لأنه يكون حينئذ غير صحيح .

(٢) سورة البقرة : قيل إنها مدنية إلا الآية - ٢٨١ - واثقوا يوماً ترجعون

(١) يشبه أن يكون القول بأن نصفها الأول نزل بمكة ، والثاني بالمدينة ، جمعا بين القولين أيضاً .

فيه إلى الله ثم توفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ، فنزلت بمنى في حجة الوداع ، فإذا رجعنا إلى ما سبق لم نجد مثل هذا قيل في سورة البقرة كما قيل في غيرها ، وحينئذ لا يكون هذا الاستثنا محل اتفاق بينهم ، وليس في الآية ما يدل على مكان نزولها ، ولو سلم أنها نزلت بمنى في حجة الوداع فإنها تكون مدنية أيضا ، على ما هو الأشهر في المكي والمدني كما سبق .

(٣) سورة النساء : هي مدنية إلا الآية - ٥٨ - « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » ، فإنها نزلت بمكة عام الفتح في مفتاح الكعبة ، وهي في هذا كآية السابقة في البقرة سواء بسواء ، لأنها نزلت بعد الهجرة مثلها ، فلا يؤثر نزولها بمكة في كونها مدنية (١) .

(٤) سورة المائد : هي مدنية إلا الآية - ٣ - « حرمت عليكم الميتة والدم » فنزلت بعرفات في حجة الوداع ، وشأنها في هذا مثل شأن آية البقرة أيضا ، وهذا إلى أنه ليس في الآية ما يعين زمن نزولها .

(٤) سورة الأنعام : هي مكية إلا الآيات - ٢٠ ، ٢٣ ، ٩١ ، ٩٣ ، ١١٤ ، ١٤١ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ - فدية ، فأما الآية - ٢٠ - فهي : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » ولا سبب لجعلها مدنية عند من ذهب إليه إلا حمل ما فيها على مسلمي أهل الكتاب بعد الهجرة ، مثل عبد الله بن سلام وغيره ممن أسلم من يهود المدينة ، وحملها عليهم غير متعين ، لأنه يمكن حملها على ورقة بن نوفل وغيره ممن كان عندهم علم بالكتاب من أهل مكة ، وهذا إلى أن المشهور في سورة الأنعام أنها نزلت جملة واحدة بمكة ، وهذا ظاهر في أن جميع آياتها مكية ، وهذا يقال في الآيات الآتية أيضا .

وأما الآية - ٢٣ - « ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين » فهي متصلة بما قبلها وما بعدها اتصالا يبعد معه تأخر نزولها عنهما .

وأما الآية - ٩١ - « وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر

(١) وهذا إلى أن الأمانات فيها مطلقة غير مقيدة بمفتاح الكعبة وغيره .

من شيء قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس يجعلونه قراطيس
تبدونها وتخفون كثيراً وعلتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم فى خوضهم
يلعبون ، فسبب جعلها مدنية دعوى بعضهم أن المحاورة فيها مع بعض يهود المدينة ،
ويبعده قوله : « ما أنزل الله على بشر من شيء » ، لأن هذا لا يصح أن يقوله اليهود
المعترفون بنبوة موسى وغيره من رسلهم ولو على سبيل العناد ، لأن العناد فى مثله
لا يصح أن يقع منهم ، وإنما يصح أن يقع من مشركى قريش ونحوهم ، وعلى هذا
يكون قوله بعده : « قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى » إلزاماً لهم ، لأنه
كان من المشاهير الذائعة عندهم على أنه كان خاصاً باليهود ، ولهذا كانوا يقولون :
لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم ، والخطاب فى قوله بعده : « تجعلونه
قراطيس » ، للشركين أيضاً ، وإن كان جعلها قراطيس من اليهود لا منهم ، لأن
اعترافهم بالتوراة على ما سبق يسوغ إضافة هذا إليهم ، فقد جاء فيها البشارة بالنبي
صلى الله عليه وسلم ، واعترافهم بها يوجب عليهم الإيمان به ، فإذا لم يؤمنوا به فقد
جعلوها قراطيس أيضاً ، ومما يؤيد أن الخطاب فى هذا لمشركى قريش قوله بعده :
« وعلتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم » ، لأن الخطاب فيه لهم قطعاً .

وأما الآية - ٩٣ - « ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحى إلىّ ولم
يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله » ، فليس فيها مثل ما فى الآية السابقة
مما يصح الاعتماد عليه فى جعلها مدنية ، فلا يكون هناك وجه لجعلها مدنية لا مكية
مثل باقى آيات السورة .

وأما الآية - ١١٤ - « أنغير الله أبتغى حكماً وهو الذى أنزل إليكم الكتاب
مفصلاً والذين آتيناكم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك الحق » ، فالمراد بالذين
آتاهم الكتاب فيها ورقة بن نوفل ونحوه من أهل مكة ، لا عبد الله بن سلام ونحوه
من أهل المدينة ، وبهذا تكون مكية لا مدنية .

وأما الآية - ١٤١ - « وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات
والنخل والزروع مختلفاً أكله والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابهة كلوا من ثمره
إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا لأنه لا يحب المفسرين » ، فن جعلها

مدنية استند إلى قوله فيها « وآتوا حقه يوم حصاده » ، لأنه حق الزكاة ، وقد وجبت الزكاة في المدينة لا في مكة ، وكان الحصاد أيضا في المدينة لا في مكة ، لأنها في واد غير ذي زرع ، وقد أجاب من ذهب إلى أنها مكية عن هذا بأن وجوب الزكاة في المدينة لا يمنع وجوبها في مكة أيضا ، ولعل الذي حصل في المدينة تفصيل أحكامها ، وبيان أنصبتها ، وبأنه يجوز أن يكون ما في الآية غير حق الزكاة ، وقد قال مجاهد : إذا حصدت فحضرت المساكين فاطرح لهم منه ، وإذا دسسته وذريته فاطرح لهم منه ، وإذا كربلته فاطرح لهم منه ^(١) ، وإذا عرفت كيله فاعزل زكاته ، وقيل إن هذا كان قبل وجوب الزكاة ، فلما وجبت نسخ بها ، وكان لبعض أهل مكة زرع في الطائف والأودية المجاورة لهم .

وأما الآيات - ١٥١ - ١٥٣ - « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ، الآيات فلعل السبب في جعلها مدنية ما سبق في سورة المطففين من السور المختلف في أنها مكية أو مدنية ، وأن من ذهب إلى أنها مدنية اعتمد على أن أهل المدينة كانوا يطففون الكيل والميزان فنزلت فيهم ، والاعتماد على هذا ضعيف ، لأن التطفيف عيب منتشر في كل القرى والمدن لغلبة الطمع على النفوس ، ولا يختص بأهل المدينة وحدهم .

(٦) سورة الأعراف : مكية إلا من آية - ١٦٣ - إلى غاية آية - ١٧٠ - فمدنية ، وهي تبتدىء بقوله تعالى : « وأسألم عن القرية التي كانت حاضرة البحر ، والآيات بعدها في قصة هذه القرية ، وعقاب الله لها على اعتدائها في السبت ، وهي من قصص بني إسرائيل المذكورة في هذه السورة قبل هذه الآيات ، وهي خاتمة قصصها فيها ، فيجب أن تكون مكية مثلها ، ولهذا لم تذكر سورة الأعراف فيما سبق من السور المختلف في أنها مكية أو مدنية .

(٧) سورة الأنفال : مدنية إلا الآيات - ٣٠ : ٣٦ - فمكية ، وتبتدىء بقوله تعالى : « وإذا يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، الآيات ،

(١) كربته : السكربة تهذيب الحنطة وتنقيتها .

وهي معطوفة على قوله قبلها : « واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض ، فيذكركم بعد انتصارهم على المشركين في بدر بأحواهم معهم في مكة قبل هجرتهم منها ، ليعرفوا فضله عليهم في هذا النصر بعد ما كان من قتلهم واستضعافهم وتآمر المشركين وتعتنتهم عليهم في مكة ، وبهذا تكون الآيات مدنية متمشية مع سياق السورة ، ولا معنى لجعلها مكية بعد قوله في بدئها : « وإذ يمكر » ، لأنه صريح في نزولها في المدينة لأنه معمول لا ذكر مقدرة .

(٨) سورة التوبة : مدنية إلا الآيتين الأخيرتين فكيستان ، وهما قوله تعالى : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، الآيتين ، وهما بعد كلام كثير مع المنافقين من أهل المدينة ، وكانوا عربا مثل مشركي مكة ، فيصح أن يكون الخطاب لأولئك المنافقين أو للعرب جميعا ، لأنه صلى الله عليه وسلم منهم أيضا ، ومما يؤيد هذا ما ذهب إليه أبي بن كعب والحسن وسعيد بن جبير أن الآيتين آخر ما نزل من القرآن .

(٩) سورة يونس : مكية إلا الآيات - ٤٠ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ - فمدنية ، فأما الآية - ٤٠ - « ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين » فهي جارية على سياق ما قبلها وما بعدها من الآيات . ولا شيء فيها يمنع كونها مكية مثلها ، لما سبق أن الأمر في هذا مرجعه إلى الاجتهاد ، وأما الآيات - ٩٤ : ٩٦ - فتبتدىء بقوله تعالى : « فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك » ، ومن ذهب إلى أنها مدنية فهم أن المراد بمن يقرؤون الكتاب من قبله عبد الله بن سلام ونحوه ممن أسلم من يهود المدينة ، وهذا غير متعين فيها ، بل الأولى حمله على ورقة بن نوفل ونحوه من أهل مكة ، وحينئذ تكون الآيات الثلاث مكية لا مدنية مثل باقي السورة ٩٠ . يتبع »

المسلمون

بين عوامل القوة وعوامل الضعف

لمحاضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ بس سريلم ط
من كبار علماء الأزهر

— ٢ —

وأما الدراسات الدينية في عصورها الأخيرة، فإنها على كثرتها، وتعدد مناهجها ومواطنها، ليست جارية في طريقتها ومقاصدها على نهج الدراسات الدينية الأولى، التي كانت من أهم الدعائم التي قام عليها بناء المجتمع الإسلامي، الذي أدهش العالم بقوته وعظمته.

فقد كانت الدراسات الدينية في عصورها الأولى، تتجه بطريقتها في بيان شرائع الإسلام ومعاله، إلى التيسير على الناس في إرشادهم إلى معالم دينهم، وعرضها عليهم في سهولة ويُسر.

وكانت تتجه بمقاصدها إلى الناحية العملية التي تركز النفوس، وتقوم الأخلاق، وتصلح الأعمال، وهكذا كان شأن الهدى النبوي في تبليغ شرائع الإسلام، وإرشاد الناس إلى معالم دينهم، فقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يتلو عليهم آيات القرآن في قدسية الحق وجلال الصدق، ويتعهدهم بالمواعظ التي تعطف بها القلوب النافرة، وتلين بها العريكة المستعصية، ويعرض عليهم شرائع الإسلام في يسرها وصفائها، فتتملى بها قلوبهم، وتنطوى عليها جوانحهم، ويبايعونه على الإيمان والعمل بها، والجهاد في سبيل نشر دعوة الإسلام، والدفاع عن أوطان المسلمين، فقد روى البخاري ومسلم وأحمد وغيرهم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول لأصحابه: «عَلِّمُوا وَبَشِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا»، وفي رواية أخرى: «يسروا ولا تعسروا»، وأنه كان يَفِيدُ عليه الأعرابي من البادية، فيعرض عليه النبي شرائع الإسلام في

سهولة ويسر ، وفي كلمات جامعة يسهل فهمها والإحاطة بمقاصدها ، فيعياها الأعرابي كما سمعها ، ويعاهده على الإيمان والعمل بها ، وأنه لا يزيد عليها ولا ينقص ، فيخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بفلاحه ودخوله الجنة إن صدق في عهده ، وهكذا كانوا في جلسات معدودات يحيطون بأصول الإسلام ودعائمه ، ويعرفون أهدافه ومقاصده ، دون أن يحتاجوا في ذلك إلى قضاء الأعوام الكثيرة ، في أبحاث وخلافات لا أثر لها في تزكية النفوس ، واستقامة السلوك .

وعلى سنن هذا الهدى النبوي المحمدي كان علم الرعيل الأول من المسلمين بأصول الإسلام ودعائمه ، وفهمهم لروحها ومقاصدها ، ونشرها بين الناس والعمل بها . فكانت معدتهم في حمل رسالة الإسلام والسعي والعمل ، إنما هو العلم المستمد من ينايحه الصافية ، وإيمانهم القلبي الذي لا يتزعزع ، وإخلاصهم الذي لا تشوبه شائبة ، وجهم للجهاد الذي يعلى شأن دينهم وأمتهم ، وتطلعهم للعمل الذي يصلح أمر دينهم ودنياهم ، وهكذا جمعوا بين العقيدة الصحيحة والخلق الكريم والعمل الصالح ، في إعداد أنفسهم لحمل رسالة الإسلام ، وبناء صرح الدولة الإسلامية ، فجمع الله لهم بين القوة والسيادة والعزة والكرامة ، وجعلهم أئمة الشعوب وقادة الأمم ، كما قال جل جلاله : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » ، ٢٩ : ٦٩ .

ولكن القائمين بالدراسات الدينية في عصورهم الأخيرة ، انحرفوا بها عن منهج القرآن والسنة وطريقة السلف .

فاتجهوا بطريقتها في التدوين والتأليف ، إلى الإفراط في الاختصار الذي عقّد الأساليب وأخفى المعاني ، والمبالغة في التفریع وكثرة الفروض التي توجب السآمة والملل ، والتي لا وجود لها في سلوك الأفراد والجماعات ، مما جعل فهم أساليبها مطلباً متعسراً ، والاستفادة منها أمراً متعذراً ، واتجهوا بمقاصدها في البحث والتعليم والتدريس ، إلى العناية بالأبحاث اللفظية ، والمناقشات الشكلية ، والخلافات المذهبية ، التي طغت على العناية بالمعاني التي تطهر القلوب ، وتقوم الأخلاق ، وتصلح الأعمال ، ووقفوا بالناحية العملية التي هي ثمرة العلم وغايته ، عند حدود التنافس

والتفوق في هذه الصناعة اللفظية الجدلية ، والمحافظة على الظواهر الصورية ، والرسوم التقليدية ، وكأن هذه الجوانب هي كل ما للدراسات الدينية من ثمرات وغايات ، ولا يخفى أن الدراسات التي تقف بمقاصدها عند هذه الحدود والغايات لا يكون لها أثر في بناء المجتمعات الصالحة ، ولا في تطهير القلوب وتهذيب الأخلاق واستقامة السلوك ، كما يشير إلى ذلك ما رواه البخاري ومسلم من قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن الله تعالى لا ينظر إلى أجسامكم ، ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم » ، فالقلوب وما تنطوي عليه من السرائر والنيات التي تصاحب الأعمال هي الموازين التي توزن بها أقدار الأفراد والأمم عند الله تعالى ، وعلى مقتضى هذه الموازين العادلة ، يكون الجزاء في الدنيا والآخرة على سَنَنِ العدل الإلهي .

أما الظواهر والصور التي لا تكون تعبيراً عن صلاح البواطن والسرائر ، فإنها لا قيمة لها في ميزان العدل الإلهي ، ولا تستنزل لأهلها من الله عونا ولا نصراً ، ولا يعبأ الله بالمتعلقين بها والمخدوعين بمظاهرها .

وأما الخلف من قادة المسلمين وزعمائهم ، فإنهم انحرفوا بقيادتهم عن طريقة سلفهم من القادة الراشدين ، فقد كان القادة السابقون يسرون على نهج القيادة الحكيمة الرشيدة ، التي استمدوا مناهجها العلمية من توجيهات القرآن الكريم ، كما في قوله في سورة النحل : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن » ، ١٦ : ١٢٥ ، وفي سورة آل عمران : « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين » ، ٣ : ١٥٩ .

وأحكموا أصولها العملية من سيرة الرسول وقيادته الحكيمة الرشيدة ، وبذلك كانت قيادتهم مرآة صافية لأخلاق الإسلام ومبادئه ، صَوَّرَت للناس بأعمالها تعاليم الإسلام تصويراً عملياً ، ومثلت لهم بسلوكها مناهج السلوك الديني تمثيلاً واقعياً ، وهذا هو سر نجاحهم في قيادتهم التي صلح عليها أمر المسلمين الأولين ، وارتفعت بهم إلى قمة المجد وذروة الكمال ، والتي أتاحت لهم أن يقيموا لأمتهم دولة قوية في دينها ودنياها .

فإن صلاح أمر المسلمين في دينهم ودنياهم ، ليس بكثرة قاداتهم وزعمائهم ، ولا بتعدد طوائفهم وكثرة أحزابهم ، وإنما يكون صلاح أمرهم بحكمة قاداتهم ، وزعمائهم ، واستكمالهم لمواهب القيادة الحكيمة والزعامة الرشيدة ، وإيمانهم بما لأمرهم عليهم من حقوق وواجبات ، وصدقهم وإخلاصهم في أقوالهم وأعمالهم ، وبما يتاح لهم من خلق كريم يجمع شتات القلوب ، ويشعر بشعور الأمة في مسراتها وضرائها ، ويحنو عليها ويأسو جراحها ، ويفرق بالناس في قيادتهم ومعاملتهم ، ويُزلمهم منازلهم من العلم والعمل ، ويعطى كل ذي حق حقه .

وما يقومون به من أعمال نافعة تبعث الأمن والطمأنينة في النفوس ، وتجلب الخير والسعادة للناس أجمعين .

هذه هي القيادة الحكيمة الرشيدة ، التي ترنو إليها الأبصار ، وتلتف حولها القلوب ، ويصلح عليها أمر المسلمين ، وتعلو مكانتهم بين الأمم .

ولكن أكثر الخلف من قادة المسلمين وزعمائهم وحكامهم ، قلبوا أوضاع هذه القيادة الحكيمة ، وبدلوا معالمها ، وجعلوها قيادة مادية بحتة ، ومطلباً دنيوياً محضاً ، واستمدوا مناهجها العلية والعملية من وحي الأهواء والأغراض ، وطغى طوفان العصبية المذهبية والأهواء الحزبية على مقاصدهم ، وسيطر حب المال والجاء والسلطان على قلوبهم ، وهيمنت سياسة الغلب وتنازع السلطان على تفكيرهم ، فجعلوا اختلاف الرأي والنظر اختلاف أشياع وأنصار وأحزاب ، بعد أن كان اختلاف أشخاص وأنظار وأفهام ، وتمعصب كل حزب لمذهبه في الدين والسياسة ، ووقف بعضهم من بعض موقف الخصومة والعداوة ، واستغل أهل الأهواء وطلاب الحكم قيام هذه العصبية الجامحة ، فأججوا نارها ، وزادوا ضرامها ، واتخذوها وسيلة لتحقيق المآرب والأطباع ودعم السلطان ، وتولى زمام الحكم في أكثر الأقطار الإسلامية حكام لا يحسنون سياسة الحكم ، واستعانوا على تدبير شؤنه ببطانات فاسدة ، وقيادات ضالة ، فأفسدوا أمور المسلمين بسوء سياستهم ، ودسائس بطاناتهم ، واستغلوا سلطانهم في نشر الظلم والاستبداد ، واستنزاف الأموال ، وامتصاص

الدماء ، وانقلبوا ذئابا ضارية على شعوبهم وأوطانهم ، بدل أن يكونوا رعاة صالحين وحماة صادقين لأمتهم وأوطانهم :

وراعى الشاة يحمى الذئب عنها فكيف إذا الرعاة غدوا ذئابا

وُسُغِلُوا عن تدبير شئون أمتهم بالإغراق في لذاتهم وشهواتهم ، وناموا عن حماية أوطانهم من العدو الذى كان يفتصبها إقليما بعد إقليم ، وأضاعوا بتفريطهم كل ما بناه سلفهم من عز ومجد ، ودولة وسلطان .

ومن رعى غنما في أرض مسبعة ونام عنها تولى رعيها الأسد

وبذلك تفرقت كلمة المسلمين ، وصاروا شيعا وأحزابا ، وانقضت عرى الروابط والتعاون بين شعوبهم وأوطانهم ، وفسدت شئون القيادة والتوجيه في مجتمعاتهم ، وأصبح كل مجتمع منها يسير في حياته على غير هدى ، ليس لهم قيادة موحدة تجمع كلمتهم وتوحد صفوفهم ، ولا زعامة رشيدة توضح لهم معالم السير على النهج القويم ، نعم كانت تظهر في الحين بعد الحين صيحة من صيحات القادة الراشدين ، ولكن طفيان هذا الفساد القيادى يكون لها بالمرصاد ، يسد عليها كل طريق ، ويضع في سبيلها عوامل الفشل والعتار ، فتذهب صيحاتهم أدراج الرياح ، وتطوئها الأيام في زوايا الإهمال ، وتجرح عليها الليالى أذيال النسيان .

وفي غمرة هذا التفكك والفساد القيادى ، دخل جماعة في صفوف قادة التوجيه والإرشاد ، من حملة الأقلام الجاحمة الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ، وعباد المال الذين يستغلون قيادة الشعوب في جمع المال وتحقيق المصالح والمنافع الشخصية ، وأدعياء العلم وخطباء الفتنة ، الذين يعملون بجملهم وضيق أفقهم على توسيع شقة الخلاف والفرقة بين المسلمين ، بإيقاظ العصية المذهبية التى توقع العداوة والشقاق بينهم ، وإثارة غبار الخلافات التى لا تتصل بجوهر الدين واستقامة السلوك ، ولا تدخل في دائرة العقائد التى يجب معرفتها والإيمان بها ، وقصارى ما يبلغون في إرشادهم أنهم يملئون الدنيا عجيجا وصياحا ، ويصدعون الرءوس بالأصوات المنكرة المتكلفة ، والأقوال التى لا تتجاوز حناجرهم ، ولا تتصل بقلوبهم وأعمالهم ، ويقولون

ما لا يفعلون ، ويفعلون خلاف ما يقولون ، وما ضعف شأن المسلمين إلا من يوم أن كثرت فيهم الأقوال وقلت الأفعال ، واتسعت في قيادتهم مسافة الخلف بين القول والعمل ، واعتادوا من قادتهم وزعمائهم وحكامهم أنهم يقولون ولا يفعلون ، ويعدون ولا يوفون .

وهكذا تسعد الأمم بالقيادة الحكيمة الرشيدة ، كما أنها تشقى بالقيادة السفهية والزعامة الضالة المضللة .

وبعد ، فتلك لمحات من عوامل القوة التي كانت تسير بالمسلمين قدماً إلى الأمام ، وأخرى من عوامل الضعف التي تراجعت بهم سراعاً إلى الوراء ، ووقفت بهم وراء الأمم لا يُسمع لهم رأى ، ولا يُرد لهم حق مقتضب ، بعد أن كانوا الصدور المالكين ، والقضاة الحاكمين .

وإنا لا ندرى أنتمثل في هذا المقام بقول الشاعر العربي :

وَيُقْضَى الْأَمْرُ حِينَ تَغِيْبُ تَيْمٌ وَلَا يُسْتَأْذَنُونَ وَهُمْ شُهُودٌ
أَمْ تَتَمَثَّلُ بِقَوْلِ الْآخِرِ الَّذِي يَقُولُ :

لمثل هذا يذوب القلب من كمد إن كان في القلب إسلام وإيمان

فعلى قادة المسلمين وزعمائهم وأولى الأمر منهم أن يتخذوا من القيادة الحكيمة التي سعد بها المسلمون الأولون ، نبراساً يسرون على هديه في قيادتهم وإصلاحهم ، لعل الله يعيد للمسلمين على أيديهم أجداد سلفهم ، وليس ذلك بعزير عليهم متى صلحت النيات ، وصدقت العزائم ، واستقامت العقول في نظرها وتفكيرها ، وتحررت النفوس من رِق الأهواء ، واستعباد الأغراض ، وتعاونوا على جمع الكلمة ، وتوحيد الصفوف ، وتوثيق عرى روابط الأخوة الإسلامية بين شعوبهم ، وتطهير النفوس من العوامل التي بذرت فيهم بذور الفرقة والخلاف ، وأورثتهم الضعف والانحلال ، فإن المسلمين بما توارثوه من العقائد الإسلامية المنبثة في حنايا ضلوعهم ، وأصول الخير الكامنة في أعماق نفوسهم ، والروح الدينية الممتزجة بدمائهم ، لا يحتاجون في النهوض بهم من كبوتهم ، وإصلاح ما عرض لهم من عوامل الضعف

والتفكك ، إلا إلى قيادة حكيمة مخلصه ، وقنوة عمليه صالحة ، وتوجيه حكيم رشيد ، وإخلاص لله في القول والعمل ، وما هي إلا صيحة البعث تدوى في آذانهم وقلوبهم ، فإذا هم قيام يطلبون الحياة والقوة لمجتمعهم ، ويرفعون قواعد المجد لأممتهم ودولتهم .

وعليهم أن يفكروا تفكيراً عميقاً في قول الله جل جلاله في سورة محمد :
 « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَصَرَّوْا اللَّهُ يَنْصَرِّكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » ، وفي سورة آل عمران :
 « إِن يَنْصَرِّكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ، لِيُؤْمِنُوا إِيمَانًا لَا يَرْتِقِي إِلَيْهِ الشُّكُّ وَالْارْتِيَابُ » ،
 بأنه لا غالب للسليلين مادامت عقائدهم مستمدة من كتاب ربهم ، وتشريعهم مستمداً من أصوله ومبادئه ، وسلوكهم جارياً على مناهجه الخلقية والعملية ، وما داموا معتصمين بهذا الإيمان في جهادهم وكفاحهم ، وفي تغليب دوافع الأمل والرجاء على معوقات اليأس والقنوط ، لا أقصد الآمال الكاذبة والأمانى الخادعة التي تراهي للناس في أخيلتهم وأحلامهم ، ويطمعون في تحقيقها وهم قعود في ديارهم ، وإنما أقصد الآمال التي تستمد من قوة الاعتماد على الله والتوكل عليه ، والثقة في عونه ونصره وتأنيده ، فإن هذه الآمال هي التي تشحذ العزائم ، وتحفز الهمة ، وتبعث أهلها على السعي والعمل ، وتحملهم على الصبر في مواقف الجهاد والكفاح ، وتضيء لهم غياهب الخطوب والكروب ، وتكشف لبصائرهم وقلوبهم عما وراء الحجب الغيبية من مواهب النصر ، ومفاتيح الفرج ، كما قال قائلم :

ولمّا لأرجو الله حتى كأنما أرى بجميل الظن ما الله صانع

أما التعلق بالآمال والأمانى مع القعود عن الجهاد والعمل ، فإنه لا يحقق لأهله مطلباً ، ولا يستنزل لهم من الله عوناً ولا نصراً ، ولا يعيد لهم عزاً ولا مجداً .

أيها المسلمون : تدبروا قول الله تعالى في سورة الرعد : « إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » ، لتعلموا أن الله تعالى لا يغير ما بقوم من بلاء وحن ، حتى يغيروا ما بأنفسهم من زَئِجٍ وضلال ، وما في سلوكهم من عوج وانحراف ، وأنه لا كاشف لما يحيط بنا من خطوب وأحداث وتُدُر ، ولا سبيل إلى استعادة أجدادنا وتحرير شعوبنا وأوطاننا إلا أن نعود إلى الاعتصام بكتاب ربنا ،

ونعمل بما قرره من المبادئ الإصلاحية التي سعد بها سلفنا ، وتعرف سنن الله التي ربط الله بها سعادة الأمم وسيادتها ، ونسير في حياتنا على مقتضى هذه السنن التي لا تتغير ولا تبدل ، وأنه لا صلاح لأمتنا إلا بما صلح به أولها ، كما قال إمام المدينة مالك بن أنس : « لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها » .

أيها المسلمون : تذكروا بقلوب واعية مستبصرة ، قول الله تعالى في سورة المائدة : « وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب » ، وما صرحت به الأحاديث النبوية الصحيحة ، من أن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا . وأن المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم ، كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تألم له سائر الأعضاء . وأن المتخلف عن جماعة المسلمين الخارج على وحدتهم تعدو عليه ذئاب البشر ، كما يعدو الذئب على الشاة القاصية ، وأن الإيمان ليس بالتمنى ، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل ، تذكروا كل هذا ، لتعلموا أن الوقوف عند الكلام الحماسي والبكاء العاطفي ، لما ينزل بأوطان المسلمين من أحداث ومحن ، بدون تعاون وتناصر ، ومشاركة في الجهاد والكفاح ، لا يحقق روابط الأخوة الإسلامية ، لأنه لا يفرج كربا ولا يدفع شدة ، ولا يخفف ألما ولا يرفع محنة ، وأن الإيمان ضمن الله لأهله النصر والتأييد ، وربط به العزة والسيادة والتمكين في الأرض ، كما قال تعالى في سورة الروم : « وكان حقا علينا نصر المؤمنين » ، وفي سورة النور : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا » ، لتعلموا أن هذا الإيمان ليس كلاما يقال بالافواه ولا تصدقه الأعمال ، وإنما هو عقيدة راسخة في أعماق القلوب ، وخلق كريم يجمع القلوب ويوحد الصفوف ، وينشر الالفة والمحبة بين الناس ، وعمل صالح يحقق التعاون والتناصر والتراحم ، ويجلب الخير والسعادة في الدنيا والآخرة .

أيها المسلمون : ألم يأن لنا أن نستجيب لقول الله جل جلاله : « ولا تنازعوا فتفشلوا وقذهب ربحكم واصلبوا إن الله مع الصابرين » ، فقد كفى ما صرنا إليه من فرقة واختلاف ، وما وصلنا إليه من ضعف وانحلال ، وغفلة عن أجدادنا ماضينا ومآسى حاضرينا ، حتى سلبت منا حقوقنا ونحن عنها غافلون ، واغتصبت منا أوطاننا ونحن عن حمايتها نائمون ، ورضينا بالعيش الذليل على هامش الحياة مستضعفين مستعبدين ، وآن لنا أن نستيقظ من هذه الغفلة الطويلة التي استحوزت على قلوبنا ، وتلك النومة العميقة التي استولت على أحاسيسنا ومشاعرنا ، وأن نعمل متعاونين على إحياء الروابط الإسلامية بيننا ، وإحلال الوفاق والوئام محل الخلاف والخصام ، وجمع الكلمة وتأليف القلوب ، وتنمية روح التعاون والتناصر والتراحم في مجتمعاتنا ، ونتخذ من تجارب الماضي وأحداث الحاضر دروساً ننتفع بها في حاضرتنا ومستقبلنا ، لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً .

اللهم هيء لنا من أمرنا رشداً ، واجمع كلمتنا على الحق ، وانزع من صدورنا معاهد الأحقاد والأضغان ، ونوازع الفرقة والخلاف ، وطهر صفوفنا من عوامل الضعف والانحلال ، إنك على كل شيء قدير .

أنا اللغسة

لصاحب الفضيلة الشيخ علي محمد مس العماري

المدرس بالأزهر

— ٤ —

... ومن دعاة التجديد - قديماً - أبو بكر الصولي ، وفي المحدثين شعراء (الديوان) وهم الأساتذة : عباس محمود العقاذ ، وإبراهيم عبد القادر المازني ، وعبد الرحمن شكري ، وكثير غيرهم من النقاد والمؤلفين .

وقد ادعى بعض النقاد أن الأرض سكنت بين يدي دعاة التجديد ، وأن الناس آمنوا بكل ما أنزل على أفلامهم - على حد تعبيره - وأن الشباب شد أزهرهم ، لأنه - يعني الشباب - نزاع لكل جديد ، ويعيب على شيوخ الأدب أنهم لم يعترفوا للشباب بالتفوق ، ولم يسمحوا لهم أن يستعمروا في بقاع مملكتهم الواسعة ، بحجة الآب المستأثر^(١) .

وهو اتهام كثر وطال ترداده لأدبائنا الكبار ، ولسنا ننكر أن في بعض الشباب استعداداً لأن يكونوا أدباء أو شعراء ، ولكن الذي قعد بهم ليس هو عدم اعتراف الشيوخ لهم بالتفوق ، ولكنها أسباب أخرى منها جهم المبكر للشهرة والظهور ، ومنها قلة صبرهم على المطالعة والدرس ، ومنها الغرور المتبجح الذي يبلغ ببعضهم أن ينشر كل ما لفظته قريحته ولو كان غثاً بارداً ، وحسب الأدب نكبة أن بعض المنتسبين إليه يخرج كل ثلاثة أشهر كتاباً ، أو حتى كل ستة ، ثم يدعى أنه ألف للخلود والبقاء ، ولعل من أكبر الأدلة على قفاهة هذا المحصول أن الجادين من القراء لا يقيمون قراءة كتاب من هذه الكتب ، ولا يعودون إلى قراءة الكتاب مرة ثانية إذا أتموه ، والنكبة التي ابتلى بها إنتاجنا الأدبي أن كل من يملك قلباً يمكن أن يخط

(١) من كتاب « في المختبر » ، س . للنقاد اللبناني مارون عبود .

به سواداً في بياض، ويملك قرشاً يستطيع أن يدفعه إلى المطبعة، ويملك وجهاً وقاحاً، كل من يملك هذه الثلاثة يرزونا كل حين بكتاب، نضيع الوقت والمال فيه، بل ونحس بجنايته على سمعتنا الأدبية.

والفقايع عندنا كثيرة، ول بعضها شهرة وصيت، ولكن واحداً منها لا يعترف بأنه فقاعة، بل يعلن ويرفع صوته بأنه أديب الجيل.

ولئن كان عند بعض شبوخ الأدب أنانية، فإنها لا يمكن أن تقف حداً مانعاً دون تيار النبوغ إذا تدفق، على أن فرصة النشر والإعلان، والمكافأة قد أتاحت للكثيرين، فإذا رأينا؟ رأينا - في كثير من الأحيان - الكتاب، ولم نجد الدرس السليم، والبحث العميق، بل رأينا السطحية والضحولة، والجمع والسطو، هي كل بضاعة المتصدرين من أدبائنا، ورأينا ديوان الشعر، ولكننا لم نجد فيه غير الخيال الجامح، واللفظ النابي، والضعف والرككة، والدعوى الطويلة العريضة.

ثم نعود إلى التجديد والمجددين فنرى أمراً غريباً، نرى أن بعض دعاة التجديد قد أصبح هدفاً لمجددين آخرين، فيضطر للدفاع عن قديمه هو، كما هو موقف العقاد، وطه حسين، فبعض النقاد يرى أن طه وإخوانه من أدباء الساعة في مصر أصبحوا كالذبابة العجوز تبيض قليلاً، وتقوق كثيراً فتشدين عطاءها بالمن والسأم، ويبرم الناس قوقها، وأنهم مقلدون للغرب تقليد مسخ وسليخ، حتى رأى بعضهم أن طه حسين يفكر بالفرنسية (١).

والعقاد: سزاه يدافع عن شعر المديح بعد ما قضى ردحا طويلاً من الزمن يهاجمه لكي يهدم (شوقي).

وأعجب من هذا أن كاتباً لا يرى في العالم العربي كاتباً غير سلامه موسى، فيقول: «وهناك فريق آخر من الكتاب، فريق مريض منحل، يرى الأدب حلية وزينة، أو قطعة لذينة من الحلوى، يمثل هذه الطائفة الشاذة مصطفى صادق الرافعي، وأحمد حسن الزيات، والشيخ عبد العزيز البشري، قوام أدبهم التحسين اللفظي،

والمظهر البراق ، والألوان الخيالية المريضة ، وهؤلاء شرهم كثير ، فإنهم يصدون الناشئة بهارجهم وحليم وزينتهم عن الأصول القوية للأدب والثقافة ، ويحولون بينهم وبين عصرهم .

وطه حسين أثر الألوان اليسيرة السهلة ، وفضل العرض عن الجوهر ، وبقي أسير الأدب البرجوازي المخبث ، واطمأن إلى القصر المترف ، والسيارة الفخمة ، والحياة الرغدة ، لأنه هو نفسه لا يستطيع أن يتحرر من قصره وسيارته وترف عيشه . أما سلامه موسى فإنه طبقة وحده ، ليس بالأديب ولا العالم ، ولكنه مزيج من هذا وذاك ، وكادت ثقافتنا تكون ناقصة لولا سلامه موسى .

ويقول ناقد آخر عن هؤلاء الأدباء الكبار المعاصرين : « لقد مللنا حديثهم ، فما كتبوه إلا أقله لا يخرج عما يقوله الدليل حول الأهرام ، وبين أنقاض بعلبك ، وأنس الوجود ، وليس هذا بالأدب الخالد ، إن ما ينقلونه إلى لغة العرب يعثر عليه كل طالب لم بلغه أجنبية ، ولقد توكأوا على الشهرة ، والشهرة كالسياسة تفسد الفن ، فقل لإخلاصهم لفنهم ، وقفه محصول كهولتهم » .

وهكذا نرى أن ما رمى به بعض هؤلاء الأقدمين جاء من يرميهم بما هو أشد منه ، وسندكر بعد قليل نبأ من يرمى كل هؤلاء وأولئك بضعف الملكة والوجود . ولعلنا لا نقضى واجب الإنصاف والحق ، وواجب الأدب والثقافة إذا تركنا هذه الأحكام دون نظر وتعليق .

وأول ما يباطلنا من هذه الأحكام أن طابع الإسراف واضح عليها ، بل طابع التحامل المتطرف ، فالقارئ الذي أعطى نفسه الحق في الحكم على كبار الكتاب ، ثم يحكم بأن سلامه موسى هو - وحده - الكاتب ، هذا القارئ إما فاسد الذوق ، وإما فاسد الضمير ، فليس سلامه موسى خير كاتبنا ، ولا هو من خيرهم ، وما هو إلا صحن أعانته قراءته في كتب الغرب على أن ينقل بلغته الصحفية بعض الأفكار ، ومن يقرأ كتابه « البلاغة العصرية » يدرك - بما لا يدع مجالاً للشك - أن ثقافتنا لم تكن تنقص شيئاً لو لم يوجد سلامه موسى .

أما أن أسلوب الرافعي والزيات والبشرى لون خيالي مريض ، فلا يقول هذا إلا بعيد عن الثقافة العربية .

ولم ينفرد هذا الكاتب التافه بالخط من قدر الأساليب البيانية الرفيعة ، بل إن عدداً غير قليل - وأكثرهم من شبابنا الذين قلت بلغة العرب وآدابها معرفتهم - أخذوا يطعنون - في غير هوادة - على هذه الأساليب وأصحابها ، وهذا ما عبر عنه بعض الباحثين بأنه « ثورة على الأدب البياني » ، ولا يخالجنى شك في أن الضعف وحده عن معاناة هذه الأساليب العالية هو الذي حمل هؤلاء على مهاجمتها ، والخط من قدرها ، وإني لأعرف بعض هؤلاء ، وأعرف أن الواحد منهم لا يكاد ينشذك ثلاثة أبيات متتابعة من قصيدة أو مقطوعة عربية قديمة ، بله أن تسمع منه أسطراً من النثر الفني القديم ، وكل ثقافتهم ما يطالعونه في المجلات الأدبية وغير الأدبية الحديثة ، ونزراً يسيراً مما ترجم من أدب الغرب ، ولقد تأسفت أمام أحدهم مرة على أن الرافعي مضى وترك مكانه خالياً ، والبشرى ذهب ولم يحى بعده من يكتب بأسلوبه ، فقال ساخراً مني ، وشامتاً : لا أعاد الله أمثال هؤلاء ، لقد استرحنا واستراح الأدب منهم ، والعقدة عند هذا أنه لا يستطيع أن يفهم الرافعي ، فضلاً عن أن يحاول أن يكتب سطرأ واحداً بأسلوبه ، فحقده على هؤلاء الكتاب الأفذاذ ينبع من ضعفه عن مجاراتهم .

ومن قال إن الأدب ينبغي أن ينزل إلى لغة الصحافة ، أو ينبغي أن يفهمه كل الناس ؟ لم يقل ذلك عاقل ، لا من علمائنا الأقدمين ، ولا من أدبائنا المحدثين ، الأدب فن ، والفن يحتاج إلى الأناقة والجمال ، والرقص غير المشى ، وسنعود إلى هذا الموضوع في مقال آخر إن شاء الله .

والخصومة بين أنصار القديم وأنصار الجديد عنيفة ، وستظل عنيفة بين أنصار الجديد ، وأنصار الأجد .

وأنصار القديم يرمون المجددين بأنهم ضيعوا حظهم من لغة العرب وآدابها ،

وأخذوا بنصيب موفور من لغات الإفرنج وآدابهم ، فكانت قوتهم في هذه اللغات والآداب ، وضعفهم في اللغة العربية وآدابها مصدر تورطهم في فنون مخيفة من القول ، وكان اعتزازهم بالمذهب الجديد وإنكارهم للمذهب القديم ضرباً من الاعتذار لأنفسهم ، ولوناً من ألوان الغرور بأنفسهم .

وطبيعي أن يغضب أنصار الجديد لهذه الاتهامات فيردون قائلين بأن هذا إسراف في الحكم ، ومصدره الخطأ في فهم ما يكتب أنصار الجديد ، وهم لم يحرموا أنفسهم من لغة العرب ، بل أخذوا منها ومن آدابها بحظ لا بأس به ، وقوتهم في اللغة الأجنبية لم تحملهم على أن يضيعوا حظهم من اللغة العربية وآدابها ، فهم يفهمون الجاحظ كما يفهمون فولتير .

على أن بعض أنصار الجديد - في العصور القديمة - لم يكونوا يعرفون لغة أجنبية ، وكانوا أساتذة في الأدب العربي ، ومع ذلك جددوا ودعوا إلى التجديد ، كآبي تمام وأبي نواس والمتنبي .

ثم يحتاج أنصار الجديد على نحو ما يقوله طه حسين : « لسنا نعيش عيشة الأمويين ، ولا العباسيين ، ولا المماليك ، بل لسنا نعيش عيشة المصريين في أوائل هذا القرن ، فن الإسراف أن نستعير لغات هذه الأجيال وأساليبها لنصف بها أشياء لم يعرفوها ، وضربوا من الحس والشعور لم يحسوها ، ولم يشعروا بها » (١) .

ويرى الدكتور طه أن اتخاذ أساليب القدماء نقص أدبي ، وعيب خلقي ، لأن الكمال الأدبي يستلزم أن تكون اللغة ملائمة للحياة .

ثم يقول عن نفسه : « أنا لا أمقت القديم ، ولا آنف من الحديث ، وإنما أرى أنني وسط بين القديم والحديث ، وأرى أن لغتي يجب أن تكون مرآة صادقة لنفسى » (٢) .

وأرى أن الدكتور طه عمد إلى مغالطة واضحة ، ذلك أن الأمويين والعباسيين لم تكن لهم لغة تختلف لغتنا ، والأسلوب الذي كتب به الجاحظ وأبو حيان

(١) حديث الأرباء ج ٣ ص ١٠ .

(٢) المصدر السابق ص ١٢ .

التوحيدى ليس غريباً علينا ، ولا هو مما يضعف عن وصف الأشياء التى جدت فى حياتنا ولم يعرفها هؤلاء الكتاب ، وأى شئ يستطيع أسلوب طه حسين أن يصفه ، ولا يستطيع ذلك أسلوب أى كاتب كبير من كتاب الدولتين الأموية والعباسية ، وقد لام أسلوب الجاحظ حياة العباسيين ، وأظنه - لو كتبنا به - يلائم حياتنا .

إن القارئ لهذا الكلام من الدكتور طه يخيل إليه - لو كان يجهل العربية - أن لغات الأمويين والعباسيين والمماليك وأساليبهم - جنس آخر غير لغتنا وأسلوبنا ، وأنهم كانوا يتكلمون ويكتبون بالهرغلغية ، مثلاً ، ولو أن الدكتور قال إن بعض الأساليب التى سادت فى القرون الماضية كأسلوب القاضى الفاضل ، أو العماد الأصمى - مثلاً - تنبو عنها أذواقنا ، أو حتى عن بعضها ، فإن أسلوب هذا الأخير فى كتابه « خريدة العصر » لا يعيبه إلا التزام السجع ، أما ألفاظه فسهلة سائغة ، لو أنه قال هذا ، أو شيئاً يشبهه لقلنا إن الرجل يريد أن يصيب أو يريد أن يقارب الصواب ، أما تعميم الحكم هكذا فما أظنها إلا مغالطة قصد بها إلى الفلج بالحجة ، والمناخفة عن رأى ، ولا عليه بعد ذلك أن يصيب كلامه المحز ، أو أن يقع بعيداً عن فصل الخطاب .

إن شئ ما فى هذه النصوص الأدبية - بل وكل النصوص - أنها تحمل أطرافها على الإسراف فى الأحكام ، والمغالطة فى القضايا ، ومحاولة العبث بالعقول ، وكل من يدين برأى فيها غير قابل لأن يتنازل عن شئ من رأيه لأن المسألة - كما تبدو للحايد - لا تعدو أن تكون دفاعاً عن النفس ، وعن طريقة التفكير ، وأسلوب الكتابة ، وكل من يجيد فنا يحاول أن يحمل الناس على الاعتقاد بأنه خير ما أخرج للناس ، وذلك من حب الذات ، وسيطرة الأنانية على العقول والقلوب .



وقد ظهر فى أوائل هذا القرن كتاب كان له شأن كبير فى حركة التجديد ، وهو صنو لكتاب « الديوان » ، هذا الكتاب هو « الغربال » لميخائيل نعيمة ، الأديب

المهجري ، وأحد أعضاء الرابطة القلمية التي كانت تضم جبران خليل جبران ، وإيليا أبا ماضي ، وآخرين من كبار الكتاب والشعراء المهجريين .

وقد قارن الدكتور محمد مندور في مقدمة كتابه « الشعر بعد شوقي » ، بين الغربال والديوان ، فقال : « وهو كتاب يختلف عن كتاب الديوان كل الاختلاف ، وإن اتفق معه في الهدف ، وذلك لأنه كتاب نقد نظري ، ومناقشة للأصول الفلسفية والفنية التي يقوم عليها الأدب ، وللحاجات النفسية والأهداف الإنسانية التي يخدمها ذلك الأدب ، بينما الديوان كتاب نقد ، بل هدم تطبيقي » .

وقد وقفت طويلاً عند هذه الفقرات من كلام الدكتور مندور ، ذلك أن كتاب الغربال يشتمل على كثير من النقد التطبيقي ، كما أن كتاب الديوان يشتمل على جملة صالحة من النظريات النقدية ، ومناقشة الأصول الفنية التي يقوم عليها الأدب .
ففي كتاب الغربال تناول نعيمة « الأرواح الحائرة » ، لنسيب عريضة ، و « القرريات » ، للشاعر القروي ، و « السابق » ، لجبران ، و « أغاني الصبا » ، لمحمد الشريق ، و « العواصف » ، لجبران ، وغيرها من الكتب والدواوين بالنقد التطبيقي .

ومن النظريات التي جاءت في الديوان قول العقاد مخاطباً شوقي : « فاعلم - أيها الشاعر العظيم - أن الشاعر من يشعر بجوهر الأشياء لا من يعددها ، ويحصي أشكالها وألوانها ، وأن ليست مزية الشاعر أن يقول لك عن الشيء ما ذا يشبه ، وإنما مزيته أن يقول ما هو ، ويكشف عن لبابه ، وصلته بالحياة ، وليس هم الناس أن يتسابقوا في أشواط السمع والبصر ، وإنما همهم أن يتعاطفوا (يودع أحسهم وأطبعهم في نفس إخوانه زبدة ما رآه وسمعه ، وخلاصة ما استطابه واستكرهه ، وإذا كان وكندك من التشبيه أن تذكر شيئاً أحمر ، ثم تذكر شيئين أو أشياء مثله في الاحمرار فما زدت على أن ذكرت أربعة أو خمسة أشياء بدل شيء واحد ، ولكن التشبيه أن تطيع في وجدان سامعك وفكره صورة واضحة مما افطع في ذات نفسك ، وما ابتدع التشبيه لرسم الأشكال والألوان ، فإن الناس جميعاً يرون الأشكال والألوان من نفس إلى نفس ، وبقوة الشعور وعمقه واتساع مداه ونفاذه إلى صميم

الاشياء يمتاز الشاعر على سواء ، ولهذا - لا غير - كان كلامه مطرباً مؤثراً ، وكانت النفوس توافقه إلى سماعه واستيعابه .

« وصفوة القول أن المحك الذي لا يخطئ في نقد الشعر هو إرجاعه إلى مصدره ، فإن كان لا يرجع إلى مصدر أعمق من الحواس فذلك شعر القشور والطلاء ، وإن كنت تلح وراء الحواس شعوراً حياً ووجداناً تعود إليه المحسوسات كما تعود الأغذية إلى الدم ، ونفحات الأزاهر إلى عنصر العطر ، فذلك شعر الطبع القوى ، والحقيقة الجوهرية . »

ومن النقد التطبيقي الواضح في كتاب « الغربال » ، نقد قصيدة شوقي التي مطلعها :

أناذى الرسم لو ملك الجوابا وأجيزيه بدمعى لو أنابا

وقد وقف الناقد عند هذا البيت ، وعابه ، وذكر أنه توقف ليتأكد إذا كان يطالع قصيدة جاهلية أم عصرية ، وعذر امرأ القيس في بكائه ، ولم يعذر شوقي ، ثم ذكر أن الإعلان عن البكاء لا يحمل الآخرين على البكاء ، وإنما يحملهم عليه أن يفتح الشاعر لم قلبه ويطلعهم على ما فيه ، وهذه - كما يقول - هي مهمة الشاعر ، « وكفى هم الشعراء بينما الذين يستعوضون عن وصف عاطفة بذكر نتيجتها الخارجية ، فإن حزنوا قالوا بكينا ، وإن فرحوا قالوا ضحكنا ، كأن لا سبيل لوصف الحزن إلا بالدموع ، أو لوصف الفرح إلا بالضحك » (١) .

✱ ✱ ✱

هذا ولم أقصد المقارنة بين الديوان والغربال ، بل أردت التنبيه إلى ما وقع فيه ناقد كبير في الموازنة بين الكتابين ، على أن عنوان الغربال - وحده - كاف في إرادة النقد التطبيقي ، فالكتاب يريد أن « يغربل » ، والغربة تتحقق على أكل وجوها حين يضع الناقد الآثار الفنية ، ويغربلها بغرباله ، أو ينخلها بمنخله ، فكان الأصل في وضع هذا الكتاب إنما هو النقد التطبيقي .

وكذلك أردت من هذه الإشارة العابرة أن أدل على موضع الكتابين من حركة

التجديد ، وهذا هو هدفنا من هذه المقالات ، أن نؤرخ لهذه الحركة ، وأن نسجل خطوات الصراع بين القديم والجديد ، وأن نتبين في هذه الخطوات بالتصريح أو بالتلميح كل من يتبجح ، ويشمخ بأنفه ، ويقول في اعتداد وكبرياء : « أنا اللغة » .
ومن الكتب التي صدرت أخيراً في التجديد كتاب « نقد وخصام » لطف حسين ، وكتاب « الأدب للشعب » لسلامة موسى ، وموعظنا بالجديد عن هذين الكتاب حديث آخر .

* * *

ونختم هذه الفقرات في الحديث عن أنصار الجديد ببيتين لحافظ إبراهيم :

آن يا شعر أن ن فك قيودا قيدتنا بها دعاة المحال
فارفعوا هذه الكائنم عنا ودعونا نشم ريح الشمال

ويقصد حافظ « بريح الشمال » الآداب الغربية ، ونلاحظ أن هذا الذي يهيب بالشعر أن يفك قيود التقليد ، وأن ترفع عنه هذه الكائنم لم يتخل طوال حياته عن عمود الشعر العربي ، ولا عن اللفظ المتخير ، والرصف المتين ، وإن كنت أرى الضعف ظاهراً في هذين البيتين ، كما يحس المتذوق ، ولعل القارئ يحس معي بنبو كلمتي « دعاة المحال » و« بريح الشمال » ، على أن المدقق في اللغة يعرف أن وضع الريح هنا غير سليم ، ولو استقام له أن يقول مثلاً : « نسائم الشمال » ، لكان ألفت وأدق .
وببيتين للزهاوي عثر فيهما عن تبرمه بهذه القيود ، وبذلك الكائنم تعبيراً عنيفاً أو شك أن يهدم به كل ما تعارف الناس عليه ، وقدموه من أمجادهم .

سئمتُ كل قديم عرفته في حياتي
إن كان عندك شيء من الجديد فهاثـ

من معجم مجمع اللغة العربية^(١)

معجم ألفاظ القرآن الكريم

- ٣٣ -

ت ج ر

يتجر يتجر تجرا - من باب نصر - : باع واشترى طلباً للربح ، والتجارة مصدر منه أو اسم ، ومعناها : قلب رأس المال والتصرف فيه ليربح ، والتجارة أيضا ما يتجر فيه من السلع ، وإذا استعملت في غير مبادلة الأموال كانت مجازاً ، ومن ذلك قولهم : « عليكم بتجارة الآخرة » ، وهى بذل النفس والمال فى الطاعات ابتغاء لثواب الله .

لم يرد من هذه المادة فى الكتاب الكريم إلا لفظ « تجارة » ، وقد جاء فى تسعة مواضع :

(أ) تارة بالمعنى المصدرى ، وذلك فى قوله تعالى : « يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله » ، ٣٣ / النور .

(ب) وتارة بمعنى ما يتجر فيه ، كقوله تعالى : « وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائماً قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة » ، ١١ / الجمعة . وكذا هو فى ٢٩ / النساء ، ٢٤ / التوبة ، ٣٧ / النور .

(ج) وقد استعملت التجارة بالمعنى المجازى فى قوله تعالى : « الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم » ، ١٦ / البقرة ، وكذا هى فى ٢٩ / فاطر ، ١٠ / الصف .

(١) يأذن خاص من الأستاذ الكبير أحمد لطفى السيد رئيس المجمع .

ت ح ت

تحت ظرف مكان مبهم مقابل لفوق ، ومعنى كونه مبهما أنه لا يتبين معناه إلا بإضافته نحو : هذا تحت السقف . ويأتى ظرفا منصوبا دون « من » ، واسما مجرأ بها ، فإذا أريد معنى الابتداء من الجهة جىء « بمن » ، وإذا أريدت الجهة كلها لم تأت « من » ، ولذلك يختلف المعنى فى مثل قولك : رأيت الشيء تحت الوسادة ، ورأيت الشيء من تحت الوسادة .

وقد يخرج « تحت » عن معنى الجهة الحسية إلى معان أخرى ، منها :
 ١ — المنزلة المعنوية كما يقال : فلان تحت رعاية فلان أو تحت حكمه ، أى خاضع له متقبل لإشرافه ، وفلان تحته امرأة من قبيلة كذا ، كناية عن كونها فى عصمته ، لأنها خاضعة له متقبلة لرعايته .

٢ — الإهانة والتحقير ، كما يقال : هذا الشيء تحت قدمى ، تمثيلا له بما يداس ولا يعاب به .

جاءت هذه الكلمة فى واحد وخمسين موضعاً من الكتاب الكريم ، بالمعنى المجازى والمعنى الحقيقى ، ومسبوقة بمن ومجردة عنها .

(١) فن المواضع التى سبقت فيها بمن قوله تعالى :

١ — « يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم » ، ٥٥ / العنكبوت .
 أى مبتدئا من هاتين الجهتين ، وذلك هول من أهوال القيامة .

٢ — ومثله ما جاء فى قوله تعالى : « لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل » ، ١٦ / الزمر ، نوع من العذاب يأتهم من فوق ومن تحت .

٣ — وقد جاء هذا التعبير وصفاً للجنات فى آيات كثيرة تزيد على الثلاثين ، منها : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار » ، ١٢٢ / النساء ، أى تجرى الأنهار فى مجاريها من تحتها ، ولم يحىء فى وصف الجنات بدون « من » ، إلا فى موضع واحد هو قوله تعالى : « وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً » ، ١٠٠ / التوبة . وفى مصاحف أهل مكة « تجرى من تحتها الأنهار » كسائر المواضع ، وهى قراءة ابن كثير .

(ب) ومن المواضع التي جاءت فيها تحت بدون د من ، قوله تعالى :

١ - د له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ، ٦ / طه .
المراد لإفادة العموم فيما يقع عليه اسم الظرف ، فكل ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى لله عز وجل خلقا وتصريفا .

٢ - د لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، ١٨ / الفتح .
أفاد بجيء الظرف بدون د من ، أن المبايعة كانت في حيز الشجرة حيث وقف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يومئذ .

٣ - د وأما الجدار فكان لفلان يقيم في المدينة وكان تحته كنز لها ،
٨٢ / الكهف . أى كان الكنز كله مختفياً تحت الجدار لا يخرج منه عن الجدار بشئ . .

(ج) وقد اجتمع بجيء الظرف مسبوقا د بمن ، ومجيئه بدونها في قوله تعالى
لإخباراً عن مريم حين ولدت عيسى عليه السلام : د فناداها من تحتها ألا تحزنى قد
جعل ربك تحتك سرياً ، ٢٤ / مريم ، انبعث النداء من هذه الجهة فسمعت صوتاً
يبشرها بأن تحتها سيداً نبيلاً رفيع الشأن هو غلامها الوليد ، وقرئ : د فناداها من
تحتها ، بفتح الميم - والظرف حينئذ صلة .

وجاء هذا الظرف على غير معناه الحسى في قوله تعالى : د وضرب الله مثلاً
للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما ،
١٠ / التحريم ، وذلك كناية عن عصمة الزوجية .

وقد فسر بالمعنى الحسى وغيره قوله تعالى :

١ - د قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم ،
٦٥ / الأنعام ، أى عذاباً آتياً من إحدى هاتين الجهتين كالصواعق والزلازل
- والتحتية على هذا حسية ، وقيل أراد بقوله : د من فوقكم ، طغيان الأكابر
والرؤساء ، وبقوله : د من تحت أرجلكم ، طغيان السفلة والغوغاء ، والتحتية معنوية .

٢ - د وقال الذين كفروا ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما
تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين ، ١٩ / فصلت ، هذا تعبير عن الإهانة والتحقير ،
وقيل : أرادوا المعنى الحسى يجعلهم في الدرك الأسفل من النار .

- ٣ - « ونادى فرعون فى قومه قال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتى ، ٥١ / الزخرف ، أى من تحت أمرى ، أو من تحت قصرى .
 ٤ - وكذلك المعنى فى قوله تعالى : « وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم ، ٦٠ / الأنعام .

ت ر ب

ترب المكان يترب تراباً - من باب فرح - كثر ترابه ، وترب الرجل تراباً ومتربة : افتقر وألحت عليه الفاقة كأنه لاصق بالتراب ، والتراب الأرض وما نعم منها .
 والأتراب : اللدات ومن كانوا متباثلين فى السن ، والمفرد ترب ، وأكثر ما يقال فى الأنثى يقال : هى تربها ، وهما تربان ، وهن أتراب .
 والرائب موضع القلادة من الصدر ، واحدها ترية .
 ورد من هذه المادة فى الكتاب الكريم : تراب - أتراب - ترائب - متربة .

جاء هذا اللفظ فى سبعة عشر موضعاً من الكتاب الكريم :

(١) منها ستة فى شأن خلق الإنسان ، قال تعالى : « يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ، ٥ / الحج ، ومثله ما فى : ٥٩ / آل عمران ، ٢٧ / الكهف ، ٢٠ / الروم ، ١١ / فاطر ، ٦٧ / غافر .

(ب) ومنها ثمان فى شأن ما يصير إليه جسم الإنسان بعد الموت ، قال تعالى حكاية لقول الكفار المنكرين للبعث : « قالوا أنذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون ، ٨٢ / المؤمنون ، ومثله ما فى ٥ / الرعد ، ٣٥ / المؤمنون ، ٦٧ / النحل ، ١٦ ، ٥٣ / الصافات ، ٣ / ق ، ٤٧ / الواقعة .

(ج) والثلاثة الباقية فى غير هذين الشأنين ، قال تعالى :

١ - « فثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل ، ٢٦٤ / البقرة . التراب هنا هو الغبار الناعم الذى يثور ويلصق بالاشياء والسطوح .

٢ - « أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ، ٥٩ / النحل . الكلام فى وأد العرب للبنات : كانوا يحفرون الحفرة من الأرض ، ويدفنون فيها الأنثى حية ، ثم يهيلون عليها التراب .

٣ - ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا ، ٤٠ / النبأ ، يتغنى الكافر حين يرى العذاب أن لو كان جماداً لم تحله الحياة ، وكأنما ذكر التراب بخصوصه دون سائر الجمادات لأنه مادة الخلق الأصلية .

أتراب جاءت كلمة « أتراب » في ثلاثة مواضع ، قال تعالى : « وعندما قاصرات الطرف أتراب » ، ٥٢ / ص ، الحديث عن أهل الجنة ، والوصف للحوار المتأملات ، كأنهن لدات ، وكذا المعنى في ٣٧ / الواقعة ، ٣٣ / النبأ .

الترائب جاءت كلمة « الترائب » في موضع واحد هو قوله تعالى : « فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب » ، ٧ / الطارق .

أحسن ما قيل في معنى الآية أنه كنى بالصلب عن الرجل - والصلب كل عظم من الظهر فيه فقار ، وكنى عن المرأة بالترائب - والترائب موضع القلادة من العنق - كما قدمنا - أى من ماء دافق يخرج من اتصال الرجل بالمرأة .

متربة وجاءت كلمة « متربة » في موضع واحد هو قوله تعالى : « د أو إطعام في يوم ذى مسغبة يتيماً ذا مقربة أو مسكيناً ذا متربة » ، ١٦ / البلد ، أى شديد الفقر كأنه لاصق بالتراب ، وشبيه بهذا قولهم : فقر مدقع ، أو فقير مدقع فيمن اشتدت به الحاجة حتى كأنه التصق بالدعاء - والدعاء الأرض التي لا نبات بها ، أو التراب .

ت ر ف

ترف يترف ترفاً - من باب فرح - تنعم . وأترفه : نعمه وأعطاه شهوته . وأترف - بالبناء للجهول - نعم . والمترف - ككرم - المتنعم المتوسع في ملاذ الدنيا وشهواتها لا يمنعه منها شيء .

ولما كانت النعمة يلزمها الطغيان غالباً ، كما دل عليه مثل قوله تعالى : « كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى » ، أطلق المترف على من أبطرته النعمة وسعة العيش ، ويغلب ذلك في الرؤساء الطغاة وقادة الشر .

ويقال : صبي مترف إذا كان منعم البدن مدلاً متروكاً في تنعمه يفعل ما يشاء . جاء من هذه المادة في الكتاب الكريم : « أترف - وأترف - ومترف » :

أتف جاء « أتف ، الماضى المبني للعلوم فى موضع واحد هو قوله تعالى : د وقال الملا من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم ، ٣٣ / المؤمنون . أترفناهم فى الحياة الدنيا : أى نعمناهم بألوان النعيم من المال والولد والمساكن الطيبة والمقامات الكريمة .

أتف وجاء « أتف ، بالبناء للجهول فى موضعين :

١ - د لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم ، ١٣ / الأنبياء . تهكم وتوبيخ للقرى الظالمة التى أذاقها الله بأسه ، يقول لهم : ارجعوا إلى نعيمكم ولذائذكم ومساكنكم الطيبة التى تركتم لها حتى أبطرتكم ، وما هم إليها راجعين .

٢ - د واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه ، ١١٦ / هود ، أى جروا خلف شهواتهم ولذائذهم التى أطعتم .

مترف وجاء لفظ « مترف ، بصيغة اسم المفعول من أترف ، فى خمسة مواضع ، منها قوله تعالى :

١ - د وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال فى سموم وحيم وظل من يحوم لبارد ولا كريم ، إنهم كانوا قبل ذلك مترفين ، ٥٥ / الواقعة ، تعليل لاستحقاقهم العذاب بأنهم كانوا فى الدنيا منعمين بأنواع النعيم ، منهمكين فيها حتى أبطرتهم ، فلا جرم إذا عذبوا بنقائضها .

٢ - د وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون ، ٣٤ / سبأ ، مترفوها : أولو النعمة فيها والسعة ، أراد بهم الرؤساء وقادة الشر الذين يبتلى الله بهم دائماً دعوات الحق والخير ، وكذا هو فى ١٦ / الإسراء ، ٦٤ / المؤمنون ، ٢٣ / الزخرف .

ت ر ك

ترك الشيء يتركه تركا - من باب نصر - خلاه قصدا واختيارا ، أو قهراً واضطرارا ، واسم الفاعل : تارك .

ويختلف التعبير عن هذه التخليه التى هى معنى الترك باختلاف المقامات ، فيقال :

- ١ — ترك الديار أو الأصحاب ، بمعنى فارقتها .
 - ٢ — وترك مذهب فلان ، أى رفضه ولم يتبعه .
 - ٣ — وترك الشيء سدى أو ضياعا : أهمله وضيعه .
 - ٤ — وترك فلان مالا كثيرا : أى مات عنه وخلفه من بعده .
- وقد تؤول هذه التخلية إلى معنى « أبقي » ، وذلك فى مثل :
- ١ — قطعت الشجر وتركت النخل ، أى أبقيته قائماً على حاله ، وأصله خلّيته عن القطع فأبقيته .
 - ٢ — وأجهزت على أعدائى فسا تركت أحداً منهم ، أى فسا أبقيت ، وأصله فسا خلّيته عن الإجهاز عليه .
 - ٣ — وتركت فى القوم أثراً منى - أى خلّيته فيهم وأبقيته .
- وقد يتعدى « ترك » ، إلى مفعولين ، فلا يكون حينئذ بمعنى خلى وودع ، ولكن بمعنى جعل وصير كأفعال القلوب ، وذلك فى كل شيء ينتهى به إلى حالة لم يكن عليها من قبل ، سواء أكان محسوساً أم معقولاً ، نقول :
- ١ — فقلت الحبلى حتى تركته شديداً ، أى حتى صيرته كذلك .
 - ٢ — وأدبت ابنى حتى تركته سيّداً ، أى جعلته متخلّفاً بأخلاق السادة .
- جاء من هذه المادة فى الكتاب الكريم : الأفعال الثلاثة واسم الفاعل ، وذلك فى ثلاثة وأربعين موضعاً :
- أما « ترك » ، الماضى فقد جاء :
- (أ) تارة بمعنى خلى الشيء قصداً واختياراً ، نحو قوله تعالى حكاية لما قاله إخوة يوسف لأبيهم : « إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب » ، ١٧/يوسف ، أى خيلناه قاصدين مطمئنين إلى أنه فى مأمن ، ومثله ما فى ١١/الجمعة .
- (ب) وتارة بمعنى خلاه قهراً واضطراً ، وذلك مثل قوله تعالى فى شأن فرعون وجنوده الذين أغرقوا : « كم تركوا من جنات وعيون ، ٢٥/الدخان ، أى قهروا على تخلّيتها وسلبوا منها . ومثله قوله تعالى : « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم » ، ٩٤/الأنعام ، وقوله تعالى : « حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعنى لعلّى أعمل صالحاً فيما تركت » ، ١٠٠/المؤمنون

(ج) وقد جاء «ترك» بمعنى خلف ميراثاً، في عدة مواضع أكثرها في سورة النساء، ومن ذلك قوله تعالى: «ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد، ١٢ / النساء، ومثله ما في: ١٨٠ / البقرة، والآيات: ٤٧، ١١، ١٢، ٣٣، ١٧٦ من سورة النساء.

(د) وتارة بمعنى رفض الشيء ولم يتبعه، كما في قوله تعالى حكاية لقول يوسف عليه السلام: «لئن تركت قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون واتبعت ملة آبائي، ٣٧ / يوسف. ليس المراد: خانتها بعد ملاستها واتباعها، ولكن المراد رفضها والامتناع عنها ابتداءً بدليل قوله بعده: «ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء». (هـ) وتارة بمعنى أبقى على التخرج الذي خرجناه، وذلك مثل قوله تعالى: ١ — «ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله، ٥ / الحشر. يعني خليتموها ولم تتعرضوا لها فأبقيتموها بذلك كما هي.

٢ — «ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة، ٦١ / النحل. أي ما أبقى عليها دابة تعيش.

٣ — «وتركنا عليه في الآخرين سلام على نوح في العالمين، ٧٨ / الصافات. معناه: أبقينا عليه هذا السلام تحية له وذكرى دائمة في الآخرين.

ولهذه الآية نظائر كلها في سورة الصافات أيضاً، وهي الآيات: ١٠٨، ١١٩، ١٢٩.

(و) وتارة بمعنى جعل وصير متعدياً إلى مفعولين، وذلك نحو قوله تعالى:

١ — «كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً، ١٦٤ / البقرة.

أي صيره أملس ليس عليه شيء من الغبار.

٢ — «وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض، ٩٩ / الكهف، معطوف على

قوله: «حتى إذا جاء وعد ربّي جعله دكاء، أي وجعلنا بعض الخلائق يومئذ يموج

في بعض، أي يختلطون ويضطربون اضطراب أمواج البحر.

(ز) أما قوله تعالى في شأن سفينة نوح عليه السلام:

١ — «ولقد تركناها آية فهل من مدكر، ١٥ / القمر، فيتضمن الفعل فيه

معنى جعل وأبقى جميعاً، أي وجعلناها آية باقية بذكرها، وتعليم البشر صنع مثلها،

ويرشد إلى ذلك قوله تعالى: «ودن آياته الجوار في البحر كالأعلام، ٣٢ / الشورى.

٢ — ومثل ذلك قوله تعالى في شأن القرية التي كانت تعمل السيئات : « ولقد تركنا منها آية بينة ليقوم يعقلون » ، ٣٥ / العنكبوت ، المعنى : ولقد صبرنا هذه القرية آية بينة باقية بذكرها لمن يعتبر ، وقد أدخلت « من » ، على ضميرها ، لأن الكلام جاء على سبيل التجريد المعروف ، على حد قولك : جعلت منه رجلا ماجدا .

٣ — ومثله أيضاً قوله تعالى : « وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم » ، ٣٧ / الذاريات ، أى جعلناها آية باقية بذكرها ، إلا أن التجريد في هذه الآية قد استعمل فيه لفظ « في » ، على حد : لقيت فيه رجلا عالما .

وجاء المضارع من ترك مبنيًا للعلوم في موضعين :
أحدهما قوله تعالى في تصوير أمر الذي أتته آيات الله فانسخ منها : « فثله كثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث » ، ١٧٦ / الأعراف ، اللهث : ادلاع اللسان بالتنفس الشديد ، وهو في الكلاب طبع ، نرى الواحد منها يلهث سواء هيجته وأزعجته بالطرد الشديد ، أو أبقيته على حاله لم تزجه .

والآخر قوله تعالى حكاية لما قاله قوم شعيب لنبيهم : « قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن تترك ما يعبد آبائنا » ، ٨٧ / هود ، أى نرفضه ونعرض عن اتباعه .

وجاء المضارع مبنيًا للجهول في أربعة مواضع ، منها قوله تعالى :
١ — « يحسب الإنسان أن يترك سدى » ، ٣٦ / القيامة ، أى يخلى مهملا فلا يعمت ليجازى .

٢ — « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون » ، ٢ / العنكبوت ، أى أظنوا أن يخلوا بلا فتنة واختيار لمجرد أن يقولوا آمنا ، ومثله ما في ١٦ / التوبة .

٣ — « أتتركون فيما ههنا آمنين » ، ١٤٦ / الشعراء ، معناه : أتخلون في أسباب تنعمكم بالأمن دون أن يصيبكم جزاء المكذبين ؟ وهو إنكار ونفي .

وجاء الأمر وهو « اترك » ، في موضع واحد هو قوله تعالى فيما أوحى إلى موسى حين أمره بمجاوزة البحر : « واترك البحر رهوا إنهم جند مغرقون » ، ٢٤ / الدخان ، أى دعه بعد أن تجاوزه ساكنا على حاله ليدخلوه .

وجاء اسم الفاعل وهو « تارك » ، في ثلاثة مواضع :
أحدهما قوله تعالى : « فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك » ، ٢ / هود ، أى متخل عنه . والموضعان الآخران هما ٥٣ / هود ، ٣٦ / الصافات .

ت س ع

التسع في عد المؤنث ، والتسعة في عد المذكر ، كلاهما معروف ، يقال : تسع نساء ، وتسعة رجال .

ويركب مع العشر فيقال : تسعة عشر رجلا ، وتسع عشرة امرأة ، والتسعون تسع عشرات .

ورد هذا العدد مؤنثا ومذكرا ، مفردا ومركبا وبمجموعا في سبعة مواضع ، منها قوله تعالى :

١ - « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات » ١٠١ / الإسراء ، والمراد بها ما جاء به القرآن من العصا ، وخروج اليد بيضاء ، وغيرهما ، ومثله ما في : ٢٥ / الكهف ، ١٢ / النمل .

٢ - ومنها قوله تعالى : « وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون » ٤٨ / النمل ، المراد مدينة ثمود وهي الحجر ، والرهط جمع لا واحد له من لفظه ، مثل : « ذود ، يصدق على ما دون العشرة ، أى تسعة أشخاص .

٣ - ومنها قوله تعالى في وصف سقر : « لواحة للبشر عليها تسعة عشر » ٣٠ / المدثر ، واختلف في المعداد بهذا العدد « وما يعلم جنود ربك إلا هو » .

٤ - ومنها قوله تعالى حكاية لما قاله أحد الخصم الذين تسوروا المحراب على داود : « إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة » ٢٣ / ص .

أَنْبَاءٌ وَآرَاءُ

مشروع على جليل بين شلتوت والقصى :

من الحقائق المقررة التي تؤمن بها د جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية ، وتعمل على تجليتها للناس ، وتدعو إليها في كل مجال : أن جميع المذاهب الإسلامية تؤمن بالسنة النبوية المطهرة كصدر مقدس من مصادر الشريعة ، مثلها في ذلك كمثل القرآن الكريم ، فليس لمسلم أن ينكر حجية السنة شيعياً كان أو سنياً ، وليس في هؤلاء وهؤلاء من يقول : هذا الحديث صح وروده عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومع ذلك لا أعمل به ، ولست ملزماً شرعاً بهذا العمل ، ولكن ربما قال قائل من هؤلاء أو هؤلاء : هذه الرواية لم تصح عندي فأنا لا أعمل بها ، ولأننا نرى هذا بين علماء السنة أنفسهم في مختلف مذاهبهم ، كما نراه بين علماء الشيعة في نطاق المذهب ، ومع المذاهب الأخرى ، فكلم من أحاديث صحت عند فقيه ، ولم تصح عند آخر ، وكلم من أحكام فقهية خلافية انبنى الخلاف فيها على موقف كل من قبول حديث معين أو عدم قبوله .

والواقع أنه لا غضاضة في ذلك ما دام الإخلاص هو رائد الجميع ، وما داموا كلهم مؤمنين بالسنة كأصل من أصول التشريع ، وبأنه لا يجوز لمسلم أن يرفض ما صح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

ويتلخص هذا المبدأ المسلم به عند الفريقين في أن الاختلاف ليس واقعاً في كبرى القياس ، وإنما يقع أحياناً في صفراء ، فإذا قلنا في قياس من الشكل الأول عند المناطقة : هذا الأمر قد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وكل ما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يجب العمل به ؛ كان معنا

مقدمتان : الأولى منهما هي المعروفة عند المناطق بالمقدمة الصغرى ، والثانية هي المقدمة الكبرى ، فإذا سلبت المقدمتان صحت النتيجة ، وهي : « هذا الأمر يجب العمل به » .

فالمسلمون لا يختلفون في المقدمة الكبرى التي تقول : كل ما ثبت عن رسول الله يجب العمل به ، بل كلهم يؤمن بها إيماناً لا يعتريه الشك ، وكلهم يعتبر هذا الإيمان ركناً أصلياً من أركان الإسلام ، من شدة عنة خرج من ربة الإيمان .

لكن الخلاف حين يوجد إنما هو في المقدمة الصغرى التي تقول : « هذا الأمر ثبت وروده ، فيقول بعضهم : نعم ثبت فأقبله ، ويقول بعضهم لم يثبت فأنا لا أقبله . ولذلك اشتهر بين علماء المناظرة قولهم في بعض الأحيان : هذا الخلاف صغرى لا كبرى ، أو خلاف في الصغرى دون الكبرى .

هذه حقيقة .

٢ — وهناك حقيقة أخرى تؤمن بها ، ونعمل على تجليتها ، وندعو الناس إلى الإيمان بها .

تلك هي أن العدد الأكبر مما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في شئون العقيدة والشريعة والأخلاق ، وسائر الجوانب التي جالت في ميادينها السنة المطهرة ، قد اتفق عليه كلا الفريقين ، فهو وارد من طريق صحيح يرتضيه كل منهما ، أو وارد من طريقين لهؤلاء وهؤلاء ، تطابقا عليه لفظاً أو معنى ، وأنه لا يوجد خلاف إلا في العدد الأقل من أحاديث الأحكام أو الأخبار ، وليس هذا العدد الأقل من حسن الحظ في الأصول الضرورية التي لا يكون المسلم مسلماً إلا بها ، وإنما هو فيما لا يضر الاختلاف فيه ، وفيما يسع المسلم باعتباره مسلماً أن يترخص فيه دون أن ينازع أو ينازع .

* * *

على ضوء هاتين الحقيقتين المقرتين ، رأت دار التقريب بين المذاهب الإسلامية ، أن تقوم بمشروع على إسلامي جليل الشأن .

ذلك هو جمع الأحاديث التي اتفق عليها الفريقان في مختلف أبواب الإيمان والعمل والأخبار والأخلاق، وغير ذلك من أبواب السنة المطهرة :

تجمع الأحاديث المتفق عليها في كل باب ، ويبين مع كل حديث مصدره من كتب السنة ومن كتب الشيعة ، ودرجته عند كل من الفريقين .

ويمكن إصدار ما يتم من ذلك على سبيل التدرج جزأ بعد جزء حتى يكمل المشروع بإذن الله ، ويؤمل يجد فيه المسلمون مرجعا متفقا عليه ، صالحا للاحتجاج به ، والاحتكام إليه .

لقد بذلت في دراسة هذا المشروع جهود كثيرة من رجال التقريب في مصر وغيرها استغرقت وقتا طويلا ، وعملت تجارب في مختلف الأبواب والموضوعات ، أسفرت عن نتائج تؤذن باستقامة الفكرة ، وتبشر بنجاحها .

ومن ثم اجتمع في هذا الشهر بمدينة القاهرة قطبان من أقطاب التقريب ، هما السيدان الجليلان : الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر ، والعلامة الحجة الأستاذ محمد تقي القمي السكرتير العام لجماعة التقريب ، واستعرضا الفكرة ، وما قام حولها من بحوث وتجارب ، وما أسفرت عنه من نتائج ، وما يمكن أن يسلك من الطرق في سبيل تحقيقها ، فاتفقا والحمد لله على أن المشروع جدير بالتحقيق ، وعلى أن تقوم دار التقريب بخطوات تنفيذه العملية على بركة الله تعالى ، وأن يقوم بذلك رجال من علماء التقريب في مختلف البلاد الإسلامية ، بحيث تقسم أبواب السنة ، ويختص كل جماعة من العلماء بقسم ، ثم يراجع ما يتم من ذلك أولا بأول في دار التقريب بالقاهرة ، ويبدأ في إخراجه مطبوعا منسقا مقربا إن شاء الله .

لنا نبشر أصدقاء التقريب ، وهم المسلمون الواعون في كل بلد إسلامي ، وفي كل طائفة ومذهب ، بهذا المشروع العمل النافع ، الذي نعتقد بحق أنه الأول من نوعه في تاريخ الإسلام ، وفي تاريخ علم الحديث ، ونسأل الله أن يعيننا على تحقيقه ، إنه نعم الموفق والمعين .

مسابقة في القاهرة عن الإمام جعفر الصادق :

من قرارات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية التابع لوزارة الأوقاف بالجمهورية العربية المتحدة : إقامة مسابقة لطلاب الجامعات والمعاهد العليا والبحوث الإسلامية في عدة موضوعات دينية واجتماعية وتاريخية ، ترصد لها مكافآت يحصل عليها الفائزون في هذه الموضوعات المختلفة .

وبما يلفت النظر في هذه المسابقة أن من بين الموضوعات التي طرحت للبحث والتسابق : دراسة أئمة المذاهب الأربعة السنية المعروفة ، ودراسة الإمام جعفر الصادق عليه السلام .

إن هذا هو اتجاه حميد نحييه ونشكر الموجهين إليه ، فمن حق الناس أن يعرفوا جعفر الصادق كما يعرفوا أبا حنيفة ومالكا والشافعي وابن حنبل ، ومن حق العلم ألا يتقيد بمصيبة مذهبية حين يتجه إلى دراسة أعلام الإسلام .

وسننظر : كم من الباحثين الناشئين في الجامعات والمعاهد العليا وأعضاء البحوث الإسلامية ، يتقدم لدراسة الإمام جعفر ، وما هي البحوث التي ستفوز بالقبول وبالجوائز في هذا الموضوع ، ويومئذ نزيد الفائزين تشجيعاً وتكريماً بجوائز إضافية مادية وأدبية إن شاء الله تعالى .

رجاء من التقريب

إلى الكتاب والباحثين

١ - نرجو من الكاتب الإسلامى أن يحاسب نفسه قبل أن يخط أى كلمة ، وأن يتصور أمامه حالة المسلمين وما هم عليه من تفرق أدّى بهم إلى حضيض البؤس والشقاء وما نتج عن تسم الأفكار من آثار تساعد على انتشار اللادينية والإلحاد .

٢ - ونرجو من الباحث المحقق - إن شاء الكتابة عن أية طائفة من الطوائف الإسلامية - أن يتجرى الحقيقة في الكلام عن عقائدها ، ولا يعتمد لإعلى المراجع المعتبرة عندها ، وأن يتجنب الأخذ بالشائعات وتحميل وزرها لمن تبرأ منها ، وألا يأخذ معتقاداتها من مخالفيها .

٣ - ونرجو من الذين يحبون أن يجادلوا عن آرائهم أو مذاهبهم أن يكون جدالهم بالتى هى أحسن ، وألا يبحرخوا شعور غيرهم ، حتى يمهّدوا لهم سبيل الاطلاع على ما يكتبون ، فإن ذلك أولى بهم ، وأجدى عليهم ، وأحفظ للودّة بينهم وبين إخوانهم .

٤ - من المعروف أن « سياسة الحكم والحكام ، كثيراً ما تدخلت قديماً في الشؤون الدينية ، فأفسدت الدين وأثارت الخلافات لا لشيء إلا لصالح الحاكمين ، وتثبيتاً لأقدامهم ، وأنهم سخطوا - مع الأسف - بعض الأقلام في هذه الأغراض ، وقد ذهب الحكم وانقرضوا ، بيد أن آثار الأقلام لا تزال باقية ، تؤثر في العقول أثرها ، وتعمل عملها فعليتنا أن نقدر ذلك ، وأن نأخذ الأمر فيه بمنتهى الحذر والحيلة .

*** ** **

وعلى الجملة نرجو ألا يأخذ أحدُ القلم ، إلا وهو يحسب حساب العقول المستنيرة ، ويقدم مصلحة الإسلام والمسلمين على كل اعتبار .

من القانون الأساسى لجماعة التقريب

المادة الثانية

أغراض الجماعة هى : -

- ١ - العمل على جمع كلـة أرباب المذاهب الإسلامية و الطوائف الإسلامية ، الذين باعدت بينهم آراء لا تمس العقائد التى يجب الإيمان بها .
- ب - نشر المبادئ الإسلامية باللغات المختلفة وبيان حاجة المجتمع إلى الأخذ بها .
- ج - السعى إلى إزالة ما يكون من نزاع بين شعبين أو طائفتين من المسلمين ، والتوفيق بينهما .

فهرس

كلية التحرير	١١٥
تفسير القرآن الكريم	١١٧
ميراث الأثنى بين السنة والقيمة	١٣٦
ديمقراطية الثقافة والتعلم في الإسلام	١٤٢
من ثمرات المعقول والمنقول	١٤٧
قال شيخى	١٦٤
بساطة العقيدة ويسر التكليف	١٧٣
نظرة جديدة في مكي السور ومدنيها	١٨٥
المسلمون بين عوامل القوة وعوامل الضعف	١٩٠
أنا اللغة	١٩٩
مجمع ألفاظ القرآن الكريم	٢٠٨
أنباء وآراء	٢١٨
مفروع علمى جليل بين شلتوت والقى	٢١٨
مسابقة في الصاهرة عن الإمام جعفر الصادق	٢٢١

رَسَالَةُ الْإِسْلَامِ

مَجْلَدٌ إِسْلَامِيٌّ عَالَمِيٌّ
تَصَدَّرَ عَنْ دَارِ الْقُرْبَيْنِ بَيْنَ الْمَدَائِنِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِالْعِلَاءِ

(العدد ٥٠) المجموعة الثانية

ذو القعدة ١٣٨١ هـ — أبريل ١٩٦٢ م

رئيس التحرير : محمد محمد الدفت مدير الإدارة : عبد العزيز محمد عيسى
الإدارة : ١٩ شارع حشمت باشا بالزمالك . القاهرة - تليفون ٨٠٤٦٨٩
قيمة الاشتراك في السنة للأفراد : خمسون قرشاً مضمناً أو ما يكاد لها

مطبعة نجمة ٢٩ شارع بحيش

رسالة الإسلام

مجلة إسلامية عالمية

تصدر عن دار البقريّة بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

العددان ٥٢ و ٥١
يوليو - ديسمبر ١٩٦٢ م

المجموعة الثانية
محرم - رجب ١٣٨٢ هـ

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً
وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ
”قرآن مجید“

كَلَامُ الْفَخْرِيِّ

إن مراتب المعرفة والإدراك تتفاوت : فهناك إنسان يتوهم أمراً من الأمور توهمها ، فلا يكون في ذهنه منه إلا صورة حائرة متزلزلة ، وهناك إنسان يفكر في أمر من الأمور ، أو يحوم حول حقيقة من الحقائق فيجد مبررات ترجح له جانباً معيناً ، فيغلب على ظنه هذا الجانب ، ويكون ميزانه أرجح في نظره . أما « اليقين » فهو إدراك الشيء إدراكاً قاطعاً ليس فيه أدنى شبهة .

و « العقيدة الدينية » لا تكون إلا حيث يكون « اليقين » .

يقول الله تعالى في سورة التكاثر : « كلا سوف تعلمون ، ثم كلا سوف تعلمون ، كلا لو تعلمون علم اليقين ، لترون الجحيم ، ثم لترونها عين اليقين » ، وتفسير هذه الآية : أن الإنسان لو علم الشيء علم اليقين لانكشفت له حقيقة كما لو كان يراه بعيني رأسه ، فالسارق مثلاً لو علم علم اليقين أن السرقة حرام ، وأن هذا الحرام يفرض بصاحبه إلى نار الجحيم ؛ لما أقدم على السرقة ، ولتصور أنه حين يمد يده إلى الشيء ليسرقه إنما يمد يده في نار جهنم ، فلا يضع يده أبداً مختاراً في هذه النار .

ولكن السارق حين يسرق لا يكون عالماً علم اليقين على هذا النحو ، بل يكون متعلقاً بالظنون والأوهام ، فربما قال لنفسه : إني محتاج ومضطرب ، وإن الله سيغفر لي ، إلى غير ذلك مما يعطل به المرء نفسه ، وبذلك يبتعد عنه الإيمان بهذا المصير فيرتكب فعلته ، وهذا هو التفسير العلي لقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن » .

ويقول الله تعالى في وصف العلم الذي يفيد اليقين واطمئنان القلوب : « وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم » .

فالوحي الإلهي يعرفه الذين أوتوا العلم ، ويعرفون أنه الحق من ربهم بما يتضح لهم من دلائل ذلك وبراهينه ، وحينئذ يؤمنون به ، أي يحصل لهم اليقين الذي

لا يقبل الشك في شأنه ، فإذا حصل لم هذا اليقين وهذا الإيمان أخبت له قلوبهم ،
أى خشعت وأطاعت وجرت على مقتضيات الإيمان به جرياناً عملياً .

وهذا هو السر في أن ، العقيدة ، تكون دائماً قوة غالبة ، وقوة دافعة لأصحابها
في طريق التقدم والاستقامة ، وقوة موجهة هادية لصالح الأعمال .

ومن تتبع أهوار التاريخ الإنسانى تجلى له فضل العقيدة على الأمم التى نجحت ،
والدعوات التى استقرت وركزت ، ورأى العجب العجيب من سيطرة العقيدة
والإيمان بها على الناس ، وكيف ظهر ذلك في أعمالهم وتصرفاتهم .

والقرآن الكريم هو الذى علم المؤمنين أن الاستشهاد وتضحية النفس في سبيل
الله هو إحدى الحسينين حيث يقول : « قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسينين » .
أى : إما النصر في الحرب ، وإما الاستشهاد في سبيل الله والفوز بالجنة ، وهما
حسينان لا فرق عند المؤمن بين إحداهما والآخرى .

وبهذا الروح شق الإسلام طريقه بين ظلم الدول وظلماتها ، وبين الطواغيت
وطغيانها ، وطرق على قوى الفساد أبوابها دون خوف ولا وجل ولا بجالة
ولا مداينة ، ليحق الحق ، ويبطل الباطل ، فصمت شمس آفاق العالم في زمن وجيز
لا يعد شيئاً مذكوراً في أعمار الأمم والدول .

ولكن ... كيف صاغ الإسلام هذه النفوس المؤمنة ؟

كيف غرس في قلوب أهله هذه العقيدة الثابتة التى لم تعرف التزلزل ولا
التخلخل ، والتى دفعت ، ووجهت ، وجاهدت في الله حق الجهاد ؟

هل كان ذلك بالإكراه على العقيدة ؟ وهل يمكن أن تتصور أن عقيدة من
العقائد تتكون في نفوس الناس عن طريق الإكراه ؟

كلا ، إن الإسلام ليدرك حق الإدراك أن العقيدة إنما تكون ثمرة الاقتناع
والاطمئنان القلبي ... ولذلك يقول القرآن الكريم : « لا إكراه في الدين ، ،
« أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » .

فمن أراد أن يكره القلوب ، فقد أراد المحال ، وبني على الرمال .



نَفْسِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود مصلح
شيخ الجامع الأزهر

سُورَةُ التَّوْبَةِ

— ٣ —

بيان الحكمة من الأمر بالنز والقتال - نهاية القرآن بوجبه
التعريضات وتعليلها - تعليل الأمر بنز عهود للمركون -
طريقات - في الهدف الثاني للسورة - الاحتكاك بين
السلدين والروم - معركة مؤتة - فزوة تبوك وظروفها -
إنكار وتقرع للثاقل عن دعوة الجهاد - الأمة كلها جيش -
توجيه الإنكار إلى الجماعة وفيها المخلصون المارعون -
التذكير بنتائج الثاقل عن الجهاد .

بيان الحكمة من الأمر بالنز والقتال :

تضمنت الآيات الست التي افتتحت بها سورة التوبة أمرين أساسيين :
أولهما : البراءة من المشركين ، ومعناها - كما قلنا - نبذ عهودهم القائمة ، وعدم
استئناف تعاهد جديد معهم .

ثانيهما : وهو مرتب على الأول - الأمر بقتالهم والتضييق عليهم حتى تطهر
البلاد من شركهم ، إما بإسلامهم ، وإما بقتلهم .

وقد يبدو لقصار النظر أن نبذ عهودهم ، أو عدم التعاهد معهم مما لا يتفق
ومبدأ الوفاء بالعهد ، ومبدأ الجنوح إلى السلم ، متى جنحوا إليها وظهرت رغبتهم
فيها ، ومما مبدآن قررهما القرآن ، وجاءت أوامره فيهما صريحة واضحة ، كما قد يـ

لهؤلاء أيضاً أن الأمر بقتالهم بعد أن غلبوا على أمرهم وفتح المسلمون مكة ، وظهرت شوكة الإسلام في شبه الجزيرة - من باب التحدى لمن ظهر ضعفه ، وبدا عجزه ، وقلت أظافره ، وصار المسلمون في مأمن من ثورته وطفغياته ، وقاتل أمثال هؤلاء قتال لمن ألقى السلاح ؛ وهو لا يتفق مع تحذيرات القرآن المتكررة من الاعتداء وعدم قتال من لم يقاتل .

هذه اعتبارات أو خواطر قد تحضر بعض الأذهان وتعلق فيها ، وهي اعتبارات لو استقرت في النفوس تجعل من آثارها عدم اطمئنان القلوب نحو صحة هذا الوضع الجديد ، وفي هذا غفلة عظيمة عن التقدير الحق في هذا الموقف ، موقف المؤمنين مع هؤلاء المشركين ، وكثيراً ما يصحب تلك الغفلة التهاون في تنفيذ هذه الأوامر ، كما قد يصحبها سريان هذه الاعتبارات الفاسدة إلى الجمهور ، وقد تشتد الغفلة عن التقدير الحق في الموقف ، فيزداد البعد عن إدراك الحق ، وبذلك يقع المؤمنون في براثن المنافقين ، وتحت تأثيرهم بهذه الخواطر الفاسدة ، وفي هذا هدم لبناء 'شيد' ، وزلزلة لعرش استقرار - لهذا كله وتطمينا للمؤمنين على حكمة هذا الوضع الجديد ، وبياناً لحقيقته وسداده ، أردف الله سبحانه وتعالى الأمر بنبذ اليهود ، والأمر بالقتال ، بما يجلى الحكمة في هذين الأمرين ، ويغسل قلوب المؤمنين من هذه الوسوس وتلك الخواطر الفاسدة ، التي قد تنفذ إليهم من جانب قصر النظر ، وضعف الإدراك والتقدير الحق في مثل هذا المقام .

عناية القرآن بتوجيه التشريعات وتعليلها :

وفي عناية الله بتوجيه هذا التشريع وبيان حكمته ، إيماء قوى بأن من تمام قيام الحجة على الناس فيما يفرض عليهم من تشريع ، أن يقدم التشريع إليهم مصحوباً ببيان حكمته والدواعي التي تقتضيه وتدعو إليه ، أو الثمرات التي ترجى منه ويكون التشريع وسيلة إليها .

ومن هنا لا نكاد نجد تشريعاً في القرآن إلا وأردفه الله بحكمته وأرشد إلى فائدته ، التي تعود على الناس في حياتهم ونظامهم ، وانظر قوله تعالى بعد تشريع

القصاص : « ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون » ، وقوله بعد
تشرية الصيام وإباحة الفطر للبرية والمساكر : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم
العسر » ، وقوله بعد الأمر بكتابة الدين واتخاذ وسائل الاستيثاق : « ذلكم أقسط
عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا » ، وقوله تعالى في وجوب الاستعداد
الحربي : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله
وعدوكم وآخرين من دونهم ، لا تعلمونهم الله يعلمهم » ، وقوله تعالى في تحريم الخمر
والميسر : « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من
عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم
العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم
منتهون » ، وقوله في النهي عن البخل والإسراف : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك
ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً » .

وهكذا تجد القرآن في معظم تشريعاته - إن لم يكن في كلها - موجهاً ومعللاً
ومرشداً إلى الحكمة التي كان لأجلها التشريع ، والتي تدفع بالناس إلى المسارعة
في التنفيذ والامتنال . وجرياً على هذه السنة - سنة تعليل الأحكام وتوجيه التشريع
بالأسباب والمعاني التي تستوجبها - أردف الله التشريع الذي تضمنته الآيات الست
السابقة ببيان حكمته في الآيات ، من الآية السابعة إلى الآية السادسة عشرة ،
وبالنظر في مجموع هذه الآيات العشر تتضح الحكمة في تقرير نذ عهود المشركين
وعدم التعاهد معهم وتقرير الأمر بقتالهم حتى تطهر شبه الجزيرة من الشرك ويصير
بيت الله الحرام في مأمن من ولاية المشركين عليه ، أو دخولهم فيه بعباداتهم الضالة
التي تفسد على المؤمنين إيمانهم ، ولا يمكن أن يجتمع مع عبادة المؤمنين الصادقين
الله في بيت الله .

وفي تعليل الأمر بنذ العهود جاءت الآية السابعة : « كيف يكون للمشركين
عهد عند الله وعند رسوله » ، إلى نهاية الآية العاشرة : « لا يرقبون في مؤمن إلا
ولا ذمة وأولئك هم المعتدون » .

وفي تعليل الأمر بالقتال جاءت الآيات إلى نهاية السادسة عشرة .

تلليل الأمر بفنذ عهدو المشركن :

فآلآفة الأولف من آفات فوففه الأمر بفنذ العهدو فقرر :

أن هؤلاء المشركن بما عندهم من الشر كفسوا أهلا لأن فكون لهم عهد فمافظ علفه عند الله وعند رسوله ، وذلك أن الشر ك بما فحمل من إباحفة مطلقفة لا فدع فرفقاً ففسلكه الخلق الفاضل إلى القلوب ، أو ففسرب منه إليها خوف الله وففواء ؛ ففصاحبه فسفسفف فف سفلل شهوته وهواء الفدر والطفانة كلسا فسحت له الفرفة ، أو ظن ففسفه قوة ، وقد ففص بالشر ك واتخاذ الهوى إلهاف ، عهد الفطرة ، عهد الخلق والفكوفن ، وما ففصب الله للإنسان فف الأنفس والآفاق من أدلة الفوففد ، ولا فرب أن هذا الوضف الذى خلق الله الإنسان علفه ومكنه به من الفظر من أفوى العهدو والمواثفق الفف ففطق بها ففطرته ، ومع هذا ، فقد أشرك وانسلخ من هذا العهد الففطرى الذى ففسه فوجدانه ، واتخذ الصنم إلهاف فعبده من دون الله فمضطلا من طفبفة خلقه وفكوفنه ، وإذا أخذ ربك من بنف آدم من ظهوره ذرففهم وأشهدهم علف أنفسهم : ألسف ربكم ؟ قالوا : بلى شهدنا ، أن فقولوا ففوم الفففامة إنا كنا عن هذا غافلفن ، أو فقولوا إنما أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرففة من بعدهم أففهلكننا بما فعل المبطلون ، ؟

وإذا كان الشر ك ففصا لهذا العهد الففطرى ، وففحمل الفحلل من ففقتضفات الإيمان الحق ، والفخلق الفاضل ؛ فن طفبففته ألا ففحترم عهداف ، ولا ففخاف صاحبه عاقبة ، وإنما عهده الشهوة والهوى ؛ وكما كان المشركون عهد خالفهم فعبادة الهوى فانهم فففصون عهد من ففعاهدون بالفدر والطفانة ، ولا فرب أن مثل هؤلاء الذفن لا ففؤمنون بفحرمات ، ولا ففذنون لمثل علفا لا فمكن فف فظر العقل الصفففح أن فكون لهم عهد ففحترم فمافظ علفه ، وففدفر أن فكون الففكفر فف الففعاهد معهم أو الفمافظة علف عهدهم محل لإنكار فففد ، ومدةاة للفعجب . وهذه المعانف هى الفف ففبعث من وصف المشركن ، وهى الفف ففشر إليها الإنكار المذكور فف قوله تعالى : « فف فكون للمشركن عهد عند الله وعند رسوله » والمعنى : بأى حال ، وعلف

أى وضع يكون للشركين عهد ؟ ليس له حال يوجد عليها ، وإذا لم يوجد له حال يوجد عليها فإنه لا سبيل إلى وجوده ، فالاستفهام إنكارى للأحوال التى يكونون عليها ، ومتى انتفت الأحوال التى يكون عليها الشيء ولا يوجد إلا بها انتفى وجود ذلك الشيء ، فالآية تقرر نفى وجود العهد على الطريق البرهاني كما يقولون ، وهو أبلغ أنواع الإنكار .

وترشد الآية الثانية من هذه الآيات : « كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة » ، إلى أن الشأن فى تقرير بند عهودهم لم يكن قاصرا على النظر إلى عقيدتهم الشركية ، وعدم إيمانهم بتشريع إلهى ، أو خلق فاضل ، يحتم عليهم الوفاء بالعهد كما تضمنته الآية السابقة ، وإنما يرتبط أيضا بما عرف عنهم ، وصار سمجة لهم ، وشأننا من شئونهم ، وهو أنهم عند قوتهم وغلبة سلطانهم لا يراعون شيئا من حقوق الإنسانية الخاصة أو العامة ، كالقرابة والعهد ، وإن فى مواقفهم معكم ، حينما كانوا يشعرون بالقوة ، أكبر شاهد على أن قلوبهم لا تحمل أية قيمة لقرابتكم بهم ، أو لعهدكم معهم ، ويرشدنا ما بعدها إلى أن ما يُسمع منهم من عبارات السلم والقرابة وعبارات العهد والولاء ، لا يخرج عن أنه نوع من خداعهم الذى مروا عليه فى حال ضعفهم ، والذى لا يتجاوز ألسنتهم إلى قلوبهم ، فهم به « يرضونكم بأفواههم وتآبى قلوبهم » ، أن يدخل فيها شيء من معانى الوفاء ؛ ذلك بسبب ما طبع عليه أكثرهم من الخروج عن حدود الفضيلة الإنسانية « وأكثرهم فاسقون » ، ثم ترشد الآيات بعد هذا إلى أن خروجهم عن حدود الفضيلة الإنسانية ليس شأنا فطريا فى الإنسان ، وإنما هو شأن يلحقه بسبب إثارة زخرف الحياة الدنيا ومظاهرها الكاذبة عن تلبية الحق حينما يظن أن تلبية الحق ستمنعه التمتع بهذا الزخرف الزائل ، فيفبد آيات الله ، ويعرض عن النظر فيها ، والإيمان بها ، والنزول على مقتضاها ، وبذلك يكون كن باع سلعة ثمينة قيمة ، تنفقه فى جميع شأنه ، بضمن زهيد لا غناء له فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وذلك قوله تعالى : « اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون » .

وإذا كان الذى دفعهم إلى هذه الحالة معكم هو شركهم الذى أوقعهم فيه فسقمهم وخروجهم عن حدود الفضيلة ، ومحبتهم الزخارف الفانية على المعانى الباقية - فهى حالتهم مع غيركم من كل مؤمن بما لم يؤمنوا به ، فهم قوم دلت عقيدتهم ، ودل تاريخهم معكم ، ودلت وجهتهم فى الحياة على فساد طبيعتهم ، وتنكرهم للحق وأهله ، وعلى أنه لا يرجى منهم مع بقائهم على الشرك ومقتضياته - لا لكم ولا لغيركم - وفاء ولا صدق ، لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون .

بينت هذه الآيات طبيعتهم بالنسبة للمخاطبين ، وبالنسبة لغير المخاطبين ، ورجعت بتلك الطبيعة الفاسدة إلى عقيدتهم الشركية الضالة ، وإلى محبتهم للعالمية محبة آثروا بها الفانى على الباقى ، وخرجوا بها عن حدود الفضيلة ، ولا ريب أن مثل هؤلاء لا ينبغى الركون إليهم ومعاذتهم ، كما لا ينبغى الاطمئنان على عهودهم القائمة ، وقد عُرف أن من طبيعتهم الغدر والخيانة .

فلا يصح لعاقل يريد خير نفسه وخير أمته ، بل يريد للحق أن يستقر فى قلوب الناس ، وأن تسطع أنواره فى أرض الله ، أن يفكر بأى وجه من الوجوه فى التعاقد مع أمثال هؤلاء ؛ فنبد عهودهم هو الحكمة التى ليس بعدها حكمة ، وهو الواجب الذى ليس بعده واجب .

طريقان :

بعد أن بينت الآيات الحكمة فى تقرير الأمر الأول ، وهو نبذ عهودهم ، رسمت لهم طريقين ، وفرضت لهم فرصين : إما أن يشعروا بما هم عليه من فساد وانحراف وشذوذ ، فيفكروا فى التوبة والإقلاع عما هم فيه من الشرك ومدنساته ، ويمدوا أيديهم للحق ، ويفتحوا قلوبهم للدعوة ، فيؤمنوا بالله ، ويندجوا فى جماعة المؤمنين ، يصلون كما يصلون ، ويذكرون كما يذكرون ، وإما أن يظلوا سادرين فى غلوائهم متنكرين للحق ، مستمرين على الضلال والبهتان ومحاربة الفضيلة . أمران ، أو فرضان لا ثالث لهما ، فإن جنحوا إلى الأولى وقاموا بشعائر السلم الحق

كانوا منكم : لهم ما لكم ، وعليهم ما عليكم ، وربطت بينهم وبينكم أخوة الدين التي تطهر القلوب من العداوة والبغضاء . وإن أبوا واستمروا على الأخرى فلا سبيل لكم معهم سوى القتال حتى يخضعوا للحق ، وينتهوا عن الشرك ، أو تطهر منهم أرض الله ، وفي هذين الغرضين اقرأ قوله تعالى من هذه الآيات :

« فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون . وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون . »

وبهذا انتهى توجيه الأمر الأول وهو تقرير نقض اليهود ، وتجيء الآيات الأخرى تبين الحكمة في الأمر الثاني وهو : « تقرير قتالهم إذا لم يتوبوا وبصيروا إخوانكم في الدين . »

في الهدف الثاني للسورة :

قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثأقم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل . ألا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شيء قدير . ألا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم . انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . »

هذه هي الجملة الأولى من الآيات التي نزلت شرحاً لنفسيات المسلمين حينما دعاهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم للخروج إلى تبوك بقصد غزو الروم ، وتتصل الآيات بعد هذه الجملة في هذا الشأن - كما قلنا - إلى آخر السورة .

الاحتكاك بين المسلمين والروم :

قبل التحدث عن هذه الآيات وما تضمنته من العظات والعبر ، والأحكام

والآداب ، يحسن بنا أن نستذكر ما أجهلناه من قبل ، فنرجع إلى صفحات التاريخ لنستلمح الخطوات والأسباب التي حملت بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم على دعوة المسلمين لغزو الروم .

معركة مؤتة :

في أواخر السنة السادسة بعد أن أمنت الطرق بصلح الحديبية ، أخذ النبي صلى الله عليه وآله وسلم يرسل كتبه إلى ملوك الأرض وأمرائها يدعوهم إلى الإسلام ، وكان من أنفذ إليهم كتاب الدعوة أمير بصرى ، أحد أمراء الروم ، ولما بلغ رسوله مؤتة ، وهي قرية من قرى الشام ، تعرض له شرحبيل الفسائي ، وعرف مهمته ، وعرف أنه من رسل محمد ، فأمر به فضربت عنقه ، وكان هو الرسول الوحيد الذي قتل من رسل النبي صلى الله عليه وآله وسلم وحامل كتبه ، وقد حزن النبي لمقتله حزناً شديداً ، وكان العرب والناس جميعاً متواضعين على أن قتل الرسول من أكبر أنواع الغدر التي تُشن الحرب لأجلها ، وهذا فوق ما توجه الحكمة في تأمين طريق الدعوة ، وقد قدر الروم أنفسهم أن محمداً وأصحابه لا يسيرون على قتل الرسول ، فأخذوا حذرهم ، وحشدوا من الروم ومتنصرى الغرب قوة يستأصلون بها أمر محمد ، وحينما علم الرسول بذلك جهز جيشاً يضعف به من حدة التأثير عليه ، الهازئين بدعوته ، وأنفذه إلى الروم ، فوجد الحشد على قوة واستعداد ، وكانت الموقعة المعروفة بموقعة مؤتة ، وقد استشهد فيها ثلاثة من قواد المسلمين عقد النبي لهم لواء الجيش على الترتيب ، وهم : زيد بن حارثة ، لجعفر بن أبي طالب ، فعبد الله بن رواحة ، وقال : إن قتل عبد الله بن رواحة فليرتض المسلمون لإمارتهم رجلاً من بينهم ، وفعلوا قتل عبد الله بن رواحة ، وهم بعض المسلمين بالرجوع ، ولكن بادرهم عقبه بن عامر بقوله : يا قوم : يقتل الإنسان مقبلاً خيراً من أن يُقتل مدبراً ، فراجعوا وافقوا على تأمير القائد ، سيف الله في أرضه خالد بن الوليد ، وبمهارته الحربية أنقذ جيش المسلمين - وكان عدده ثلاثة آلاف - من جيش الروم الذي كان عدده حوالى مائة وخمسين ألفاً .

غزوة تبوك وظروفها :

سلم الجيش ورجع إلى المدينة ، وكانت هذه الموقعة أولى المواقع بين المسلمين والروم ، وبعدها فتح المسلمون مكة ، ثم جاءت السنة التاسعة ، وتوالت الأنبياء للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بأن الروم جمعوا للمسلمين الجوع ، واعتزموا غزوم في بلادهم ، فأمر النبي أن يتجهز المسلمون ويأخذوا عدتهم ويخرجوا إلى تبوك لقتال الروم في بلادهم قبل أن يفاجئوه في بلده .

أعلن النبي التنفير العام ، وأعلن على خلاف العادة أن تبوك هي الوجهة التي يقصد ، ويعلم المسلمون أن بينهم وبين تبوك أربع عشرة مرحلة ، تقدر بنحو ٦٩٢ كيلو ، تقطع في صحراء جرداء ، يقل ماؤها ، ويحسف ضرعها ، ويشد حرها ، والعدو معروف بوفرة العدد وكثرة العدد ، وهو بعد في بلاده ، تسرع إليه المؤونة والذخيرة ، والوقت وقت نضج الثمار وجنيها في المدينة ، والمسلمون في أعقاب حرب الطائف وحنين .

أمام هذه الاعتبارات ، وفي المسلمين مؤمنون صادقوا الإيمان ، يضحون براحتهم وأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، وفيهم ضعفاء ، تهزم مشقة الطريق ، وشدة الحر ، وبعد الشقة ، والحرص على الثمار ، ورهبة العدو القوي . وفيهم منافقون ، أعلنوا الإسلام رغباً أو رهباً ، وسخروا في نفوسهم من محمد أن يدعو لقتال بني الأصفر ، وأخذوا يثبطون ، ويعتذرون ، ويشيرون الفتن والأراجيف ، ويدبرون الكيد ، ويضعون العراقيل .

أمام هذا كله سارع المؤمنون المخلصون إلى تلبية الدعوة بأموالهم وأنفسهم ، يجهزون الجيش ، ويعتدون العدة ، وقد خرج أبو بكر حيثئذ من كل ما يملك ، كما قام بنصيب الأسد في التجهيز عثمان بن عفان ، بذل الآلاف ، وجهز المئات من البعير والحمل ، وجهز هو وغيره الفقراء الأقوياء الذين جاموا إلى النبي بأنفسهم ليحملهم فقال لهم : لا أجد ما أحلکم عليه ، فتولوا ، وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون .

أما الآخرون ، فهم من استأذن الرسول في التخلف ، ومنهم من انتحل الأعذار ، ومنهم من أخذ يثبط همم الضعفاء من المسلمين ، ويشير الفتن والأراجيف . وعلى الرغم من كل ذلك فقد أكل الله لرسوله ما أراد ، وتم إعداد الجيش ، وخرج في رجب من تلك السنة يدفع بعضه بعضا ، وتتدافع جنباة في جوف الصحراء ، مشيراً أمامه ، وعلى جانبيه من النفع ، ما كاد يصل إلى القوم نبؤه حتى وقع الرعب في قلوبهم ، والذعر في نفوسهم ، والنكوص في نيتهم ، وآثروا الرجوع إلى بلادهم ، والالتجاء إلى حصونها خوفاً من سطوة المؤمنين الصادقين .

وصل الجيش إلى تبوك ولم يجد للروم أثرا ، وأقام بها أياما يتحدى بقوة الإيمان من تحدته نفسه بالزوال أو المقاومة ، وقد انتهر النبي الفرصة وأخذ يعمل على تأمين الحدود ، فعاهد أمراءها ، وأقام بهذه المعاهدات المعازل بينه وبين الروم ، ثم عاد الجيش إلى المدينة بعد أن حصن رقعة الإسلام من إغارة المغيرين ، ذلك التحصن الذي لم يفقه سره المنافقون ، أو فقوه ، وملأهم حقدًا وضيعة ، فأخذوا ينفثون سموم حقدهم وضيغتهم في ضعاف المسلمين ، وكان منهم ما كان من صور الكيد والإيذاء التي دبروها للنبي وأصحابه في الخروج وفي الذهاب ، وفي المدينة ، والتي لأجلها ، ولتطهير المسلمين من آثارها نزلت تلك الآيات ، وكانت هذه آخر أهبة ، وآخر خروج للغزو في حياة الرسول ، وهي وإن لم يحصل فيها غزو ولا جهاد ، فقد حصن المسلمون بها حدودهم ، وكشف الله بها عيوب المنافقين ، وأدب بها ضعاف المسلمين .

وقد ظل النبي صلى الله عليه وآله وسلم مشغولا بأمر الروم اعتقاداً منه أنهم لا يعدلون عن غزو المسلمين ، لجهز في آخر حياته لغزوهم الجيش الذي أنفذه من بعده صلى الله عليه وآله وسلم ، خليفته الأول أبو بكر رضي الله عنه بقيادة أسامة بن زيد ، وبه توالت الفتوحات الإسلامية في الروم والفرس ، وامتدت كلمة الله على معظم أجزاء المعمورة في عهد خلفائه الراشدين .

إنكار وتقريع للتشاغل عن دعوة الجهاد :

« يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثأقلتم... الخ . ينكر الله على المؤمنين تشاغلهم ، وإخلاصهم إلى الأرض حين دعوتهم إلى الجهاد ، ويسوق ذلك في صورة الاستفهام عما أصابهم وهم مؤمنون ، فألهمهم عن واجب الإيمان « ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثأقلتم إلى الأرض ؟ » (١) ، ثم يفترض ألا سبب يحملهم على ذلك التشاغل سوى ما لا يختاره عاقل ، وهو الرضا بحياة الذل والاستعباد ، عن حياة العز والقوة « أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ، فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل ، فتاع الدنيا متاع لا يسلم من تنغيص ، وهو بعد زائل ، أما متاع الآخرة فتاع العز والشرف ، وهو متاع دائم وكثير .

الامة كلها جيش :

ويدل توجيه الخطاب إلى المؤمنين عامة على أن الجيش في الإسلام هو كل الامة ، ولا يعنى من الجنديّة سوى من ذكروا في قوله تعالى : « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحو الله ورسوله ، حصر سبب المعافاة في الضعف بعجز أو شيخوخة ، وفي المرض ، وفي عدم القدرة على الإنفاق ، وهذا الأخير ، كان بحكم النظام السائد إذ ذاك من أن المجاهد يجهز نفسه ، وقد صار الآن إلى غير ذلك ، والدولة هي التي تجهزه .

وفي القرآن آيات تشير إلى كثير من قواعد التنظيم العملي للحرب ، وقد أوردناها في رسالتنا « القرآن والقتال » كما تحدثنا فيها عن سبب القتال في الإسلام ، وعن القوة المعنوية ، والقوة المادية ، وحث القرآن عليها توفيراً لأسباب النصر ، وفي سورة النساء والتوبة والأحزاب عناية تامة بتطهير الجيش من عناصر الفتنه والحذلان . وإذا كان الجيش في الإسلام هو كل الامة فتطهيره هو تطهير الامة .

(١) ضمن الفعل معنى الميل والأخلاق ، والأرض : إما متاع الدنيا أو أرضهم وبلادهم و (من) معناها : (يدل) ولم يذكر متاع الآخرة للدلالة على أن الآخرة لذاتها أبقي من الدنيا مع ما فيها من متاع .

ولنما بنى الفعل للجهد لجاه : إذا قيل لكم ، وإن كان القائل معلوماً وهو الرسول ؛ للدلالة على أن التأقل عن دعوة الجهاد في سبيل الله من أى داع كان لا ينبغي أن يكون من المؤمنين ، فيشمل الرسول وغيره من كل من يدعو إلى الجهاد في سبيل الله .

سر توجيه الإنكار إلى الجماعة وفيها المخلصون المسارعون :

ولعل سائلاً يسأل هنا ويقول : كيف يوجه هذا الإنكار ، وذلك التوبيخ إلى جماعة المؤمنين ، وفيهم من لبى الدعوة وبذل المال دون أن يتأقل ، ودون أن يؤثر متاع الدنيا على متاع الآخرة ، بل لبأها ، وأسرع إليها ، ابتغاء مرضاة الله ، وإعراضاً عن متاع الدنيا الفاني ، وليثأراً للمتاع الباقي .

وفى جوابه نقول : هو وإن كان إنكاراً وتوبيخاً لجماعة المسلمين إذ ذاك ، غير أنه تعليم عام ، وإرشاد شامل لجماعة المسلمين في كل مكان ، وفى كل عصر ، وهو بذلك يقرر شأناً للمؤمنين لا ينبغي أن يزايلهم ، وهو مسارعتهم لدعوة الجهاد وعدم الإخلال إلى الأرض ، وإذا كان المسلمون جميعاً في ذلك الوقت لا يصدق عليهم موجب هذا الإنكار ، فإن أطوار المسلمين التى أعقبت هذا الجيل الأول منهم قد تحقق فيها موجب ذلك الإنكار بالنسبة لجميعهم ، وما عهدنا الحاضر إلا أكبر مظهر من مظاهر التأقل التى انضوى تحت ظلها جميع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، فهو الآن خطاب لهم جميعاً ، وخطاب واقى بالنظر إلى ما صاروا إليه من التفرق ، وشتات الأمر ، وضعف السلطان ، اتاقلوا ، وأخلدوا إلى الأرض ، ورضوا بالحياة الدنيا من الآخرة .

على أن خطاب المؤمنين في ذلك الوقت ، وفيهم من لبى الدعوة ، دليل واضح على التضامن الذى يجب أن يكون بين المؤمنين ، وعلى أن تأقل نفر منهم محسوب على الجميع ، وأن جماعتهم مسئولة عن أفرادهم ، وهذا هو الشأن العام في التكليف الإلهية ، ومن هنا كان التواصى بالحق ، والتأمر بالمعروف ، والتناهى عن المنكر ، من المبادئ التى يشاد عليها صرح الحياة الإسلامية .

ومن هنا كان من وصايا القرآن : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » .

ومقتضى هذا وجوب تعهد الجماعة لمن يبدو عليه من أفرادها شيء من أمارات الضعف والتخاذل بما يقويه ويرفع من معنويته ، ويجعله عضوا عاملا قويا مخلصا في حياة الجماعة .

التذكير بنتائج التناقل عن الجهاد :

مضت سنة الله في هذه الحياة على أن البقاء ، والعزة ، والسلطان ، وعلو الكلمة ، إنما يكون للعاملين المجاهدين ، أما المتباطئون ، والمتناقلون ، الذين يؤثرون حياتهم ، ويضنون بأنفسهم وأموالهم ، ويخلدون إلى الأرض ، ويعرضون عن دعوة الجهاد في سبيل حريتهم وبقائهم ، فإنهم ولا بد ذاهبون ، وهم لا محالة مستذلون مستعبدون .

« إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ، يذلكم ويستعبدكم لغيركم : يسومكم سوء العذاب ، يستلب أموالكم ، ويقتلك أعراضكم ، ويذبح أبناءكم . وهذا التعذيب جزاء طبيعي للجبن وعدم القيام في وجه العدو وللتناقل عن الجهاد ، وليس هو الجزاء الآخروي الذي أعدّه الله لمن يخالف أمره حتى يقال : دلت الآية على أن الأمر بالشئ ليس مقتضاه سوى طلب الفعل ، أما العقاب عند الترك فلا يؤخذ من الأمر ولا يقتضيه ، وإنما يدل عليه بالخبر عنه ، كما تقول : إن لم تفعل عذبتك ، وكما جاء في هذه الآية . نعم هو كذلك بالنسبة للأوامر فيما يختص بالآخروي . أما آيتنا فهي تشير إلى الجزاء الطبيعي لعدم امتثال الأمر ، وهو لازم للأمر أخبر به أم لم يخبر ، ويدل على أن المقصود ما ذكرنا قوله فيما بعد : « ويستبدل قوماً غيركم ، فإنه صريح في ذهابهم والإتيان بغيرهم بدلا عنهم ، وكل ذلك في الدنيا . وليس معنى إذلال المتناقلين من المؤمنين أن يضيع الحق الذي رسم الله أن يكون بين عباده ، وبعث به رسله ، وأنزل كتبه ؛ فالحق لله ، وهو لا بد لحقه ناصر ، فإن لم ينصر بسواعد قوم رضوا بالحياة الدنيا ، وذهب بهم الضعف والخور ،

فسيهيء الله لحقه من يدعو إليه ، ويحافظ عليه ، وهذا ما يقصد من قوله تعالى بعد : « ويستبدل قوما غيركم ، يؤمنون بالدعوة ، ويؤمنون بوعد الله ونصره للمؤمنين ، ونظير هذا قوله تعالى في سورة المائدة : « يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين ، أعزّة على الكافرين ، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم » وقوله : « ولأن تولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » ووصف القوم بالغيرية للدلالة على المغايرة الذاتية ، أى قوماً مطيعين ، يؤثرون الدار الآخرة على متاع الدنيا ، والأسلوب يدل على شدة السخط عليهم ، كما يتضح من آية المائدة ، وآية : « ثم لا يكونوا أمثالكم » .

« ولا تضروه شيئاً » .

ورد مثل هذا في القرآن مخاطباً به النبي صلى الله عليه وآله وسلم :

« ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء » ، « فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً » .

وجاء منسوباً إلى الله : « ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً » وإلى المؤمنين : « وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً » .

وإلى العدد القادم إن شاء الله تعالى ٩

للعقول لا للعواطف

لمحاضرة صاحب السماحة العالم الجليل الأستاذ محمد نقي النقي

السكرتير العام لجماعة التقريب

بين أيدينا مشروع على جديد لدار التقريب ^(١) ، هو : « جمع الأحاديث التي اتفق عليها الفريقان - أهل السنة والشيعة - في مختلف أبواب الإيمان والعمل والأخبار والأخلاق ، وغير ذلك من أبواب السنة المطهرة » .

وهو مشروع جليل ، عنوانه يدل على جسامته ، وشموله يجعله الأول من نوعه ، وتعدد أبوابه يوضح مدى تأثيره في سير التقريب ، وفي اتجاه الدراسة والبحث مستقبلاً ، وفي تقوية الروابط العلمية والفقهية بين مذاهب المسلمين .

ونحن الآن لسنا بصدد شرح المشروع وتوضيح آثاره ، وإنما نحن بصدد الإجابة على سؤالين :

الأول : هل نحن إذ رسمنا هذا المشروع ، قدرنا ما يحتاج إليه من الرجال والوقت والجهود ؟ .

والثاني : ألم يكن نجاح دعوة التقريب في هذه المدة الوجيزة - التي تعتبر في عمر الدعوات كأيام - يغنينا عن هذا المشروع الذي يستغرق السنين الطوال ، ويتطلب الجهود الجبارة ؟ .

إن التفكير في الرجال هو الشرط الأول لنجاح أي مشروع ، بل إن التفكير في الرجال يجب أن يسبق دوره أي إعداد لأي مشروع . ولعل الله أراد لهذا السبب أن يكون التفكير في هذا المشروع بعد انقضاء سنوات من عمر التقريب ،

(١) نفرت رسالة الإسلام في العدد ٥٠ خير هذا المشروع في الأنباء والآراء ، تحت عنوان : « مشروع على جليل بين شلتوت والنقي » .

انتشرت فيها دعوته ، واجتذبت حولها خيرة العلماء والفضلاء في كل بلد من بلاد الإسلام ، وأظهرت كفايات لم يكن أصحابها يجدون مجالا للعمل فنجحوا إلى الصمت والانسواء ، وكشفت عن شخصيات لها في الدالم مكانة ، وفي البيان قوة ، وفي التفكير رشد وسداد ، هذا فضلا عن أعلام من ذوى الزعامة الدينية يشار إليهم بالبنان ، انضموا إلى هذه الدعوة ، وجعلوها رسالتهم الأساسية ، يؤدونها ابتغاء مرضاة الله ، ويخدمونها تثبيتاً لدين الله .

هؤلاء وأولئك هم رجال التقريب المنتشرون في كل بقعة من بقاع العالم الإسلامى ، وعليهم - بعد توكلنا على الله - نعتمد في تنفيذ هذا المشروع ، والنتيجة بعون الله وتأييده مضمونة ، فإن الله الذى هياّ الجو لدعوة التقريب فنجحت بفضل اخلاص هؤلاء الرجال وتقانيهم ، سيهيء الجو ويعين على تنفيذ هذا المشروع ، وسينفذ بإذن الله على مراحل ، وستوزع الأعمال على علماء الفريقين في مختلف البلاد . فلنا إذن أن نطمئن السائل الكريم .

أما عن سبب حاجة التقريب إلى مشروع ضخم كهذا ، رغم نجاح دعوتنا ، فإن نظرة واحدة إلى سير الدعوة يكشف عن سر نجاحها ، إنها نجحت لأنها جاءت على أساس علمي ، وجعلت البحث العلمى وسيلة لعلاج ما أرادت إصلاحه ، ولهذا السبب كانت محددة الأهداف ، بعيدة عن الارتجال ، بعيدة عن مسaire العواطف ، فإن السير على أساس من العلم والدراسة هو في نظرنا سبب النجاح .

إن التقريب الذى كان يوماً آملاً وحلماً في صدور المصلحين ، أصبح فكرة مدروسة ، ودعوة عالمية عالية ، وهو اليوم حقيقة واقعة ملبوسة .

فلنخص القول أن دعوة التقريب جاءت لتكون - في الإسلام - مدرسة فكرية علمية ، لها قواعدها وأسسها ، جاءت لعلاج التفكك والاضطراب اللذين سببهما سوء فهم الخلاف المذهبي على حقيقته ، جاءت لتضع الأمور في نصابها بالنسبة لآى خلاف ، فلم تحاول إجراء علاج مؤقت ، أو تخدير موضع المرض ، أو تهدئة الخواطر بكلمات معسولة ، وإنما جاءت لتكون مدرسة لها منهاج واضح ، وهدف محدد ، وشتان بين مدرسة فكرية تقوم على أسس مدروسة ، وقواعد محدودة ،

وبين خطب رنانة ومقالات عابرة ، وليس معنى هذا أننا نقلل من قيمة أى مجهود بذل ، فكل مجهود فردى سبقنا كان له تأثيره ، ولكن فى محيط محدود ، ولومن محدود ، وسيجزى الله كل مجاهد عن الإسلام بمقدار ما قدم ، ولعلنا انتفعنا كثيراً من تلك المحاولات الفردية ، بل إننا على ضوء تلك الجهود أدركنا أن وضع الدعوة على أساس علمى مدروس ، وعلى أكتاف رجال لم قيمة ومكانة يضمن لها النجاح الشامل ، كما يكتب لها الخلود ، لأن كل علاج على أساس عاطفى سرعان ما يزول .

إن إثارة العواطف أمر سهل ميسور ، وإن كلمة تلقى فى ظروف مناسبة كفيلة بأن تحرك العواطف وتهز القلوب ، لكن هذا التأثير بقدر ما يكون سهلاً سريعاً تزول آثاره بنفس السرعة والسهولة بزوال الظروف المؤاتية ، أو بطروء طارئ جديد ، والعواطف كما يمكن إثارتها لفكرة ما ، يمكن أن تثار على نفس الفكرة إذا هيئت ضدها ، وإذا فرض وأثرنا اليوم على فرد من الأفراد أو مجموعة من الناس ، فكيف نضمن غداً أن هذا الفرد أو هذه المجموعة لا تقع تحت تأثير من يخالفنا .

إن الرجل قد يكون من القوة الروحية والمنطقية بحيث يؤثر فيمن يستمع إليه ، إلا أن ذلك التأثير محدود طبعاً بزمانه وبسامعيه ، ومثل هذا لا يناسب دعوة تريد أن تبقى كأساس حتى يرجع إليه فى أى زمان ومكان ، فلا بد لها إذن من قواعد محددة ، وآثار ثابتة ، لتبقى كمرجع ثابت قوى ، ولعل هذا يفسر لنا سر الإيحاء إلى كل نبي من المرسلين بكتاب سماوى ، ليكون المرجع الثابت والاثر الباقي الذى يحكم الناس بقواعده ، ويرجعون إلى تعاليمه .

وكيف يمكن أن تعالج على أساس عاطفى مشكلة عمرت قروننا ، وملأت صحائف التاريخ ، وتحصنت وراء الأقلام المفرقة أحيانا ، والمأجورة فى أكثر الأحيان ، مشكلة رنخت فى النفوس أوها ما أصبح الناس يعتبرونها حقائق ثابتة .

تلك هى مشكلة تشكك كل فريق فى كل ما يصدر عن الفريق الآخر ، بل فى كل ما يعتقد به ، مشكلة بغض كل فرقة للآخرى ، واتخاذ البغض شعاراً يدفع إلى تصديق كل ما يقال فى الخصوم ، بل توهم كل ما ليس بحسن وإلصاقه بالخصوم .

ونحن لـمنا بصدد حالة الفريقين حين بدأت فكرة التقريب ، وكيف كان أهل السنة يعتقدون أن القرآن عند الشيعة يختلف عما هو عندهم ، وكيف كانوا يؤولون معاني العبادات ، حتى لكان الصلاة عندهم لم تكن لله ، وكان السجود لم يكن إلا للتراب ، وكان الحج لم يكن يقصد به إلا ما يجعل الإنسان من ذكره ، بل كانوا يرون أن الشيعة إن لم يكونوا يؤهلون علماً ، فإنهم على الأقل يرونه أحق بالنبوة من سواه .

وأما مطاعن الشيعة ، فأقل ما كانوا يقولون في أهل السنة أنهم مجسمة ، وأنهم نواصب ، وأنهم يكرهون أهل البيت عليهم السلام .

أما عن كتب هؤلاء وهؤلاء ، فقد انعدمت سنة الاطلاع فيها ، اللهم إلا لتصيد بعض الشواذ التي تستغل في التجريح وتوسيع شقة الخلاف بين الفريقين .

فهل كان للتقريب أن يرسم خططه على أساس ترك الرواسب كما هي ، وترك المسلمين كلا على رأيه ، واتخاذ طريق الخطب العاطفية ، والتودد المؤقت ، أم نفتح طريقاً للبحث والدراسة ، ونجعل شعاره القراءة والاطلاع لتعالج المشكلة على أساس مدروس يبقى على الزمن .

ولو أننا أخذنا المسألة من الجانب الأكثر يسرا ، وجعلنا العلاج على أساس من العاطفة ، لكان الطريق أمامنا سهلاً ، لكننا نكون مخدوعين إن حسبنا أن هذا علاج ناجع للمشكلة ، إننا بهذا ربما نخفيها حيناً ، لكنها بغير شك تبرز مرة أخرى حين تريد السياسات المفرقة أو الأغراض الذاتية .

ومع يقيننا من أن الدعوات العاطفية تمشي سريعة في الناس إن أمكن لإثارة عواطفهم ، والدعوات المنهجية تسير وثيدة بطيئة ، فقد اخترنا هذه دون تلك ، لأن الأولى تزول بزوال المؤثر ، والثانية تدوم بدوام الفكرة ، وفرق كبير بين جهد يبذل لإثارة العواطف ، وبين جهود كبيرة تبذل للإغراء بالدراسة والبحث .

ولذلك جعلت الفكرة على أكتاف مجموعة ممتازة من الرجال العاملين ، الذين بذلوا جهودهم ، وجعلوا الفكرة سمتهم ، فكان لهم تأثيرهم ، وانضم إليهم كل عالم

ومفكر ، واشتركوا جميعاً في حمل هذه الدعوة ، لأنها جاءت كدرسة فكرية تقوم على أساس على مدروس .

إن مدرسة التقريب ما جاءت لإزالة الخلاف ، بل جاءت للدراسة فقط ، والدراسة أظهرت أن هناك خلافات أوجدتها الكراهية ، وأقبل عليها المقبولون حباً في الخلاف ، وهذا النوع كان مصدر البلاء ، وسبب التقاطع والتدابير ، وهذا خلاف نأباه . وهناك خلاف في الرأي وخلاف حول الرواية ؛ يقوم لثبوت رواية أو عدم ثبوتها ، فلا بأس على الباحث المسلم أن يختلف مع غيره فيه ، ما دام الخلاف يحول في ميدان لا يضر الخلاف فيه بالإيمان ، وهذا الخلاف هو الذي نرضى به وترحب به مدرسة التقريب ، بل وتظهره حين ترى أن إبرازه يفتح آفاقاً علمية جديدة ، والخطوات المستمرة في التقريب جاءت واحدة تلو أخرى ، على هذا الأساس تواجه الحقائق ولا تتهرب منها ، لا تنسתר على خلاف ، ولا تنكر على المسلمين حقهم في أن يبحثوا وأن يختلفوا ما دام هذا مستمداً من دليل ثبتت دليлите شرعاً .

فالدليل لا بد أن يحترم ، من أى أفق طلع .

ومن المعروف أن دعوة التقريب لم تقم على أساس تنازل أى فريق عن جزء مما عنده لإرضاء للفريق الآخر ، ولا اجتذاب العواطف على حساب أى حقيقة من الحقائق ، أو على حساب تشويه التاريخ ، بل كانت دعوة صريحة تهتم بموارد الخلاف ، وكنا كلما تقدمنا في هذا الميدان ازداد إيماننا بأن الأكرية الساحقة تلتقي في كثير من نقط الوفاق .

فالمسلمون يتفقون في كتابهم ، وهو الأصل الأول ، وهو الذي بقي سليماً ، فلا يختلف مسلم مع مسلم على سورة أو آية أو كلمة « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ، وإذا كان هناك خلاف في تفسير آية ، فإن هذا يرجع إلى الاختلاف في ثبوت وعدم ثبوت ما روى من السنة .

وأما السنة فكما ذكرنا في مقالاتنا مراراً ، وكما ذكر في رسالة الإسلام أخيراً ص ٢١٨ ، ٢٢٠ من العدد ٥٠ : « إن جميع المذاهب الإسلامية تؤمن بالسنة النبوية المطهرة كمصدر مقدس من مصادر الشريعة ، مثلها في ذلك كمثل القرآن الكريم ،

فليس لمسلم أن ينكر حجية السنة شيعياً كان أو سنياً ، وليس في هؤلاء وهؤلاء من يقول : هذا الحديث صحيح وروده عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومع ذلك فلا أعمل به ، ولست ملزماً شرعاً بالعمل به ، ولكن ربما يقول قائل من هؤلاء أو هؤلاء : هذه الرواية لم تصح عندي فأنا لا أعمل بها ، وإتنا لنرى هذا بين علماء أهل السنة أنفسهم في مختلف مذاهبهم ، كما تراه بين علماء الشيعة في نطاق المذهب ، ومع المذاهب الأخرى ، فكم من أحاديث صححت عند فقيه ولم تصح عند آخر ، وكم من أحكام فقهية خلافية انبنى الخلاف فيها على موقف كل من قبول حديث معين أو عدم قبوله .

والواقع أنه لا غشاضة في ذلك ما دام الإخلاص هو رائد الجميع ، وما داموا كلهم مؤمنين بالسنة كأصل من أصول التشريع ، وبأنه لا يجوز لمسلم أن يرفض ما صح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

ويتلخص هذا المبدأ المسلم به عند الفريقين في أن الاختلاف ليس واقعاً في كبرى القياس ، وإنما يقع أحياناً في صفراء ، فإذا قلنا في قياس من الشكل الأول عند المناطق : هذا الأمر قد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وكل ما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يجب العمل به . كان معنا مقدمتان ، الأولى منهما : هي المعروفة عند المناطق بالمقدمة الصغرى ، والثانية : هي المقدمة الكبرى ، فإذا سلمت المقدمتان صححت النتيجة ، وهي هذا الأمر يجب العمل به .

فالمسلمون لا يختلفون في المقدمة الكبرى التي تقول : كل ما ثبت عن رسول الله يجب العمل به ، بل كلهم يؤمن بها إيماناً لا يعتريه الشك ، وكلهم يعتبر هذا الإيمان ركناً أصلياً من أركان الإسلام ، من شذ عنه خرج من ربقة الإيمان .

لكن الخلاف حين يوجد إنما هو في المقدمة الصغرى التي تقول : هذا الأمر ثبت ورووه ، فيقول بعضهم نعم ثبت فأقبله ، ويقول بعضهم لم يثبت فأنا لا أقبله . ولذلك اشتهر بين علماء المناظرة قولهم في بعض الأحيان : هذا الخلاف صغرى لا كبرى ، أو خلاف في الصغرى دون الكبرى ، هذه حقيقة ، وهناك حقيقة أخرى تؤمن بها ونعمل على تجليتها وتدعو الناس إلى الإيمان بها :

تلك هي أن العدد الأكبر مما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في شئون العقيدة والشريعة والأخلاق وسائر الجوانب التي جالت في ميادينها السنة المطهرة قد اتفق عليه كلا الفريقين ، فهو وارد عن طريق صحيح يرتضيه كل منهما ، أو وارد من طريقين لهؤلاء وهؤلاء تطابقا عليه لفظا أو معنى ، وأنه لا يوجد خلاف إلا في العدد الأقل من أحاديث الأحكام أو الأخبار ، وليس هذا العدد الأقل من حسن الحظ في الأصول التي لا يكون المسلم مسلما إلا بها .

ورغم هذا الذي يعنى أن المسلمين متفقون كبرويا على السنة ، ويعتبرونها الأصل الثاني للأحكام من غير منازع ، وصغرويا على إثبات كثير مما روى باعتباره من السنة على اختلاف الرواة ، إلا أن الشكل الذى أخذه يعطى صورة للخلاف . كل فريق له صحاحه - أى كتبه التي تعتبر صحاحا في نظره - وصحاح هذا الفريق غير صحاح ذاك الفريق ، وبهذا يأخذ مظهر الصنفين المتخالفين ، وأى مظهر من مظاهر الخلاف أكثر من هذا ؟ لو كان ما في الصنفين من الصحاح مختلفا كل الاختلاف ، لقلنا نحن على اختلاف واسترحنا ، ولكن الدارس لصحاح كلا الجانبين يرى أن الروايات الوفاقية هي التي كبرت في الغالب أحجام تلك الصحاح ، وكم هو مؤسف أن مظهرًا يمكن أن يستفاد من وفاقه ، يعطى صورة الخلاف المطلق ، كل صنف منعزل عن الآخر ، ودارس هذا غير دارس ذاك ، اللهم إلا أن يقصد الدارس اصطیاد شاذ ليهاجم به الآخر كسند يمكن أن يعتبر نقطة ضعف ، وعلى سبيل المثال في الأحكام ، هذه الصلاة ، وهذا الصوم ، وهذا الحج ، وغير ذلك من العبادات التي نحمد الله تعالى على أن المسلمين اليوم يعرفون أنهم متفقون فيها ، وإذا كان هناك خلاف مثلا في الصلاة فلا يتجاوز مسألة الجهر والإخفات بالبسلة ، أو وضع اليدين أو إرسالها الذي هو موجود بين مذاهب أهل السنة نفسها ، مع أن مجموعة الأحكام في الصلاة تبلغ المئات .

هل ورد في الكتاب الكريم بشأن هذه العبادات أكثر من آية أو آيات معدودة كأقم الصلاة ، أو كتب عليكم الصيام ، أو والله على الناس حج البيت ، مع ترك

الشرح والتفسير وبيان الأركان والشروط والواجبات وما يستحب : للسنة ، وإذا لم تكن السنة بطريقها في الروايات متفقة ، هل كانت هذه الشعائر تؤدي بالصورة الوفاقية ؟ .

فالروايات إذن مع اختلافها من حيث الطرق متفقة على إثبات ما هو المهم في الأحكام ، وإذا بدأ التقريب يجمع ما هو متفق عليه ، فهذا فضلاً على أنه يتمشى مع مبدئه ، فإنه لا يمس التراث الإسلامى بحذف أو تعديل أو تحريف ، فهو يرى أنه مع بقاء صحاح كل فرقة على ما هي عليه إذا جمع ما هو متفق عليه بين الصحاح تظهر النتيجة ، بحيث يجد المسلمون فيها عجايباً ، فيصبح ما يتصورونه السند القوى للخلاف خير برهان للوفاق ، ونتخلص بذلك من كثير من محاولات التبعيد والتقطيع ، وفي نفس الوقت ، فإن الروايات الخلافية تبقى في دائرتها الخاصة ، وهي محدودة طبعاً ، ويسهل على الدارس أن يتعمق في الروايات التي ينفرد بها فريق دون آخر ، هذا وإن الروايات الشاذة عند فريق يوجد في الغالب مثلها عند الفريق الآخر ، وتعتبر شاذة في نظر مخالفيه .

إننا لا ننكر أن التعصبات عملت عملها ، والأغراض دخلت بأشكالها ، والمذهبية لعبت دورها في رواية الأحاديث ، وأنه أدخلت أقوال رجال كان من الأفضل التدقيق فيهم ، وأبعد رجال بداعي طعن أو استناداً إلى طعن هو عند المحقق يعتبر مما يثبت جدارته للأخذ عنه .

ونحن في التقريب على مبدئنا ، نتم بحفظ التراث ، وعدم إدماج بعضه في بعض ونهتم باطلاع المسلمين على الوفاقيات بينهم ، وتخرج ما اتفق عليه الفريقان . والدراسة ستحكم ، وسيترتب عليها من الخير للمسلمين ، والربط بين قلوبهم ، والتقريب بين مذاهبهم ما سوف يسجله التاريخ .

إن التعصبات احتجرت كثيراً مما في هذه الكتب ، بحيث إن بعض أصحاب المذاهب حينما يسمعون شيئاً - وهو عندهم - يبدو وكأنه غريب لم يسمعوا به من قبل ، ولعل القارئ اقتنع معنا أن للتقريب كدرة فكرية إسلامية أن يطرق هذا الباب رغم ما يتطلب من جهود ووقت ورجال ، وذلك بعون الله ٢٤

حَوَلِ الْمَعَادِ (*)

لمحاضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد مهوود مغنیه

رئيس المحكمة الشرعية الجعفرية العليا ببيروت

حديث المعاد :

إن إثبات المعاد سهل يسير على من يؤمن بالله وقدرته ، وعلمه وحكمته ، وصعب على الكافرين غير يسير . صعب أن يتصوروه فضلاً عن التصديق بوقوعه ، وأشد صعوبة من تصورهم له إقناعهم بالمنطق ما داموا يرفضون سلفاً الإيمان بالله .

ولإذا أردت أن تقنع المعاند ، فبأية وسيلة تقنعه بعدالة الله ، وهو يكفر بذات الله !؟ . وأى معنى لحديثك معه ، وقولك له : هذا حلال ، وذاك حرام ، والتجانب خير ، والتباغض شر ، والصدق فضيلة ، والكذب رذيلة في الدين والشريعة ، وهو لا يؤمن بدين ولا شريعة ، ولا بخلق ولا فضيلة ، ولا بشيء إلا بذاته ، وما يحقق لها المنفعة واللذة !؟ .

الله والخير :

في الفصول الأولى أقننا البراهين على وجود الله ، وقدرته وعلمه ، والآن - ونحن نقف مع منكرى المعاد - نعود مرة أخرى إلى التوحيد والعدل بأسلوب أقرب وأوضح ، لأن إثبات المعاد يدور عليه ، ويتصل به أوثق اتصال ، ومن هنا رأينا القرآن الكريم يعود إلى قدرة الله ، ويبالغ في كمالها كلما ذكر الدلائل على المعاد .

ولا أدري لماذا يأتي الجاحدون الاعتراف بالله ، ويتوجسون خيفة من ذكره ؟ مع أن الإيمان بالله يفرض أول ما يفرض أن الله سبحانه قد وهب الإنسان

القدرة على التمييز بين النجدين : الخير والشر ، وأنه مأمور بترك هذا ، وفعل ذاك ، ومسئول عن أقواله وأعماله أمام الله والناس ، ومجازى عنها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، ومطالب بأن يعيش مع غيره بالتحابب والتعاون .

إن الإيمان باقه هو الإيمان بالإنسانية ، وليست العدالة الاجتماعية إلا تطبيقاً للعدالة الإلهية ، إن الذين يكفرون بالله يكفرون بالحق والخير والعدالة ، وبالعلم والأقل من حيث لا يشعرون ولا يريدون ، قال الفلاسفة الإلهيون : « إن الله هو العقل الأكبر ، وبديهة لا يصدر عن العقل إلا ما كان معقولاً .

حقيقة الدين :

ونعلمنا كلمة صريحة واضحة لا مجاز فيها ولا تأويل أن كل ما يباه العقل بأباه الدين ، وكل ما يقره العقل يقره الدين ، وكل ما فيه الخير والصلاح فهو من الدين في الصميم ، وإذا شذ رجال الدين واللاهوت عن هذه القاعدة فإنما يشذون عنها جهلاً أو نفاقاً ، وقد خرجت من تتبعي لكلمات الملحددين ، وأنا على بينة من أنه لا سبب لزرعهم الإلحادية إلا الجهل بالدين وحقيقته ، وإلا أنهم رأوا من يحترف به ، ويتخذونه وسيلة للعيش ، فظنوا أنه القائد الأوحى والمصدر الحق لكل ما يمت إلى الدين بسبب ، وما دروا أنه أعدى أعداء الدين ، وأضر عليه من الملحددين ^(١) .

إنى آمنت وأيقنت أن إلحاد الملحددين لا سبب له إلا فهمهم الخاطئ لمفهوم الدين ، ولا شيء أدل على ذلك من قولهم : إن الدين حجر عثرة في طريق التقدم ، فهم ينظرون إلى الدين كوسيلة للجمود والركود ، والتقهقر والانحطاط ، ولاستكانة الضعيف والفقير ، وتسلب القوى والعنى ، أما إذا تبيينوا وتيقنوا أنه قلب لعالم ينبض بالحياة والخيرات ، وروح تبث الإنسان على أن يعمل للدنيا كأنه يعيش

(١) قال صدر المتألهين في كتاب « المبدأ والمعاد » : « إن هؤلاء لم تصف قلوبهم ، ولم تخلص طوياتهم من الشهوات والأهواء ، ولا يفيدهم الذكاء شيئاً ما داموا متهاككين على الجاه والقرب من السلطان ، كما نراه من علماء هذا الزمان . توفي هـ ١٠٥٠ هـ ، ولو كان في هذا العصر لوضع كتاباً خاصاً بالمعدين وأصحاب القلائس الذين يتسكمون على أبواب الزعماء . يضامى كتاب الأسفار .

أبداً ، وثورة على الجهل والمرض والفقر ، أما لو تبنينا ذلك لعدّلوا موقفهم من الدين ، ولم ينطقوا بكلمة الجهل والكفر .

وكما تدل كلماتهم على الجهل بالدين وأحكامه ومبادئه ، فإنها تدل في الوقت نفسه على إيمان بعضهم بالقيم التي يدعو إليها ، ولكثهم لا يشعرون ، إن نداء الحق والخير والجمال هو نداء الله بالذات ، وسمع هذا النداء حزمة من الماديين ، ولكثهم زعموا أن المنادى هو المادة الخرساء ، وهنا مكان التناقض والتخبط ، قال غاندى : « مامن إنسان يستطيع أن يعيش بغير ديانة ، ولكن هناك من يعلنون منساقين بأنانية منطقتهم بأن لا علاقة لهم بالدين ، وإن مثلهم في ذلك مثل الذي يقول : إنه يتنفس ، ولكن ليس له أنف »^(١) ، وقال « بلوندل » : « لو نفذنا إلى أعماق ظلمات الشعور الإنساني لما وجدنا ملحدين بمعنى الكلمة » .

قانون العدالة :

لا بد - أيها القارئ - أنك رأيت أو قرأت أو سمعت بجرمة ارتكبتها مجرم آثم ، وأنت أحسست بقشعريرة في بدنك . واشتمتاز في نفسك ، ورعدة في فرائصك ، وتمنيت من صميم قلبك أن يلقي الآثم جزاء عمله ، فما هو السر لهذا - يا ترى - ؟ هل في أعماق كل منا حاسة مهمة تبعثنا على الإيمان بأن لكل جريمة عقاباً ، وأنه لو أعتى المجرم من العقوبة والقصاص لم يكن للعدالة عين ولا أثر ، لا في الأرض ولا في السماء ١٩ .

إن فطرة الناس ، كل الناس ، لا تحتل وجوداً بلا عدالة ، ولا تتقبل ضمايرهم أن يمزق القوى الضعيف تمزيقاً دون أن يحاسب أو يعاقب ، ودون أن يسأل عن شيء ، إذ لا بد من يوم يجتمع فيه الناس لدى حاكم عادل يفصل بينهم بالحق ، وهم لا يظلمون ، لا بد من محكمة يقف فيها الجميع ، كي تتفق الفطرة مع الواقع ، ومع قانون العدالة ، وإلا انتفت الحكمة من وجود هذه الفطرة الصافية ، وكان المحسن أسوأ حالا من المسيء ، والظالم أفضل من العادل ، والرجس خيراً من الطهر ، وكانت

(١) قصة حياتي : لنهرو .

شريعة الغاب قسطاً وعدلاً ، وبما عداها من الشرائع ظلياً وجوراً ، قال إفلاطون :
 « لو لم يكن لنا معاد نرجو فيه الخير لكانت الدنيا فرصة الأشرار » .

وبالتالي يكون الوجود محض الشر ، والعدم محض الخير ، وهذا عين ما يقوله
 الجاحدون ، أو هو لازم قهري لما يقولون . . . وصدق الله العظيم الذي أنزل على
 نبيه الكريم : « ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ،
 لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون » ، ٢٠ / الحشر .

الوقوع فرع الإمكان :

إذا قال لك قائل : رأيت في بعض البلاد نباتاً يتكلم العربية الفصحى ، أو قال :
 إنه رأى أعمى يميز بين الألوان ، فإنك لا تردّد في رد قوله هذا دون أن تطلب
 الدليل على صدقه . إذ ليس من شأن النبات أن يتكلم ، ولا من شأن الأعمى أن
 يبصر ، أما إذا حدثك عما يمكن وقوعه ، كما لو قال : قطعت المسافة بين بيروت
 وباريس في ست ساعات فإنك لا تجد أية غرابة في ذلك ، لأنه جائز ويمكن في ذاته
 فرحلة الوقوع والحدوث خارجاً تتوقف على مرحلة الإمكان ، فإذا سمعنا بحادثة
 ينبغي أن ننظر أولاً هل حدوثها ممكن ؟ فإن رأينا كذلك ، انتقلنا إلى المرحلة
 الثانية ، ونظرنا هل هي واقعة ؟ أي هل هناك دلائل تدل على الوقوع ؟ فإن كانت
 آمناً بوجودها ، وإلا لم نحكم بشيء إيجاباً ولا سلباً ، ونظير ذلك ما قاله الفقهاء في
 باب القضاء من أن لسماع الدعوى شروطاً ، منها أن يكون المدعى به ممكن الوقوع ،
 أما إذا كان محالاً ، فلا يقبل من المدعى أن يثبت المحال ، مثال ذلك أن يدعى شخص
 على آخر أنه يستحق عليه أجرة ثلاثين يوماً ، لأنه عمل عنده من أول شهر شباط
 إلى آخره ، فلا يقبل منه ، والحال هذه ، أن يثبت أن شهر شباط ثلاثون يوماً ،
 فالأصل في تصديق أية قضية من القضايا دينية كانت أو زمنية أن تكون ممكنة في
 ذاتها ، يجوز في نظر العقل أن تحدث ، وأن لا تحدث ، أما إذا كانت ممتنعة في ذاتها
 فلا تقبل ، ولا ينظر في صحتها من الأساس .

والآن وبعد هذا التمهيد يتبين معنا أن إثبات المعاد يتوقف - أولاً - على إمكانه
 في ذاته ، وجواز وقوعه في نظر العقل ، فإذا أثبتنا ذلك هان أمر الوقوع ، وكان

لإثباته سهلاً يسيراً ، أما إن كان المعاد ممتنعاً ومستحيلًا في ذاته فترفض الفكرة من البداية ، ولا ينظر في صحتها بحال من الأحوال ، لذا نحصر البحث في هذه النقطة ، وهي إمكان المعاد في نظر العقل ، فإن لم نجد مانعاً عقلياً من الإمكان انتقلنا إلى الكلام عن الوقوع .

دلائل الإمكان :

إن معنى المعاد هو إيجاد عالم آخر مماثل لعالمنا هذا ، يجتمع فيه الناس من الإنسان الأول إلى آخر إنسان ، وعقدنا هذا الفصل للنظر في أن المعاد بهذا المعنى هل هو ممكن الوقوع ، أو ممتنع ولا يمكن أن يقع بحال ؟ .

وإذا رجعنا إلى فطرة الله التي فطر الناس عليها ، وجدنا أن إثبات الإمكان بهذا المعنى لا يحتاج إلى تجشم وتكلف ، ولا إلى التطويل والإطناب بذكر المقدمات والتهديدات ، فيكفي أن تلقى نظرة إلى خلق هذا الكون ، وفي ضوئها ننظر إلى إمكان المعاد . وليس من شك أن عالمنا هذا موجود ، وحاصل بالفعل ، وبديهة أن الوقوع فرع الإمكان ، إذ لو كان ممتنعاً لما وجد ، وإذا كان هذا العالم ممكناً فإيجاد عالم مماثل له يكون ممكناً أيضاً بالضرورة ، لأن وجود أحد المتماثلين يدل على إمكان وجود المماثل الآخر ، وإلا لم يكن مماثلاً ، وهو خلاف المفروض ، ولو سألنا إنساناً عادياً : هل يستطيع باني هذه الدار أن يبنى مثلاً ؟ لاستغرب هذا السؤال ، لأن جوابه معه ، ويدل عليه بنفسه .

وبالتالي ، فإن إمكان الشيء في ذاته ، أي جواز وقوعه وحدوثه في الخارج يعلم من وجوده في الخارج ، أو من وجود نظيره ، أو من وجود ما هو أبعد عن القدرة منه ، فإذا كان الأبعد ممكناً فالأقرب أولى ، لأن من بني قصرًا يكون بناء الكوخ عليه أيسر ، وإيجاد عالم آخر إما نظير ، وإما أيسر ، وعليه يكون ممكناً ، وهو المطلوب .

الماديون :

وقد يقال : يصح هذا المنطق عند من يرى العقل أساس المعرفة ، ويفرق بين الموجود إلى ما هو بالقوة وما هو بالفعل ، ويقسم الوجود إلى الوجوب والامتناع

والإمكان ، لأن العقل يقر هذه الأفكار ، ويحكم بصدقها ، وإن لم تستند إلى الحس والتجربة ، أما الماديون الذين يقيسون صحة الفكرة بالانطباعات الحسية ، وبالصورة عن الشيء الموجود بالفعل ، فلا حجة عليهم في تصورات العقل ، وإدراكه بأن هذا الشيء لا مانع من حدوثه فيما بعد .

الجواب :

إن الاختلاف بيننا وبين الماديين في وجود المبدأ الأول للكون ، وفي أمر المعاد ، وغيرهما من القضايا الدينية ينحصر في هذا النقطة : هل التجربة هي السبيل الوحيد للمعرفة ، أو يوجد سبيل آخر لها ؟ .

وقد تخلى الماديون عن أبسط القواعد الأولية وأوصفها ، وأنكروا كل ما لا يدرك بالطعم والشم والسمع والنظر واللمس ، ولا تتأله آلات المعامل والمختبرات ، فآله بزعمهم غير موجود ، وإن قام على وجوده ألف برهان عقلي ودليل منطقي ، لأن أجزائه وأعضائه لا تحلل في المختبر والمصنع .. والمعاد باطل ، لأنه لم يوجد في الماضي ، ولا هو موجود في الحاضر .. وبكلمة كيف يؤمن الماديون بالجنة ونعيمها ، ولم يذوقوا لها طعماً ؟ وكيف يعتقدون بجهنم ، ولم تصلهم بعد بنارها ؟^(١) وفيما سبق قدمنا الأجوبة المقنعة ، ونعود هنا مرة أخرى كمادتنا مع الماديين ، لنلقى عليهم هذه الأسئلة :

هل إنكاركم لله والمعاد ، وللعقل وأحكامه يستند إلى التجربة في المختبرات ؟ وإذا كان الإيمان بالله واليوم الآخر وهما زائفاً ، لأنه لا يستند إلى التجربة ، فهل كفركم بالله واليوم الآخر يستند إلى التجربة والتحليل في المختبرات والمصانع ؟ ثم إيمانكم بأن التجربة هي السبيل الوحيد إلى المعرفة هل يستند إلى التجربة أو إلى العقل ؟ . وعلى الأول يلزم أن تفتقر التجربة إلى تجربة ، وتتسلسل إلى ما لا نهاية .. وعلى الثاني يبطل قولكم بأنه لا سبيل إلى المعرفة إلا التجربة ..

إن المعرفة - أي أيا كان مصدرها ، سواء أكانت التجربة ، أو المشاهدة ، أو الوحي ،

(١) وأجابهم البعض بأن إنكاركم هذا كإنكار العقل لذة الجماع الذي لم يباشره بعد .

أو الإجماع - لابد أن تنتهي إلى بديهية العقل ، وإلا كانت جهلاً وتضليلاً . . . إن جميع أدوات المعرفة تستعين بالعقل ولا تستغنى عنه بحال ، ولولاه لم تكن شيئاً ، أما العقل فيستغنى عن غيره في أحكامه العقلية المحضة ، كحكمه بأن الواحد لا يكون قديماً وحادثاً ، وأن النقيضين إذا صدق أحدهما كذب الآخر ، وأن الاثنين أكثر من الواحد ، وما إلى ذلك من الحقائق التي لا تمت إلى الحواس والتجربة بسبب . . نقول هذا ، مع العلم بأن حديثنا هذا لا يجدى الماديين شيئاً ، لأنه حديث العقل ، والعقل يزعمهم غير موجود ، لأنه ليس موضوعاً من الموضوعات التجريبية .

أجل ، إن المعاد لم يقع بعد ، بل لا ندرى متى يكون ^(١) ، ولكن أهل العقول النيرة قد أجازوا وقوعه ، ولم يقل واحد منهم باستحالته ، بل استعدوا له ، واتخذوا جميع الاحتياطات من أجله ، تماماً كما تستعد الدول المتحضرة ، وتتخذ جميع الاحتياطات تجنباً لما يمكن أن يحدث من الكوارث ، كالزلازل ، وما إليها من ظواهر الطبيعة .

القرآن والجاحدون :

وهذا الدليل العقلي الذي اعتمدناه لإمكان المعاد نص عليه القرآن الكريم بآيات ، عليها طابع النقاش والجدل العلي مع منكري البعث والنشور ، فبعد أن ذكر الكتاب العزيز شبهة الجاحدين ، والأدلة التي استندوا إليها في جحودهم ، رد عليهم بمنطق العقل والواقع : « قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحياها أنشأها أول مرة » ، وهذا تعبير ثان عن طريقة النجفين والأزهريين ، حيث يسردون جميع الآراء ، ثم يحصونها بأسلوب « إن قلت . . قلت . . » .

وليس من شك أنهم اقتبسوا أسلوبهم هذا من كتاب الله الذي يجادل بالحكمة والموعظة الحسنة . ونكتفي هنا بآية من تلك الآيات التي تتصل بالمعاد ، وجادلت الجاحدين له بالنظر وتأمل العقل ، قال تعالى مشيراً إلى شبهة القوم : « وقالوا إذا

(١) يثبت العقل أن المعاد ممكن الوجود في نفسه ، أما تعيين وقته فلا يمكن إثباته من طريق العقل ، فإن وجد دليل السمع أخذنا به ، وإلا يبقى علمه عند ربي . والآية الكريمة التي نصت على أنه قريب يراد بها الوقوع الأكيد ، لأن كل آت قريب .

كنا عظاماً ورفاتا إنما لمبعوثون خلقاً جديداً ، ٤٩ / الإسراء ، أى أن الإنسان إذا مات جفت أعضاؤه ، وتفرقت ، واختلطت بغيرها من أجزاء العالم ، فكيف يعقل والحال هذه ، أن تجتمع ثانية بأعيانها ، وتعود إليها الحياة ١٩ .

وأجاب سبحانه عن هذه الشبهة بقوله : « قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة فيسبغضون إليك رموسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريباً ، ٥١ / الإسراء .

والمعنى أنكم - أيها المجاهدون - مهما استبعدتم الحياة بعد الموت فإن الأمر حين يسير ، حتى ولو كنتم حجارة أو حديداً ، لا تراباً أو رفاتا ، بل حتى ولو كنتم « خلقاً مما يكبر في صدوركم » ، أى أشد وأصلب من الحجارة والحديد فإنكم معادون بعد الموت لا محالة ، فإن الذى قدر على إنشاءكم أول مرة ، وأوجدكم من لا شيء فهو على إعادتكم أقدر .

رأى الجاحدون تلف الأبدان ، فأنكروا الإعادة ، فقطع الله سبحانه حجتهم بالبرهان ، فلم يبق لديهم إلا السخرية وهز الرموس ، وإلا أن يرددوا أسئلة لا تتصل بموضوع البحث من قريب أو بعيد . قال الرازى : « إن سؤالهم : متى هو فاسد ، لأن الكلام فى إمكان المعاد ، لا فى زمان وقوعه . . وهذا شأن من يعاند الحق ، يتهرب من الحجة ومنطق الواقع إلى السفسطة والمغالطة .

العلم والمعاد :

لقد اكتشف العلماء حقائق كانت - إلى زمن قريب - أبعد من المعاد ، فأصبحت اليوم من الضرورات الأولية عندهم وعند غيرهم ، من ذلك تحول المادة إلى الطاقة ، والطاقة إلى المادة ، أى أن الأشياء المادية المحسوسة تستحيل إلى أمور معنوية ، وبالعكس (١) . قال « جايمس ب كوننت » فى كتاب « غذنا والذرة » ،

(١) حاول مالك بن نبي فى كتاب « الظاهرة القرآنية » ص ١٩٠ أن يبطل بهذه النظرية النظرية القائلة : « لا شيء يوجد من العدم ، ولا شيء موجود يدخل فى العدم » . ونحن وإن كنا نؤمن بوجود شيء من لا شيء ، وأنه لا سبب للبداً والمعاد إلا قوله تعالى : « كن فيكون » إلا أننا لا نوافق مالكا على أن الطاقة عديم محض ، بل هى نحو من أنعم الوجود بدليل أنها تؤثر فى الشيء الموجود ، وبديهية أن العدم لا يتأثر ولا يؤثر .

ترجمة عفيف بعلبكي : « إن إبادة هورشيا إنما كانت نتيجة لإبادة مقدار صغير من المادة تحولت إلى الطاقة التي حولت مدينة بكاملها إلى أنقاض . . إن أهم تبدل في المشهد العلمى هو قبول تحول المادة والطاقة . »

و « منها ، أن العلماء كانوا يرون أن المادة متماسكة الأجزاء ، ولا فراغ في داخلها ، ثم تبين لهم بالتجربة أن أشد المواد صلابة كالحديد مؤلف من ملايين الذرات المنشورة في فراغ أثيرى ، وأن بين كل ذرة وذرة مسافة كبيرة من الخلاء ، بل حتى الذرة نفسها مؤلفة من هباء مغلغل ، تدور حولها كهارب في فلك أثيرى خلو من أى شئ . . وقالوا - أى العلماء - : لو أمكن كبس الكرة الأرضية وضغطها لأصبح بالإمكان أن توضع الأرض بكاملها في كيس متوسط الحجم ويحمله الإنسان . »

ونحن لا ندعى أن نهاية العالم ولعاداته سوف يكون بتحويل المادة إلى الطاقة ، ثم تحويل الطاقة إلى المادة ، ولا بالضغط عليه ، حتى يصغر حجمه ، ثم ينتشر ، كلا ثم كلا ، فإن علم ذلك عند خالق الكون وحده ، وإنما غايتنا الأولى والأخيرة أن تثبت إمكان المعاد بوجود الأشياء والنظائر ، وأن نقول للجاحد الذى لا يملك غير الاستبعاد والاستغراب : إن المعاد أهون بكثير من تحويل المادة إلى طاقة ، وتحويل الطاقة إلى المادة ، وأيضاً أهون من جعل الأرض في كيس متوسط الحجم ، دون أن ينقص منها شئ ^(١) . . ومن يدرى ؟ فقد ثبت العلم في المستقبل القريب أو البعيد إمكان الضغط على الأرض بطريق من الطرق ، حتى تصير بحجم البيضة ، أو دونه ، بحيث يمكن إدخال الأرض في البيضة بيسر وسهولة ؟

(١) هذه أحدث نظرية اكتشفها الغرب ، وقد جاءت الإشارة إليها عرضاً واستطراداً في كتاب « المبدأ والمعاد » لصدر المتألهين ص ٢٩ طبعة إيران بالحجر سنة ١٣١٤ هـ . قال ما نصه بالحرف : « ليس من شرط الأرض أن تكون صورتها هذه الصورة الأرضية - أى الحالية - بل يجوز انقلابها من الأرضية إلى أجسام أخر ، أى أن بقاء الأرض على ما هي عليه الآن ليس ضرورياً ، بل من الجائز أن تتغير وتبدل ، فتتمتع أو تضيق ، وتتطور إلى حالات شتى . وقد بلغ هذا الفيلسوف العظيم بتظرية التطور التي طبقها على الأرض بمجموعها إلى أقصى حد ، بل لم يقف بها عند حد ، بينما حصرها درون في أضيق نطاق ، حيث خصها بالعضويات فقط . »

الفراز الكرم

للساهر الكبير الأستاذ على المجندى

العميد السابق لكلية دار العلوم

عَيَّ الخطيبُ، ونال الشاعرَ الحَصْرُ
كلُّ الروائع تحتَ النَّقدِ زائفةٌ
فوقَ البيانِ بيانٌ - جَلَّ مُبْدِعه -
تَشِعُّ ألفاظُه نوراً لقارئها
وكلُّ دَفاصلةٍ، منه مُنْعَمَةٌ
تَضِي الخشوعَ على من راح يَسْمَعُها
وَيُمَسِّكُ القلبَ جَبَّارُ الأنامِ لها
هذا الرحيقُ من الفردوسِ كَرَمَتُه
طهرُ بجانيه، عُلُوِّيٌّ مَعَارُسُه
خِلا الزمانِ ولم تَأْسِنْ مِشارعُه
دَعُ عنكَ ما عَتَقْتُ دُقْطُرُ بُلٍّ، فهنا
آيأتكَ العُرُ يكبو دَوْنَهَا البَشْرُ^(١)
إلا روائعَ تجلو حُسْنَهَا الشُّورَ
تَحَارِي كُنْهَهُ الأَفْهَامُ والفِكرَ
كَأَنَّمَا كُلُّ لَفْظٍ حَفَّهَ قَمَرٌ
لولا الجلالُ لَقُلْنَا: جَرُّهَا وَتَرُ
كَأَنَّمَا وَخَزَتْ أَطرافُه الإِبْرَ
رُعباً، ولو أَنَّ ما في جوفه حجرٌ
ومن شميمٍ رُبَّاهَا تَفْحَهُ العَطِيرُ
مُصَفَّقٌ بيدِ الرحمنِ مُعْتَصِرُ
للشاربين، ولم يَعلَقْ بها وَضْرُ
حِلا الورودُ وَحَلَّ الشُّكْرُ والشُّكْرُ^(٢)

* * *

المعجزاتُ تولت غيرَ معجزةٍ تعشو إلى ضوئها الآصالُ والبُكرُ

(١) الحصر محركة : ضد البيان .

(٢) قَطْريل : موضع بالمرقا تنب إليه الحمر . والشكر - بفتح السين - : الغراب .
للسكر ، والأصل فيه : نبيذ التمر .

من رام وصفاً لها أكذبتُ وسائله وكيف يُوصف شيءٌ كلُّهُ غَوَرٌ
تكفَّلَ اللهُ أنْ تَفْنَى الدهورُ، ولا تَفْنَى لآياتها عينٌ ولا أثرٌ

* * *

يا حجةَ الله تأييداً لصفوته من خلقه والعوادي حوَّله زَمَرُ
حتى لك الجيدَ مَنْ في جيده صَيَّدُ وأضرعَ الخدَّ من في خده صَعَرُ^(١)
لكل عصر مضى شرعٌ يناسبه وشَرُّكَ السَّمْحُ لا ينبو به عُصْرُ
كانه الرُّوضُ لا تَفْكَ جِدَّتُهُ يَبْهَى على العين منها الوَشْيُ والحَبْرُ
كانه الشمسُ لا تَفْنَى أَشْعَتُهَا مدى القرون، ولا تبلى لها صُورُ
كانه القمرُ المرموقُ مَنَظَرُهُ لكل يومٍ جمالٌ فيه مُدَّخِرُ
ما أنتَ لله فينا غيرُ مَأْدُبَةٍ، دعا إليها فلبَّى البدوُ والحضرُ^(٢)
ألوانها جمعت للناس ما جهلوا مما تَلَدُّ الشَّهَى والسَّمْعُ والبصرُ
العلمُ والفنُّ بعضُ مَنْ أطايبها والدينُ والخلقُ والأحكامُ والسَّيرُ
من لم ينلْ حَظَّهُ منها، فليس له من البلاغة إلا اللغوُ والهَذَرُ
مَشَتْ إليك القوافي وهي خاشعةٌ يكادُ يُلَوِي بها عن شأوها الخَفَرُ
نزّهتُ قدرك أنْ أُمْنِي عليك فإ أُنْتِ أُمْنِي، ولكن جئتُ أَعْتَدِرُ

(١) الأصيد: من لا يلتفت لزهوه يميناً ولا شمالاً، والأصغر: من يعيل خده كبراً.

(٢) إشارة إلى الحديث العريف: «لأن هذا القرآن مأدبة الله...».

المجتمع الإسلامي كما تنظمه سورة النساء :

مَقْدَمُهُ الْمُؤَلَّفُ

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدني

عميد كلية الشريعة

أخرج المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف كتابه « المجتمع الإسلامي كما تنظمه سورة النساء » لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدني عميد كلية الشريعة ، وقد صدر هذا الكتاب بمقدمة تبين نهج المؤلف فيما ينبغي أن تعالج به سور القرآن الكريم ، فيسرنا أن ننشر هذه المقدمة تعميماً للفائدة ، وترسيخاً لما لها من الطابع العلمي .

١ - إن في كل سورة من سور القرآن الكريم روحاً يسرى في آياتها ، ويسيطر على مبادئها وأحكامها وتوجيهاتها وأسلوبها .

ومن المعروف : أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يأمر بوضع الآيات التي تنزل عليه مُنْجَمَةً في مواضعها من السور ، وأن ذلك كان عن وحى يتلقاه عن جبريل ، عن الله رب العالمين ، فهل كان ذلك إلا لمعنى ؟ وهل يأمر الله تعالى بوضع هذه الآيات هنا ، وهذه الآيات هناك إلا لحكمة ؟ .

وقد عني المفسرون بكثير من الجوانب المتصلة بدراسة القرآن الكريم ، وقلّ فيهم من عني بهذا الجانب الذي هو دراسة الرُّوح العام لكل سورة ، والغرض الذي تهدف إليه .

ومن الواضح أن سور القرآن مع كون كل واحدة منها ذات طابع خاص ، وروح يسرى في نواحيها - لا يمكن أن تعد فصولاً أو أبواباً مقسمة منسقة على نمط التأليف التي يؤلفها الناس ، ومن أراد أن يفهمها على ذلك ، أو أن يقصرها على ذلك ؛ فإنه يكون متكلفاً مشتتاً محاولاً أن يخرج بالقرآن عن أسلوبه الخاص

الذى هو التنقل والمراوحة والتخوُّل ، وبث العظة فى كُصاف القول ، والوقوف عند العبرة لتجليتها ، والتوجيه إلى مغزاها ، وانتهاز الفرصة أينما وَّاتت لدَّعم العقيدة السليمة ، والمبادئ القويمة .

إن هناك فرقاً واضحاً بين من يحاول أن يفعل ذلك ، ومن يحاول أن يجعل القارىء يلح الرُّوح السَّارى ، والبيئة المعنوية الخاصة التى تجول فيها السورة ، دون أن يُخْرِج التَّنْزِيلَ الحكيمَ عن مُسنَّته ، وأسلوبه الذى انفرد به ، وكان من أهم نواحي الإعجاز فيه .

وهذه الطريقة فى الدراسة القرآنية أجدى على الناس من تتبع الآيات آيةً بعد آيةً بحسب ورودها فى السورة ، ومن تتبع جمل كل آية ، وكلمات كل آية ، وأحياناً حروف كل آية أيضاً ، ليُدرس كلُّ ذلك على نحو من التفصيل أو الإجمال ، أو على نحو من التطويل أو الإيجاز ، فإن ذلك لا يعطى المنظر العام ، ولا يساعد على تصوُّر عظمة السورة مجتمعة الملاح ، مُشَصِّمة التقاسيم ، كاملة الوضع ، ومثلُ مَنْ يكتفى بأن ينظر إلى سورة من سور القرآن هذه النظرة التفصيلية على هذا النحو ، كمثل من يأتى إلى بناء شاخٍ عظيم فيشتغل بالتأمل فى مادة بنائه ، وفى نوع أحجاره ، ولبناته التى كُوِّنَ منها ، وفى أخشابها ، وحديدته ، ومعادنه ، ومقايض أبوابه ، ومفاتيحه ، ونحو ذلك ، فيشغله هذا عن مرآة العام ، وعظمته التى تجتليها العين حين تنظر إلى جملته كبيت أو كصرح عظيم .

نعم إن هذا لا يغنى عن ذاك ، فالجمل لا تُغنى عن التفصيل ، والتفصيل لا يغنى عن الجمل ، لكن القصر أو الصرح إنما كان قصراً أو صرحاً بجملته ، أما كونُ خشبه كذا ، أو حديدته كذا ، أو مادته كذا ؛ فذلك درس للخشب ، أو للحديد ، أو للأحجار . . . الخ ، وليس درساً للقصر أو الصرح من حيث إنه قصر وصرح .

فالقرآن الكريم يجب أن يُدرس من كل ناحية . وهو قد دُرِسَ فعلاً من عشرات النواحي المختلفة ، ولكنه - ككتاب هداية ذات طابع خاص ، له هيئته على القلوب ، وتأثيره فى الأرواح - لا يمكن أن تُجتلى هذه الناحية فيه بتطبيق كلماته

والفاظه على قواعد النحو حيناً ، وعلى مروى القراءات حيناً ، وعلى تفاصيل التقديم والتأخير ، والحذف والذكر ، والوصل والفصل ، في حدود ما عرفه السكاكي والجرجاني والخطيب ومن إليهم ، من علماء الصناعة اللفظية أو المعنوية ، نحوية ، أو بلاغية ، أو روائية .

إن هذا أشبه بخدمة غرض النحويين والبلاغيين وأهل القراءات منه بخدمة غرض القرآن نفسه ، والغاية المقصودة منه ككتاب هداية للتي هي أقوم . فهذه الطريقة تجعل من آياته موضوعات لتربينات مختلفة ، وتطبيقات متنوعة ، وإن تخللها في كثير من الأحيان بيانٌ للأحكام ، أو توجيه إلى الجمال الفني ، أو إظهارُ لاسلوب الهداية والإرشاد ، أو تعريفٌ بما تتضمنه الآيات من إيماء ، أو إشارة ، أو تنبيه ، إلى غير ذلك مما لا يخلو منه تفسير في العادة .

□ □ □

٢ — وهناك ناحية أخرى ، هي أن قليلاً من المفسرين هم الذين عُنوا بإيراد الآيات المشابهة ليستعينوا ببعض القرآن على فهم بعض ، كما أن قليلاً منهم هم الذين عُنوا بدراسة الأحكام القرآنية من واقع القرآن نفسه ، فترى أكثرهم يلتبس المناسبة القرآنية ليفيض في تفصيل أحكام أو معارف جاء بها الفقهاء ، أو أرباب المذاهب الكلامية ، ولا يهمه إلا أن يورد تلك الأحكام ، وينهض بتفصيل تلك المعارف ، سواء دلَّ عليها القرآن دلالة واضحة ، أو لم يدل عليها ، فحسبه أن لفظاً قرآنياً جاء في آية من الآيات ، فيتخذ من هذا اللفظ فرصة لتسجيل ما يعرف ، وما يجمع من المعلومات الفقهية أو الكلامية ، وبذلك يصبح تفسيره للقرآن كتاباً فقه ، أو كتاب فلسفة ، أو كتاب خلاف ... الخ .

وهذه الطريقة أيضاً ليست من الطرق المثلى في التفسير ، فإن القرآن كتاب مستقل ، له طابعه الخاص ، وله حدوده وأقطاره الفكرية والتشريعية ، يجب أن يفهم بدون تكلف ، ولا لي ، ولا حيل ، ولا تخريج ، ولا تأويل ، ولا رغبة في فصرة مذهب ، أو هدم مذهب ، وإن هدايته لا تحتاج إلى أن يستعان على فهمها

وإدراك مراميها بغيرها ، ولا يمكن أن يكون وهو الحاكم محكوماً عليه ، ولا أن يكون وهو الأصل فرعاً لغيره من الآراء والأفكار .

* * *

٣ - وشيء ثالث هو أن كثيراً ممن تناولوا الدراسات القرآنية قد تناولوها بروح تطويع القرآن للمثل الحديثة ، والمقاييس الحضارية ، التي أخذ بها الناس ، أو تطلعوا إلى الأخذ بها ، ولذلك نرى من يحاول أن يحمل آيات القرآن على أن تفيد مثلاً ، أن تعدد الزوجات محرم في الإسلام ، لأن القرآن يقول : « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » ، « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » ، وهي « سُورِيَّةٌ » في التفكير والاستدلال ، سببها الوَلُوع بتطويع القرآن لما يأخذ به أهل الحضارة والمدنية في عصرنا الحديث - وإن كان أخذهم به صورياً نظرياً فقط - من إنكار مبدأ تعدد الزوجات ، بينما هم يبيحون تعدد الخليلات .

وقل مثل ذلك عن الذين يقبلون على الدراسات القرآنية ليلتقطوا - في غير إخلاص للحق ولا لقداسة العلم - ألفاظاً أو جملاً لها ظاهر لا يمكن أن يكون مقصوداً ، ولا يمكن أن يفسح مع غير هذا الموضع من مواضع القرآن الكريم ، ولكنهم يلتقطونه ويتمسكون به ، ويحرصون على أن يقدموه للناس على أنه مطابق للإصلاح الحضاري أو التقدم المدني ، وقد نسوا أنهم بذلك يُجرون القرآن في المضمار الذي أجراه فيه أرباب التعصب من أتباع المذاهب الفقهية أو الفلسفية ، ولعل مجازفة هؤلاء أشد من مجازفة أولئك ، فما كان كتاب الله يتابع لفكرة ، ولا لمذهب ، ولا لاتجاه معين في أي شأن من شؤون الحياة ، وإنما هو قائم متبوع له أحكامه المستقلة الثابتة ، سواء أوافقت هذه الحضارة أو تلك ، أم لم توافق لا هذه ولا تلك .

إن على الذين يدرسون القرآن أن يقرروا أحكامه هوَ ، ومثله هوَ ، ومبادئه هوَ ، وأن يقولوا : هذا هو القرآن ، أما أن يتصوروا مثل أوربا أو أمريكا ، أو ما عظم في أعينهم من المثل أيا كانت ، ثم يحملوا القرآن عليها ، ويطوِّعوه لها ، ويظهروا ذلك أحياناً في صورة التجديد ، وأحياناً في صورة التحجيب في القرآن

بتقريبه لغير أهله ، وإشعارهم بأنه معهم : يمضى فى طريق حضارتهم ، ولا يقاوم أساليبهم فى المدنية والحرية . . . وما إلى ذلك مما يخدعون به أنفسهم ، وإن ظنوا أنهم يخادعون الله والذين آمنوا - فذلك هو الشطط والزور .

ويقابل هؤلاء المجددين فى الطرف الآخر قوم آخرون يفعلون فعلهم ، ويسلكون طريقهم ، مع فارق واحد ، هو أنهم لا يحملون القرآن إلا على قديم ألفوه واستقر فى نفوسهم ، وورثوه عن سلفهم ، فكلماء دخلوا فى دراسات قرآنية تمثّلوا قديمهم هذا وأفكارهم تلك الرجعية البالية ، فكانت لهم روحاً يستلهمونها ويرجعون إليها ، ويلوون القرآن ليطابقها ويؤيدها ، فهؤلاء من أولئك ، وفعلهم من فعلهم ، وحكمهم على القرآن من حكمهم ، وإن كان لكل وجهة هو مؤلّسها : هذا لما تجدد عليه من قديم ، وذاك لما اغتر به من جديد .

والخلاصة أن القرآن رأس بذاته ، له مقاييسه ومثله ومبادئه ، وبهذه المثل والمبادئ جعل الله المسلمين أمة وسطا ، وجعلهم شهداء على الناس ، أى أن أحكامهم وطابعهم ومثلهم هى الشهادة على العالم ، وهى المقاييس الصحيحة التى يرجع إليها الناس جميعاً ، ويستشهد بها الناس جميعاً ، وتعدّل بها الآذواق والأحكام والمناهج ، لا أن تكون هى المعدّلة والمؤلّنة بأذواق الآخرين ، وأحكام الآخرين ، ومناهج الآخرين .

٤ - ولا ينبغي لأحد أن يعترض علينا فى هذا المقام بالسنة النبوية ومنزلتها من الكتاب ، فيفهم مما قلناه أن القرآن يجب أن ينظر إليه وحده حين يراد تفسير معانيه ، وحين يراد معرفة أحكامه ومراميه ، وألا يكون للسنة مدخل فى ذلك ، لا ينبغي أن يقال هذا ، فإن القرآن نفسه قد أعطى السنة الصحيحة حق البيان ، وجعل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم شهيداً على المسلمين .

فإنه تعالى يقول مخاطباً رسوله الكريم : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » (١) ، ويقول مخاطباً أمته : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » (٢) .

(١) الآية ٤٤ من سورة النحل . (٢) الآية ١٤٣ من سورة البقرة .

فبيان الرسول للقرآن هو حكم من أحكام القرآن نفسه ، وكونُ الرسول شهيداً على الأمة حكم من أحكام القرآن كذلك ، أى أن بيانه يجب أن يُقبل ، وشهادته يجب أن تعتبر هى الفصل فيما فيه يختلفون ، وهى التعديل والميزان المعتمد الذى يرجع إليه المعروف للحق ، ولكن يجب أن يوثق بأن كذا هو بيان الرسول ، وأن كذا هو شهادة الرسول ، وذلك بالفحص عن صحة الرواية سنداً ، والاطمئنان إلى أن معناها مما لا ياباه القرآن ، أو ينافر روح القرآن ، فقد يُردُّ المروى لقادح يقدر فى معناه ، أو فى سنده .

* * *

هـ — ثم إننا نجد بعض كتب التفسير تورد كثيراً من الأقوال المروية المسندة إلى الصحابة أو التابعين ، ويسمون ذلك : « التفسير - بالمأثور » ، وأحياناً نجد هذا المأثور متعارضاً أو متضارباً ، فيقف القارئ الواسط أمامه مضطرباً ، لا يدري ما ذا يأخذ وما ذا يدع ، ويختار العالم ، ويجد كثيراً من الصعوبات ، إذا حاول أن يزيّف هذه الرواية ويرجح تلك ، أو يجمع بين هذه الروايات التى تبدو متعارضة ، وبذلك ينصرف الجهد إلى خدمة هذه الروايات نفسها ، وإلى التفكير فى نطاقها ؛ والفرض أن التفكير كان يجب أن يسير فى نطاق التفسير ، وأن الجهد يجب أن يُوفّر لفهم كلام الله تعالى ، لا لفهم كلام الناس فى تفسيره .

نعم إن مفسر القرآن لابد أن يمر به ذلك ، وأن يراحه على القرآن ، وأن يحمله على المناقشة والمجادلة وتقليب الآراء ، لكننا جربنا كثيراً أن الانسياق فى ذلك يخرج بالمفسر المعاصر عن أسلوب عصره ، ويرده إلى الوراء فيصبح واحداً من الذين تقدم بهم الزمان فى القرون الأولى ، وهؤلاء من غير شك فطاحل العلم وأئمة ورواده الأولون ، والناس من بعدهم عالةٌ عليهم ، ولكن حكم الزمان ، واختلاف الأحوال ، وتلون المعارف والأفكار ؛ يجب أن يكون له حساب ، ولم يحفظ الله كتابه الكريم أبد الدهر ، إلا لمتنافس فيه العقول أبداً ، وتتلاقى عليه أفكار المتأخرين ، كما تلاقى عليه أفكار المتقدمين .

وقد وقف بعض العلوم عند الحدود التى تركها عليها المتقدمون ، فترى مثلاً

علماً كعلم البلاغة ما زال واقفاً عند المقاييس التي تعتمد عليها شروح التلخيص ؛ ولا نجد محاولات لتغيير الطريقة أو الأسلوب أو الأمثلة إلا قليلاً .

وقد نجد هذا نفسه في كتب التفسير ، فربما فتحنا عدة كتب لنقف على تفسير جملة أو آية أو تجلية معنى من المعاني ، فنجد جميع المفسرين في هذه الكتب متفقين - أو يكادون - على كلام واحد ، وأسلوب واحد ، وسبب هذا أن كثيراً منهم كان 'يلزم' نفسه بكتاب قبله من المطبوعات ، فهذا يخرج به وسيطاً ، وهذا يخرج به وجيزاً ، وهذا يعني بتلخيص بحوثه البلاغية ، وهذا يلخص أحكامه الفقهية ... وهكذا ، فجاء كثير منها متشابه العبارات والأفكار ، وكأنها نسخ مكررة مصغرة بمقاييس مختلفة لكتاب واحد .

والواقع أن ميدان التفكير في القرآن واسع ، وهو كيدان التصوف والتفكير في الله ، فيجب أن يسلكه كل كفاء له ، ولكن على وتيرته الخاصة ، وبطابعه الخاص ، كما أن لكل متصوف طريقته وأسلوبه في معرفة الله ، وفي التفكير في عظمته ، واجتلاء صفات جلاله وجماله ، فقد ينكشف للتأخر ما لم ينكشف للتقدم ، وقد يؤثر في المعاصرين أسلوب جديد في العرض أضعاف ما يؤثر فيهم أسلوب قديم ، ومن عاش في زمان لا بد أن يتعامل بأسلوب هذا الزمان ، وأن يحسب حساب أفكاره وأحواله ومقاصده ومرامييه وآماله وآلامه ولغته وطريقته عرضه ، وما فيه من نقط ضعف ونقط قوة ، وما له من نواحي استقامة ونواحي اعوجاج ، كل ذلك يجب أن يدخل في حساب من يتناول القلم ليكتب ، ومن يجلس مجلس المؤلف والمؤجّه ، ولا سيما إذا كان تأليفه وتوجيهه عن طريق التفسير وخدمة الذكر الحكيم ، وأما الذين لا عمل لهم إلا أن يستعيدوا ما كان ، ويرددوا ما قيل دون تصرف فيه ، ولا تحول حتى عن أسلوبه وألفاظه ، وجدله ونقاشه ، فليس لهم في معترك الأقلام والأفكار الآن مجال .

• • •

٦ - وفي عصرنا الحاضر تيارات إلحادية ، ونزعات مشككة ، ومحاولات عنيفة للتخلص من سيطرة الدين عامة ، ومن استمرار المجتمع الشرقي ، متمسكاً بطابع

الإسلام خاصة ، فلذلك نرى هجوماً عنيفاً على أحكام الإسلام ، وتشكيكاً للناس فى صلاحيتها وملاءمتها لروح العصر .

ولهذا المنزع الهجوى أسراره وبواعثه الخفية ، وله روافده من الانخداع بالثقافات الأجنبية ، والانسياق وراء التيارات الحديثة التى تصدر عن الأوربيين ، بعد أن خبثوا فى الفساد ووضعوا ، وبعد أن أشرفت سفينتهم على الغرق ، وأصبحت مثلهم وقواعد سلوكهم ، وأساليب حكمهم وبالأعلى عليهم ، وشرا مستطيراً يحاولون الخلاص منه فلا يعرفون السبيل - فى هذا الوقت الذى ترزلت فيه المجتمعات الغربية عن مثلها ، وأصبح فيها من ينادى بتغيير هذه المثل ، وتقويم هذه الأحكام المعوجة ، نرى من يدعون بيننا لتغريب الشرق ، ويريدوننا على أن نشارك أهل السفينة الغارقة اليوم أو غداً فى ركوب سفينتهم والغرق معهم !

لذلك يحمل بمن يهتمون بالدراسات الإسلامية - والقرآنية منها على وجه خاص - أن يحسنوا عرض بضاعتهم ، وأن يُجكّلوها للناس فى صورة تلائم عظمتها الحقيقية ، وألا يفسدوا هذه الصورة بالأصباغ الملونة ، والمساحيق المحتلبة ، فإن جماها ربانى ، وإن الأصباغ تشوهها ، وتوهم بأنها تدارى قبجا ، وتخفى دمامة ، وتعالج نقصا .

إن الإسلام هو القانون الطبيعى للحياة ، وإن مناهجه النظرية والعملية هى التى تحل مشكلات المجتمع ، وتصون أفراده من الوقوع فى حماة الرذيلة ، وفى ظلمات الشك والحيرة ، ولكن على شريطة أن يحلّى للناس صافيا كما أنزله الله ، بريثا من التزمّت والتحلل كليهما كما أَراده الله .

* * *

٧ - أما بعد ؛ فهأنذا أقدم لعشاق الصور الطبيعية الصادقة الذين لا يحبون الخداع ، ولا يُؤخذون عن الجمال بالتجميل - أقدم لهم هذه الصورة الطبيعية للمجتمع الإسلامى كما تنظمه سورة النساء .

وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلتُ ، وإليه أنيب ، ٢

من ثمرات المعقول والمنقول

لشاعر الكبير الأستاذ على الجندى

العميد السابق لكلية دار العلوم

لا يحيط بالعلم إنسان :

تكلم يوماً شاب عند الشعبي بكلام ، فقال له الشعبي : ما سمعنا بهذا !! فقال له الشاب : أكلَّ العلم سمعت ؟ لا . قال : فشطره ؟ قال : نعم . قال : فاجعل هذا في الشطر الذى لم تسمعه !! فأخم الشعبي !! .
سعة أفق :

ذكر الحريرى فى درة الفواص : أن الأمير حامد بن العباس سأل وزيره : على بن عيسى - وكان فى ديوان الوزارة - عن دواء الخمار ^(١) ! فأعرض الوزير عن كلامه وقال : ما أنا وهذه المسألة فى مثل هذا المقام ؟ فجل الأمير حامد ! .
وحدث أن كان قاضى القضاة أبو عمرو حاضرا ، فتحرك وتمكن فى جلوسه ، وتنحج لإصلاح صوته ، ووضع كما على كم ، ثم قال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، قال الله تعالى : د وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ، وقال النبى - صلى الله عليه وسلم - : استعينوا على كل صنعة بصالحى أهلها ، وقال الأعشى وهو إمام هذه الصناعة فى الجاهلية :

وكأسٍ شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها

ثم تلاه شاعر الحب مجنون ليلى فقال :

تداويت من ليلى بليلى من الهوى كما يتداوى شاربُ الخمر بالخمر

وتبعهما على ذلك أبو نواس فقال :

دع عنك لومى فإن اللوم لغراء ودأوتى بالتى كانت هى الداء

(١) الخمار بضم الخاء : ألم الخمر وصداعها وأذاها .

فقهل وجه الأمير حامد فرحا، وسرى عنه الخجل، والتفت لعل بن عيسى قائلا:
ما منعك يا بارد أن تجيب ببعض ما أجب به قاضى القضاة، وقد استظهر في الجواب
بقول الله تعالى، ثم بقول الرسول - صلى الله عليه وسلم - ثم بكلام العرب،
ثم بقول المولدين، وبين الفتوى، وأدى المعنى، وخلص من العهدة !!
فكان خجل على بن عيسى من الأمير أشد من خجل الأمير منه !

تجارة العطر:

قال عمر - رضى الله عنه - لو كنت تاجراً ما اخترت غير العطر ! إن فائى
ربحه لم يفتنى ربحه !

فضيلة الصمت:

كان يجلس إلى أبى يوسف القاضى رجل يطيل الصمت ولا يتكلم، فقال له
أبو يوسف يوما: ألا تتكلم؟ فقال الرجل: بلى، متى يفطر الصائم؟ قال: إذا
غابت الشمس! قال: فإن لم تغب إلى نصف الليل فكيف يصنع؟ فضحك أبو يوسف
وقال: أصبت فى صمتك، وأخطأت أنا فى استدعائى لنطقك، ثم أنشد:

عجبت لإزراء الغبي بنفسه وصمت الذى قد كان بالقول أعلا
وفى الصمت ستر للغبي وإنما صحيفة مُلِّبُ المرء أن يتكلم

وكان رجل يجالس الشعبي ويطيل الصمت، فقال له الشعبي يوما: ألا تتكلم؟
فقال له: أصمت فأسلم، وأسمع فأعلم، إن حظ المرء فى أذنه له، وفى لسانه لغيره.

جنود العقل:

قالوا: العقل سلطان وله جنود، فرأس جنوده: التجربة، ثم التمييز، ثم الفكر،
ثم الفهم، ثم الحفظ.

حب الاجتهاد:

كتب عمر بن عبد العزيز - رضى الله عنه - إلى أحد عماله: إذا أمرتك أن
تعطى فلانا شاة سألتنى: أضأن هى أم معز؟ فإن بينت لك، قلت: أذكر هى أم أنثى؟
فإن أخبرتك، قلت: أسوداء هى أم بيضاء؟ فإذا أمرتك بشئ فلا تراجعنى فيه.

الحاطب كذاب :

مر سليمان - عليه السلام - بعصفور يدور حول عصفورة ، فقال لأصحابه : أتدرون ما يقول ؟ قالوا : وما يقول يا نبي الله ؟ قال : يخطبها لنفسه ، ويقول : تزوجيني : أسكنك أى قصور دمشق شئت !! قال سليمان : ولأنه ليعرف أن قصور دمشق مبنية بالصخر لا يقدر أن يسكنها ، ولكن كل خاطب كذاب !

لا بكاء بعد ثلاث :

عن عبد الله بن جعفر : أن النبي - صلى الله عليه وسلم - أمهل آل جعفر ثلاثا ، ثم أتاهم فقال : « لا تبكوا على أخى بعد اليوم » ، ثم قال - صلى الله عليه وسلم - : ادعوا إلى بنى أخى ، فجئنا كأننا أفرخ ، فقال - عليه الصلاة والسلام - : ادعوا إلى الخلاق ، فأمره بحلق رموسنا .

علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين :

قال ابن القيم : الفرق بين علم اليقين وعين اليقين ، كالفرق بين الخبر الصادق والعيان ، وحق اليقين فوق هذا . وقد مثلت المراتب الثلاث بمن أخبرك أن عنده عسلا ، وأنت لا تشك في صدقه ، ثم أراك إياه فازددت يقينا ، ثم ذقت منه . فالأول : علم اليقين ، والثاني : عين اليقين ، والثالث : حق اليقين ؛ فعلينا الآن بالجنة والنار : علم يقين ، فإذا أزلت الجنة في الموقف وشاهدها الخلائق ، وبرزت الجحيم وعابها الخلائق فذلك : عين اليقين ، فإذا أدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، فذلك حينئذ حق اليقين .

مراتب الناس في الدراية :

قال الخليل بن أحمد : من الناس من يدرى ، ويدرى أنه يدرى ؛ فذاك عالم فاتبعوه . ومنهم من يدرى ، ولا يدرى أنه يدرى ، فذاك ضال فأرشدوه . ومنهم من لا يدرى ويدرى أنه لا يدرى ، فذاك طالب فعلوه . ومنهم من لا يدرى ، ولا يدرى أنه لا يدرى ، فذاك جاهل فاحذروه .

أقول : وفي الأخير يقول الشاعر :

جهلت وما تدري بأنك جاهل فمن لى بأن تدري بأنك لا تدري
ويقول المتنبى :

وما التيه طلي فيهم غير أننى بغيض إلى الجاهل المتعاقل
كل شكل مع شكله :

قال مالك بن دينار : الناس أشكال كأجناس الطير : الحمام مع الحمام ، والبط مع البط ، والصعو^(١) مع الصعو ، والغراب مع الغراب ، وكل إنسان مع شكله .
العقل :

سئل أبو عبد الله المحاسبى عن العقل فقال : نور الغريزة مع التجارب ، يزيد ويقوى بالعلم والحلم .

بين جميلة وقبيح :

كان عمران بن حصّان الخارجى شديد السواد ، وكانت امرأته من أجمل النساء . فأطالت يوماً نظرها فى وجهه وقالت : الحمد لله ! فسأها عن ذلك ، فقالت : حمدت الله على أنى وإياك فى الجنة . قال : وكيف ؟ قالت : لأنك رزقت مثلى فشكرت ، ورزقت مثلك فصبرت ، وقد وعد الله عباده الصابرين والشاكرين الجنة !! .

لا تتعرض لعدوك :

من كلام الفضل بن مروان وزير المعتصم : لا تتعرض لعدوك وهو مقبل ؛ فإن إقباله يعينه عليك !! ولا تتعرض له وهو مدبر ، فإن إدباره يكفيك أمره !!
تيمور :

ضبطه ابن عرب شاه بكسر التاء ، وذكر أن العرب نطقت به أحياناً بما يخالف هذا الضبط . ومنهم من قال : تيمورلنك ، ومعناه بالتركية الحديد .

إمام مبارك :

قال ابن عبد الحَكَم : لما حملت أم الشافعى به ، رأت كأن كوكب المشتري^(٢)

(١) الصعو بوزن دلو : صفار المصافير الحمر الرءوس ، جمع صعوة .

(٢) المشتري : الكوكب السادس فى المجموعة الشمسية ، وهو أكبر الكواكب السيارة ، ومن كواكب السعد .

خرج من بطنها حتى انقض بمصر، ووقعت في كل بلد منه شظية !! وقد أوله أصحاب
الرؤيا: أنه يخرج منها عالم عظيم يختص بعله أهل مصر، ثم يتفرق في سائر البلاد !
أقول : وقد جاء في خزنة الأدب للبغدادى : أن أم جرير الشاعر رأت في
منامها - وهى حاملة به - أنها ولدت جريراً - والجرير : الحبل من آدم يكون في
عنق الدابة أو الناقة - فكان يتلوى على عنق رجل فيخنقه ، ثم فى عنق آخر ، ثم فى
عنق آخر ، حتى كاد يقتل عدة من الناس !! ففزعت من رؤياها وقصتها على معبر ،
فقال لها : إن صدقت رؤياك ، ولدت ولدا يكون بلاء على الناس !! فلما ولدته
سمته جريراً ، وكان تأويل رؤياها : أنه هجاء ثمانين شاعراً فغلبهم كلهم إلا الفرزدق
والأخطل . وكانت أمه ترقصه وهو صغير بقولها :

قصصت رؤياى على ذاك الرجل فقال لى قولاً وليت لم يقل
لتلدن عضلة من العضل ذا منطق جزل إذا قال فصل
مثل الحسام العضب مامس فصل يعدل ذا الميل ولما يعتدل
ينهل سما من يعادى ويعل

خُلُوص السريرة :

في الحديث الشريف : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ، وإن أفتاك المفتون ،
ورد المفتون بضم الميم : جمع مفت . وجاء في رواية بفتح الميم : اسم مفعول من الفتنة .
تقويم اللسان :

قال الرشيد للأصمعى : ما أحسن ما مر بك في تقويم اللسان ؟ فأجاب : أوصى
رجل بعض بنيهِ ، فقال : أصلحوا من ألسنتكم ، فإن الرجل تنوبه النائية فيتجمل فيها
فيستعير من أخيه وأبيه ومن صديقه ثوبه ، ولا يجد من يعيره لسانه ، وأنشد فى ذلك :

وما حُسن الرجال لهم بزّين إذا لم يُسعد الحسن البيان
كنى بالمرء عيباً أن تراه له وجهٌ ، وليس له لسان
قيمة اللسان :

جاء فى الأمثال : ما الإنسان لولا اللسان إلا صورة ممثلة ، أو بهيمة مهملة .

المروءة :

المروءة بالهمز وتركه ؛ قال الجوهرى : هى الإنسانية ، وقال ابن فارس : هى الرجولية . وقيل : إن ذا المروءة : من يصون نفسه عن الأدناس ، ولا يشينها عند الناس . وقيل : ذو المروءة : من يسير بسيرة أمثاله فى زمانه ومكانه . وقال الدارمى : المروءة فى الحرفة . وقيل : فى آداب الدين ؛ كعدم الأكل والسيّاح فى الجم الغفير ، وانتهاز السائل ، وقلة فعل الخير مع القدرة عليه ، وكثرة الاستهزاء والضحك .

تحقير :

مرض عبد الملك بن عمير قاضى الكوفة ، فاعتذر إليه رجل من تخلفه عن عيادته ، فقال له : ما كنت لألوم على ترك عيادتي رجلاً لو مرض لما عُدتته ١١ . ويقول بعض الشعراء :

من لم يعدنا إذا مرضنا إن مات لم نشهد الجنازة

الكرامة فى الاستغناء :

قال الأصمى : مررت فى بعض سكك الكوفة ، فإذا برجل قد خرج من مرضاض وعلى كتفه جرة ، وهو يقول :

وأكرم نفسى لأننى إن أهنتها وحقك لم تكرّم على أحد بعدى
فقلت له : أتكرّمها بمثل هذا ؟ قال : نعم ، وأستغنى عن مثلك من السفلة إذا سألته .
قال الأصمى : فقلت : أترأى عرفنى ؟ فأسرعت ١١ فصاح : يا أصمى ، فالتفت فقال :

لنقل الصخر من قم الجبال أحب إلى من من الرجال
يقول الناس كسبك فيه عار وكلّ العار فى ذل السؤال

احذروا البذاءة :

كان أبو عبيدة علامة أهل البصرة النحوى جباناً للناس ، فلم يكن أحد بالبصرة إلا وهو يداجيه ويتقيه على عرضه ١١ ومن سيرته : أنه خرج إلى فارس قاصداً موسى بن عبد الرحمن الهلالى ، فلما قدم عليه قال الهلالى لغلمانه : احترسوا من أبى عبيدة ؛ فإن كلامه دق ، أى دقيق .

ثم حضر الطعام ، فصب بعض الغلمان على ذيله مرقه ، فقال الهلالى : قد أصاب ثوبك مرق ، وأنا أعطيك عوضه عشر ثياب ١١ فقال أبو عبيدة : لا عليك ؛ فإن مرقك لا يؤذى ! يقصد : أنه خال من الدهن ! ففطن لها الهلالى وسكت .

وكان الأصمى - إذا أراد الدخول إلى المسجد - قال : انظروا لا يكون فيه ذاك - يعنى أبا عبيدة - خوفاً من لسانه ١ ولما مات أبو عبيدة لم يحضر جنازته أحد ، لأنه لم يكن يسلم من لسانه شريف ولا مشروف ١ .

الزهد والورع :

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : الزهد : ترك ما لا ينفع فى الآخرة ، والورع : ترك ما تخاف ضرره فى الآخرة .

قال ابن القيم : وهذه العبارة من أحسن ما قيل فى الزهد والورع وأجمعها .

نظرت ونظرت فيه وإليه :

قال الثعلبى : إذا أرادت العرب بالنظر : الانتظار ، قالوا : نظرت ؛ كما قال تعالى : « هل ينظرون إلا الساعة ، ، هل ينظرون إلا تأويله ، ، وما ينظرون إلا صيحة واحدة ، ، وإذا أرادوا بالنظر التفكر والتدبر قالوا : نظرت فيه . وقال الأزهرى : نظرت إلى فلان : ليس إلا رؤية عين ؛ فإذا أرادوا الانتظار قالوا : نظرت ، ومن الأول قول امرئ القيس :

نظرت إليها والنجوم كأنها مصابيح رهبان تشبّ لقفال^(١)
ومن الثانى قول الشاعر :

فإنك إن تنظرانى ساعة من الدهر تنفعنى لدى أم جندب
لما أراد الانتظار قال : تنظرانى .

قد تكون الحمدلة ريبة :

لقى مزبد المدنى رجلاً ، فقال له : بمن أنت ؟ فقال الرجل : من قریش والحمد لله ! فقال مزبد : الحمد لله فى هذا الموضع ريبة .

(١) القفال : جمع قافل ، وهو الراجع من السفر .

أكرم أخاك في وطنه :

قال القاضي الجرجاني : كان صاحب بن عباد يقسم لي من لإقباله وإكرامه
يجرجان أكثر مما يتلقاني به في سائر البلاد .

وقد استعفيته يوماً من فرط تحفيه بي وتواضعه لي ، فأنشدني لنفسه :

أكرم أخاك بأرض مولده وأمدته من فعلك الحسن

فالعز مطلوب وملتمس وأعزّه ما نيل في الوطن

ثم قال لي : قد فرغت من هذا المعنى في قصيدتك العينية ، فقلت : لعل مولاي
يريد قولي :

وشيدتُ مجدى بين قومي فلم أقل أيا ليت قومي يعلمون صنيعى

فقال : ما أردت غيره . والأصل في ذلك قوله تعالى : يا ليت قومي يعلمون
بما غفر لي ربي ، وجعلني من المكرمين .

توبة مغن :

قيل : كان عبد الله بن المبارك من أصنع الناس في الألحان ، وضرب العود .
فبينما هو يغنى ذات يوم :

ألم يأن لي منك أن ترحما وتعصى العواذل واللؤما

وترنى لصب بكم مغرم أقام لهجراتكم ماتما

لذا سمع من جوف العود هاتفا يقول : ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم
لذكر الله ، فكسر ابن المبارك العود وساح في البرية .

أربعة رجال :

كان يقال : أربعة كانوا - ومحال أن يكونوا - : زبيري سني ، ومخزومي متواضع ،
وهاشمي شحيح ، وقرشي محب لآل محمد ١١ والسر في كراهة قريش لبني هاشم : أنها
نفست عليهم بعثة الرسول - صلوات الله عليه منهم - فكروا أن يجمعوا لهم بين
النبوة والخلافة ، ثم لكثرة ما قتل منهم الإمام علي - عليه السلام - في الغزوات
النبوية فاضغنوا عليه ١ وقال معاوية - رحمه الله - يوماً : إذا لم يكن الهاشمي جوادا ،

والأموى حلما ، والزبيرى شجاعا ، والمخزومى تياها ، لم يشبهوا آباءهم . فبلغ قوله الحسن البسط - عليه السلام - فقال : إنه والله ، ما أراد بها النصيحة ! ولكن أراد أن ينفق بنو هاشم ما بأيديهم ، فيحتاجوا إليه ! وأن يحلم بنو أمية فيحبهم الناس ! وأن يشجع آل الزبير ، فيقتلوا في الحرب ، وأن يتيه بنو مخزوم ، فيمقتهم الناس !.

الثناء بعد الموت :

قال المهلب أو ابنه يزيد بن المهلب : الحياة خير من الموت ، والثناء الحسن خير من الحياة ، ولو أعطيت ما لم يُعطه أحد ، لأحببت أن يكون لى أذنٌ أسمع بها ما يقال فىَّ غدا إذا مت !.

دين المجان :

سئل بعض المجان : كيف أنت فى دينك ؟ قال : أخرقه بالمعاصى ، وأرقعه بالاستغفار !! ويقول بعض المجان أيضا :

نُرقع دنيانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقى ولا ما يُرقع

ابن الزبير وتشرشل :

قال المستر تشرشل فى الحرب العالمية الثانية حينما سئل : كيف تتحالف مع الروس الشيوعيين ؟ إننى مستعد أن أتحالف مع الشيطان ضد هتلر !! ومن قبله قال عبد الله بن الزبير : لو شايئى الترك والدَّيلم على قتال أهل الشام لشايئتهم !.

سوء أدب الحجاج :

قال الحجاج لأنس بن مالك رضى الله عنه : هل بين خيلى وخيل رسول الله فرق ؟ فقال أنس : شتان بينهما ، كانت أبوال خيل الرسول وأرواثها أجراً !! وخيلك اتخذتها رياء وسمعة ! فقال الحجاج : لولا كتاب أمير المؤمنين لقتلتك !.

موجبات العداوة :

قالوا : موجبات العداوة : الشركة ، والمناسبة ، والمنازعة ، والميراث ، والجوار ، والمنزلة المتنازعة ، والخلاف فى الديانة ، والحقد ، والثرة ، والإساءة المتقدمة .

الكتب ضرائر :

قال ابن أخت الزبير بن بكار لزوجته : خالي خير رجل لأهله ؛ لا يتخذ ضرة ، ولا يشتري جارية ا فقالت زوجته : لهذه الكتب أشد علي من ثلاث ضرائر .

غضب الحليم :

كان الحارث بن عباد البكري من أحلم أهل زمانه ، وأشدهم بأسا . فلما قتل مهلهل بن ربيعة بجيأ ابن أخيه وقال له : يؤبشسع نعل كليب ا غضب ودعا بفرسه النعامة ، فجز ناصيتها وهلب ذنبا - وهو أول من فعل ذلك بالخيول ، وقال قصيدته المشهورة التي تبلغ مائة بيت ، وأولها :

قرّبا مربط النعامة مني لقحت حرب وائل عن حيال

عقل الخبز :

وفد هودة بن علي الحنفي على كسرى ، فسأله عن غذائه في بلده ، فقال : الخبز . فقال كسرى لجسائه : هذا عقل الخبز .

يفضله على عقول أهل البوادي الذين يغتدون باللبن والتمر .

علامة بغض المرأة لزوجها :

إذا كانت المرأة مبغضة لزوجها ، فأية ذلك : أن تكون عند قربه منها مرتدة النظر عنه ، كأنها تنظر إلى إنسان من ورائه . وإذا كانت محبة له : لا تطلع عن النظر إليه ، وإذا نهض نظرت من ورائه إلى شخصه ، حتى يزول عنها . وقال رجل : أردت أن أعلم كيف حال عند امرأتي ، فالتفت - وقد نهضت من بين يديها - فإذا هي تكلح ا أي تكشر في عبوس .

أدب الرياضات :

قال الشعبي : أخطأت عند عبد الملك أربعاً : حدثني بحديث فاستعدته ، فقال : أما علمت أنه لا يستعاد أمير المؤمنين . وقلت له - حين أذن لي - : أنا الشعبي ، فقال : ما أدخلناك حتى عرفناك . وكنت عنده رجلا ، فقال : أما علمت أنه لا يكتي أحدٌ عند أمير المؤمنين . وسألته أن يكتبني حديثا ، فقال : إنا نكتب ولا نكتب .

وعطس الرشيد مرة ، فشتمته الأصمى ! فتكلف الرشيد الرد عليه ! فلما خرج عاقبه الفضل بن الربيع ، فشكاه الأصمى إلى الرشيد ، فقال الرشيد : أصبت السنة ، وأصاب الأدب ! .

أقول : إن أكثر هذه الآداب من سنن الملكية لا الخلافة ، حينما صارت إمارة المؤمنين ملكاً عضوضاً استمد نواമيسه من القيصرية والكسروية ، وإلا فكيف يصيب الإنسان السنة ويخطئ الأدب - كما يزعم الرشيد - ألا لعنة الله على هذا الأدب .
العقل والمروءة :

قال الإمام أبو الحسن الماوردي : الفرق بين العقل والمروءة : أن العقل يأمر بالأنفع ، والمروءة تأمر بالأجل .
المال والحسنة في القرآن الكريم :

قال مجاهد : الخير في القرآن : المال . وقال السريّ وابن زيد في قوله تعالى :
« ربنا آتتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة » : إن الحسنة في الدنيا : المال ، وفي الآخرة : الجنة .
حب الناس من حب الله :

في الحديث الشريف : « إذا أحب الله عبداً حبب فيه الناس » ، ومن قول الحكماء :
اعرف منزلتك عند الله بمنزلتك عند الناس . وفي ذلك يقول الشاعر :

وجهٌ عليه من الحياء سَكينةٌ ومجبةٌ تجرى مع الأنفاس
وإذا أحب الله يوماً عبده ألقى عليه حبة للناس
ألد الأشياء :

قيل للأمون : ما ألد الأشياء ؟ قال : التنزه في عقول الناس . يعني قراءة أقوالهم .
اسألوا الوجوه الصباح :

قال محمد بن حازم الباهلي لابنه : يا بني ، إذا سألت الحونج ، فتأمل بها الصباح الوجوه : من ذوى العناصر السنية ، والشيم المرضية ، واحذر ذوى الوجوه العابسة والأكف اليابسة ، من ذوى القراريط ، وكسبة الدوانيق ، المعروفين بالضيق ،

المنسويين إلى التضيق ، الذين إن سُئِلوا ضنوا ، وإن أعطوا منوا ، فلا تخلقن بالطلب إليهم وجهك ، ولا تدنس بالسعى إليهم عرضك ، وعليك بمن أنعم الله على وجهه بالصباحة ، وعلى كفه بالسباحة ، فأولئك هم المعروفون بالصبر على ما ينوبهم من مُلهمات الرجال .

كرم الحسين :

حكى الرازي : أن أعرابيا قال للحسين - عليه السلام - : سمعت جدك - صلى الله عليه وسلم - يقول : إذا سألتكم حاجة فاسألوها من أحد أربعة : إما عربي شريف ، أو مولى كريم ، أو حامل قرآن ، أو صاحب وجه صبيح .

فأما العرب فقد تشرفت بكم ، وأما الكرم فهو سيرتكم ، وأما القرآن ففيكم نزل ، وأما الوجه الصبيح فقد سمعت جدك - عليه الصلاة والسلام - يقول : إذا أردتم النظر إلىّ فانظروا إلى الحسن والحسين . فقال له الحسين : ما حاجتك ؟ فكتبها الرجل على الأرض ، فقال الحسين : سمعت جدى - صلى الله عليه وسلم - يقول : المعروف بقدر المعرفة ، وسمعت أبى - عليه السلام - يقول : قيمة كل امرء ما يحسنه . وأنا أسألك عن ثلاث مسائل ، فإن أجبت عن واحدة فلك ثلث هذه الصرة ، أو اثنتين فلك ثلثاها ، أو عن الثلاثة فكلها ، فقال الرجل : أسأل ، فقال الحسين - عليه السلام - : أى الأعمال أفضل ؟ قال : الإيما بالله ، قال : فإنا نجاة العبد من الهلكة ؟ قال : الثقة بالله . قال : فما يزيد العبد ؟ قال : علم معه حلم . قال : فإن أخطأ ذلك ؟ قال : مال معه كرم . قال : فإن أخطأ ذلك ؟ قال : فقر معه صبر . قال : فإن أخطأ ذلك ؟ قال : فصاعة تحرقه .

فضحك الإمام الحسين وأعطاه الصرة بأكملها .

إطفاء النار عند النوم :

في الصحيح : أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : لا تتركوا النار في بيوتكم حين تنامون حتى تطفئوها ، قال النووي : هذا عام يدخل فيه نار السرج وغيرها وعلل ذلك بأن « القويسقة ، وهى الفأرة تضرم على أهل البيت بيوتهم نارا .

أقول : أكثر الحرائق في القرى ، وفي المدن بين من يستضيئون بمصابيح الجواز ترجع إلى ذلك ، فالحديث الشريف - كما ترى - من الآداب الإسلامية العالية ، ودعامة من دعائم الإصلاح والعمران والاجتماع .

مكة والمدينة :

ذهب أكثر العلماء على أن مكة أفضل من المدينة . وذهب الإمام مالك - رضى الله عنه - إلى تفضيل المدينة ، والأمام مالك من سكان المدينة المنورة وإمام علمائها .

توقيع نبيل :

رفع إنسان إلى يحيى بن خالد البرمكى قصة يقول فيها : إنه قد مات رجل تاجر غريب ، وقد خلف جارية حسناء وولداً رضيعاً ومالاً كثيراً ، والوزير أحق بهذا . فوقع خالد على رأس القصة : أما الرجل فرحمه الله ، وأما الجارية فصانها الله ، وأما الطفل فرعاه الله ، وأما المال فثمره الله ، وأما الساعي إلينا بذلك فلعله الله .

التعزية والتهنئة :

قال يحيى البرمكى : التعزية بعد ثلاثة أيام تجديد للصيبة ، والتهنئة بعد ثلاثة أيام استخفاف بالمودة .

لا تطلب ثلاثة :

كان أبو يوسف القاضى يقول : من طلب غرائب الحديث كذب ، ومن طلب المال بالكيمياء افتقر ، ومن طلب الدين بالكلام تزندق .

خلق الأشرار :

الأشرار يتبعون مساوىء الناس ، ويفعلون عن محاسنهم ، كما يتبع الذباب المواضع النغلة ^(١) من الجسد ، ويدع صحيحه .

كلمة حق :

قام الإمام على بن الحسين - عليهما السلام - من مجلس عمر بن عبد العزيز - رضى الله عنه - فلما توارى قال عمر : من أشرف الناس ؟ فقال بعض المنافقين :

(١) نمل الأديم من باب فرح : فسد في الدباغ .

أنتم يا أمير المؤمنين ، لكم الشرف في الجاهلية ، والخلافة في الإسلام ! فقال عمر : كلا ! أشرف الناس هذا القائم من عندي ؛ فإن أشرف الناس من أحب كل إنسان أن يكون منه ، ولا يحب أن يكون من أحد ! .

عدالة الإمام :

كان علي - عليه السلام - لا يفضل شريفا على مشروف ، ولا عربيا على عجمي . فكان هذا من أوكد أسباب انصراف العرب عنه ! وروى المدائني : أن طائفة مشوا إليه ، فقالوا له : يا أمير المؤمنين : أعط هذه الأموال ، وفضل هؤلاء الأشراف من العرب على العجم ، واستعمل من تخاف خلافة من الناس ، فقال لهم : أتأمروني أن أطلب النصر بالجور ! .

الناس ثلاثة :

قال الإمام علي - عليه السلام - لكييل بن زياد : يا كييل ، القلوب أوعية ، وخيرها أوعاها للخير ، والناس ثلاثة : عالم رباني ، ومتعلم على سبيل نجاة ، وهمج رعاع أتباع كل ناعق ! ثم بكى - عليه السلام - وقال : هكذا يموت العلم بموت حامله .

كريمات النساء :

تزوج المعتضد العباسي الأميرة المصرية قطر الندى بنت خمارويه ، وكان صداقها ألف ألف ، وقد سمت بفرط الجمال والعقل والأدب الجم . وقد حكى أن المعتضد خلا يوما للأنس بها في مجلس أفرده لها ، فأخذت منه الكأس فنام على فخذه ، فلما نقلت رأسه ، وضعتة على وسادة ، وخرجت وجلست في ساحة القصر . فاستيقظ فلم يجد لها ، فاستشاط غضبا ، ونادى بها ، فأجابته عن قرب ، فقال لها : ألم أخلك إكراما لك ؟ ألم أدفع إليك مهجتي دون سائر حظاياي ؟ فتضعين رأسي على وسادة وتذهبين ! فقالت : يا أمير المؤمنين ، ما جهلت قدر ما أنعمت به عليّ ، ولكن فيما أدبني به أبي أنه قال لي : لا تنامي عند الجلوس ، ولا تجلسي عند النيام .

فسرّني عن المعتضد وزاد في إكرامها .

استجهال :

سأل رجل ابن مسعود عن الرجل ! فقال له : هو زوج الناقة ! كأنه استجهل من سأله عما يعرف الناس جميعا .

حسن سؤال :

أرسل الشبلي إلى بعض الوزراء يطلب منه شيئا من الدنيا . فقال له الوزير : اطلب من مولاك !! فأرسل الشبلي إليه : إن الدنيا دنيئة لا تطلب إلا من دنيء ، وأما مولاك فلا أطلب منه إلا إياه !! .

إكرام النمل :

كان عدى بن حاتم الطائي - رضى الله عنه - يفت الخبز لما يجاوره من النمل ، ويقول : له علينا حق الجوار !! .

لا تستصغر عدوك :

خطب ابن الأشعث بالمربد - عند ظهور أمر الحجاج عليه - فقال : أيها الناس ، إنه لم يبق من عدوكم إلا كما بقي من ذنب الوزغة ، تضرب به يمينا وشمالا ، فلا تلبث أن تموت !! فسمعه رجل من بني قشير ، فقال : قبح الله هذا من أمير !! يأمر أصحابه بقتل الاحتراس من عدوهم ، ويعدم الغرور !! .

أقول : إن استصغارنا لشأن اليهود في بدء أمرهم ، واستحقارنا لجنودهم وعدتهم وتوكل بعضهم على بعض في محاربتهم ، وسماعنا لمن يقول : إن بضعة آلاف من المتطوعين يكفي لطردهم في البحر ، كان سببا في خذلان سبع دول عربية أمام شراذمهم ، ومعظم النار من مستصغر الشرر ، والأمر لله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

داء عضال :

يقول الجاحظ : التقليد داء لا يحسن علاجه جالينوس ، فمعظم الكبراء ، واتباع الأسلاف ، ولف دين الآباء ، والانس بما لا يعرفون غيره ، يحتاج إلى علاج شديد .

منع النساء من الخروج :

ما يذكر للخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي - رحمه الله - : أنه منع النساء من الخروج إلى الطرقات ليلاً ونهاراً ، ومنع الأساكفة من عمل الأخفاف لمن !! ولا تزل النساء بمنوعات من الخروج إلى أيام ولده الظاهر بالله ، أى مدة سبع سنوات .

الطلاق يخيف النساء :

قال الجواز : أصبحت في يوم مطير ، فقالت لي امرأتى : أى شيء يطيب به هذا اليوم ؟ فقلت : الطلاق !! فسكتت عني ! .

إنصاف الخصوم :

كان الرشيد - إذا ذكر عنده البرامكة بسوء - تمثل بقول الخطيئة :
أقلوا عليهم لا أباً لأبيكم من اللوم أو سدوا المكان الذي سدوا

الحاجب والكاتب :

أوصى المهلب ابنه يزيد عند وفاته بوصايا ، منها : يا بني استعقل الحاجب ، واستظرف الكاتب ؛ فإن حاجب الرجل وجهه ، وكاتبه لسانه .

بر عميق :

كان يحيى البرمكي في سجنه يتأذى من استعمال الماء البارد في الشتاء ولا يقدر على تسخينه !! فكان الفضل ابنه يأخذ الإبريق النحاس وفيه الماء ، فيضعه على بطنه زماناً لينكسر برده بحرارة بطنه حتى يستطيع أبوه استعماله ! .

غلبة الهم :

قال لحكيم : أخرج الهم من قلبك !! فقال : ليس بإذنى دخل ! .

وراثه الصنعة :

من كلام الحكماء : من عمل عمل أبيه ، كفى نصف المعاش .
أقول : إن التجربات الحديثة كلها تؤيد هذا القول ؛ فقد ثبت مثلاً بالامتحان أن أبناء النساكين في إنجلترا أهدق وأقرب لتعلم النساكة من غيرهم ، وهكذا .

الأدب مع الأشياخ :

كان الإمام ابن خزيمة يضرب به المثل في الأدب لاسيما مع شيخه البوشنجي ، وحين مات شيخه سئل عن مسئلة في أثناء جنازته ، فقال : لا أفق حتى أوارى أستاذي التراب .

يضمن على الله :

بينما كان الإمام ابن حاتم في حلقة الدرس ، إذ جاءه رجل فقال : إن سور طرسوس قد انهدم منه جانب واحتيج في عمارته إلى ألف دينار . فقال الشيخ للحاضرين : من يعمره وأنا أضمن له على الله قصرأ في الجنة ، فقام رجل من العجم وجاء بألف دينار ، وقال : اكتب لي ورقة بهذه الضمانة ، فكتب له الشيخ . ثم إن العجمي مات ودفنت معه الورقة ، فحملتها الريح حتى سقطت في حجر الشيخ ، فإذا مكتوب على ظهرها : قد وفينا ما ضمنتته ولا تعد !! .

الدينار والدرهم :

في الحديث الشريف : « إذا عظمت أمتي الدينار والدرهم ، نزع الله منها هبة الإسلام » . ومن كلام الشافعي في ذلك :

النار آخر دينار نطقت به والهم آخر هذا الدرهم الجارى
والمرء بينهما - ما لم يكن ورعا - معذب القلب بين الهم والنار

بجاورة الصالحين :

كان رجل يسكن خربة بجاورة للجنيذ - رحمه الله - فلما توفي الجنيذ وفرغ من دفنه ، صعد الرجل مكاناً عالياً ، وقال : أتروني أرجع إلى تلك الخربة ، وقد فقدت الجنيذ ، ثم أنشد يقول :

واسنى من فراق قوم	هم المصابيح والحصون
والمدن والمزن والرواسى	والخير والأمن والسكون
لم تغير لنا الليالى	حتى توفهم المنون
فكل جر لنا قلوب	وكل ماء لنا عيون

قال شجى

حضرة الطيب الفاضل الأستاذ أحمد محمد بربرى

—**—

يركب الهول وحيداً ولا يـ صـجـه إلا اليماني الأفل
وفتو مجروا ثم أسروا ليلهم حتى إذا أنجاب حلوا
كل ماض قد تردى بماض كسنا البرق إذا ما يسـل
فأدركنا الثأر منهم ولما ينج ملحين إلا الأفل
فاحتسوا أنفاس نوم فلما هوموا رعتهم فاشتعلوا

يغزو بل يركب الهول وحيداً لا يصحبه غير سيفه الأفل : المثل من طول
ما ضرب به ، على أنه إذا اقتضت الحال قاذفتها أبطالا فسار بهم في الهاجرة ثم سرى
بهم ، فلما تجلى الليل حلوا وكلهم ماض يتقلد سيفاً ماضياً كأنه سنا البرق إذا استل ،
وهم يطلبون ثأراً ، وبالله لقد أدركوه ، فلم يبق من الحيين الذين أوقعوا بهما إلا
القليل ، وكانت الخطة أن يرحلوا مسرعين ، بيد أن النعاس غلبهم فهوموا محتسين
أنفاس نوم لم يتموه لأنه حثهم على المبادرة بالسفر فلم يكسلوا ، بل اشتعلوا ، أو قل
أمرعوا جادين في سيرهم .

إن الحيين الذين لم ينج منهما إلا الأفل ربما لما الشعث أو جمعا الاشتات
ليقتنيا آثار أولئك الفتو الذين فعلوا بهما الأفاعيل ، وقد تجدى الكرة بعد القرية .

فهلا كررت كرة بعد فرقة ألا رب من قد فرثت أقبلا

أجل ، فربما فر الفتى متحرفاً لقتال ، أو متحيزاً إلى فئة ، ولكنه لا بد آخر
الأمر مقبل فنغمس في غمرة الموت .

القائلين إذا هم بالقنا خرجوا من غمرة الموت في حوماتها عودوا
عودوا فاعاد أنكاس ولا كشف عند اللقاء ولا ميل رعاديد
لا شيء أكرم منهم حين قال لهم معرض الموت عن أحسابكم ذودوا

أفلا تهزك تلك البطولة التي يفصح عنها عمرو القنا في شعره هذا .

لقد خرجوا من غمرة الموت والنجاء ميسور ، ولا تريب عليهم إلا أنهم لا يرضون ، لأنهم منتصرون أو مقتولون ولا ثالثة ، يقولون بعضهم لبعض : عوداً إلى الغمرات التي شامت بعض أحوال القتال أن ننأى عنها ، ولقد عادوا وأبلوا أحسن البلاء ، فلم يكن في الناس أكرم منهم حين قال لهم محرضهم على القتال : دافعوا عن أحسابكم .

ولست أدري لماذا كلما سمعت أو قرأت هذا الشعر ذكرته صلى الله عليه وسلم وهو يقول : قم يا عبدة ، قم يا حمزة ، قم يا علي ، يدعو بني عبد المطلب ليقتلوا أو ينتصروا حين أبت كبرياء السادة من بني عبد شمس إلا أن يقاتلوا أكفاءهم من بني عهم ، فلقد ردوا الانتصار الذين برزوا لهم قائلين : أنتم أكفاء كرام ، ولكننا نريد أكفاءنا من بني عمننا ، أفلا يعجبك أدب عتبة وذويه أنهم لم يتعالوا على الانتصار ولم يسيئوا خطابهم : أنتم أكفاء كرام ولكننا نريد أكفاءنا من بني عمننا ، إنه الحق الأسود على الرسول والمهاجرين الأولين ، وبخاصة العشيرة الأقربين ، فإذا خلصوا منهم غربما عادت الأحوال إلى ما كانت عليه قبل أن يصدع صلى الله عليه وسلم بما أمر أن يصدع به ، ورجعت العلائق بين المصريين من مكة ويثرب كما قامت زمنا طويلا ودية طيبة ، بيد أن القوم أرادوا أمراً ، وأراد سبحانه وتعالى أمراً ، ولن يغلب جل وعلا على أمره .

على أنني لست أدري كيف فعلت بي الشيخوخة فتركت « الذي يركب الهول وحيداً ، هو والفقو الذين هجروا ، ثم أسروا ، فأدركوا ثأرهم واستراحوا ، أو لم يستريحوا ، فلقد أزعمهم صاحبهم حين « هوموا ، وكان عليهم أن يشمعوا كيلا يدركهم العدو ، فكيف تراني تسالت من جنازة قتيل بني هذيل الذين طالما قتلهم تقتيلاً قبل أن يصبح دمه في الشعب الذي دون سلع ؟ ..

قلت : لقد كان التسلل منطقياً ، والحديث طبعياً جر بعضه بعضاً .

قال : إياك ثم إياك أن تخدعني ، فما ابتلى الشيوخ أشد الابتلاء إلا بالتلاميذ

المتعصبين السفهاء الذين يرون فى جبة الشيخ شيخهم الأنعم « الروح الأمين » تجسد فى صورة الآدميين ، فى حين أنه فيما علم الله عفرية نفرية من كبار الشياطين الضالين المضللين والعياذ بالله رب العالمين .

قلت : رويد سيدى الشيخ ، فسا كنت بمن يخذعون فيما وراء الجبة ، أو فيمن وراءها ، ولو لعبت بكم الأهواء ، وحرفتم الكلم عن مواضعه لكنت أول الخارجين المشهرين المشنعين عليكم ، المخذرين الناس من أحاييلكم وأضاليلكم ، حاشا لله فسا علمت عليكم من سوء والحد لله .

فلنعد إلى ما كنا فيه إلى الذين احتسوا أنفاس نوم ، فلقد كنت أحسبهم - بناء على قاعدة عود الضمير إلى أقرب مذكور - من الحيين اللذين لم يبق فيهما إلا الأقل . قال : عود الضمير على أقرب مذكور قاعدة ترجع إليها إذا تشابه الأمر عليك ، فأما إذا كان الأمر واضحاً فإنها تكون ضغثاً على إلبالة ، اقرأ مثلاً قوله تعالى : « وإنه لتنزىل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربى مبين وإنه لنى زبر الأولين . أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل ولو نزلناه على بعض الأعجميين . فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين . كذلك سلكناه فى قلوب المجرمين » فهل يرد الضمير من سلكناه إلى أقرب مذكور ، وإذا أنت فعلت أف تكون حيواناً ناطقاً ؟ .

لقد حضرتنى هذه الآيات البينات لأنه جرى ذكر الروح الأمين فى كلامنا ، وإن كتاب الله ليتضمن كثيراً جداً من الضمائر التى لا تعود إلى أقرب مذكور ، والأمر فيها بين فلا لبس ولا غموض .

قلت : والذين يقول فيهم : « وأدركنا الثأر منهم » أفليسوا هم الفتية الذين هجروا ثم أسروا . . كل ماض قد تردى بماض ، ؟ .

قال : نعم هذا إذا لم تكن مارست لغة العرب ، وخبرت أساليبهم ، إن هؤلاء الذين أدركوا ثأرهم منهم لعدوهم الذين لم يجر لهم ذكر ، فالضمير فى « منهم » يعود على مذكور ذهنا لا قولاً ، وذلك من دأبهم أيضاً ، وأمثله فى القرآن كثيرة ،

إن اللغة التي نتكلمها الآن ونكتبها هي عربية من حيث أحكام النحو والصرف ، فأما من حيث الأسلوب والتركيب فإن لغة القرآن والشعر والنثر العربيين تكاد تكون غير مستعملة ، أنا لا أتكلم بطبيعة الحال عن الألفاظ فهي واحدة .. نحن نستعمل الألفاظ نفسها التي كانت العرب تستعملها قبل الإسلام ، إلا أننا نصوغها صياغة لا شك أنها طريقة أعنى جديدة بقدر ما هي سخيفة .

قلت : فهل تريدوننا على أن نسجع ونزواج وما إلى ذلك من المحسنات اللفظية ؟

قال : بل على التقيض أريدكم على أن تنطلقوا مع الفطرة دون تكلف ، فكذلك كانت تتكلم العرب ، وكذلك تجد لغة القرآن .

قلت : أعتقد أننا لو انطلقنا مع الفطرة لجئنا بالعجب العجيب سخفاً وركاكة .

قال : ذلك بأنكم فقراء لغة ، ولو قد كنتم ترمستم بالقرآن ولغة العرب قبل أن يدخلها « التزويق » ، إذن لجئتم بالسهل الممتنع .

إن أحد زملائنا في « المجمع » ليتكلم ويكتب لغة هي البساطة عينها ، ولكنها من حيث التركيب والسلامة لغة الجاهليين ، لغة الشعر الجاهلي والنثر الجاهلي ، ولغة المسلمين أيام محمد صلى الله عليه وسلم .

ولو بعث الله الوليد بن المغيرة لأعجبته لغة صاحبنا هذا الذي أحدثك عنه .

إن دراسة أحكام العربية نحوها وصرفها وبلاغتها وما إليها ليس لها من غناء إلا أن تدعها مخالطة النصوص القرآنية والعربية الفصيحة قبل أيام المحسنات اللفظية التي قد تشبه جداً لغة كهان الجاهلية .

قلت : « قد تشبه جداً ... » ، إن قد هنا للتقليل « وجداً » ، فكيف يجتمعان ؟

قال : « قد تشبه » معناها : قد كانت تشبه ، إن قد هنا كهي في قوله تعالى : « ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون » ، فعل ماضٍ في صورة مضارع ، وأحسبنا تعرضنا لمثل هذا في أحاديثنا الماضية .

قلت : نعم إلا أنه يشبه الأمر علينا كثيراً في كثير من النصوص القديمة ، فلا يتبين بصفة قاطعة أفعل مضارع أم فعل ماضٍ ، ذلك الذي تلا قد ؟

قال : قل ما يرد ذا كرتك من القرآن الكريم مما يأتى المضارع فيه بعد قد .
قلت : « قد نرى قلب وجهك فى السماء » ، « قد يعلم ما أنتم عليه » ، « قد يعلم الله المعوقين منكم » ، « ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسيح بحمد ربك » .
قال : فهذه كلها مواضع ، فلقد رأى جل جلاله عبده ورسوله يقلب وجهه فى السماء ، وعلم ما هم عليه والمعوقين منهم ، وأنه صلى الله عليه وسلم ضاق صدره ، بل كان يضيق كثيراً مما يقولون .
قلت : لقد استشهد السيوطى فى « الجمع » بقوله : « قد يعلم ما أنتم عليه » للمضارع المحقق الوقوع بعد قد .

قال : لقد اضطرب الإمام السيوطى فى هذا الباب كما اضطرب القدماء قبله ، ألا يكفيك أنه ناقض لإذ استشهد بقول الشاعر :

قد أترك القرن مصفراً أنامله

على أن قد تغليبية ، يعنى أن « أترك » هنا مضارع أو مستقبل لفظاً ومعنى ، وأن قد قلته (الجزء الأول ص ٧) ثم أورد البيت نفسه فى الجزء الثانى ص ٧٣ مستشهداً به على أنها للتكثير .

على أنه لا خفاء فى معنى البيت ، والشاعر إنما يفتخر بأنه بطل مغوار قتال ، طالما ترك مبارزه وقد اصفرت أنامله إذ نزع دمه ، إنه ليزهو بأنه فعل ذلك كثيراً بالأبطال ، ولا يمكن أن يقال إنه يفخر بأنه قلباً فعل هذا ، فكون قد تغليبية فى هذه الحال مستحيل .

لقد قال القدماء - بحق - إنها خبرية مثبتة ، ويقتضى هذا أن الفعل بعدها لا بد ماض لفظاً ومعنى ، أو معنى ، وإن كان فى صورة المضارع .

إن المضارع فى كل الآيات القرآنية التى ذكرت لماض من حيث معناه ، وإن كان مضارعاً من حيث مبناه .

قل ما يحضرك بديهة من الشعر العربى الجائز الاستشهاد به بما يلى فيه قد المضارع .

قلت :

ولقد أمر على اللثم بسبني فضيت نمت قلت لا يعنيني
وقد أتلافى الهم عند احتضاره بعوجاء مخزام تروح وتعتدى
وقد تعدى على الحاجات حرف كركن الرعن ذعليه عقيم
وقد أغدو تدافعني سيوخ كأن نسورها عجم جريم
ولقد أبيت ضجيع كل مخضب رخص الأنامل طيب الأردن

قال : قدى وقطى من الشعر ، وربما قل أدبك وتجاوزت البنان المخضب
والأردان المعطرة إلى أشياء أخر ليس من شأن مثلى أن يذكرها أو يذكرها .
وأنها لايبات خمسة قد فى كلها داخلة على ماض معنى مضارع مبنى .
وأكاد أقطع - وإذا شئت حذفته أكاد - بأنك لن تجد فى الشعر العربى ،
ولا فى القرآن فعلا مضارعا بعد قد إلا على هذه الشاكلة .

قلت : معنى هذا أنكم تنكرون ما أجمع عليه القوم ، فما اختلف اثنان ، ولا
انتطح عزان فى أن قد ، تجيء تقيلية يليها المضارع مبنى ومعنى .

فقد يجمع الله الشيتين بعد ما يظنان كل الظن ألا تلاقيا
فقد تلتقى الأهواء بعد تفرق وقد تدرك الحاجات وهى بعيد

قد يجمع الله الشيتين قد ، يلتقيان بعد تفرق ، قد تدرك الحاجة البعيدة ،
أولئك أحداث متوقعة ، والتوقع لا يكون إلا مستقبلا ، وإنما أفاد التوقع هنا
قد هذه التقيلية .

قال : على رسلك ، فإن المضارع متوقع بحكم كونه مستقبلا لا بدخول قد عليه ،
لاحظ ذلك القدماء أنفسهم ، وأذكر منهم رجلا من كبار متعقلة النجاة : ابن هشام ،
على أن الذى لا شك فيه هو أن الأفعال فى الشعر الذى أنشدت ماضية فى صورة
المضارع ، ذلك بأنه إذا قال : عواذل قيس ليل ، أو قيس لبنى ، أو جميل بثينة ، تسل
عنها فقد بعدت ، وقبلها يلتقى الشيتان ، فإن جوابه حتما وبالضرورة : ولماذا لا يجتمع
لقد جمع الله الشيتين بعد يأس ، أو بعد أن اعتقدا أنه لا تلاقى ، وقد أدركت الحاجة

وهي بعيدة ، أما أن يكون جوابه : قلنا يلتقي الشيتان ، أو قلنا تدرك الحاجات البعيدة ، فهو لا يريد على أن يكرر كلام العواذل ، إذا كانت قد يجمع الله « الشيتين » تساوى قلنا يجمع الله الشيتين - وإنما لكذلك إذا حجوت الفعل مستقبلاً بعد قد - فإنها لا تصلح جواباً من ذلك الذى يصر على أن يظل سادراً فى هواء ، ولكنها خير جواب إذا كانت قد كما قال القدماء أنفسهم خبرية مثبتة : دعونى أيها العواذل ، أفليست حجتكم أننا تشتتنا فطلبي بعيد . . ألا فإنه قد التقت الاشتات وقد أدركت اللبانات وهي بعيدات .

كذلك يقول مجنون بنى عامر أو غيره مما يروى لهم الشعر الذى سقته ، وذلك هو اللسان المبين ، ودعك مما قال المتأخرون أو المتقدمون .

قلت : وإذا قلت قد يجود البخيل ، أو قد يشقى صاحب الداء العضال .

قال : فذلك معناه : قد جاد البخيل ، وشقى صاحبه الداء العضال .

قلت : فإذا قلت قد يجود زيد وهو البخيل المعروف المشهور - مثلاً - فما أحسبكم تستطيعون أن تقولوا : معناها : قد جاد زيد .

قال : ولماذا لا أستطيع ؟ بل لى لقائل إياها . . إن زيدا فى مثل هذا التعبير إنما يفصح عن حالة أنه بخيل جداً ، وقد رغبت إليه مثلاً فى أن يسهم فى عمل خيرى فقيل لك : إنه زيد فكيف تريده على أن يحسن ؟ يعنى : أنه البخيل أو عين البخيل ، فكيف تطمع أن يجود ؟ فتقول : قد جاد زيد ، أى البخيل ، ويحتمل أن يجود هذه المرة كما جاد مراراً سلفت قلت أو كثرت .

إنه لمن شأن العرب أن يتخذوا العلم تعبيراً عن حالة أو صفة غالبية ، فانت تعلم مثلاً أن « لا ، تنفى الجنس لا العلم ، إلا أنهم قالوا : قضية ولا أبا حسن لها .

لقد اتخذوا « الإمام ، مثلاً معبراً عن حاله هى مثالية القضاء ، كأن أبا حسن تفيد فى أصل وضعها « القاضى القدوة ، فإذا جدت قضية ورأيت قاضياً غير أهل لها قلت : قضية ولا أبا حسن لها ، إن أبا حسن هنا ليس كنية ولا لقباً ولا علماً ، وإنما هو وصف ، أحسبني أوضح معناه إيضاحاً ليس وراءه إلا اللجاج .

فإذا أنت قلت : قد يجود زيد ، فزيد معبر عن حال هي البخل ، ولقد جاد البخيل ، وشجع الجبان ، وشقى صاحب الداء العضال ، إلى آخر ما يمكن أن يجيء بعد قد لإفصاحاً عن هذا المعنى الذى أبدأت فيه وأعدت ، وما أظنك إلا قد فهمت ، خذها عن شيخك الذى كشف فى النصف الثانى من القرن العشرين ، أن القدماء فاتهم أن يحققوا معنى د قد ، تحقيقاً كافياً شافياً .

قلت : أجل فى الوقت الذى كشف فيه بعض الناس - أو كادوا - سكان المربخ أو الزهرة .

قال : كل ميسر لما خلق له ، وهؤلاء الذين كشفوا ما شاء الله أن يكشفوا من شؤون السماء والأرض لم يفهموا اللغويون الذين يتحدثون ويكتبون فى مثل ما نتحدث به ونكتب .

قلت : حدثنى فقيه ثقة من فقهاءنا اللغويين د الدكتور ظاظا ، عن مستشرق غربي له مبحث فى د قد ، العربية ، فأدى به إلى أن أصل اشتقاقها من د قدم ، لا من د قد ، بمعنى قطع ، فهى تدل على معنى الفعل ، بل على قدمه : قد قام محمد ، تساوى قدم قيام محمد .

قال : سواء أكان مرجعها إلى د قدم ، أم إلى د قد ، فإنها فى كلتا الحالين مردودة إلى الماضى ، إن الماضى كان على كل حال ، أى قدم ، أو قد ، أو انصرم ، إن رد الفروع إلى أصولها التاريخية أو اللغوية له طرق عدة كلها معقول ، وعلم الحقيقة عند علام الغيوب ، ولكنى أحرص على أن تعرف أن القرآن الكريم يستعمل عسى ورب فى المواضع التى يستعمل فيها الكتاب د قد ، للتقليل د نفسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ، د عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، د عسى الله أن يأتى بالفتح ، د ربما يود الذين كفروا ، فلو أن كاتباً ممن يكتبون فى أيامنا وردته هذه المعانى لقال : فقد تكرهون شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ، قد تكرهون شيئاً وهو خير لكم ، وقد تحبون شيئاً وهو شر لكم ، قد يود الذين كفروا ... الخ . لست أدري : أقلت لك إن د قد يفعل ، تساوى ما يسمونه بالفرنسية الماضى الناقص : كان يفعل ، فلو أن

الكتاب الذين يعرفون اللغات الاوربية حفظوا هذا الضابط : استعمال قد يفعل فى مقام كان الناقصة لسدت لغتهم ، وأحيوا تعبيراً عربياً سليماً يكاد يكون ميبأ الآن مع شدة الحاجة إليه .

قلت : أظن العرب والمسلمين عامة فى شغل شاغل عن « قد يفعل » وكان الناقصة والأخرى التامة ، وإذا هم أضاعوا وقتهم وجهدهم فى مثل هذا الهراء ، فإنها والله لضیعة ، إن العالم حوالينا يشتغل بغزو السماء ، فكيف تريدوننا على أن تستمر أحاديثنا فى الخبر والإنشاء ، وباب « فعلان فعلى وأفعل فعلاء » .

قال : تأبى إلا لغو القول والفسطة التى أضاعت كثيرين وردتهم أسفل سافلين ، أفرأيت صاحب الخبر والإنشاء ، وفعلان فعلى وأفعل فعلاء صدوا أصحاب الفضاء أو أرسلوا على رواد السماء شواظاً من نار ونحاس فعاقوهم أن ينتصروا ؟ أم رأيت الذين فرحوا بما عندهم من العلم لم يعلوا إلا بعد أن أهملوا لغاتهم أن يفقهوها ، وسخروا بعلبائها أن يتدارسوها ؟ أ رأيت « غربيين وشرقيين » ، « يمانيين ويساريين » عدوا فقه اللغة حرماً محظوراً وحجر محجوراً ، فأنت تتشبه بهم من باب « أن التشبه بالرجال فلاح » ؟ .

إن هذه اللغة العربية - أعنى اللغة القرآنية - لهى حجر الأساس فى الوحدة الإسلامية والعربية سواء ، ألا إن سلمان الأصفر وصهيبا الأحمر وبلالا الأسود إنما كانوا عرباً - أعنى معربين بلسان عربى مبين - لى لأعرف ناساً درسوا - على كبر السن - الانجليزية ليقروا ما كتب شكسبير ، أو الفرنسية ليقروا ما كتب راسين ، أو الألمانية ليقروا ما كتب جوته . أفلا تستحق حياة الأبد أن يدرس من أجلها لغة القرآن الذى لا يمكن أن يفقهه فقيه إلا أن يكون من فقهاءنا ؟ .

قلت : فى الترجمة غناء لمن كان له قلب .

قال : هذه فرية بدليل أن إعجاز القرآن يصبح فرية إذا أنت جعلته ألمانيا أو انجليزية أو روسيا ، لقد جعله سبحانه وتعالى قرآناً عربياً لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

قلت : تبعد الشقة ويتناول الدهر لو أردنا أن نتخذ العربية الفصحى أداة عاملة في صرح الوحدة الإسلامية .

قال : بل هو السهل يمتنع إذا انتفى شرطان ، ويتحقق ما تحققاً ، أفليست العلة دائرة مع المعلول وجوداً وعدماً ، والظاهر أني أخرف ، أفلا تراني أخطئ بين العلة والمعلول ، وبين السبب والمسبب .

قلت : العلة والمعلول ، والسبب والمسبب أمور عسى أن تفرغ لها يوماً ما ، أما اليوم فنحن في الشرطين اللذين إذا تحققا تحققت الوحدة التي تنتقى بقدر ما ينتفیان ، ما ذا يكونان ؟ .

قال : الإيمان والعمل ، وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبشكم بما كنتم تعملون ، ٢

لا بد من دين الله لدنيا الناس

لمحاضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ بس سويلم ط
من كبار علماء الأزهر

إن حاجة الناس في حياتهم الفردية والجماعية إلى هداية الدين السماوي ، حاجة قضت بها الحكمة التي خلقت لها ، والفطرة التي فطروا عليها ، وترجع هذه الحاجة في تفصيلها إلى الأصول الآتية :

الأصل الأول : أن الإنسان لم يُخلق في هذه الحياء عبثاً ، ولا جاءت به العناية الإلهية إلى العالم الأرضي ليترك فيه سدى ، تتحكم فيه غرائزه وأهوائه ، وتستعبده شهواته وأطماعه ، وإنما خلقه الله تعالى ليكون خليفة في الأرض ، يعمُرُها ويمشي في مناكبها إلى أجل مسمى ، ويحمل فيها أمانة الشرائع السماوية قياماً بحقوق الألوهية والربوبية ، وتجرى عليه قوانين المسؤولية والجزاء ، تحقيقاً لما تقضى به قواعد العدالة الإلهية .

وهذه الحكمة التي خلقت لها ، تقتضى أن يكون عالماً بما يجب أن يُعلم من صفات الله تعالى وشئونه في أفعاله ، عارفاً بالغاية التي خلق لأجلها ، والحقوق والواجبات المترتبة على هذه الغاية ، ملماً بأحوال الدار الآخرة التي إليها مرثؤه ، وفيها حسابه وجزاؤه ، غير أن الإنسان مهما سما عقله وفكره ، واتسعت دائرة إدراكه وتفكيره ، لا يستطيع أن يحقق هذه المطالب بنفسه ، ولا أن يصل فيها إلى الحق واليقين بمجرد عقله وفكره .

أما بالنظر لشئون الألوهية والربوبية ، فلأن العقل لا يستطيع أن يستقل بمعرفة ما يجب أن يعرف من صفات الله تعالى وشئونه في أفعاله ، لضغفه عن مقاومة سلطان الوهم والخيال عند ما يقتقد الرائد والمرشد ، ووقوف إدراكه بسبب أو هام

الخيال عند حدود العوالم المادية والمشاهد الحسية ، فكيف يتسنى له مع هذا الضعف والوقوف عند مدارك الحواس ، أن يصل بإدراكه الذاتي إلى معرفة شئون الإله الحق ، الذى احتجب عن الحواس بحجاب العظمة والجلال ، وتعالى ذاته العلية عن الإحاطة والإدراك ، وتزهت صفاته القدسية عن المشابهة والمماثلة .

ومما يؤيد هذا الذى قررناه تأييداً واضحاً ، أن المتقدمين من كبار الفلاسفة وشيوخهم ، وهم من صفوة أرباب العقول المفكرة ، والبصائر النيرة ، والاحاسيس المرهفة ، وقفوا فى مباحث الإلهيات حيارى فى منتصف الطريق ، وتشعبت عليهم مسالك البحث والنظر ، وتخطوا فى هذه المباحث التى أفنوا فيها أعمارهم ، ولم يستطيعوا بكل ما وضعوا من قوانين النظر والاستدلال ، أن يصلوا إلى الحقائق الخالصة من شوائب التضليل والتلبيس ، وجاءوا بعد طول المطاف بخليط من الوثنية والتوحيد ، ومزيج من المذاهب الفلسفية التى لا تغنى من الحق شيئاً ، وكان أوضحهم فى ذلك نحجة ، وأصحهم رأياً ، وأصدقهم حديثاً ، من كان منهم على صلة بشرائع الانبياء والرسل ، فقد كانت صلتهم بالشرائع السماوية تضفى على عقولهم قبساً من صحة النظر ، واستقامة التفكير .

وأما بالنظر إلى معرفة الغاية التى خلق لها ، والحقوق والواجبات المترتبة عليها ، والإمام بأحوال الآخرة التى يرجع إليها ، فلأن العقل لا يستطيع أن يستقل بفهم ما يجب أن يفهم من شئون الدار الآخرة وأحوالها ، وما يتصل بها من الأقوال والأعمال التى ربط الله بها السعادة أو الشقاوة فيها ، لأن ذلك فوق مستوى إدراكه الذاتى ، وتفكيره الاستقلالى ، وإنما يُعرف ذلك كله عن طريق الوحي الإلهى ، وإرسال الرسل ، وتشريع الشرائع ، ولهذا ربط الله مسئولية التكليف والمواظدة بإرسال الرسل وتبليغ الشرائع ، لا بمجرد بلوغ الرشد واكتمال العقل ، كما قال تعالى فى سورة الإسراء : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » .

فهذا الأصل كما ترى ، يقضى بحاجة الإنسان فى كل زمان ومكان ، إلى هداية سماوية ترفع عن عقله غواشى الوهم والخيال ، وتكشف له عن الحقائق المتعلقة

بشئون الالهية والربوبية ، وشئون الدار الآخرة وأحوالها ، وتبين له مناهج السلوك التي تحقق الحكمة التي خلق لها .

الأصل الثاني : تفاوت الناس في نظرهم إلى أوضاع الحياة وصورها ، وتحديد مطالبها وغاياتها ، وتعيين الوسائل الموصلة إلى هذه المطالب والغايات ، فإن الإنسان في حياته الفردية والجماعية له غاية يسعى ليدركها ، وهذه الغاية التي يسعى وراءها ، ويكافح من أجل الحصول عليها ، هي السعادة التي يهتف بها بحسه ووجدانه ، وتترامى له في أحلامه وآماله ، غير أن هذه السعادة التي هي الأمل المرجى والمطلب المرتقب ، قد اختلفت أنظار الناس في فهم حقيقتها ، وتقدير مظاهرها ، وتعيين مواطنها ، وتحديد وسائلها ، وذهبوا في ذلك وراء اختلاف الأهواء والنزعات مذاهب شتى ، فمنهم من يراها في أن يعيش على هامش الحياة هملًا ، يأكل ويتمتع كما تأكل الأنعام السائمة ، ومنهم من يراها في الإغراق والإسراف في تمتع الحياة ولهوها ، ومنهم من يراها في الإباحية والإلحاد ، والتحلل من قوانين الأخلاق وقواعد السلوك ، ومنهم من يراها في جمع المال واستعباد الرقاب ، وقليل منهم من يراها في استقامة السلوك وإن اختلفوا في صورته ومناهجه ، كما يشير إلى ذلك كله قول الله تعالى في سورة المؤمنون : « كل حزب بما لديهم فرحون ، فذرهم في غمرتهم حتى حين ، وفي الإسراء : « قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا ، وهكذا تفاوتت الأنظار والأفهام ، وتباعدت الميول والمشارب ، وغابت الحقائق عن العقول في غمرة الأهواء والشهوات .

فهذا الأصل كما ترى ، يقضى بحاجة الناس في كل زمان ومكان ، إلى هداية أعلى من هداية العقل والحواس ، تكون القول الفصل فيما فيه يختلفون ، والمرجع الأعلى في تكييف أوضاع الحياة وصورها ، وتحديد مطالبها وغاياتها ، وتعيين الوسائل الموصلة إلى هذه المطالب والغايات ، وتوضيح حقيقة السعادة التي ضلت طريقها الأنظار والأفهام ، وهي هداية التشريع السماوى ، الذى لا تقترب منه عوامل الزيف والانحراف ، ولا تشوبه شوائب التضليل والتلبيس ، ولا تتحكم في

مناجحه الأهواء والنزعات ، ولا تلتوى بمقاصده الأغراض والأفهام ، لانه وضع
إلهي نزل بالحق من عالم الحق ، لا وضع بشري جاء من تفكير العقل أو من وحي الهوى .

الأصل الثالث : عوامل الزيف والانحراف والإغراء ، التي تحيط بالإنسان
وتسير معه في حياته جنباً إلى جنب ، والتي تتجلى أصولها في سيطرة الخيال وأوهامه ،
وطغيان الهوى وتحكمه ، ووحى الشيطان ووسوسته ، وشره الغرائز وجوحها ،
وطغيان النفس في مطالبها وشهواتها .

فإن الإنسان من حيث هو إنسان بعقله وحواسه فحسب ، مستعد بفطرته
لأنطلاقه وراء الوهم والخيال في تضليل العقول وإفساد العقائد ، وخضوعه لتحكم
الهوى في تفكيره وسلوكه ، وطاعته للشيطان في وحيه وإغرائه ، وانقياده لشره
الغرائز وجوحها ، وتسخير عقله وحواسه في سبيل إشباع غرائزه ونزواته ، وتحقيق
مطالبه وأطماعه ، والمطالب والأطماع لا تقف عند حد ، وكثيراً ما تمتد هذه المطالب
والأطماع إلى ما في يد غيره ، فيقع التنازع والتعادي بين الأفراد والجماعات ، ويشهر
القوى على الضعيف سلاح بغية وعدوانه ، وقد يصبح الضعيف قويا ، فيرد لخصمه
صاع البغي صاعين ، والشر بالشر والبادي أظلم ، وهذا هو شأن النفوس ما دامت
منطوية على ميول جامحة ، وشهوات مطاعة ، وأهواء متبعة ، وليس لها مع ذلك
وازع يزعها ، ولا مرشد يرشدها ، وإذا وصل الإنسان في غيه وانحرافه إلى هذا
الحد ، واسترقت الأهواء عقله وفكره على هذا النحو ، فكيف يتسنى له أن يعيش
سعيداً كريماً في مجتمع سعيد كريم .

فلكى يتأتى له أن يعيش سعيداً كريماً في مجتمع سعيد كريم ، يجب أن يكون
في سلوكه الفكري والخلق والعمل ، صحيح الإدراك ، سليم التفكير ، مالكا لزمام
أهوائه وأطماعه ، كابحاً لسورة غرائزه وشهواته ، واقفاً بمطالب النفس عند حدود
التوسط والاعتدال ، بيد أن هذا السلوك لا يمكن أن يتحقق له بمجرد تدبير العقل
وأعمال الفكر ، لأن العقل من حيث هو عقل بشري تحيط به عوامل الزيف
والانحراف ، لا يستطيع أن يستقل بقيادة القوى الإنسانية والغرائز الفطرية قيادة
حكيمة ، تسير بها على النهج الذي يحقق للفرد وللجمتمع سعادة المعاش والمعاد ،

بل يحتاج في قيادته لها على هذا النهج الصالح ، إلى رائد من نور الوحي السماوى ، يسترشد به في قيادته ، ويسير على توجيهه وهديه ، في تعرف مواطن الخير والشر ، ومواقع الصواب والخطأ ، ويستعين به على مقاومة عوامل الزيف والانحراف ، فثقل العقل في ذلك كمثل العين الباصرة ، فإنها لا تستطيع أن ترى الأشياء رؤية صحيحة كاملة ، إلا إذا سطع عليها ضوء خارجى ، تستعين به على رؤية ما أمامها من المراتب على حقيقتها ، وأما ما دامت في جو مظلم ، فإنها لا تستطيع أن تقوم بوظيفتها ، وإن كانت موجودة بجوهرها وطبيعتها .

وأما ما نراه اليوم من بلوغ العقل شأواً بعيداً في المجال الفكرى والقيادى ، فليس ذلك من قبيل الطفرة والابتكار المحض ، وإنما هو راجع في أصله إلى هداية الدين السماوى ، ومبنى في تطوره على نتاج العقول السابقة ، كما تقضى بذلك سنة التدرج والترقى ، ولهذا يقولون : « نهاية المتقدم بداية المتأخر » ، فكل حلقة من حلقات الرقى العقلى ، مبنية على الحلقة التى قبلها إلى منتهى الحلقة الأولى ، وهى الحلقة التى استمدت علومها من الوحي السماوى الأول ، الذى علم آدم وأولاده في أول مرحلة من مراحل الوجود الإنسانى ، ما يحتاجون إليه في حياتهم من مقومات الحياة ومناهج السلوك ، ويستطيعون البناء عليه في تنظيم شئونهم وتدبير معاشهم ، ويسترشدون به في سيرهم وسلوكهم .

فهذا الأصل كما ترى : يقضى بحاجة الإنسان في كل زمان ومكان ، إلى هداية روحية سماوية ، تحرر عقله من سيطرة الأوهام والخرافات ، وتضىء له طريق النظر الصحيح والتفكير السليم ، وتبين له معالم الحق ومسالك الرشاد ، وتطابق فكره من رقى الأهواء وطغيانها ، وتكشف له عن خبايا مداخل الشيطان وجبائله ، ويستعين بسلطانها الروحى على كبت سورة أطماعه وشهواته ، وكبح جماح غرائزه ونزواته ، ووزن مطالب الحياة بميزان القسط والاعتدال .

هذه هى الأصول التى قامت عليها حاجة الناس في كل زمان إلى هداية الدين السماوى ، إذ لو مُترك الإنسان بدون هذه الهداية أمام هذه العوامل والنوازع ، تسير به في سلوكه على النهج الذى تملبه عليه طبيعتها ، لتشعبت عليه المسالك ، وتفرقت

به السبل ، وطاحت به الأهواء ، واستحالت حياته إلى شقاء ، بل لآل أمره إلى الزوال والفناء ، ولكن الله الذى أحسن فى كل مخلوق خلقه ، وأبدع فى كل مصنوع صنعه ، ويسر لكل كائن وسائل الحياة والبقاء إلى الوقت المعلوم ، قد أراد لهذا الإنسان أن يعمر الأرض إلى أجل مسمى ، وأن يبلغ فيها الكمال الذى قدره له ، فتحه بفضل ورحمته هداية روحية سماوية ، تسير بتعاليمها مراحل السير وأطوار الحياة فى كل زمان ومكان ، وتضع للسائرين فى ركب الحياة من قواعد السلوك ما يكفل لهم وسائل الحياة والبقاء ، ويدفع عنهم عوامل الشقاء وأسباب الفناء ، ويحقق لهم سعادة الدنيا والآخرة ، وتناجى الأحاسيس ، وتوقظ العقول والضمائر ، وتهيمن بسلطانها الروحي على القلوب والأرواح ، وتراقب الإنسان فى سره وجهره ، وتبعث فيه قوة اليقين وصحة النظر واستقامة التفكير ، وترفع عن بصره وبصيرته غشاوة الأوهام والأهواء التى طالما عكست عليه حقائق الأمور ، وقلبت له أوضاع الحياة ، وهذه الهداية التى تحدثننا عنها ، هى هداية الشرائع الإلهية التى نزلت من عالم الحق ، والتى بشرت بها الأنبياء والرسل ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وأما ما يزعمه دعاة اللادينية والتحلل من تعاليم الدين ومبادئه ، من أن ما وصل إليه الإنسان من الرقى العقلى والنضوج الفكرى ، واتساع آفاق حضارته ومدنيته ، يقوم مقام الدين السماوى فى إصلاح حال البشر ، وبناء المجتمعات التى تكفل لأهلها الأمن والاستقرار ، وتوفر لهم أسباب السعادة والرفاهية ، فإنه زعم كاذب يتخذونه ستاراً لإخفاء سوء نياتهم ، وخبث طوياتهم ، وتضليل الذين يقفون بأبصارهم عند ظواهر الأمور ورؤسومها ، ولا ينفذون ببصائرهم إلى بواطنها وخوافيها ، فإن الحضارة التى لا تؤمن إلا بالحياة المادية البحتة ، التى تقوم على الإباحية والإغراق فى متع الحياة ولهوها ، والتحلل من قوانين الأخلاق والفضائل ، والاستهانة بالمعانى الروحية والقيم الخلقية ، لا يمكن أن تقيم مجتمعاً يسوده الأمن والاستقرار ، والمحبة والإخاء ، وتمثل فيه حكمة الوجود الإنسانى بأعبائها ومسئولياتها ، لأن هذه الحضارة المادية مهما بلغت من البراعة فى العلوم والفنون ما بلغت ، لا يمكن أن تحمل أصحابها على احترام حقوق الإنسان ، والتزام قواعد الحق والعدل ، ولا

تستطيع أن ترد عقولهم إلى رشدها إذا أجمعت بهم الاطاع والاهواء ، أو دفعتمهم القوة الفاشمة إلى العدوان وسفك الدماء ، وكيف تحملهم على احترام حقوق الإنسان والزام قواعد العدل ، وهي لا تؤمن بقدسية الحقوق الإنسانية ومبادئ الحق والعدل ، وكيف تستطيع رد عقولهم إلى رشدها إذا أجمعت بهم الاطاع والاهواء ، وهي التي يسرت لهم وسائل الطغيان والعدوان ، وسهلت عليهم الاستخفاف بقدسية المعهود والمواثيق ، وفتحت لهم مسالك الغدر والخديعة في سلمهم وحربهم ، فهم إن سالموا فإنما يسالمون للخديعة والغدر والخيانة ، وإن حاربوا فإنما يحاربون لاستعباد الشعوب واحتلال الأوطان .

ولسنا في حاجة إلى استخراج الأدلة على ذلك من الماضي ، ففي الحاضر أصدق الدلائل وأبلغ العبر ، فإن هذه الحضارة التي يقدسونها ، ويتحدثون عن علومها وفنونها ، ويريدون الاستغناء بها عن الدين ومبادئه ، هي التي ابتدعت لاهلها أشنع أنواع الفسق وصور الفجور ، وحببت إليهم الإمعان في الإباحية والتحلل ، وهي التي زينت لهم أن يستبيحوا في سبيل أطعاهم ومآربهم ، كل وسيلة من وسائل الدس والوقعة ، والغدر والخديعة ، وهي التي يسرت لهم أن يتخذوا من علومها وفنونها معاول للتخريب والتدمير ، وأسلحة فتاكة للبغى والعدوان وسفك الدماء ، واستذلال الشعوب واستعباد الأمم ، ولهذا تراهم يتظاهرون بأنهم حماة الحرية وحراس العدالة والمساواة ، وأنهم هم الذين قرروا حقوق الإنسان ، ووضعوا مبادئ الإغاثة الإنسانية والتعاون الاجتماعي ، حتى إذا دفعتمهم المطامع والقوة الفاشمة إلى ميدان الصراع والغلب ، داسوا بأقدامهم أقدس حقوق الإنسان ، واستهانوا بكل عرف وقانون ، وصبوا الهلاك والدمار على البلاد والعباد ، وقتلوا الشيوخ والنساء والأطفال ، واستباحوا الأموال والأعراض ، وملأوا الدنيا خوفاً وفزعا ، والأرض ظلما وجورا ، والحياة شقاء وبؤسا ، لا يرعون في حقوق الأفراد والجماعات عهداً ولا ذمة ، ولا يعرفون في حروبهم شفقة ولا رحمة ، كأن قلوبهم قُدت من الصخر ، وأجسامهم تجمعت أرواح الشياطين ، هذا هو حظ الإنسانية من هذه الحضارة التي أسرفت في سفك الدماء المعصومة ، وإزهاق الأرواح البريئة ، حتى سالت الأودية

بالمهج ، واخضلت الرثا بالدماء ، وتجاوبت أمواج الأثير بأنين الضحايا والشهداء ، وضجّت جوانب الأرض من بشاعة ظلم الإنسان لأخيه الإنسان .

وهذه هي مقاصدهم التي سخرُوا لها علومهم وفنونهم ، والتي قامت عليها سياستهم في الفتن والاستعمار ، وهذا هو شأنهم في ماضيهم وفي حاضرم ، لأنهم لا يدينون في عقائدهم وسلوكهم بشرائع الأنبياء ، ولا يخافون في أعمالهم ومعاملاتهم يوم العتب والحساب والجزاء .

فوازنوا يا أرباب العقول المنصفة ، بين هذه الحضارة المادية وحظ الإنسانية منها ، وبين الحضارة التي تقوم على هدى الدين ومبادئه ، والتي تستطيع بسلطانها الروحي أن تحمل أهلها في سلمهم وحرهم على احترام حقوق الإنسان والزام قواعد الحق والعدل ، فإذا سالموا فإنما يسالمون لنشر الأمن والاستقرار ، وتقوية أواصر المحبة والإخاء ، وتوثيق عرى التعاون الاجتماعي بين الأفراد والجماعات ، وإن حاربوا فإنما يحاربون لمحق العدوان والطغيان وتحرير الشعوب ، لأن سلطان الدين الذي ملأ فراغ قلوبهم ، وملك عليهم حواسهم ومشاعرهم ، وهيمن على تفكيرهم في تصرف شئونهم ، يعصمهم في سلمهم وحرهم من تغلب المطامع والآهواء على عقولهم وتفكيرهم ، فلا تبلغ بهم الآهواء والأطماع إلى حد الطغيان والعدوان ، ولا يصل بهم حب الغلب في ميدان الصراع الحربي إلى حد الوحشية والقسوة ، والامتهانة بقسوة العهود والمواثيق ، والاستخفاف بمبادئ الحق والعدل ، والتجرد من المعاني الإنسانية والخلق الكريم ، وما تقدم تتضح لنا الحقائق الآتية :

(١) أن الحضارة المادية بكل فلسفتها وعلومها ومكتشفاتها ، لا تستطيع أن تستقل بإصلاح حال المجتمع لإصلاحاً يكفل له الأمن والاستقرار ، وينشر في ربوعه الطمأنينة والسلام ، وأن هذا الإصلاح لا يمكن أن يتحقق في أي زمن من الأزمان ، إلا عن طريق الجمع والمؤازاة بين الدين والعلم ، وسيرهما معاً في الإصلاح جنباً إلى جنب ، الدين للقيادة الروحية وإصلاح مناهج السلوك ، والعلم للكشف

والإنتاج وإصلاح أمور المعاش ، ورجال كلِّ لكلِّ في البناء والإصلاح أعوان وأنصار .

(٢) أن ارتقاء الأمم في العلوم الكونية والحضارة المادية ، إذا لم يكن قائماً على تعاليم الدين التي توجهه إلى خير الإنسانية وسعادتها ، فإنه يكون بلاء للشعوب ، ومحنة للأمم ، لأن هذه العلوم والفنون لا بد لها من مجالات تظهر فيها ثمارها ، فإذا لم توجهها تعاليم الدين إلى مجالات الخير والبناء والإصلاح ، وجَّهتها الإطعام والآهواء إلى الشر والهدم والإفساد لا محالة ، وهذا هو الواقع الذي نراه بأعيننا ونسمعه بأذاننا ، فقد أصبحت هذه الحضارة مهددة في كل لحظة بالتدمير والقضاء .

(٣) أن بُناة هذه الحضارة المادية لو أنهم أقاموها على أساس روصى يكبح جماحها وطفئانها ، وساروا بها على هدى الدين السماوى ، لكانت من أنجح الوسائل في إصلاح حال البشر ، وأقوى العوامل في دعم روابط الأمم وتعاونها .

فهلا آن لشعوب الحضارة المادية وقد أٌحقق بهم خطر الجبروت الحربى ، واشتدت عليهم وطأة الحياة المادية وأوزارها وشرورها ، أن يتجهوا بعلومهم وفنونهم إلى الخير والإصلاح ، ويعودوا بمقاصدها إلى حظيرة الدين ومبادئه وتوجيهاته ، إنهم لو فعلوا ذلك لوجدوا في يسر الحياة الدينية وسلها ، وصفاتها واستقرارها ، شفاء لما في صدورهم من الأحقاد والأضغان ، وسكناً لما في نفوسهم من القلق والاضطراب ، وراحة لقلوبهم من مزيجات الشك والارتياب ، ولعاشوا في مجتمعات يسودها التعاون والإخاء ، ويجمع شتاتها الحب والوفاء ، وتملأ آفاقها عوامل الطمأنينة والاستقرار والسلام .

بطلان العقود في الشريعة الإسلامية والقانون الوضعي

للدكتور مختار القاضي

العضو بالمكتب الفني لمحكمة النقض

سنفكلم في هذا الموضوع أولاً : عن مراتب البطلان وأسبابه .
وثانياً : عن آثار البطلان .

١ - مراتب البطلان وأسبابه :

لم يكن القانون الروماني يعرف إلا نوعاً واحداً من البطلان لا يتفاوت في درجته ، فالعقد في نظر القانون الروماني إما عقد صحيح يؤتي آثاره كلها ؛ وإما عقد باطل لا يؤتي شيئاً مما يؤتيه العقد الصحيح .

أما أسباب البطلان في القانون الروماني فهي متعددة ، منها ما يرجع إلى الشكل حيث كانت العقود تتم في العهد الأول بمراسم وشكليات لا بد منها ، ومنها ما يرجع إلى عيب من عيوب الإرادة ، وقد شاع ذلك النوع من البطلان في العقود الرضائية في العهد المدرسي « المتأخر » للقانون الروماني بعد أن تحررت معظم العقود من الشكليات .

وقريب من النظرية الرومانية في البطلان رأى جمهور الفقهاء المسلمين ، عدا الأحناف ، فالجمهور يرى مرتبة واحدة من مراتب البطلان تلحق العقد ؛ فهو إما أن ينقذ صحيحاً ويؤتي آثاره كلها ، وإما لا ينقذ أصلاً ويعتبر باطلاً ، فلا يؤتي شيئاً مما تؤتيه العقود الصحيحة .

وحجة جمهور الفقهاء في ذلك أن الخلل الذي يلحق ركناً من أركان العقد فيعدمه كالخلل الذي يلحق وصفاً لازماً لركن فيه ، وذلك بأن يكون الشارع قد نهى عن

هذا الوصف ، ففي كلتا الحالتين يوجد الخلل ، وفي كلتا الحالتين يكون العقد باطلا ، ولا فرق عندهم بين أن يكون محل العقد منعدم ما فينعدم العقد ، وبين أن يكون موجودا ولكن به وصفا لازما منها عنه ، فالشارع حين ينهى عن أمر يكون هذا الأمر غير موجود في نظره ، فكيف تترتب آثار شرعية على عقود حرمها الشارع ؟ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد ، ومن أدخل في ديننا ما ليس منه فهو رد ، وقد نهى الشارع صراحة عن عقود اختل فيها وصف في أحد أركانها مع وجود هذا الركن فقال : « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ، مع أن الزواج من مشركة منهي عنه لا لانعدام ركن من أركانه ، فالرضا والمحل موجودان ، ولكن لانعدام وصف في أحد أركانه ، وهذا الوصف هو الإيمان في الزوجة ، واختلاله يوجب البطلان .

أما الشرائع التي ترى ازدواج مراتب البطلان فهي معظم الشرائع الحديثة ، كالقانون الفرنسي والمصري والألماني والإنجليزي ...

ويوافق هذا المذهب في البطلان مذهب الأحناف في الشريعة الإسلامية ، وسنبدا بشرح نظرية البطلان في القانون الفرنسي والمصري ثم في القانون الإنجليزي ، ثم نقارن بين أحكام هذه القوانين في البطلان بأحكام المذهب الحنفي في البطلان ، لأن هذا المذهب وحده هو الذي يقول بتعدد مراتب البطلان .

البطلان في فرنسا ومصر :

تقسم النظرية التقليدية في فرنسا البطلان إلى ثلاث مراتب :

المرتبة الأولى : هي حالة عدم انعقاد العقد ، وينعدم العقد وفقا لهذه النظرية إذا لم يتوفر ركن من أركانه ، كما لو وقع الرضا على غير محل ، أو كان طرفا العقد أو أحدهما معدوم الأهلية ، أو لم يستوف العقد الشكل المقرر في القانون كالرسمية في بعض العقود .

والمرتبة الثانية : هي حالة البطلان المطلق ، وهي حالة يتوفر للعقد فيها كل أركانه ، إلا أن ركنًا فيه ينقصه شرط لازم له ، كما لو وجد محل العقد ، ولكنه لم يعين ولا كان قابلا للتعيين ، أو كان سببه مخالفا للنظام العام أو الآداب .

والحالة الثالثة : هي حالة البطلان النسبي ، فإذا استوفى العقد أركانه ولكن الرضا ، دون أن ينعدم ، لم يستوف شروط صحته ، كان العقد باطلا بطلانا نسبيا أو قابلا للإبطال ، وذلك كما لو صدر العقد من صبي مميز أو من مكره أو مدلس عليه أو واقع في غلط ، وفي كل حالة ينص القانون فيها على البطلان النسبي .

وقد انتقدت النظرية التقليدية من ناحيتين . أما الأولى فقول فيها إن تقسيم البطلان إلى مراتبه الثلاث غير منطقي ، ووجه ذلك أن العقد الذي لا يستوفى أحد أركانه هو منعدم في منطق هذه النظرية ، فإذا كان المحل موجوداً ولكنه غير مشروع فهو باطل بطلاناً مطلقاً ، ولكن كيف يقال إن المحل غير المشروع موجود مع أنه مستحيل من الناحية القانونية ؟ وإذا قيل في مجال التفرقة بين العقدين : إن العقد الباطل له وجود فعلي وإن لم يكن له وجود قانوني ، رد على ذلك بأن العقد المنعدم له وجود فعلي أيضاً في بعض صورته .

أما الناحية الثانية ، فقد قيل إن التقسيم غير منتج ، وذلك لأن التفرقة بين آثار كل من العقد المنعدم والعقد الباطل بطلاناً مطلقاً معدومة من الناحية العملية . وإذا قيل إن العقد الباطل يحتاج إلى نص يقرر بطلانه ، بينما العقد المنعدم لا يحتاج لمثل هذا النص ، قلنا : إنه يكفي أن يقرر المشرع نصاً عاماً يقضى ببطلان كل اتفاق يخالف للنظام العام والآداب دون حاجة إلى نص خاص يحكم هذا المبدأ في كل عقد من العقود ، ولقد كان سبب هذا التقسيم الثلاثي أنه عرض على القضاء عقد أريد بطلانه ، فدفع الطرف الآخر بالقاعدة المشهورة « لا بطلان بلا نص » ، ولما كان العقد عقد زواج شاذ اضطر القضاء إلى استعمال الحيلة لتقرير بطلان هذا العقد بالقول بأنه غير موجود أصلاً ، فلا حاجة إلى نص يبطلانه ، لأن النص إن وجد إنما ينصب على معدوم ، وقد استعملت هذه الحيلة لأن القانون الفرنسي ليست فيه نصوص عامة للبطلان ، بل إن أسباب البطلان فيه متناثرة في مواضع شتى ، حتى لقد يفلت عقد من أحكام البطلان وإن كانت الآداب العامة تأباه .

النظرية الحديثة في البطلان :

هذه النظرية أقرب إلى المنطق ، إذ تجعل الانعدام والبطلان المطلق في مرتبة-

واحدة ، تسميها البطلان المطلق ، ثم تترك البطلان النسبي كما كان ، في مرتبة وحده ، وقد أخذ القانون المصري هذا النظر ، ولكنه أجرى تعديلا في التسمية ، فالبطلان المطلق ، وهو تعبير تقليدي سماه « البطلان » لفظا مرسلا ، والبطلان النسبي ، وهو لفظ تقليدي أيضا سماه « قابلية العقد للإبطال » ، (المادة ١٣٨ وما بعدها) .

وقد أخذ القانون الإنجليزي بمثل هذا التقسيم ، فقسم البطلان إلى نوعين : النوع الأول : البطلان المطلق ، ويدخل فيه العقد المنعقد على الوجه الذي بيناه ، ثم البطلان النسبي ، ولكن القانون الإنجليزي أضاف نوعا آخر من العقود المعيبة سماها : العقود الموقوفة ، ويقصد بها العقود التي لا تحميها دعوى قضائية لعدم إمكان إثباتها بالكتابة التي هي لازمة لمثل هذه العقود ، فإن نفذ المدين العقد اختياراً صح تنفيذه ، ولم يكن للمدين استرداد ما دفع ، وإن لم ينفذ المدين التزامه اختياراً لم يحق للدائن طلب إجبار مدينه على الوفاء ، وتشبه هذه الحالة في القانون الفرنسي حالة الالتزام الطبيعي ، ومثلها حالة الدائن الذي سقط دينه بالتقادم ، فإنه لا يستطيع المطالبة به بدعوى ، ولكن إن نفذه المدين اختياراً صح ، ولا يجوز لهذا المدين استرداد ما دفع ، وهذه الحالة موجودة في القانون المصري (م ١٩٩ و ٣٨٦ مدني) كما أن القاعدة في الشريعة الإسلامية أن الديون لا تسقط إلا بالأداء أو بالإبراء ، ومع ذلك فإذا انقضى على هذه الديون وقت معين أمر القاضي بعدم سماع الدعوى ، وهذه نفس الحالة ، ومثلها مانص عليه من أن دعوى الزوجية لا تسمع بين الزوجين ما لم يكن الزواج ثابتاً في وثيقة رسمية ، وهذا يصبح الزواج غير الموثق في مصر كالعقد الموقوف في القانون الإنجليزي مع خلاف في التفاصيل .

مراتب البطلان في المذهب الحنفي :

الأحناف دون جمهور الفقهاء المسلمين ، تتفاوت عندهم مراتب البطلان ، وذلك كما فعل القانون الفرنسي والمصري والإنجليزي ، فالعقد إما باطل وإما فاسد ، أما الأسباب التي توجب بطلان العقد عندهم فهي نفس الأسباب التي توجب البطلان المطلق في القانون الفرنسي والمصري ، فالعقد الباطل عند الأحناف هو ما لم ينقصد

لفقد ركن من أركانه ، ومثاله العقد الذى لا تتم صيغته ، أو تتم مع عدم التمييز ، كما لو صدر العقد من مجنون ، أو صبي غير مميز ، وكذلك الأمر إذا كان العقد مجهول المحل ، أو لعدم وجود محله الذى يقبل حكم العقد ، كبيع الميتة ، أو لعدم سلامته ، كبيع المال المعد للنفاع العامة ، أو لانعدام معنى العقد كالبيع بغير ثمن .

وبإمعان النظر فى هذه الأسباب نجد أنها هى نفس أسباب البطلان المطلق عند الوضعيين ، فهى أسباب تدور بين فقد ركن من أركان العقد كركن الرضا ، أو ركن المحل ، أو عدم شرعية المحل ، فبيع الميتة باطل لعدم جواز التعامل فى الميتة شرعاً ، وبيع المال المخصص للنفاع العامة كذلك ، لأن محل البيع غير جائز التعامل فيه ، أو أنه غير مملوك للبائع ، فهو فى حكم المنعوم ، وأما البيع بغير ثمن فهو أيضاً باطل لانعدام أحد ركني العقد وهو الثمن ، والثمن معتبر ركناً عند الفقهاء الوضعيين .

إلى هنا ينتهى الاتفاق بين القانون الوضعى ومذهب الأحناف ، حيث يبدأ الخلاف بينهم وبين الوضعيين ، ويبدأ هذا الخلاف بالنسبة للعقد الباطل بطلاناً نسبياً ، القابل للإبطال ، فى القانون الوضعى ، والعقد الفاسد عند الأحناف ، ذلك بأن أسباب البطلان النسبى فى القانون الوضعى أعم وأوسع من أسبابها فى العقد الفاسد عند الأحناف .

فالبطلان النسبى فى القانون الوضعى يتحقق إذا كان الرضا موجوداً فعلاً لكنه معيب ، كالعقد الذى يعقده الصبي المميز ، كما يتحقق فى كل حالة ينص القانون على البطلان النسبى فيها ، كما فعل القانون المصرى فى حالات الغلط (م ١٢٠) والتدليس (١٢٥) والإكراه (١٢٧) والاستغلال (١٢٩) وبيع ملك الغير (٤٦٦) ... فهل هذه هى حالات العقد الفاسد عند الأحناف ؟

إن بعض الحالات السابقة وزعها الأحناف على العقد الصحيح ، ولكنهم جعلوها قسماً مستقلاً بذاته أطلقوا عليه اسم العقد الصحيح الموقوف ، فى مقابل العقد الصحيح النافذ^(١) ، والعقد الصحيح الموقوف هو ما كان بقاؤه متوقفاً على إجازة

(١) للعقد الصحيح النافذ إما لازم وهو ما خلا من الخيارات الأربعة : خيار التعيين ، وخيار الشرط ، وخيار العيب ، وخيار الرؤية ، وغير اللازم ما كان فيه أحد هذه الخيارات .

من الغير ، كمقد الصبي المميز في المعاوضات متوقف على إجازة وليه ، وعقد الفضولي متوقف على إجازة رب العمل ، والوصية في بعض صورها تتوقف على إجازة الورثة ^(١) ، وتصرف المدين الراهن في المان المرهون موقوف على إجازة الدائن المرتين ^(٢) .

ومعظم هذه الصور تدخل في البطلان النسبي في القوانين الوضعية ، كما تدخل في البطلان العام في مذهب الجمهور من فقهاء الشريعة الإسلامية ، فلا تلحقها الإجازة ، فقد نص في مذهب الشافعي الجديد ، وفي إحدى الروايتين عن أحمد ، وعن أبي ثور : أن هذه التصرفات لا تلحقها الإجازة ، لأنها نشأت أصلاً باطلة ، ولا يكون لأحد إجازة المحرم الباطل ^(٣) .

وأما الحالات الأخرى من حالات البطلان النسبي كحالات الإكراه الملجئ والتغريم ، التدليس ، فهي تدخل في العقد الباطل عند الجميع ^(٤) .

أما العقد الفاسد عند الأحناف فهو الذي لحقت أحد أوصافه اللازمة كراهية من الشارع ، ومثله بيع الدار لمدة عشر سنوات ، وبيع دابة غير معينة ، والبيع بمال غير متقوم ، وإضافة البيع أو تعليقه .

... هذه هي بعض حالات العقد الفاسد ، ويلاحظ أن معظم هذه الحالات لا يلحقها البطلان في القانون الوضعي ، ولكن لها علاجا يختلف باختلاف كل حالة ، فإذا بيعت دار بشمن مؤجل إلى وقت الميسرة ، فسد العقد عند الأحناف ، ولكنه يصح في القانون الوضعي ، وإنما يتولى القاضي تحديد أجل لاستيفاء الثمن ، وبيع

(١) لا تعتبر الوصية في القانون الوضعي عقداً ، بل تسمى تصرفاً قانونياً .

(٢) تصرف المدين في المال المرهون صحيح في القانون المصري ، ولكنه غير نافذ في حق الدائن إلا إذا استوفى دينه .

(٣) الأشباه والنظائر للسيوطي ص ١٧٧ ، والقواعد لابن رجب قاعدة ٥٣ ص ٨٦ وما بعدها .

(٤) إذا لحقت الكراهية وصفا غير لازم كركبة انقضاء العقد كان العقد مكروهاً لافساداً ، ومثله البيع في وقت صلاة الجمعة .

دابة غير معينة^(١) ، وبيع دار لمدة معينة ، أو بيعها بمال غير متقوم ، وإضافة البيع أو تعليقه ، كل هذه الحالات لا تبطل العقد نفسه .

من أجل ذلك نستطيع القول بأن حالات البطلان النسبي في القانون الوضعي يشملها البطلان العام في رأى الجمهور عند المسلمين ، وهى موزعة في المذهب الحنفى بين العقد الصحيح الموقوف والعقد الباطل .

أما حالات العقد الفاسد عند الأحناف فهى صحيحة في أغلب حالاتها عند الوضعيين ، وهى موزعة بين الصحة والبطلان عند جمهور المسلمين ، فالعقد الفاسد إذن عند الحنفية ليس له مكافئ لافى القانون الوضعي ولا عند جمهور فقهاء المسلمين .
أثر ركن السبب على البطلان :

يعتبر السبب في القانون الوضعي ركنا في العقد ، يؤدى انعدامه أو عدم مشروعيته إلى البطلان المطلق ، فما هو ركن السبب ؟ وماذا يقصد به ؟ .

للسبب في القانون معان مختلفة ، أما الأول : فهو الواقعة المنشئة للالتزام ، أو هو مصدر الالتزام ، فيقال إن العقد سبب التزام البائع بتسليم المبيع ، فالعقد إذن هو مصدر الالتزام ، وهو الواقعة التى أنشأت هذا الالتزام ، وليس يعنينا هذا النوع من الأسباب أو مصادر الالتزامات ، وهى في القانون الوضعي : العقد ، والإرادة المنفردة ، والعمل غير المشروع ، والإثراء بلا سبب ، ونص القانون .

أما النوع الثانى : فهو السبب القصدى ، أو الغرض المباشر الذى من أجله قبل الشخص أن يلتزم : فالبايع قبل أن يتنازل عن ملكه في مقابل الثمن ، فسبب التزام البائع بنقل الملكية هو التزام المشتري بدفع الثمن ، وسبب التزام المشتري بدفع الثمن هو التزام البائع بنقل الملكية ، وسبب التزام المقرض برد المبلغ الذى في ذمته هو سبق تسلم هذا المبلغ من المقرض ، وسبب رد الوديعة من المودع لديه هو سبق تسلمها من المودع ، وسبب التزام الواهب بتسليم الهبة هو نية التبرع .

(١) إذا كان محل العقد قابلاً للتمييز صح العقد وإلا كان باطلاً (م ١٣٣ مدنى) .

هذه هى الأسباب المباشرة للالتزام فى العقود المختلفة ، ويتبين منها أنه فى العقود الملزمة للجانبين يكون التزام أحد الطرفين سبباً لالتزام الطرف الآخر ^(١) ، وفى العقود العينية التى لا تتم إلا بالتسليم كعقد القرض والوديعة فى القانون الفرنسى تكون واقعة التسليم هى سبب الالتزام بالرد . وفى عقود التبرعات تعتبر نية التبرع سبب عقد التبرع .

هذا النوع من السبب لا يتغير فى النوع الواحد من أنواع العقود ، فهو من مقتضيات كل عقد ، ويعد جزءاً من العقد وركناً فيه ، فهو فى الواقع القرض الذى قصد إليه المتعاقد من تعاقدته ، وهو القرض المباشر ، وهذا السبب القصدى ، أو القرض المباشر هو ركن فى العقد ، يبطل العقد إذا انعدم هذا السبب فيه ، فمن تعهد لزوجه بدفع مبلغ من المال نظير قيامها بإرضاع ابنها منه بطل العقد لانعدام السبب ، ذلك بأن الإرضاع واجب يفرضه الشرع على الأم ، فهى لا تلتزم فى هذا الاتفاق بشئ جديد فيكون التزام الزوج باطلا ، لأن الزوجة لا تلتزم قبل الزوج بشئ ناشئ عن هذا الاتفاق ^(٢) ، ويرى الفقهاء التقليديون ، وعلى رأسهم الأستاذ كابتان : أن السبب القصدى ركن فى العقد ، يعتبر العقد باطلا إذا اختل هذا الركن .

وكذلك يخل العقد إذا كان ركن السبب غير مشروع بأن كان مخالفاً للنظام العام والآداب ، فإذا تعهد شخص لآخر بأن يدفع له مبلغاً من المال نظير أن يتعهد هذا الأخير بارتكاب جريمة ، فإن التعهد الأول والثانى باطلان ، أما الالتزام بارتكاب جريمة فباطل لأنه محل فى العقد غير مشروع ، ونظراً لأن الالتزام بدفع مبلغ من المال كان سببه ارتكاب جريمة ، وهذا الالتزام باطل ، فيبطل تبعاً لذلك الالتزام بدفع مبلغ المال ، وبذلك يبطل الالتزامان لعدم شرعية أحدهما فى الوقت الذى يعتبر هو بنفسه سبباً للالتزام الآخر فيسقطه .

(١) فى رأى الأستاذ كابتان أن سبب التزام أحد طرفى العقد ليس هو مجرد التزام الطرف الآخر ، بل هو تنفيذ التزام الطرف الآخر

(٢) محكمة السبلاوين فى ١١ / ٣ / ١٩٤٠ محاماة السنة ٢٠ ص ١٢٤٦ رقم ٥٢٦ .

ولكن نظرية أخرى حديثة تزعمها الأستاذ جوسران في فرنسا ^(١) ، ومؤداها أن السبب القصدى لا ينظر إليه في الالتزامات ، وإنما ينظر إلى الأغراض التي قصدها الملزم من التزامه ، وهي وإن كانت أغراضا بعيدة إلا أنها هي المنتجة في الالتزامات ، ويفصل الأستاذ جوسران هذا الأمر بقوله : قبل أن يتعاقد الإنسان يتنازع عدة بواعث تختلف باختلاف كل شخص ، فالشخص مثلا يرى أن له قريبا فقيرا يستدر الرحمة لأنه بائس ، فهذا أحد الدوافع السابقة على أى تصرف ، ويسمى جوسران هذا الدافع بالدافع الموجه ، وهو يتعلق بالماضى ويختلف باختلاف الأشخاص .

ودافع ثان يكون وقت انعقاد العقد ، ويسميه : الباعث القصدى ، وهو الغرض القصدى في النظرية السابقة ، أو الغرض المباشر الذى يعتبر من مقتضيات العقد ومقاصده الشرعية ، وهو طبعاً في العقود الملزمة للجانبين الالتزام المقابل ، وفي العقود العينية التى لاتتم إلا بالتسليم تكون واقعة التسليم هى السبب المباشر للالتزام بالرد ، وفي عقود التبرعات نية التبرع .

والأستاذ جوسران لا يلتقى بالا للنوع الأول الخاص بالماضى ، ولا بالسبب الثانى الذى يتكون وقت انعقاد العقد ، ولكنه يهتم بالنوع الثالث من الأسباب ، وهو الغرض التهاىى اللاحق على العقد ، ويسميه : الباعث الغائى ، فهو يرى أن الملزم ما التزم إلا لتحقيق غاية ، وهذه الغاية لاتتحقق إلا بعد انعقاد العقد ، فالذى لمس بئس قريب له كان هذا البئس سبباً سابقاً على التعاقد ، ولكنه دافع إليه ، فيبدأ بالتعاقد بالهبة لهذا القريب ، وفى ساعة انعقاد العقد لا يتبلور من الأسباب إلا نية التبرع ، وهذه النية سبب مصاحب للعقد ، ولكن ما هى الغاية التى ترجى من هذا التبرع ؟ هى تحسين حال القريب ، وهذا لا يأتى إلا بعد انعقاد العقد ، وفى نظر الأستاذ جوسران أنه لايعتد إلا بهذا الباعث الغائى ، وهو فى نظره يختلف باختلاف الأشخاص ، وهو لاحق على العقد ، وهو موجود دائماً ، لأن الناس لايتعاقدون إلا لغاية ، ولا يتخلف عن ذلك إلا مجنون ، هو إذن ركن فى العقد ،

(١) فى كتابه « البواعث فى الالتزامات المدنية » .

وركن موجود دائماً ، ولا يتطلب فيه إلا أن يكون مشروعاً ، بصرف النظر عن البواعث السابقة عليه ، وهذا يفسر لنا تفريق القضاء الفرنسي بين حالتين : التبرع لامرأة بعد قطع علاقتها غير الشرعية مع المتبرع ، وهذا التبرع صحيح ، لأن الغاية منه تعويض المرأة عما أصاب عرضها من خدش ، وذلك بصرف النظر عن الصلة السابقة بينها وبين المتبرع ، فقد يكون السبب الدافع السابق على التبرع ما أصاب المتبرع من لذة محرمة ، وهذا الدافع في الواقع مشوب بالرجس والدنس ، أما الغاية فهي إصلاح حال المرأة ، وهي غاية شريفة ولا شك .

وحالة من يتبرع بقصد تشجيع المرأة الغاوية على الاستمرار في عشرتها المحرمة مع المتبرع ، أو بقصد إعادة صلتها به بعد أن قطعها ، وهذه غاية غير مشروعة تبطل العقد ، ويصبح التزام المتبرع باطلا لعدم مشروعية سببه الغائي ، وهذا هو اتجاه القضاء الفرنسي ^(١) .

وقد تنازعت هاتان النظريتان تنازعا مدرسياً ، فألفت الكتب الانتصار لهذه أو لتلك ، وفي وسط هذا التناحر خرج علينا القضاء الفرنسي بنظرية مختلطة ، فرأى أن السبب القصدى ، أو المقاصد الشرعية من العقود النظرية التقليدية ، لا بد من وجوده ، فإذا انعدم بطل العقد ، ولكن المقاصد الأخرى ، أو الغايات البعيدة معتبرة أيضاً فيجب أن تكون مشروعة ، فإن كان الغرض من العقد الوصول إلى غاية بعيدة غير مشروعة كتشجيع امرأة على الزنا ، أو ردها إلى وكره ، بطل العقد ، وهذه هي نظرية القضاء المصري أيضاً .

ومرد التنازع بين هذه النظريات جميعاً هو نزاع قديم : رجال القانون الكنسيون

(١) محكمة بيزانسون في ٢٤ يونيو سنة ١٩٢٣ محاكمة السنة الرابعة رقم ٧٥٢ ص ١٦٦ وتقض مدني فرنسي ٤ أبريل سنة ١٩٢٣ محاكمة السنة الثالثة رقم ٣١٤ ص ١٧٣ و١٧ أبريل سنة ١٩٢٣ محاكمة السنة الثالثة رقم ٤٦٢ ص ٥٤٨ (لإبطال هبات الغرض منها تسهيل معاشره غير شرعية أو استعادتها أو استمرارها) وتقض مدني فرنسي في ١٠ مارس سنة ١٩٢٥ محاكمة السنة السادسة رقم ٥٠٩ ص ٨٢٩ (لإقرار هبة كتعويض عن علاقة غير شرعية انتهت فعلاً) .

يريدون أن يبطلوا العقود بناء على غاياتها غير المشروعة ، ورجال القانون من أنصار القانون الطبيعي لا يريدون من القاضى أن يتدخل فى سلطان الإرادة والعقود المبنية على رضا تام ولو كان غير مشروع ، ويكفى عندهم أن يتيقن القاضى من السبب القصدى الظاهر دائماً فى العقود ، أما البحث فيما وراء ذلك عن الغايات الدفينة فأمر يأباه القانون الطبيعى .

ومهما يكن من شيء ، فإن السبب على أى وجه من وجوهه الثلاثة يعتبر ركناً فى العقد ، لم يشذ عن ذلك إلا طائفة قليلة من الفقهاء الفرنسيين ، على رأسهم الأستاذ بلاتيول الذى يعتبر خصيصاً لنظرية السبب ، ولا يرى أن يكون السبب ركناً من أركان العقد ، ولا موجباً لبطلان الالتزام .

ومهما يكن الأمر كذلك فإن السبب بمعنييه القصدى والدافع عنصر من عناصر الإرادة ^(١) ، لأنه هو المولد للرضا ، فالبائع يرضى بتسليم المبيع لأنه يريد قبض الثمن ، إذا كنا نأخذ بالسبب القصدى ، والبائع يرضى بتسليم المبيع لأنه فى ضيق اقتصادى ، أو لأنه يريد أن يستبدل به شيئاً آخر . . . إذا أخذنا بالسبب الدافع .

السبب فى القانون الرومانى :

لم يكن القانون الرومانى يعرف السبب فى عهده القديم ، ذلك بأن معظم العقود كانت شكلية تتم بإجراءات ومراسيم إذا صحت صح العقد ، وإذا تخلفت بطل العقد . ومن أجل ذلك لم يكن للإرادة الحقيقية شأن جدى فى هذه العقود ، وتختلف الإرادة معناه تختلف السبب وإهماله ، لأن السبب بمعنييه القصدى والدافع عنصر من عناصر الإرادة ، فهو الإجابة على السؤال الآتى : لماذا التزم المدين ، ولا شك أن الإجابة تنبئ عن إرادة هذا المدين ، أما فى العهد المدرسى للقانون الرومانى فقد تحررت العقود من الشكل وظهرت العقود الرضائية ، ومن أجل ذلك كان هنالك مجال لوجود ركن السبب ، وقد وجد هذا الركن بمعنى السبب القصدى

(١) لا يرى الأستاذ جودميه أن السبب عنصر نفسانى ، بل هو فكرة اقتصادية ، ويسير عنه بأنه المقابل الاقتصادى ، ولذا يستبعده من نطاق التبرعات حيث لا يتصور وجود المقابل لها (النظرية العامة للالتزامات لجودميه ، باريس سنة ١٩٣٧ ص ١١٦ .

الذي شرحناه من قبل ، ولم يكونوا يعرفون السبب الدافع إلا في حالتين : حالة الهبات المشروطة ، ففي الهبة المحضة تدبر نية التبرع هي السبب ، أما إذا كانت الهبة مشروطة ، وكان الشرط هو الدافع إلى الهبة يكون هذا الشرط سبباً لها ، فإذا لم ينفذ بطلت الهبة ، والحالة الثانية : هي حالة الوصية ، فقد مزج السبب في الوصية بالدافع ، فإذا اعتقد الموصي أن وارثه قد مات فأوصى لغيره بماله ، ثم اتضح بعد ذلك أن الوارث لا يزال حياً ، بطلت الوصية لانعدام سببها .

السبب عند رجال الكنيسة :

تحررت الإرادة تحملاً كاملاً على أيدي رجال الكنيسة المسيحية ، وقد بدأ هؤلاء أولاً بتحرير ركن الرضا بقولهم : إن الإنسان يرتبط بقوله ، ثم بدأوا يقولون بأن الإرادة مع ذلك لا ينبغي أن تكون طليقة كما تريد ، بل يجب أن تتماشى مع مقاصد الشارع ، فلا ينبغي أن تقوم اتفاقات مخالفة للأخلاق ، وبذلك انتهوا إلى إباحة التدخل في نوايا الأفراد ، فالعقد يجب أن تكون مدفوعة بالنوايا المشروعة ، ومتى تدنست هذه النوايا بطل العقد ، وإذن فقد أخذ رجال الكنيسة بالسبب الدافع على أوسع وجوهه ، وأصبحت البواعث قيوداً على الإرادة ، حل محل الشكل الذي كان يقيد إرادة الرومان .

السبب في القانون الألماني :

اتخذ القانون الألماني بالنسبة لجميع مصادر الالتزامات أساساً واحداً ، سماه : الإضافة إلى الذمة ، فعنده أن الالتزام المالي بين الناس سواء نشأ عن عقد ، أو كان تعويضاً عن عمل غير مشروع ، أو رداً لمبلغ مستحق في الذمة دفع خطأ ، أو غير ذلك ، هذا الالتزام ناشئ عن إضافة إلى ذمة الملتزم ، فما هو سبب هذه الإضافة إلى الذمة ؟ لقد انتهت اللجنة الفرنسية التي كلفت بترجمة القانون الألماني إلى أن السبب في جميع التصرفات القانونية ، التي تتدخل فيها الإرادة ، يمكن في الغرض الذي قصد إليه المضيف إلى الذمة ، أما إذا كان التصرف واقعة قانونية أضافت إلى ذمة شخص شيئاً فإن القانون هو الذي يعين هذا السبب ، لأن الواقعة

القانونية لا يتداخل فيها عنصر الإرادة ، مثال ذلك : إذا قام الفضولى بعمل من الأعمال لصالح رب العمل فأضاف إلى ذمته شيئاً ، فيكون السبب هو الغرض المباشر الذى قصد إليه الفضولى ، وهو هنا المضيف إلى الدمة ، وهذا الغرض المباشر هو استرداد مقابل الإضافة التى أنشأها فى ذمة رب العمل ، وهذا الغرض يتفق والغرض القصدى الذى تكلمنا عنه ، أما إذا كانت الإضافة ناشئة عن واقعة مادية بحتة ، كما لو أخطأ شخص فروى أرض الغير على أنها أرضه ، فهذه الواقعة غير إرادية ، وقد أضافت إلى ذمة الغير شيئاً ، ونظراً لانعدام القصد إلى الإضافة لذمة الغير ، فإن السبب لا يمكن فى إرادة المضيف ، بل القانون هو الذى يفرضه .

السبب فى القانون الإنجليزى :

تنقسم العقود فى القانون الإنجليزى إلى عقود شكلية ، وهذه لا ينظر فيها إلى السبب إطلاقاً ، ومن بين هذه العقود عقود التبرعات ، ومن أجل ذلك فإن هذه العقود لا يكون سببها نية التبرع . لأنها عقود شكلية ، أما العقود الأخرى الرضائية فإن الإنجليز يصححونها إذا صح الاعتبار ، وهذا الاعتبار يقابل السبب القصدى فى الفقه اللاتينى ، ولكن الإنجليز لا يجعلون السبب أو الاعتبار لالتزام المدين ما أصابه هذا المدين من الغم الذى أوجب التزامه كما هو مقرر فى الشرائع اللاتينية بالنسبة للعقود ، بل ينظرون إلى ما أصاب الدائن من غم ، ونتيجة لهذه النظرية إذا عقد عقد ولم يستفد منه أحد طرفيه فإنه مع ذلك يلتزم متى أصاب دائمه غم من هذا العقد ^(١) .

السبب فى القانون الإيطالى :

السبب فى هذا القانون قائم على نظرية مادية بحتة ، هو المبرر الذى يوجب

(١) هذه الصورة موجودة فى الفقه الإسلامى ، فقد قال مالك : إن مجرد الوعد لا يلزم الوفاء به إلا إذا كان مقروناً بسببه ، أو إن أدخل الموعد بكلفة ، حينئذ يلزم الوفاء به ، فن قال لآخر تزوج ولك كذا فتزوج بذلك وجب الوفاء به (الفروق ج ٤ ص ٢٧ ، وشرح للحنفى على البخارى ج ١٣ ص ٢٥٧ ، والمحلى ج ٨ ص ٢٨ وما بعدها) رقم ١١٣٥ .

حماية القانون للتصرف ، غير أن هذا المبرر يحدده القانون دون غيره ، ولا يتعلق بإرادة الأفراد من قريب أو بعيد .

ركن السبب في الشريعة الإسلامية :

ليس في الشريعة الإسلامية نظرية عامة للسبب ، ولذلك لا يذكر السبب كركن من أركان العقد ، ولكن ليس معنى ذلك أن الشريعة الإسلامية لا تعرفه ، بل تعرفه بمعناه القصدى ، كما تعرفه بمعناه الباعث أو الدافع .

أما السبب القصدى في العقود الشرعية فيستدل عليه من أقوال الفقهاء المسلمين ، إذ للعقد في نظرهم سبب منصوب لحكم إذا أفاد حكمه المقصود منه صح ، وإن تخلف عنه مقصوده يقال إنه بطل (١) .

والمقصود من البيع ونحوه إنما هو انتفاع كل واحد من المتعاضدين بما يصير إليه ، فإذا كان عديم المنفعة أو محرماً لم يحصل منه مقصوده فيبطل عقده والمعاوضة عليه (٢) .

وليس من شك في أن رد المقرض مبلغ القرض هو واقعة تسلبه للبائع المقرض ، فإذا ثبت أنه لم يتسلم مبلغ القرض فلا رد ، وأن السبب في التبرعات هو إرادة الخير للواهب .

يدلك أيضاً على وجود السبب القصدى كركن من أركان العقد في الشريعة الإسلامية أنه إذا تخلف السبب بطل العقد ، فلو استأجر رجل زوجته لترضع طفلها منه لم يجز ، لأن الإرضاع مستحق عليها ديانة (٣) ، وإذن يكون التزامه بالأجر التزاماً لا سبب له .

وأنه إذا ادعى شخص على آخر داراً فتصالحا على دفع بدل سلم إليه ، ثم اتضح أن الدار ملك للدافع وجب رد البديل إليه (٤) .

(١) المستصفي للفرز ج ١ ص ٩٥ .

(٢) الفروق للقرافي ج ٣ ص ٢٥٤ .

(٣) الهداية ج ٢ ص ٣٨ ، وراجع حكم محكمة السبلاوين في ١١ / ٣ / ١٩٤٠ محاماة السنة ٢٠ ص ١٢٤٦ رقم ٥٢٦ ، فهو يحمل نفس المعنى .

(٤) الفتاوى البرازية ج ٣ ص ٣٢ .

وأن الإقرار المجرد في مذهب مالك لا يكون ملزماً للمقر إلا إذا كان مقروناً بسببه أو أدخل على الموعود كلفة ^(١) .

والشريعة الإسلامية كما تعرف السبب القصدى تعرف السبب الباعث أو الغرض البعيد الذى يرجى من وراء العقد ^(٢) ، فإن كان هذا الغرض غير مشروع أبطل العقد ، ففى المذهب الحنبلى والظاهرى ، وفى قول لمالك : أن كل بيع قصد به غرض محرم فهو باطل ، بشرط أن يعلم البائع بقصد المشتري ، فبيع العصير والتمر والعنب لمن يتخذة خمرا ، وبيع السلاح لأهل الفتنة باطل ^(٣) .

وأقضى ابن عتاب بسقوط أجل الدين إذا طلق الزوج المدين زوجته التى أقرضته بأجل ، لأن الاتفاق كان ملحوظا فيه ود الزوجية واستدامة الصحبة ، فإذا انفصلت فقد زال السبب الموجب للتأجيل ^(٤) .

وروى عن أحمد بن حنبل أنه قال : إن هبة المرأة زوجها صداقها إن طلب إليها ذلك ، سبها استدامة النكاح ، فإن طلقها فلها الرجوع فيها ^(٥) .

من هذه التطبيقات نرى أن الشريعة الإسلامية تأخذ بالسبب الدافع ، ولكن الشريعة الإسلامية وهى شريعة مادية النزعة لا تأخذ بالبواعت النفسية على علاقتها ،

(١) فروق الفرائق ج ٤ ص ٢٧ ، وشرح المنى على البخارى ج ١٣ ص ٢٥٧ ، والمحلى لابن حزم ج ٨ ص ٢٨ رقم ١١٣٥ .

(٢) يقول الإمام الشاطبى فى موافقاته : إن كل فاعل عاقل مختار إنما يقصد بصله غرضاً من الأغراض (الموافقات ج ٣ ص ٣٢٧) ، ويقول إن قيم الجوزية فى إصلام المؤمنين : إن القصد فى العقود معتبرة ، وأنها تؤثر فى صحة العقد ، وفى حله وحرمة (ج ٣ ص ٩٦) .

(٣) المنى والفرح الكبير ج ٤ ص ٤٠ ، ٤١ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، والمحلى ج ٩ ص ٢٩ ، ٣٠ رقم ١٥٤٢ ، وشرح الخطاب على سيدى خليل ج ٤ ص ٢٦٣ وما بعدها .

(٤) تبصرة الحكام لابن فرحون ج ٢ ص ٦٨ طبعة مصر سنة ١٣٠٢ هجرية .

(٥) القواعد لابن رجب ، القاعدة رقم ١٥٠ ص ٣٢٢ ، والبهجة شرح النخعة

بل تتطلب مقاييس مادية محددة وإلا اضطربت المعاملات ، فهي لا تبطل العقد للدافع غير المشروع إلا إذا كان هذا الدافع مذكوراً في العقد ، أى متفقاً عليه بين المتعاقدين ، وهذه هي أحدث نظرية في الفقه الفرنسي ، حيث يؤيدها الأستاذ كابتان من فقهاء القانون ^(١) ، ومعظم أحكام المحاكم مع تفاوت في التفاصيل .

من أجل ذلك نرى أن ركن السبب يجب أن يضاف إلى الالتزامات العقدية في الشريعة الإسلامية ، إذ يجب أن يكون السبب بمعناه القصدى موجوداً ، وأن يكون بمعناه الدافع مشروعاً ، وإلا بطل الالتزام العقدي ، وإن شريعة تبطل عقود الفرد ، وتأخذ بنظرية الغبن على نطاق واسع ، لمى شريعة تقوم على قواعد السبب في شكلها المادى ، وهى حين تمزج هذه القواعد بالدوافع النفسية ، فلأنها تبغى أن تظهر معاملاتها من الدنس ، ولكنها مع ذلك تأخذ في الاعتبار وجوب استقرار المعاملات حتى لا تنزع الثقة بين الناس ^(٢) .

(١) كابتان : في السبب بند ١١٢ ص ٢٤٤ ، ومع ذلك فإن الدكتور السهوى يرى على هذا السلوك نوعاً من التخلف (الوسيط بند ٢٨٧ ص ٤٧٠ هامش رقم ٢) .
(٢) لم نقأ أن نتكلم عن ركن الشكل ، وهو ركن من أركان بعض العقود في القانون المدنى ، إذا لم يستوف بطل العقد ، ذلك بأن الشريعة الإسلامية لا تعرف الشكلية الحديثة ، ومن العقود التى تستلزم شكلية معينة وإلا بطلت في القانون المصرى : عقد الرهن الرسمى (م ١٠٣١) وهبة المغار (م ٤٨٨) وهبة المنقول إذا لم تتم بالقبض (م ٤٨٨) والوعد بالهبة عامة (م ٤٩٠) .

نظرة جديدة في مكي السور ومدنيها

لفضيلة الأستاذ الشيخ هجر التتمال الصعبري

- ٣ -

وصلت فيما سبق إلى إثبات رأيي فيما قبل سورة هود أن السور إما مكية خالصة ، وإما مدنية خالصة ، وسأضئ هنا في إثباته في سورة هود وما بعدها :

(١٠) سورة هود : مكية إلا الآيات - ١٢ ، ١٧ ، ١١٤ - فمدنية ، فأما الآية - ١٢ - « فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز ، الآية ، فهي في مشركي مكة ، ولا وجه لجعلها مدنية .

وأما الآية - ١٧ - « أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة أولئك يؤمنون به ، الآية ، فمن جعلها مدنية حل قوله : « أفمن كان على بينة من ربه ، على عبد الله بن سلام ونحوه بمن أسلم من يهود المدينة ، وقد سبق في مثله أنه يمكن حمله على ورقة بن نوفل ونحوه من أهل مكة ، وبهذا تكون الآية مكية مثل ما قبلها وما بعدها من الآيات .

وأما الآية - ١١٤ - « وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل ، فشأنها شأن الآية - ١٢ - سواء بسواء .

(١١) يوسف : مكية إلا الآيات - ١ ، ٢ ، ٣ ، ٧ - فمدنية ، فأما الآيات - ٣ : ١ - « الر ، تلك آيات الكتاب المبين ، الآيات ، فلا وجه لجعلها مدنية ، لأن طابعها مكي لا مدني ، وكذلك الآية - ٧ - « لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين ، لأنها متمشية مع سياقها ، ولا معنى لجعلها مدنية في وسطه ، وقد قيل إن السائل فيها جبر من أحبار اليهود بالمدينة بعد الهجرة ، وهو ضعيف ، لأن المعنى لمن يريد أن يسأل من مشركي مكة .

(١٢) سورة الرعد : قال الأصم : مدينة بالإجماع سوى قوله تعالى : « ولو أن
 قرآنًا سیرت به الجبال ، ودعواه الإجماع غير صحيحة ، لأنه قيل إنها مكية سوى
 قوله تعالى : « ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة ، وقوله : « ومن
 عنده علم الكتاب ، وهو الراجح عندى بلا استثناء ، فأما الآية الأولى - ٣١ -
 « ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريباً من دارهم ، فسبب
 جعلها مدينة عند بعضهم حمله القارعة على ما كان يصيبهم من سرايا المسلمين بعد هجرتهم ،
 والأولى حملها على ما كان يصيبهم من البلايا والحروب بسبب تفرقهم وانقسامهم
 إلى قبائل متعادية متخاصمة ، ولا منجاة لهم من هذا إلا بدین يجمعهم ، ومثل هذه
 الآية في هذه السورة الآية - ٤١ - « أولم يروا أننا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها ،
 فقد قيل إن المراد بها أرض مكة ينقصها المسلمون من أطرافها بعد هجرتهم منها ،
 والحق عندى أن المراد بها أرض العرب ، ينقصها دولتنا فارس والروم من أطرافها ،
 وهو تحذير لمشركى قريش وغيرهم من مشركى العرب من استمرارهم على تفرقهم ،
 لأنه هو الذى يمكن للدولتين منهم ، ولا ينقذهم من هذا إلا دين يجمع كلتهم .
 وأما الآية الثانية - ٤٣ - « قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم ومن عنده علم
 الكتاب ، فلا يتعين فيها أن يكون من عنده علم الكتاب عبد الله بن سلام على
 ما سبق في نظيره .

(١٣) سورة إبراهيم : مكية إلا آيتى - ٢٨ ، ٢٩ - فدينيتان ، والآيتان هما
 قوله تعالى : « ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً ، الآيتين ، وهم أهل مكة أسكنهم
 الله تعالى حرمة الأمن ، وجعل عيشهم في السعة ، فكفروا به وجعلوا له شركاء من
 أصنامهم ، وهذا ظاهر في أنهما مكيتان لا مدينيتان .

(١٤) سورة الحجر : مكية إلا آية - ٨٧ - فدينة ، وهى قوله تعالى : « ولقد
 آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم ، ومن ذهب إلى أنها مدينة حمل السبع المثاني
 على السبع الطوال ، وفيها سور مدنية كما سبق ، فتكون الآية مدنية أيضاً ، ولكن
 أرجح الأقوال في السبع المثاني أنها سورة الفاتحة ، لأنها سبع آيات ، وقيل : لأنها
 القرآن كله ، وعلى هذا تكون الآية مكية مثل باقى آيات السورة .

(١٥) سورة النحل : قيل إنها مكية غير ثلاث آيات في آخرها ، وحكى الأصم عن بعضهم أنها كلها مدنية ، وقال آخرون : من أولها إلى قوله : « كن فيكون » مدني ، وما سواه فمكي ، وعن قتادة بالعكس ، ولا وجه لهذا الاضطراب عندي ، ولأني أرى أن طابعها مكي من أولها إلى آخرها ، وسأثبت في الآيات التي يظن فيها خلاف هذا أنها مكية .

وأولها : قوله تعالى في الآية - ٤١ - « والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا » الآية ، فحمل من ذهب إلى أنها مدنية الهجرة فيها إلى هجرة المدينة ، ويجب عندي حملها على هجرة الحبشة ، لتكون الآية مكية على سياق السورة .

وثانيها : الآيات - ٩١ : ٩٦ - « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم » الآيات ، فحمل العهد فيها من ظن أنها مدنية على عهد الهدنة بين المسلمين وغيرهم بعد شرع القتال في المدينة ، والحق عندي أن هذا العهد لا يتعين في عهد الهدنة ، لأن هناك عهوداً كثيرة في جميع المعاملات يجب الوفاء بها ، وحينئذ تكون هذه الآيات مكية أيضاً .

وثالثها : قوله تعالى في الآية - ١١٠ - « ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا » الآية ، وقد سبق أن الهجرة هنا هجرة الحبشة لا هجرة المدينة ، وكذلك الجهاد في الآية هو الجهاد بالمسال وبالصبر على أذى المشركين في مكة ، ولا يتعين أن يكون الجهاد بالقتال الذي شرع بعد الهجرة إلى المدينة .

ورابعها : الآيات - ١٢٦ : ١٢٨ - « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به » الآيات ، قيل إنها نزلت في غزوة أحد حينما مثل المشركون بحمزة ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « والله لأمثلن بسبعين منهم » والحق عندي أن العقاب في الآية عام يشمل الضرب والشم ونحوهما مما كان قبل شرع القتال في المدينة ، فالمتصود من الآية نهى المظلوم عن استيفاء الزيادة من الظالم ، كما قال ابن سيرين : إن أخذ منك رجل شيئاً فخذ منه مثله ، وحينئذ تكون الآيات مكية لا مدنية .

(١٦) سورة الإسراء : مكية إلا الآيات - ٢٦ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٥٧ - والآيات - ٧٣ : ٨٠ - فمدنية ، وسأثبت أن هذه الآيات مكية أيضاً مثل باقي آيات السورة :

فأما الآيات - ٢٦ ، ٢٢ ، ٣٣ - فقد وردت في جملة وصايا ابتدأت بالآية - ٢٣ - « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا » وانتهت بالآية - ٣٩ - « ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة » وسياق هذه الوصايا واحد ، فلا وجه لجعل بعضها مدنيا وبعضها مكيًا .

وأما الآيات - ٧٣ : ٨٠ - فتبتدىء بقوله تعالى : « وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره ، إلى أن يقول : « وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها » والخطاب فى هذا كله لمشركى قريش وما كان من شأنهم بعد إخبار النبي صلى الله عليه وآله وسلم لهم بقصة الإسراء ، ومن اشتدادهم عليه بسببها لشدة إنكارهم لها ، وحينئذ يكون سياقها مكيًا أيضًا ، وهو ما ذهب إليه كثير من المفسرين .

(١٧) سورة الكهف : مكية إلا الآية - ٢٨ - والآيات - ٨٣ : ١٠١ - فمدنية ، وعن قتادة أنها مكية من غير استثناء ، وهذا هو الأرجح عندي .
فأما الآية - ٢٨ - « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه » الآية ، فإنها نزلت فى شأن قريش حين قال أكابرهم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : إن أردت أن تؤمن بك فاطر من عندك هؤلاء الفقراء الذين آمنوا بك . وحينئذ تكون هذه الآية مكية لا مدنية .

وأما الآيات - ٨٣ : ١٠١ - ويسألونك عن ذى القرنين ، الآيات ، فهى فى قصة ذى القرنين ، والسائلون فيها هم مشركو قريش ، كما هو مشهور ، وحينئذ تكون هذه الآيات مكية أيضًا .

(١٨) سورة مريم : مكية إلا الآيتين - ٥٨ ، ٧١ - فمدنيتان ، فأما الآية - ٥٨ - « أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين ، الآية ، فهى واردة بعد قصص أنبياء سابقين عليها ، فتكون هذه الآية مكية مثل الآيات السابقة عليها فى هؤلاء الأنبياء .
وأما الآية - ٧١ - « وإن منكم إلا واردها » الآية ، فالضمير فى « واردها » يعود على النار فى الآيات قبلها ، وحينئذ تكون متصلة بها كل الاتصال ، ولا يكون فيها شىء يشعر بأنها مدنية .

(١٩) سورة طه : مكية إلا الآيتين - ١٣٠ ، ١٣١ - فدينتان ، وهما قوله تعالى : « ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ، الآيتين ، والضمير في « منهم » عائد إلى المذكورين في قوله قبله : « فاصبر على ما يقولون ، وهم مشركو قريش ، فتكون هذه الآية مكية أيضاً وفقاً لسياقها .

(٢٠) سورة الحج : مدنية ، واستثنى بعضهم الآيات - ٥٢ : ٥٤ - لأنها نزلت بين مكة والمدينة ، وقد سبق أن المكان لا شأن له في تمييز المكي من المدني ، وإنما الشأن في هذا لما نزل قبل الهجرة إلى المدينة وبعدها . وقيل إنها مدنية إلا الآيات - ١٩ : ٢٤ - وهي : « هذا خصمان اختصموا في ربهم ، الآيات ، والإشارة فيه « هذان » إلى أهل الأديان الستة في قوله قبله : « إن الذين آمنوا والذين هادوا ، الآية ، فتكون هذه الآيات مكية مثله ، ولهذا لم تستثن في القول الأول مع ما استثنى فيه .

(٢١) سورة الفرقان : مكية إلا الآيات - ٦٨ : ٧٠ - فمدنية ، وهذه الآيات تبتدىء بقوله تعالى : « والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ، الآيات ، وهي معطوفة على قوله في الآية - ٦٣ - « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً ، الآية ، وكلها نيباق واحد مكي ، ولا معنى لجعل بعضه مكيًا وبعضه مدنيًا .

(٢٢) سورة الشعراء : مكية إلا الآية - ١٩٧ - والآيات - ٢٢٤ : ٢٢٧ - فمدنية ، فأما الآية - ١٩٧ - « أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل ، فن ذهب إلى أنها مدنية حمل « علماء بني إسرائيل » على من آمن به منهم بعد الهجرة مثل عبد الله بن سلام ، ولكن الآية ليس فيها إيمانهم به ، وإنما فيها عليهم ما جاء فيه ، أي من التوحيد ونحوه ، وبطلان عبادة الأصنام ، وحيث لا يكون في الآية ما يجعلها مدنية لا مكية ، لأن الاحتجاج بعلمهم بهذا يصح مع كونها مكية لا مدنية .

وأما الآيات - ٢٢٤ : ٢٢٧ - « والشعراء يتبعهم الغاؤون ، إلى أن قال : « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فن جعلها مدنية حمل الذين استثنوا من الشعراء على عبد الله بن رواحة ، وحسان بن ثابت : وكعب بن زهير ، وكان إسلامهم بعد الهجرة ، ولا يتعين عندي حمل هذا عليهم ، لأن هذه الآيات وردت رداً على قول

مشركي قريش : لم لا يجوز أن يكون القرآن من تنزيل الشياطين على محمد كتنزيلهم الشعر على الشعراء ؟ فأجيب بالفرق بين ما يدعو إليه في القرآن ، وما يدعون إليه في الشعر ، ولا بد أن هذا الجواب نزل بمكة عقب قولهم ، لأنه لا يصح تركه هذه المدة الطويلة من غير جواب ، وهذا الاستثناء لا بد منه ، ولو لم يؤمن بعضهم بالفعل ، لأنه لا يصح ذم الشعر والشعراء على الإطلاق في مقام التشريع ، لأن من الشعر ما يقال في الحكم ونحوها ، وهو شعر صالح يجب استنساؤه من ذلك الذم ، وحينئذ تكون هذه الآيات مكية أيضا .

(٢٣) سورة القصص : مكية إلا الآيات - ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٨٥ - فدية ، فأما الآيات - ٥٢ : ٥٥ - فتبتدىء بقوله تعالى : « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون » الآيات ، فن جعلها مدنية حملها على عبد الله بن سلام ونحوه من يهود المدينة ، وقد سبق أن هذا ليس بمتعين ، لأنها يجوز حملها على ورقة بن نوفل ونحوه من أهل مكة ، وأزيد هنا أن مشركي قريش كانوا يبعثون قبل الهجرة إلى هؤلاء اليهود يستفتونهم في محمد ، فكان بعضهم يفتيهم بأنه يجد نفعه في توراتهم ، فيمكن حمل هذه الآية وما سبق من نظائرها عليهم .

وأما الآية - ٨٥ - « إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ، الآية » فليس فيها ما يدل على أنها مدنية إلا حمل المعاد على مكة ، أي لرادك إليها بعد هجرتك منها بفتحها ، وهذا ليس بمتعين في الآية ، لأن كثيراً من المفسرين ذهب إلى أن المراد بالمعاد القيامة ، وهو المناسب لسياق ما قبله وما بعده ، فيكون مكياً مثله .

(٢٤) سورة العنكبوت : مكية ، وقيل مدنية ، وقيل : نزلت من أولها إلى رأس عشر آيات بمكة ، وباقيها بالمدينة ، وقيل بعكس هذا ، وهذا اضطراب كثير سببه أن في السورة طابعا من المدني ، وطابعا من المكي ، وسبب جمعها بين الطابعين أنها نزلت بعد أن هاجر بعض المسلمين إلى المدينة ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم لا يزال بمكة ، فكان يحث من لم يهاجر على الهجرة وما يكون بعدها من جهاد في سبيل الله ، وقد استجاب له المسلمون إلا قليلا منهم صعبت عليه الهجرة والجهاد ،

وهم المنافقون الذين ورد ذكرهم في أول السورة ، وهم منافقو مكة لا منافقو المدينة ، ولهذا أختار ما ذهب إليه بعضهم من أن السورة كلها مكية .

فأما الآيات الأولى منها فتبتدىء بقوله تعالى : د الم ، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، أى يختبرون بالهجرة والجهاد ، ثم مضى الكلام في هذا وفيمن صعب عليه من أولئك المنافقين ، وفي بيان أن هذا كان سبيل من قبلهم من اتباع الرسل ، وكان هذا سببا في الانتقال منه إلى ذكر قصص بعضهم تفصيلا بعد الإشارة إليه إجمالا .

ثم جاء بعد هذا في الآية - ٤٦ - د ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ، الآية ، وهذا طابع مدنى ، لأن الإسلام كان قد انتشر بالمدينة ، وفيها يهود قبل أن يهاجر النبي صلى الله عليه وآله وسلم إليها ، فهى توصية لمن أسلم من أهل المدينة ومن هاجر قبله .

ثم عاد إلى الترغيب في الهجرة بقوله في الآية - ٥٦ - د يا عبادى الذين آمنوا إن أَرْضِي واسعة فإياى فاعبدون ، ومضى الكلام فيه إلى آخر السورة .

(٢٥) سورة الروم : مكية إلا الآية - ١٧ - فدنية ، وهذه الآية هى قوله تعالى : د فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ، وليس فيها شئ يقتضى جعلها مدنية دون ما قبلها وما بعدها من الآيات ، وحينئذ تكون مكية أيضا .

(٢٦) سورة لقمان : مكية إلا الآيات - ٢٧ : ٢٩ - فدنية ، وقيل : إنها مكية إلا الآية - ٤ - د الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، الآية ، لأن الصلاة والزكاة نزلتا بالمدينة ، ولا شك أن هذا غير صحيح في الصلاة لأنها نزلت بمكة ، وأما الزكاة فقد سبق أنها كانت واجبة فيها أيضا أو مندوبة على الأقل ، فيكون الذى نزل بالمدينة فرضها ، أو تفصيل أحكامها ٩ .

د يتبع ،

نصيحة قاضٍ لخليفة

للكنور عبد العظيم شرف الدين

مدرس الشريعة الإسلامية

في كلية دار العلوم بجامعة القاهرة

حرص خلفاء المسلمين على تحرى العدل في الرعية ، وتعرف أحكام الله كي يطبقوها على المسلمين ، كما حرص علماء المسلمين على بذل النصيحة لهؤلاء الخلفاء ، يرون في هذا أداء أمانة نيطة في أعناقهم ، وخير شاهد على ما نقول نصيحة القاضي « أبي يوسف » صاحب أبي حنيفة للخليفة العباسي « هارون الرشيد » ، ولهذه النصيحة قصة إليك تفصيلها :

أراد الخليفة « هارون الرشيد » رفع الظلم عن رعيته ، وصلاح أمرهم ، فطلب من « أبي يوسف » أن يضع له كتابا جامعاً يعمل به في جباية الخراج والعشور والصدقات ، وقد استجاب « أبو يوسف » لرغبة الخليفة ، فأعد له كتاباً يعد الأول من نوعه ، رسم له فيه السياسة المالية للدولة ، وهذا الكتاب هو كتاب « الخراج » والذي يلفت النظر في هذا الكتاب ما شاع في ثناياه من دعوة صاحبه الملحة الخليفة إلى تحرى العدل ، والعمل بكتاب الله وسنة رسوله ، إلى جانب النصيحة التي جاءت في صدر الكتاب . وقد استغرقت هذه النصيحة عشرين صفحة ، ضمنها « أبو يوسف » بيان حق الرعية على الراعي ، كما بين له أن الله سبحانه وتعالى سائله عما استرعاه . وقد تكرر هذا في غير موطن :

فتراه أحياناً يقول له : « يا أمير المؤمنين ، إن الله - وله الحمد - قد قللك أمراً عظيماً ، ثوابه أعظم الثواب ، وعقابه أشد العقاب ، قللك أمر هذه الأمة ، فأصبحت وأمسيت ، وأنت تبنى لخلق كثير قد استرعاهم الله ، واثمنتك عليهم ، وابتلاك بهم ، وولاك أمرهم ، وليس يلبك البنيان إذا أسس على غير التقوى أن يأتيه الله

من القواعد ، فيهدمه على من بناه وأعان عليه ، فلا تضيعن ما قللك الله من أمر هذه الأمة والرعية . . . فأقم الحق فيما ولاك الله وقللك ولو ساعة من نهار ؛ فإن أسعد الرعاة عند الله يوم القيامة راع سعدت به رعيته ، ولا ترغ فترغ رعيته ، وإياك والأمر بالهوى ، والأخذ بالغضب ، وإذا نظرت إلى أمرين أحدهما للآخرة ، والآخر للدنيا ، فاختر أمر الآخرة على أمر الدنيا ، فإن الآخرة تبقى ، والدنيا تفتى ، وكن من خشية الله على حذر ، ولا تخف في الله لومة لائم . .

وفي موطن آخر يقول له : « وإني أوصيك يا أمير المؤمنين بحفظ ما استحفظك الله ، ورعاية ما استرعاك الله ، وألا تنظر في ذلك إلا إليه وله ؛ فإنك إن لا تفعل تتورع عليك سهولة الهدى ، وتعمى في عينك ، وتعمى رسومه ، ويضيق عليك رحبه ، وتنكر منه ما تعرف ، وتعرف منه ما تنكر ، فخاصم نفسك خصومة من يريد الفلج لها لا عليها ؛ فإن الراعى المضيع يضمن ما هلك على يديه مما لو شاء رده عن أماكن الهلكة بإذن الله ، وأورده أماكن الحياة والنجاة ، فإذا ترك ذلك أضاعه ، وإن تشاغل بغيره كانت الهلكة عليه أسرع ، وبه أضر ، وإذا أصلح كان أسعد من هنالك بذلك ، ووفاه الله أضعاف ما وفى له ، فاحذر أن تضيع رعيته ، فيستوفى ربها حقها منك ، ويضيع - بما أضعت - أجرك ، وإنما يدعم البنيان قبل أن ينهدم ، وإنما لك من عملك ما عملت فيمن ولاك الله أمره ، وعليك ما ضيعت منه . .

وهكذا يستمر في تقديم النصيحة مستخدماً لفظ الوصية تارة ، وأسلوب التحذير تارة أخرى ، ولم يفته أن يدعم قوله بالأحاديث والآثار التي تحت على العدل في الرعية ، ورعاية مالهم من حقوق ، فهي بمثابة دستور ياتزمه الحكام نحو الرعية ليعم العدل ، ويسود الأمن ، وينتشر الرخاء ، ومن هذه الأحاديث قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « إن من أحب الناس إلى وأقربهم منى مجلساً يوم القيامة إمام عادل ، وإن أبغض الناس إلى يوم القيامة وأشدهم عذاباً إمام جائر » .

ومنها قوله عليه الصلاة والسلام : « ألا من ولى من أمر أمى شيئاً ، فرفق بهم في حوائجهم رفق الله به يوم حاجته ، ومن احتجب عنهم دون حوائجهم احتجب الله عنه دون خلقه وحاجته » .

وأما الآثار فمنها ما روى عن سعيد بن أبي بردة قال : كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبي موسى : « أما بعد ، فإن أسعد الرعاة عند الله من سعدت به رعيته ، وإن أشقى الرعاة من شقيت به رعيته ، وإياك أن تزيع فتزيع عما لك ، فيكون مثلك عند الله مثل الهيمة نظرت إلى خضرة من الأرض فرتمت فيها تبتغى بذلك السمن ، وإنما حثفها في السمن ، والسلام . »

ثم بين للخليفة أنه لم يدخر وسعاً في بيان ما طلبه منه الخليفة ، ورجا منه أن يعمل بما فيه دون أن يظلم مسلماً أو معاهداً ، ويتضح هذا من قوله : « وقد كتبت لك ما أمرت به ، وشرحت لك وبينته ، فتفقهه وتدبره ، وردد قراءته حتى تحفظه ؛ فإنني قد اجتهدت لك في ذلك ، ولم آلك والمسلمين نصحاً ، ابتغاء وجه الله وثوابه ، وخوف عقابه . وإنى لأرجو - إن عملت بما فيه من البيان - أن يوفر الله لك خراجك من غير ظلم مسلم ولا معاهد ، ويصلح لك رعيتك ؛ فإن صلاحهم بإقامة الحدود عليهم ورفع الظلم عنهم ، والتظالم فيما اشتبه من الحقوق عليهم . . . فوقك الله لما يرضيه عنك ، وأصلح بك ، وعلى يديك . »

فهذه النصائح لها أهميتها ودلالاتها ، فهي من جانب تدل على رحابة صدر الخليفة فلم يتبرم عند سماعها ، ولو حدث شيء من هذا لنقل إلينا لتوفر الدواعى إلى نقله ، وما هذا إلا لما تتمتع به العلماء من منزلة سامية لدى الخلفاء ، فكانوا منهم بمنزلة القادة والموجهين ، وهى من جانب آخر تعطينا صورة صادقة عن مدى حرص « أبى يوسف » على العمل بما جاء في كتابه من سياسة مالية يحجب اتباعها في جباية الأموال وتوزيعها ، فكان « أبى يوسف » يقول للخليفة : « هأنذا قد قمت بما فراضه الله على من بيان أحكامه ، وتوضيحها ، وبقي عليك أنت واجب أشد خطراً وأعق أثراً ، ألا وهو جانب التنفيذ ، فإنك صاحب السلطة في البلاد ، وإن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن . »

وقد استخدم أبو يوسف في هذه النصيحة عنصر التأثير النفسى عن طريق التكرار والإتيان بالموعظة في ثنايا الكتاب ، إذ على الرغم من أنه استهل الكتاب

بهذه النصائح أخذ من حين لآخر يعرض في ثنايا الكتاب هذه الموعدة ، وبين المسؤولية الخطيرة التي ناطها الله بعنق الخليفة ، فكان يعقب على كل حكم بما يشعر بوجوب تنفيذ أحكام الله ، ووجوب العدل بين الرعية .

وربما بدا للوهلة الأولى أن فيما تخلل الكتاب من نصيحة للخليفة نوعاً من التكرار لا فائدة من ورائه ، ولكن الواقع أن «أبا يوسف» لجأ إلى هذا - كما قلنا - حتى يتمكن من التأثير على الخليفة ، فهو بين الحين والحين يتخوله بالموعدة ، ويترك الباب مرة أخرى ، وحسبه في هذا منهج القرآن الكريم في معالجة المشكلات الإنسانية ، والقرآن لا يطرق الفكرة مرة واحدة ثم يتركها إلى غير رجعة ، وذلك لأنه يخاطب البشر ، ومن طبع الإنسان ألا يستجيب منذ الوهلة الأولى ، فالقرآن جارى الطبايع الإنسانية فنجح كل النجاح في تقويمها ، والحق أن المشكلات التي عالجها القرآن الكريم ، وبصفة خاصة ما كان منها خاصاً بالعقيدة كانت في أمس الحاجة إلى التكرار مرة إثر أخرى ؛ وذلك لأن الإطاحة بعقيدة وإحلال أخرى محلها من أشق ما يعانيه الدعاة إلى الأديان الجديدة ، فالعقائد القديمة قد رسخت ووطدت أركانها ، فلا بد من زمن لتقويض دعائمها وإقامة صرح الدين الجديد مكانها ، وهذا ما فعله القرآن الكريم ، فاستجابت له النفوس ، ودانت له القلوب .

لهذا كله نستطيع أن نقرر هنا مطمئين أن الكتاب الذي ألفه «أبو يوسف» للخليفة «هارون الرشيد» لم يكن كتاب قوانين وقواعد تتبع في النظام المالي حسب ، وذلك لما شاع في أنحائه من عنصر النصيحة والإرشاد في مواطن متعددة ؛ وقد كان «أبو يوسف» موفقاً في هذا كل التوفيق ؛ إذ لا فائدة ترجى من كتابه هذا ما لم يعمل به الخليفة ، ويخرجه إلى حيز التنفيذ ، ويطبق ما جاء فيه على الرعية .

وإن لهذا الكتاب قيمة توجيهية ، وترجع أهميته إلى ما تضمنه من مبادئ ينبغي اتباعها في سياسة الرعية ، وحسبنا أن نجتزئ من هذه المبادئ بما يأتي :

١ - الجلوس للنظر في المظالم :

«أهاب» أبو يوسف ، بالخليفة أن يعدل ويجلس للنظر في المظالم ، مبيناً له ما للعدل من أثر في تعمير البلاد ، وما للظلم من أثر في تدميرها ، ويقول في هذا الشأن :

« إن العدل وإنصاف المظلوم مع ما في ذلك من الأجر يزيد به الخراج ، وتكثر به عمارة البلاد ، والبركة مع العدل تكون ، وهي تفقد مع الجور ، والخراج المأخوذ مع الجور تنقص البلاد به وتخرب ، هذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يحبي السواد مع عدله في أهل الخراج ، وإنصافه لهم ، ورفع الظلم عنهم ، مائة ألف ألف ، فلو تقربت إلى الله عز وجل يا أمير المؤمنين بالجلوس لمظالم رعيتك ، في الشهر أو الشهرين مجلساً واحداً تسمع فيه من المظلوم ، وتنكر على الظالم ، رجوت ألا تكون ممن احتجب عن حوائج رعيتك ، ولعلك لا تجلس مجلساً أو مجلسين حتى يسير ذلك في الأمصار والمدن ، فيخاف الظالم وقوفك على ظلمه ، فلا يجترأ على الظلم ، ويأمل الضعيف المقهور جلوسك ونظرك في أمره ، فيقوى قلبه ، ويكثر دعاؤه ، فإن لم يمكنك الاستماع في المجلس الذي تجلسه من كل من حضر من المتظلمين نظرت في أمر طائفة منهم في أول مجلس ، وفي أمر طائفة أخرى في المجلس الثاني ، وكذلك في المجلس الثالث ، ولا تقدم في ذلك لإنساناً على إنسان ، مع أنه متى علم العمال والولاة أنك تجلس للنظر في أمور الناس يوماً في السنة ، ليس يوماً في الشهر ، تناهوا بإذن الله عن الظلم ، وأنصفوا من أنفسهم ، وإني لأرجو لك بذلك أعظم الثواب ؛ إنه من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا تنفس الله عنه كربة من كرب الآخرة .

٢ — محاسبة العمال :

رسم للخليفة سياسة محاسبة العمال ، وفرض الرقابة عليهم في سلوكهم ، فإن بدر من أحدهم مخالفة أوخذ بجرمه تأديباً له وزجراً لغيره ، وخلاصة القول أنه ضيق الخناق عليهم حتى لا يظفروا أيديهم في أموال الرعية ، ولا يستغلوا سلطانهم ، ويظهر هذا واضحاً جلياً من قوله : « وأنا أرى أن تبعث قوماً من أهل الصلاح والعفاف ممن يوثق بدينه وأمانته يسألون عن سيرة العمال وما عملوا به في البلاد ، وكيف جبوا الخراج على ما أمروا به ، وعلى ما وظف على أهل الخراج واستقر ، فإذا ثبت ذلك وصح أخذوا بما استفصلوا من ذلك أشد الانخذ حتى يؤديه بعد العقوبة الموجهة والشكال حتى لا يتعدوا ما أمروا به وما عهد إليهم فيه ، فإن كل

ما عمل به وإلى الخراج من الظلم والعسف فإنما يحمل على أنه قد أمر به ، وقد أمر بغيره ، وإن أحلت بواحد منهم العقوبة الموجعة انتهى غيره واتق وخاف ، وإن لم تفعل هذا بهم تعدوا على أهل الخراج واجترأوا على ظلمهم وتعسفهم ، وأخذهم بما لا يجب عليهم ، وإذا صح عندك من العامل والوالى تعد بظلم وعسف وخيانة لك في رعيته ، واحتجان شيء من النية أو خبث طعمته أو سوء سيرته ، فحرام عليك استعماله والاستعانة به ، وأن تقلده شيئاً من أمور رعيته ، أو تشركه في شيء من أمرك ، بل عاقبه على ذلك عقوبة تردع غيره من غير أن يتعرض لمثل ما تعرض له ، وإياك ودعوة المظلوم فإنها دعوة مجابة .

فتراه يدعو الخليفة إلى فرض الرقابة على العمال ، ويشير عليه بعزل والى متى ظهر منه ظلم للرعية ، وليس هذا لحسب ، بل يرى تحريم أعمال الدولة عليه لظهور عدم صلاحيته لتولى أمر من أمور الرعية .

٣ — تخير الجباة من أهل العدل :

كذلك رسم د أبو يوسف ، للخليفة منهجاً قوياً يجب اتباعه في تخير الجباة ، وتتضح معالم هذا المنهج من قوله : « ورأيت - أبق الله أمير المؤمنين - أن تتخذ قوماً من أهل الصلاح والدين والأمانة ، فتوليهم الخراج ، ومن وليت منهم فليكن فقيهاً عالماً مشاوراً لأهل الرأي ، عفيفاً لا يطلع الناس منه على عورة ، ولا يخاف في الله لومة لائم ، ما حفظ من حق ، وأدى من أمانة احتسب به الجنة ، وما عمل به من غير ذلك خاف عقوبة الله فيما بعد الموت ، تجوز شهادته إن شهد ، ولا يخاف منه جور في حكم إن حكم ، فإنك إنما توليه جباية الأموال وأخذها من حلها ، وتجذب ما حرم منها ، فإذا لم يكن عدلاً ثقة أميناً فلا يؤتمن على الأموال ... » ويجب الاحتياط فيمن يولى شيئاً من أمر الخراج ، والبحث عن مذهبهم ، والسؤال عن طرائقهم ، كما يجب ذلك فيمن أريد للحكم والقضاء .

فهو يرى وجوب الاحتياط في تخير من يلى أمر الخراج ، كما يجب الاحتياط في تخير الحاكم والقاضى ، فلا يختار الخليفة لأحد هذه المناصب إلا من كان ذا ضمير حى يحاسب نفسه على ما يأتي وما يدع من الأعمال .

ثم يقول : « وتقدم إلى من وليت ألا يكون عسوفاً لأهل عمله ، ولا محتقراً لهم ، ولا مستخفاً بهم ، ولكن يلبس لهم جلباباً من اللين يشوبه بطرف من الشدة ، من غير أن يظلموا ، أو يحملوا ما لا يجب عليهم ، وعليه أن ينصف المظلوم ، ويشد على الظالم ، ويعفو عن الناس ، فإن ذلك يدعوهم إلى الطاعة ، وأن تكون جبايته للخراج كما يرسم له ، وعليه ترك الابتداع فيما يعاملهم به ، والمساواة بينهم في مجلسه ووجهه حتى يكون القريب والبعيد ، والشريف والوضيع عنده في الحق سواء ، وعليه ترك اتباع الهوى ؛ فإن الله ميز من اتقاء وآثر طاعته وأمره على من سواهما ، فهو هنا يبين للخليفة الصفات التي ينبغي أن تتوفر في الولاة ، كما يرسم المنهج الذي يجب عليهم سلوكه في جباية الخراج متوخين العدل وترك الهوى مع التزام اللين في غير ضعف ، والشدة في غير عنف ، فإن هذا أدعى إلى الطاعة والاستقرار المنشود .

٤ — تخير الجنود المرافقين للولاة :

لم يكتف « أبو يوسف » بما تقدم من رسم السياسة الواجب اتباعها في تخير الولاة ، بل أضاف إلى هذا : الدعوة إلى تخير الجنود والأعوان المرافقين للولاة ، حتى لا يستغلوا سلطتهم ويسلبوا الأموال من الرعية معتمدين على ما لهم من جاه عند الولاة ، ويقول في هذا الصدد : « ولتصير مع الوالي الذي وليته قوماً من الجنود ، في أعناقهم بيعة على النصيح لك : فإن من نصحك ألا تظلم رعيته ، وتأمر بإجراء أرزاقهم عليهم من ديوانهم شهراً بشهر ، ولا تجرى عليهم من الخراج درهما : فإنه قد بلغني أنه قد يكون في حاشية العامل والوالي جماعة ، منهم من لهم به حرمة ، ومنهم من لهم إليه وسيلة ، ليسوا بأبرار ولا صالحين ، يستعين بهم ، ويوجههم في أعماله ، فلا يحفظون ما يوكلون بحفظه ، ولا ينصفون من يعاملونه ، وإنما مذهبهم أخذ شيء ، من الخراج كان أو من أموال الرعية ، ثم إنهم يأخذون ذلك فيما بلغني بالعسف والظلم والتعدي ، ثم لا يزال الوالي ومن معه قد نزل بقرية يأخذ أهلها من نزله ^(١) بما لا يقدررون عليه ، ولا يجب عليهم حتى يكلفوا ذلك فيجحف بهم ،

(١) النزل — بزنة قول — : ما يهبأ للضيف .

ثم قد بعث رجلا من هؤلاء الذين وصفت لك أنهم معه إلى رجل ممن له عليه الخراج ليأتى به فيأخذ منه الخراج ، فيقول له : قد جعلت لك أن تأخذ منه كذا وكذا ، حتى لقد بلغتني أنه ربما وظف له أكثر مما يطالب به الرجل من الخراج ، فإذا أتاه ذلك الموجه إليه قال له : أعطني جعلي الذي جعله لي الوالي ؛ فإن جعلي كذا وكذا ، فإن لم يعطه ضربه ، وعسفه ، وساق البقر والقمم ومن أمكنه من ضعفاء المزارعين حتى يأخذ ذلك منهم ظلما وعدوانا ، وهذا كله ضرر على أهل الخراج ونقص للقيء ، مع ما فيه من الإثم ، فربحهم هذا وما أشبهه وترك التعرض لمثله حتى لا يكون مع الوالي من هؤلاء الذين سميت أحد ، ويكون ما يؤخذ لك من المال من باب حله ، ولا يوضع إلا في حقه ، وتقدم في اختيار هؤلاء الجند الذين تصيرهم مع الوالي ، وليكونوا من صالحى الجند ومن له الفهم واليسر والنعمة منهم إن شاء الله تعالى .

وصفوة القول أن دأبا يوسف ، قد أحس بما تعانيه الرعية من ضروب الظلم والعسف ، فانتهاز الفرصة حينما طلب منه الخليفة أن يضع له كتابا يتبعه في سياسة الدولة المالية ، ووضع للخليفة دستورا يتكون من مبادئ لها قيمتها ، ورسم له خطة شاملة للإصلاح ، هذه الخطة تقوم على أسس منها :

- (١) الجلوس للنظر في المظالم .
- (٢) اتباع سياسة محاسبة العمال .
- (٣) تخيير الجبابة من أهل العدل .
- (٤) تخيير الجنود والأعوان المرافقين للولاية .

وإلى اللقاء في الحديث القادم إن شاء الله ٩ ، للبحث بقية ،

أنا اللغصة

أو

الصراع بين القديم والجديد

لصاحب الفضيلة الشيخ علي محمد حسن العمري

المدرس بالأزهر

- ٥ -

... وأول من رأينا له قولاً معتدلاً في الحكومة الأدبية بين القديم والحديث هو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، حين عرض في كتابه « الحيوان » ، لأبي نواس فامتدحه بمجودة السبك ، وجودة الطبع ، والحدق في الصنعة ، ثم قال : « وإن تأملت شعره فضلته ، إلا أن تعترض عليك فيه المصيبة ، أو ترى أن أهل البدو أبداً أشعر ، وأن المولدين لا يقاربونهم في شيء » ، فإن اعترض هذا الباب عليك فإنك لا تبصر الحق من الباطل ما دمت مغلوباً .

وتبسط ابن قتيبة في مقدمة كتابه « الشعر والشعراء » ، حيث يقول : « ولم أقصد فيما ذكرته من شعر كل شاعر عتاراً له سبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره ، ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، ولا المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل إلى الفريقين ، وأعطيت كلا حقه ، ووفرت عليه حظه ؛ فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ، ويضعه موضع متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ، ولا عيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه ورأى قائله » .

وهو يفضل الشعر القديم بالجزالة والسلاسة ، وبما فيه من الشاهد في اللغة والنحو ، ويفضل الشعر الحديث بعدوبة ألفاظه وحلاوة معانيه وشدة ارتباطه

ولم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة - كما يقول - على زمن دون زمن ، ولا خص قوماً دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر ، وجعل كل قديم حديثاً في عصره .

وابن قتيبة عاش في القرن الثالث الهجري ، وتوفي في السنة الأولى من الربع الأخير من هذا القرن ، وبذلك نعرف ما ذا عني بالقديم ، وما ذا عني بالحديث . وقد يتبادر إلى بعض الأذهان أن القديم في نظره - كما هو في نظر من سبقه من العلماء والرواة - هو الشعر الجاهلي ، وكذلك كان يرى أبو عمرو بن العلاء - مثلاً - فإنه لم يستشهد بيت إسلامي طوال عشر سنوات ، كما ذكر الأصمعي ، وكان يرى أن الفرزدق وجريراً والأخطل من المحدثين ، ولكن عبارات ابن قتيبة تشير إلى أن القديم هو ما سبق زمنه ، والحديث هو ما قيل في عصره أو قريباً منه ، فإنه - كما يقول - رأى بعض علمائهم يعيرون الحديث ، ولا عيب له إلا أنه قيل في زمانه ورأى قائله ، ويقول : وجعل الله كل قديم منهم حديثاً في عصره ، وكل شريفاً خارجياً ^(١) في أوله ، فقد كان جرير والفرزدق والأخطل يعدون محدثين ، وكان أبو عمرو بن العلاء يقول : لقد نبغ هذا المحدث وحسن ، حتى لقد هممت بروايته ، ثم صار هؤلاء قديماً عندنا بعد العهد منهم . وكذلك يكون من بعدم لمن بعدنا ، كالخريجي ، والعتابي ، والحسن بن هاني .

فترى أن ابن قتيبة يحدد القديم « بعد العهد » والحديث بقربه ، وليست المعاصرة عنده هي الحد الفاصل ، فإن هؤلاء الشعراء الثلاثة الذين ذكرهم لم يعاصروا ابن قتيبة ، فبعضهم توفي وابن قتيبة لم يولد بعد ، كالحسن بن هاني وهو أبو نواس ، فقد كانت وفاته في سنة ١٩٨ هـ ، وابن قتيبة ولد سنة ٢١٣ هـ ، والعتابي توفي سنة ٢٢٠ هـ ، فكان ابن قتيبة حينئذ في سن الثامنة .

ثم أكد ابن قتيبة حكمه ووضحه ، وذكر نهجه وطريقته في اختيار الشعر فقال بعد ما تقدم : « فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له ، وأئنيما عليه به ، ولم يضعه عندنا تأخراً قائله ، ولا حداثة سنه ، كما أن الرديء إذا ورد علينا للتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه » .

وكذلك فعل معاصره أبو العباس المبرد ، فزاه وهو يتحدث عن الفرزدق

(١) الخارجي - هنا - من يسود بنفسه من غير أن يكون له قديم .

مقارناً بين شعر له مخيف ، وآخر جيد رصين ، يقول . . وليس لقدم عهد يفضل
القاتل ، ولا لحدثان عهد يهتضم المصيب ، ولكن يعطى كل ما يستحق . .
فهو يعد الفرزدق من المتقدمين ، ثم يعد أبا نواس من المحدثين ، فقد ذكر له
أبياتاً في صفة الخمر ، ثم قال : فهذه قطعة من التشبيه غاية على مخف كلام المحدثين ،
بل يعد بشار بن برد المتوفى سنة ١٦٧ هـ من المحدثين ، ومن ذلك قوله : ومن تشبيه
المحدثين المستطرف قول بشار : ^(١)

كأن فواده كرة تنزى حذار البين إن نفع الحذار

هذا ، وقد توفي أبو العباس في سنة ٢٨٥ هـ .

* * *

ثم يأتي القرن الرابع وتجدد المشكلة ، ويتصارع أنصار القديم والحديث ،
ويبدو التطرف في أقوال كل من الفريقين ، بل يبدو التطرف في رأى العالم الواحد
في فترتين مختلفين ، ولنضرب المثل بأحمد بن فارس المتوفى سنة ٣٩٠ هـ ، يقول
الدكتور زكى مبارك : « يحار الباحث في تحديد حياة ابن فارس العقلية ، ومرجع
هذه الحيرة هو ظهور هذا الرجل بلونين مختلفين كل الاختلاف . أما سبب هذه
الحيرة فهو إغفال المتقدمين تاريخ آثار هذا اللغوى الأديب ، فقد نعرف أنه راجع
كتاب « الصاحي » في سنة ٣٨٢ هـ ، ولكننا لا نعرف في أى سنة من سنى حياته
العلمية وضع رسالته في الرد على محمد بن سعيد الكاتب ، والفرق بعيداً جداً بين
رسالته هذه ، وكتابه ذاك ، فهو في « الصاحي » رجل حذر هيب يحسب مسaire
العقل جريمة ، ويعد التفكير من جملة الذنوب ، ولكنه في رسالته إلى ابن سعيد
باحث مملوء بالغيرة والحمية لكل حق ، ولكل جديد » ^(٢) .

ومع أن من الممكن تحليل هذا الاختلاف ، فتزول الحيرة ، وذلك أن الإنسان
ولا سيما العلماء الباحثون ، تتغير آراؤهم ، وتتناقض نظراتهم ، فقد يرى الواحد

(١) الكامل ج ٢ ص ٤٤ ، ٤٥ ، ط : التجارية سنة ١٣٥٥ هـ .

(٢) النثر الفنى في القرن الرابع ج ٢ ص ٣٢ ، الطبعة الأولى .

منهم رأيا ، ويعنف في النضال دونه ، ويتمادى في الخصومة من أجله ، ثم يعدل عنه بعد زمن طويل أو قصير ، ويرى ضد هذا الرأي ، والأمثلة في عصرنا قريبة التناول . مع هذا أرى أن تمسك ابن فارس بالقديم كان في ناحية ، ودفاعه عن الجديد كان في ناحية أخرى .

تمسك ابن فارس بالقديم فيما يتعلق بالعقيدة وبعض العلوم ، وإذا كان يفضل العروض على الفلسفة ، فذلك لما يظن من خطر الفلسفة على العقيدة ، وليس ابن فارس وحده من العلماء هو الذى نعى على أبحاث المناطق فى « الأعداد والخطوط والنقط ، التى لا يعرف لها فائدة - كما يقول - والسر العميق فى نفسه وفى نفوس غيره ممن أنكروها أنها مع قلة فائدها ترق الدين ، وتنتج كل ما نعوذ بالله منه .

ودافع ابن فارس عن الجديد حين اتصل الأمر بالآداب ، بل على وجه الخصوص بالتأليف فى الآداب ، فقد بلغه أن ابن سعيد أنكروا على أبى الحسن محمد بن على العجلي تأليف كتاب فى الحماسة ، فعجب لذلك ، وكتب إليه يحججه ، ويقول له : « ومن ذا حظر على المتأخر مضادة المتقدم ؟ ولم تأخذ بقول من قال : « ما ترك الأول للآخر شيئا ، وتدع قول الآخر : « كم ترك الأول للآخر ، ؟ وهل الدنيا إلا أزمان ، ولكل زمن منها رجال ؟ وهل العلوم بعد الأصول المحفوظة إلا خطرات الأفهام ونتائج العقول ؟ ومن قصر الآداب على زمان معلوم ؟ ووقفها على وقت محدود ؟ ولم لا ينظر الآخر مثل ما نظر الأول حتى يؤلف مثل تأليفه ، ويجمع مثل جمعه ، ويرى فى كل ذلك مثل رأيه ؟ ولم جاز أن يقال بعد أبى تمام مثل شعره ، ولم يحجز أن يؤلف مثل تأليفه ؟ .

والرسالة كلها فى هذا الاتجاه ، ونحن نعرف تخرج ابن فارس فى كل ما يتصل بالعقيدة ، أما الآداب ، وأما التأليف فيها بخاصة فأمر لا ينبغي حظره على المتأخر ، وقد وردت فى الرسالة إشارات إلى وجوب الاجتهاد فى التأليف ، والزيادة على ما كتب المتقدمون ، ولو اقتصر الناس على كتب القدماء لضاع علم كثير ، ولذهب أدب عزيز ، ولضلت أفهام ثاقبة ، ولكلت ألسن لسنة ، ولما توشى أحد لخطابة ،

ولا سلك شعباً من شعاب البلاغة ، ولجت الاستماع كل مردد مكرر ، واللفظت
القلوب كل مرجع مضغ . -

فابن فارس لا يقف في سبيل التجديد في كل العلوم ، ولكنه - في رأينا - يقف
في سبيل التجديد الذي يضر بالعقيدة ، ويرق الدين .

* * *

وكل حديث في وقته سيصبح قديماً بتطاول الزمن ، ففي كل عصر قديم وحديث
وقد نشأ الكلام في الأدب العربي أول ما نشأ في إعراض الرواة عن شعر عدى
ابن زيد ، وأبي دواد الإيادي - كما أسلفت - ولا شك أن النعمة تجددت حين نشأ
هؤلاء الشعراء الذين سموهم « عبید الشعر » فقد انتقل الشعر بهؤلاء من دور الطبع
إلى دور الصنعة والتكلف ، فالشاعر الذي يبدأ خطبته نثراً فتصير شعراً ، كما فعل
الحارث بن حازم - فيما حدثوا - غير الشاعر الذي يبيت بجمع شمل قصيدته ، ويظل
ينظر فيها ليقوم ما بها من عيوب :

وقصيدة قد بت أجمع شملها حتى أقوم ميلها وسنادها
نظر المثقف في كعوب قناته حتى يقيم ثقافه منادها

وفي مبدأ الدعوة الإسلامية طرأ على الشعر ما يمكن أن يحدث معركة بين
القديم والجديد لو كان الناس فارغين كفراغنا اليوم للحديث عن الأدب وتطوره ،
ولا شك أن ظهور الشعراء الغزلين من أمثال جميل بن معمر ، وكثير عزة ، ووضاح
الليث ، والشعراء السياسيين المدافعين عن أحزابهم من جماعية وخوارج وشيعة ،
لا شك أن ظهور هؤلاء كان حدثاً جديداً في الأدب العربي .

فلم يكن الشعراء الجاهليون يعتبرون الغزل غرضاً مستقلاً بذاته ، ولذلك
لا نجد قصيدة قصرت على الغزل إلا ما حدثوا عن قصيدة للبرقش الأكبر ، وربما
كانت كغيرها من القصائد ثم ضاعت بقيتها ، ولم يبق منها إلا مطلعها ، كما أن الغزل
الجاهلي كان مادياً يدور حول جسد المرأة ، والتمتع بها ، ثم جاء الشعراء الإسلاميون
لفعلوا من الغزل فناً راقياً مستقلاً ، وتحديثوا عن خلجات نفوسهم ولوا عجمهم وآلامهم ،
وكان منهم العذريون الذين أحبوا فعفوا فأتوا ، فكان ذلك نغماً جديداً في الشعر العربي .

وكذلك لم يعرف العرب إلا القبيلة ، يشيد بمنافها ، ويذيع مفاخرها ، ويدافع عنها ، ولم تكن هناك أهداف مرسومة يناضل دونها غير عزة القبيلة وسيادتها ، واتصافها بمن اعتدى عليها ، ثم جاء الإسلام ، ولم يمكث إلا نحو نصف قرن حتى تفرقت الأمة شيعاً وأحزاباً ، ونشأ الشعر السياسي ، وأخذ الشعراء يدافعون عن مذاهب سياسية خاصة ، ويتعرضون للخلافة ، ومن يكون أحق بها ، وينعى كل فريق على الآخر استنثاره بالسلطة ، وطلبه ما ليس له بحق ، وهكذا . فكان هذا أيضاً تطوراً جديداً في الشعر العربي .

* * *

ثم جاء العصر العباسي ، فكانت مظاهر التجديد فيه واضحة بارزة ، وتعددت هذه المظاهر :

فأبو نواس يدعو إلى ترك الوقوف على الأطلال ، والدمن البوالى ، ويعيب على العرب بكاهم واستبكاهم الصحب ، ويعرض ذلك حيناً في معرض الجد ، وحيناً في معرض السخرية :

قل لمن يبكى على رسم درس	واقفا ماضراً لو كان جلس
عاج الشقى على رسم يسائله	وعجت أسأل عن خماره البلد
يبكى على طلل الماضين من أسد	لادر درك قل لى من بنو أسد ١٩
لا جف دمع الذى يبكى على حجر	ولا صفا قلب من يهفو إلى وقد

ومسلم بن الوليد يهتدى إلى ما سعى - فيما بعد - « بالبديع » ، ويحىء أبو تمام فينغمس في هذا البديع انغماساً ، ويظهر ابن الرومي مفلساً الشعر ، ماثلاً إياه بالفكر ، وهو أكثر الشعراء اختراعاً للبعانى ، ويدافع أبو العتاهية عن طريقته السهلة في الزهد ، ويرى أنها هى المثلى فيقول : « لأن الشعر ينبغي أن يكون مثل أشعار الفحول للمتقدمين ، أو مثل شعر بشار وابن هرمة ، فإن لم يكن كذلك فالصواب لقائله أن تكون ألفاظه مما لا تنحى على جمهور الناس مثل شعري ، ولا سيما الأشعار التي في الزهد ، فإن الزهد ليس من مذاهب الملوك ، ولا من مذاهب رواد الشعر ،

ولا طلاب الغريب ، وهو مذهب أشغف الناس به الزهاد ، وأصحاب الحديث ،
والفقهاء ، وأصحاب الرياء ، والعامه ، وأعجب الأشياء ما فهموه .

ويجىء المتنبي وأبو العلام فينكر عليهما المتزمتون خروجهما على أصل الشعر
العربي ، مما جعل ابن خلدون يقول : فما كان من الكلام منظوما وليس على تلك
الأساليب - يريد أساليب القدماء - فلا يكون شعرا ، وبهذا الاعتبار كان الكثير
من لقيناه من شيوخنا في هذه الصناعة الأدبية يرون أن نظم المتنبي والمعري ليس
هو من الشعر في شيء ؛ لأنهما لم يجريا على أسلوب العرب .

ثم يعود فيؤكد هذا الحكم ، وينسبه في هذه المرة إلى « شيوخه » ، لا إلى
« الكثير » ، ويضيف أنهم - أي شيوخه - كانوا يعيرون شعر « ابن خفاجة » ، لكثرة
معانيه وازدحامها في البيت الواحد ، وهو يرى أن في ذلك نوع تعقيد .

وقد أردت أن أفهم ما هو « أسلوب العرب » ، في نظر ابن خلدون ، ذلك
الأسلوب الذي لم يجر عليه المتنبي وأبو العلاء ، فرأيت أنه « المنوال الذي
تفسج فيه التراكيب أو القالب الذي تفرغ فيه » ، وليس راجعا - في نظره - إلى
الإعراب ، ولا إلى البلاغة والبيان ، ولا إلى العروض ، فإن هذه العلوم الثلاثة
- كما يقول - خارجة عن هذه الصناعة الشعرية ، وإنما يرجع الأسلوب - عنده -
إلى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص ،
وتستفاد هذه الصورة من تتبع التراكيب في شعر العرب ونثرهم ، وليست معرفة
القوانين البلاغية كافية لذلك ، لأن قوانين البلاغة إنما هي قواعد عليية قياسية تفيد
جواز استعمال التراكيب على هيئتها الخاصة بالقياس .

وهو يضرب في هذا الموضع مثلين لتصرف العرب في أساليبهم - مثلا - سؤال
الاطلال يحجر عندهم على أنحاء مختلفة ، فهو - في الشعر - يكون بخطاب الطلول ،
كقوله : (يا دارمية بالعلياء فالسند) ويكون باستدعاء الصبح للوقوف والسؤال ،
كقوله : (قفا نسأل الدار التي خف أهلها) أو باستبكاء الصبح على الطلل ،
كقوله : (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل) أو بالاستفهام عن الجواب لمخاطب
غير معين بتحتها ، كقوله : (حى الديار بجانب العزل) أو بالدعاء لها بالسقيا كقوله :

أستق طلولهم أجشّ هزيم وغدت عليهم نضرة ونعيم
أو سؤاله السقيا لها من البرق كقوله :

يا برق طالع منزلا بالآبرق واحد السحاب لها حذاء الأيتق
وكان ابن خلدون يرى أن سؤال الطلل بغير هذه الطرق خروج عن
الأسلوب العربي .

ومن عجب أنه يعد أبا تمام من الفحول الإسلاميين ، ذلك الشاعر الذى أمقل
شعره باليديع ، وعقده بالغوص عن المعاني ، والذى قال فيه بعض الرواة من
المتقدمين : إن كان الشعر ما يقوله أبو تمام فليس معنا منه شيء ، وإن كان الشعر
ما يقوله العرب فليس مع أبي تمام منه شيء .

ويستند ابن خلدون فى كل أحكامه إلى « الذوق » فهو - مثلا - حين يفضل
الشعراء الإسلاميين على الشعراء الجاهليين يقول : والطبع السليم والذوق الصحيح
شاهدان بذلك للناقد البصير بالبلاغة ، ويقول مرة أخرى : وتأمل ذلك يشهد لك
به ذوقك إن كنت من أهل الذوق والبصر بالبلاغة .

وتم صورة الأسلوب كما كان فى ذهن ابن خلدون بقراءة هذه القصة التى ساقها ،
قال : إنه أنشد أحد أصحابه مطلع قصيدة ولم ينسبها وهو هذا :

لم أدر حين وقفت بالأطلال ما الفرق بين قديمها والبالى

فقال له على البداية : هذا شعر فقيه ، فسأل ابن خلدون : ومن أين لك ذلك ؟
فقال من قوله : ما الفرق ، إذ هى من عبارات الفقهاء ، وليست من أساليب كلام
العرب ، قال : فقلت له : لله أبوك ، إنه ابن النحوى .

ولمّا فطريقة شاعرى العربية المتنبي وأبى العلاء ليست هى طريقة العرب فى
شعرهم ، كما قال شيوخ ابن خلدون ، وأقرهم هو عليه .

والذى عندى أن شيوخ ابن خلدون وتلميذهم ، أخطأوا وجه الصواب ، ولعل
مما يعيننا على ذلك أننى لم أجد فى ثبت أسانئته من اشتهر بالأدب ، ونحن نعلم أن
القرن الذى عاش فيه ابن خلدون كان عصر تخلف فى الأدب ، لا سيما فى بلاد

المغرب ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن كل أساتذته كانوا من علماء الفقه أو النحو أو الفلسفة ، وأن هذه العلوم - كما يقول هو - تبعد عن تكوين ملكة عربية عالية . وأنا أنهم ابن خلدون نفسه في ذوقه ، فالرجل يفضل الشعراء الإسلاميين مثل حسان بن ثابت ، وابن أبي ربيعة ، والخطيئة ، وجريز ، والفرزدق ، وبشار ، على الشعراء الجاهليين مثل النابغة ، وعنترة ، وزهير ، وطرفة ، ويرى أن شعر الإسلاميين أرفع طبقة في البلاغة من شعر الجاهليين ، وأن كلامهم في نظمهم ونثرهم أحسن ديباجة ، وأصنى رونقا ، وأرصف مبنى ، وأعدل ثقيفا من أولئك ، ويجعل السر في ذلك ما استفادوه من الكلام العالي الطبقة : القرآن والحديث .

وقد غفل ابن خلدون عن « الطبع » وعن أن كثيراً من هؤلاء الشعراء الإسلاميين لم يظهر تأثرهم بالقرآن واضحاً ، بل لعل الخطيئة والفرزدق وذا الرمة كان تأثرهم بالشعر الجاهلي أظهر وأوضح من تأثرهم بالقرآن والحديث .

وغفل كذلك عما أجمع عليه النقاد من أن شعر حسان لان وضعف بعد الإسلام . وابن خلدون نفسه يتهم ذوقه ، فقد قال لصديقه لسان الدين بن الخطيب : أجد استصعاباً على في نظم الشعر من رمته مع بصرى به ، وحفظي للجيد من الكلام من القرآن والحديث ، وفنون من كلام العرب ، وإن كان محفوظاً قليلاً ، وإنما أتيت - والله أعلم - من قبل ما حصل في حفظي من الأشعار العلية ، والقوانين التأليفية ، وبعد أن عدد كتباً حفظها ، قال : فامتلاً محفوظي من ذلك ، وخدش وجه الملكة التي استعددت لها بالمحفوظ الجيد .

وإذا كان ابن خلدون فلتة في عصره لما حصله من العلوم والمعارف ، وما ابتكره من النظريات ، فإن الرجل لم يكن ذواقة ، ولذلك تابع شيوخه في الحكم على المتنبي وأبي العلاء بأن ما نظاه ليس من « الشعر » ^(١) .

* * *

ويمكن أن نلخص مظاهر التجديد في العصر العباسي في هذه الأمور :

(١) لحقت هذه الآراء من فصول كتبها ابن خلدون في (المقدمة) عن فن النظم والنثر في أخريات الكتاب .

ظهور البديع ، وأبطاله الأولون : مسلم بن الوليد ، فهو عند صاحب الموازنة (١) أول من تكلف البديع ، وأخذ نفسه بالصنعة ، وهو زهير المولدين ، وأول من أفسد الشعر بالبديع ، وبشار بن برد وابن هرمة ، وكان بديعهما مستساغاً مقبولا لظهور الطبع في شعر بشار ، ولاقتصاد ابن هرمة في البديع ، ثم انتهى علم البديع إلى ابن المعتز بعد أن عبث أبو تمام بالشعر في تحميله من البديع أوزارا ، وإيقاعه منه في شر مستطير .

ويرى ابن رشيق أن ابن المعتز ألطف أصحابه شعرا ، وأكثرهم بديعاً وافتنانا ، وأقربهم قوافي وأوزانا ، ولا أرى وراءه غاية لطالها في هذا الباب (٢) .

أما عبد القاهر الجرجاني فيرى أن ابن المعتز كان ينظم الشعر ليلهو به ، ولم يكن من المطبوعين (٣) .

وأيا ما كان فقد أصبحت الصنعة الشعرية - كما يقول ابن رشيق - ظاهرة فنية مقصودة ، وتهذيباً أدبياً واسعاً للشعر ، ومذهباً جديداً مأثوراً على يد المحدثين عامة (٤) . استنباط الدقيق من الأفكار ، وتصريف المعاني ، والاستقصاء في تمام المعنى ، وأستاذ هذه الطريقة - غير منازع - هو ابن الرومي .

بروز الآراء الفلسفية ، وسياقها مساق القضايا المسئلة ، وإشاعة الحديث عن الحياة ومشاكلها ، وسيد الشعراء في هذه الحلبة هو أبو العلاء .

وقبل أبي العلاء ظهر الشعر الزهدي ، هذا الشعر الذي ينعش في العيش ، ويحجب في الموت ، ويدعو إلى الإقصار من الآمال ، ويعتبر هذا الشعر ترديداً لكلام الزهاد الذين أشاعوا في النفوس كثيراً من الخوف والقلق ، ودعواها إلى التخلي عن مباهج الحياة وزينتها ، والشاعر المجلي في هذا الباب هو أبو العتاهية ، وقد سلك في شعره أنسب الطرق لهذا النوع من الشعر ، وهو طريق السهولة والواقعية - كما أسلفنا - .

(١) هو الحسن بن يصر الآمدي المتوفى سنة ٣٧٠ هـ .

(٢) العمدة ج ١ ص ١٠٩ (٣) أسرار البلاغة ص ٢٦٢ (٤) العمدة ج ١ ص ١٢٣

الاغراق في الخيال ، والمبالغة في أداء المعاني ، والإكثار من الاستعارات والكنايات ، وتكاد تكون هذه المظاهر عامة عند شعراء العصر العباسي ، وإن كانت مبالغات المتنبّي جاوزت الحد المعقول ، مما كان أسوة سيئة للشعراء الذين جاءوا بعده في عصر الانحطاط ، كما كان أبو تمام قبلة أصحاب المعاني وقدوة أهل البديع . من ناحية الشكل وقع تجديد في الأوزان والقوافي ، فقد جدت أوزان جديدة ، ونشأت ضروب في الشعر لم تكن معروفة ، وسنتحدث عنها في موضعها من هذا البحث . وقد كان بعض هذه المظاهر مما أساء إلى الشعر العربي كتعمد الفيلسفة إلى درجة الغموض ، والمبالغات إلى درجة الإحالة ، والتصوير إلى درجة الإغراب .

وقد نقلت ألفاظ أعجمية بحالها دون أن تصقل حتى توائم الألفاظ العربية ، وظهر كثير من الألفاظ المعربة ، كما وجد في الشعر بعض ألفاظ السخف والبذاء ، على نحو ما نراه في شعر ابن حجاج وابن سكرة وابن الرومي .

وكان من الطبيعي أن يكون لكل مظهر من هذه المظاهر أصدقاء وخصوم ، مدافعون ومهاجمون ، فما جدت فكرة من هذه الفكرة حتى قابلها بعض النقاد - أول الأمر - بالاستنكار ، وقابلها بعض آخر بالترحيب والإعظام ، ثم رمى الأولون الآخرين بالتحلل ، والخروج عن الجادة ، ورمى الآخرون الأولين بالجود والرجعية .

كما وجد بين هؤلاء الأدباء الذين آثروا التجديد ، ورغبوا فيه ، ولو كان سخفاً من السخف ، وجد فيهم من يشمخ بأنفه ، ويتعالى على معاصريه وأقرانه ، ويقول :
 أنا اللغة ، ٩

بحث حر عن :

رأى الدين في الصور والتماثيل

لفضيلة الأستاذ العالم الرسام عبد المجيد وفي
المدرس بالأزهر



لا شك أننا إذا رجعنا إلى كلام الفقهاء المسلمين ، في أمر الصور والتماثيل فإننا نجدهم على الجملة أقرب إلى التشدد في التحريم منهم إلى الإباحة ، ولكنهم يتفاوتون في هذا التشدد .

فشلا نرى النووي^(١) - وهو من كبار الشافعية - يذهب إلى أبعد مدى في التحريم فيقول :

قال أصحابنا وغيرهم من العلماء : تصوير صورة الحيوان حرام شديد التحريم ، وهو من الكبائر ، لأنه متوعد عليه بالوعيد الشديد المذكور في الأحاديث ، وسواء صنعه بما يمتن أو بغيره فصنعه حرام بكل حال ، لأن فيه مضاهاة لخلق الله تعالى ، وسواء ما كان في ثوب أو بساط أو درهم أو دينار أو فلس أو إناء أو حائط أو غيرها^(٢) ، وأما تصوير صورة الشجر ورحال الإبل وغير ذلك مما ليس فيه صورة حيوان فليس بحرام ، هذا حكم نفس التصوير .

وأما اتخاذ ما فيه صورة حيوان فإن كان معلقاً على حائط أو ثوباً ملبوساً أو عمامة أو نحو ذلك مما لا يعد ممتناً فهو حرام ، وإن كان في بساط يداس ومخدة

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ص ٨١ ، ٨٢ ج ١٤ .

والنوى هو الإمام محي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف ، ولد سنة ٥٦٣هـ ، ومات سنة ٥٦٦هـ .

(٢) إحاطة بكل ما يصور يدل على انتشار ذلك في عصره انتشاراً شديداً .

ووسادة ونحوها مما يمتن فليس بحرام، ولكن هل يمنع دخول ملائكة الرحمة ذلك البيت؟ وسيأتى، قال: ولا فرق في ذلك كله بين ماله ظل وما لا ظل له.

قال: هذا تلخيص مذهبنا في المسألة، وبمعناه قال جماهير العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وهو مذهب الثورى ومالك وأبي حنيفة وغيرهم.

وقال بعض السلف: إنما ينهى عما كان له ظل، ولا بأس بالصور التى ليس لها ظل، وهذا مذهب باطل، فإن الستر الذى أنكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم الصور فيه لا يشك أحد أنه مذموم، وليس لصورته ظل، مع باقى الأحاديث المطلقة فى كل صورة.

وقال الزهرى (١): النهى فى الصورة على العموم، وكذلك استعمال ما هى فيه ودخول البيت الذى هى فيه سواء كانت رقما فى ثوب أو غير رقم، وسواء كانت فى حائط أو ثوب أو بساط تمتن أو غير تمتن عملا بظاهر الأحاديث، لاسيما حديث الفرقة الذى ذكره مسلم، وهذا مذهب قوى.

وهكذا نرى النووى يتشدد هذا التشدد فى حكم تصوير الحيوان، سواء كان رقما فى ثوب أو بساط أو درهم أو دينار أو فلس أو إناء أو حائط أو غير ذلك (٢).

فلو أخذنا برأيه هذا لما جاز لأى فنان أن يرسم أى نوع من أنواع الحيوان أو الإنسان فى غرض من أغراض الحياة.

كما نراه يتشدد فى تحريم استعمال ما صوره الغير أو رسمه، فلا يبيع ذلك إلا إذا كان مستعملا على سبيل الامتحان، كبساط يداس عليه أو غير ذلك، ومعنى هذا

(١) هو أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهرى، من رواة الحديث روى عن صفار الصحابة، سكن الشام، ولد سنة ٥٠ هـ، ومات سنة ١٢٤ هـ، تهذيب الأسماء واللغات ص ٩٠ ج ١ - تعريب التهذيب لابن حجر ص ٢٠٧ ج ١.

(٢) يذكر المقرئ فى رسالة النقود: أن عمر بن الخطاب سك عملة من الدراهم والدنانير وعليها الصور الكسروية والبيزنطية ولم يغير فى رسم العملة شيئا، وإن كان قد أضاف إلى بعضها « لا إله إلا الله وحده، الله أحد، محمد رسول الله، ترى ما ذا يكون رأى الفقهاء فى عمر إذ فعل ذلك، بل ترك الأمة تراول التعامل بهذه السكة.

أنه لا يجوز استعمال الأطباء التي عليها الصور ، ولا تعليق الصور في ذاتها فوق الجدران ، وما إلى ذلك .

وزاء في هذا النص يعني بتوضيح موقف ملائكة الرحمة من دخول بيت فيه تصاوير أو عدم دخولهم ، فيأتي أن يفرق بين ما له ظل وهو التماثيل ونحوها ، وما لا ظل له كالصور والرسوم ، ويسلك هذا كله في سلك المنع والتحريم ، وبأنه أن يقبل ما رواه عن بعض السلف من التفرقة بين ما لا ظل له وما له ظل ، فيحكم بطلانه ، ويعارضه برواية أخرى يحكم بقوتها .

ويتبين مما ذكره النووي - وإن لم يرتضه - أن بعض العلماء يفرق بين التماثيل والصور أو الرسوم ، فيحرم التماثيل صناعة أو اقتناء ، وينبغ الصور والرسوم إذا كانت رقماً في ثوب أو نحو ذلك ، سواء كانت مقتناة على سبيل الامتحان أو معلقة في حائط أو غيره .

ونرى من الفقهاء من يتوسع ويترخص شيئاً ما ، كالقاضي عياض ^(١) من المالكية الذي يقرر جواز اتخاذ لعب البنات ، التماثيل التي تتخذها البنات لعباً من مثل عرائس الحلوى أو الجبس أو القطن ونحوه ، استناداً إلى ما ورد من أن عائشة عند ما تزوجها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانت صغيرة ، وكانت لها لعب صغيرة من هذا النوع ، وكان لها صواحب يلعبن معها ، ويعلق القرطبي ^(٢) على ذلك بقوله : قال العلماء : وذلك للضرورة إلى ذلك وحاجة البنات حتى يتدربن على تربية أولادهن ، ص ٢٧٥ ج ١٤ القرطبي .

ويذهب بعض العلماء ^(٣) إلى جواز التماثيل عامة ، فضلاً عن الصور والرسوم ،

(١) هو أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض البصري - قبيلة من حير - الأندلسي السبكي ، ولد سنة ٤٩٦ هـ ، وتوفي سنة ٥٤٤ هـ . الصلة لابن شكوال ص ٤٢٩ ج ١ ، الفتيان، للذهب ص ١٦٨ .

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، توفي سنة ٦٧١ هـ . بمكة ابن خبيب بمصر .

(٣) لم يذكر القرطبي ما يشير إلى شخصيات هؤلاء العلماء .

استناداً إلى ما جاء في قوله تعالى عن نبيه سليمان عليه السلام : « يعملون له ما يشاء من محاروب وتماثيل ، قالوا إن التمثال هو كل ماصور على صورة حيوان أو إنسان ، وقالوا كان لسليمان أنواع من التماثيل من زجاج ونحاس ورخام ، وإن بعضها كان يمثل صور أنبياء تقدموا أو علماء أو صلحاء ، وبعضها كان يمثل حيوانات أخرى ، كما يروى أنه كان يجلس على كرسي يقوم على أسدين من أسفله ونسرين فوقه ، فإذا أراد أن يصعد بسط الأسدان له ذراعيهما ، وإذا قعد أطلق النسران أجنحتهما ، أي أنها لم تكن مجرد تماثيل ساكنة ، ولكنها كانت تماثيل ذات حركات معينة . وهذا الرأي حكاه مكى^(١) في الهداية ، وذكره النحاس^(٢) قبله .

وكما استدلووا لذلك بفعل سليمان ، استدلووا له أيضاً بفعل المسيح عليه السلام الذي حكاه عنه القرآن في قوله تعالى : « إني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله » .

وقد ذكرت هذه الآراء في تفسير القرطبي ، وإن كان قد روى ما يعارضها ويقرر خطأها ص ٢٧٤ ج ١٤ .

والواقع أن لكل فقيه أو عالم من هؤلاء وجهة فيما ذهب إليه ، وأن هناك طائفة من الأحاديث النبوية يتبادلها أصحاب هذه الآراء ويستندون إليها .

وسيلينا في هذا الأمر الذي وقع فيه الاختلاف أن نرده إلى الله ورسوله ، عملاً بقوله تعالى : « فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً » .

فلنستعرض أهم ما ورد في هذا الباب من الكتاب والسنة لنعلم الحقيقة ، ولنبدأ بما ورد في السنة لكثرة وكثرة ما دار حوله ، فمن ذلك :

(١) هو مكى بن أبي طالب محوش بن محمد بن مختار المغربي القاريء النحوي صاحب المجابة إلى بلوغ النهاية (تفسير) ولد سنة ٣٥٥ هـ ، وتوفى سنة ٤٣٧ هـ (كشف الظنون ص ٤٥٥ ج ١ - بنية الوعاة للسيوطي ص ٣٩٦) .

(٢) ويعرف أيضاً بابن النحاس ، وهو أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس الهراذلي النحوي المصري ، توفي سنة ٤٣٨ هـ (كشف الظنون ص ٤٦٠ ج ١ - بنية الوعاة ص ١٥٧) .

(١) عن عائشة أنها نصبت سترأ وفيه تصاوير ، فدخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فزعه ، قالت : فقطعتها وسادتين فكان يرتفق عليهما - متفق عليه ، وفي لفظ أحمد : فقطعت مرفقتين فلقد رأيت مكثاً على إحداها وفيها صورة .
وهذا الحديث يذكر كلمة تصاوير ، فهل يتحتم أن الرسول صلى الله عليه وسلم كرمه ونزعه بمجرد أن فيه تصاوير ؟ .

إننا لا نستطيع أن نقر ذلك ، لأن الحديث نفسه يذكر أن إحدى المرفقتين قد بقيت فيها صورة ، وأنه قد اتكأ عليها ، مع بقاء هذه الصورة ، فلو كانت الكراهية والنزع موجهة ضد التصوير والصورة لكان الحكم بالتحريم قريباً ، ولو كان النص دالاً على أن السترحين قطع أزيلت الصورة أو فسد وضعها كصورة لكان الأمر مقبولاً ، ولكن الصورة بقيت والرسول اتكأ عليها ، فلا بد لنا أن نلمس سرّاً آخر لا نزاع الرسول للستر ، ولتقطيع عائشة إياه وسادتين ، وذلك السر في نظرنا هو كراهية النبي صلى الله عليه وآله وسلم للترفه ، واتجاهه لأن يكون بيته خالياً من وسائل الزينة والنعيم ، وليس ذلك لأن الزينة والنعيم والمستوى الرفيع في اتخاذ الستور والبسط وما إليها محرم على المؤمنين ، وإنما هو لموضع القدوة في حق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، فالأولى ألا يفعل ذلك .

وهذا الذي نقره تدل عليه رواية أخرى - فقد روى مسلم عن عائشة قالت : كان لنا ستر فيه تمثال طائر ، وكان الداخل إذا دخل استقبله ، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : حولي هذا ، فإني كلما دخلت فرأيت ذكرك الدنيا .

وفي رواية أخرى عنها : « أنه كان لها ثوب فيه تصاوير معدودة إلى سهوة - والسهوة بيت صغير منحدر في الأرض قليلاً شبيه بالخدع - فكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يصلي إليه - أي أنه كان تجاهه وهو يصلي مستقبلاً القبلة - فقال : أخبره عني ، قالت : فأخبرته فجعلته وسادتين ، .

قال القرطبي معلقاً على ذلك : قال بعض العلماء : ويمكن أن يكون تهنيكه عليه السلام الثوب وأمره بتأخير ورعاً ، لأن محل النبوة والرسالة الكمال ، فتأمله :

بذلك يتبين أن السر الذي دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى كراهيته السر في الحديث الذي نتحدث عنه ، وفي طلب تأخير ستر آخر عنه كان منصوباً في مكان واضح في مدخل البيت يستقبله المستقبل ، أو في مكان يتجه إليه رسول الله حين يصلي ، كما تذكر الروايتان الأخريان ، كل هذا يؤذن بأن السر هو كراهيته الدنيا ، والرفع عن متاعها وما يشغل القلب منها تورعاً وتكلاً ، فليس له صلة بالصورة أو الصور التي في هذا السر أو ذاك

(٢) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « أتاني جبريل فقال : إني كنت أتيتك الليلة فلم يمنعني أن أدخل البيت الذي أنت فيه إلا أنه كان فيه تمثال رجل ، وكان في البيت قوام ستر فيه تماثيل ، وكان في البيت كلب ، فرأس التمثال الذي في الباب يقطع يصير كهية الشجرة ، وأمر بالستر يقطع فيجعل وسادتين متبذتين توطآن ، وأمر بالكلب يخرج . ففعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذلك ، وإذا بالكلب جرو ، وكان للحسن والحسين تحت نضد لهما ، . رواه أحمد وأبو داود والترمذي ، وصححه وأخرجه النسائي .

وكل ما ذكر في هذا الحديث أن جبريل عليه السلام امتنع عن دخول البيت وفيه هذه الأشياء ، فلقاتل أن يقول : هل كان امتناعه كراهية للصور والتماثيل والكلب ؟ أو كان لما يدل عليه ذلك من اتجاه إلى اتخاذ هذه الأشياء ، وما لها من دلالة على التأنق والترفة واللهو ، بينما يراد من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يكون بعيداً عن كل ما يجعله كالرؤساء الذين يقصدون إلى الفخامة والعلو .

نعم إن في الحديث تصريحاً بأن جبريل أمره بأن يقطع رأس التمثال ، وأن يقطع السر فيحوله إلى وسادتين ، وأن يخرج الكلب ، ولكن ذلك في رأينا لا يقصد به إلا إلى إبطال اتخاذ هذه الأشياء على الوضع الذي اتخذت عليه ، ترفيعاً لمقام النبي صلى الله عليه وسلم عن مظاهر العلو المصطنعة على سنة الرؤساء والكبراء من أهل الدنيا ! ولا شك أن هناك فرقاً بين اتخاذ ستر فيه تصاوير ، وتحويل هذا السر إلى وسادتين يفتنع بهما وتبطل معهما الدلالة على التزيد والتنع ، كما أن قيام تمثال رجل يؤذن بلون من ألوان التأنق والتكبر والزينة ، وكذلك اقتناء كلب صغير بدون

حاجة إليه إلا لمجرد اللعب به واللهو ، ولذلك فإن اتخاذ الكلب للحراسة ونحوها جائز ولا بأس به ، أما اتخاذه لمجرد اللهو والتفاخر بمظهره فإنه أمانة لا يحبها الإسلام ، ولا يرضى أن ينشأ على حبها أبناء المسلمين .

وقد يفسر لنا هذا ما نراه في بعض البيوت الآن من عناية باقتناء الكلاب أو نحوها من النسايس والقروء أحياناً ، كل ذلك للعبث والتظاهر بمظهر من مظاهر الزينة ، والإسلام يكره ذلك ، ولا يجب أن تكون الأم عليه ، ومن باب أولى لا يجب أن يكون بيت الرسول على شيء منه ، وهذا في نظرنا هو ما ينبغي أن يفسر به الحديث ، وبذلك يكون في معزل عن حرمة التصوير أو التماثيل أو عدم حرمتها .

(٣) عن ابن عباس : « وجاء رجل فقال : إني أصور هذه التصاوير فأقتنى فيها ، فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : كل مصور في النار ، يجعل له بكل صورة صورها نفساً تعذبه في جهنم ، فإن كنت لا بد فاعلا فاجعل الشجر وما لا نفس له ، متفق عليه .

هذا الحديث هو الذي استند إليه من فرق بين تصوير الحيوان وتصوير الشجر ونحوه ، وأشد ما فيه ما رواه سماعاً عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من قوله : « كل مصور في النار ... الخ » .

(٤) ومثله ما روى عن ابن عمر : أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « الذين يصنعون هذه الصور يعذبون يوم القيامة يقال لهم أحيوا ما خلقتم ، متفق عليه .

وما روى من قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « من صور صورة عذبه الله يوم القيامة حتى ينفخ فيها الروح وما هو بنافع » ، رواه البخاري والترمذي والنسائي عن ابن عباس .

ونلاحظ على هذه الأحاديث ما يأتي :

١ — أن كلا من حديث ابن عباس وحديث ابن عمر يقول ما يفهم منه أن الكلام في صور معينة ، إذ يقول الرجل الذي سأل ابن عباس : « إني أصور هذه

التصاوير فأفتنى فيها ، ويقول ابن عمر نقلا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :
« الذين يصنعون هذه الصور ، »

ولإذن فهى صور معينة جرى عليها القول ، وانصب عليها الحكم ، ومن الجائز أن تكون صوراً لها دلالة دينية مخالفة لما عليه المسلمون ، كالأصنام التى تعبد من دون الله ، وقد يدل على ذلك ما ورد فى حديث مسلم وغيره « أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم هتك درنوكا لعائشة كان فيه صور الخيل ذوات الأجنحة حتى اتخذت منه وسادتين ، والدرونوك نوع من النسيج ذو وبر كالقطيفة كان يرسم عليه فى صناعة النسيج ، فهذا الحديث الأخير يتحدث عن نوع معين من الصور هو الخيل ذوات الأجنحة ، ومن المعروف أن العادة جرت بتصوير الملائكة ذوى أجنحة ، أخذاً مما ورد فى الكتب الدينية من وصفها ، كما فى قوله تعالى : « أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع ، فالتبادر أن صور الخيل لها أجنحة يلتقى بتصوير الملائكة وأجنحتها ، فكان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كره الاقتحام على الملائكة ، ولو من بعيد ، فلم يرض عن هذا النوع من الصور .

وبذلك يمكننا أن نقول إن تصوير من له قداسة من ملك أو نبي أو نحو ذلك ينبغي ألا ينظر إليه بارتياح .

٢ — أن هذه الأحاديث قد تحدثت عن المصورين أو عن التصوير عامة ، إن بعضها يشير إلى تخصيص التحريم بما كان ذا روح ، وبعضها يستثنى ما كان رقياً فى ثوب ونحوه ، وبذلك يتردد معناها بين التعميم والتخصيص ، وبين التماثيل المجسمة والصور والرسوم المرقومة .

وهذا ما دعى بعض العلماء إلى الخروج من تضارب الأقوال فيها بتأويلها ، ومن أهم ما رأينا فى ذلك رأى أبى على الفارسي^(١) ، فهو يقرر أن القدر المتفق عليه فى هذه الأحاديث وأمثالها هو الحكم بتعذيب المصور ، ووراء هذا القدر المتفق عليه

(١) هو الحسن بن على بن أحمد بن عبد الغفار بن محمد بن سليمان بن إبان الفارسي (٢٨٨ هـ - ٣٧٧ هـ) عن وفيات الأعيان ج ١ / ٣٦١ ، مجمع الأدباء ج ٧ / ١٣٢ .

روايات أخرى أحادية لا تقيد القطع تضيف إلى هذا القدر المشترك شيئاً آخر هو أنه : يقال لم أحيوا ما خلقتم .

فإذا قطعنا النظر عن هذه الزيادات لم يبق معنا إلا الإخبار بتعذيب المصورين في مثل قوله : « إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون » ، وهنا يقول أبو علي الفارسي : « إن المراد بالمصورين الذين يكونون أشد الناس عذاباً يوم القيامة هم فرقة المجنونة التي ترى أن الله تعالى جسم ويشبهونه بما خلق ، هؤلاء قد خالفوا صريح القرآن في مثل قوله تعالى : « ليس كمثل شيء » ، « ولم يكن له كفواً أحد » ، فاستحقوا أشد العذاب لأنهم افتروا على الله في أمر من أمور العقيدة ، بل هو أهم عقيدة من العقائد التي جاءت بها الأديان لا اتصالها بذات الله جل علاه ، لذلك يكون مفهوماً أنهم يستحقون أشد العذاب تبعاً لعظم جريمتهم وشناعتها ، ولا يعقل أن يكون مجرد تصوير صورة مجنونة أو مرقومة سيئاً في نظر الشارع لاستحقاق أشد العذاب بهذا الإطلاق ، فأين هذا من جريمة الزنا مثلاً ، أو من جريمة قتل النفس التي حرم الله قتلها ، أو غير ذلك من الجرائم العظمى ، ويجدر بنا أن نقل كلام أبي علي نفسه بعد أن قدمنا له هذه المقدمة .

قال أبو علي الفارسي في كتابه « الحجة » (١) :

فأما قوله : « ثم اتخذوا العجل » ، وقوله : « باتخاذكم العجل » ، « اتخذوه وكانوا ظالمين » ، « واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلًا جسداً » ، فالتقدير في ذلك كله : اتخذوه إلهاً ، لحذف المفعول الثاني .

والدليل على ذلك أن الكلام لا يخلو من أن يكون على ظاهره ، كقوله : « كمثل العنكبوت اتخذت » ، أو يكون على إرادة المفعول .

فلا يجوز أن يكون على ظاهره دون إرادة المفعول الثاني لقوله عز وجل : « إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا » .

ومن صاغ عجلًا أو نجره أو عمله بضرب من الأعمال لم يستحق الغضب من الله

(١) مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٤٦٢ : « مصور » من ٣٥٦ ج ١ .

عز وجل والوعيد عند المسلمين ، فإذا كان كذلك علم أنه على ما وصفنا من إرادة المفعول الثانى المحذوف فى هذه الآى .

فإن قال قائل قد جاء فى الحديث : يعذب المصورون يوم القيامة ، وفى بعض الحديث : ويقال لهم أحيوا ما خلقتم . قبا : يعذب المصورون يكون على من صور الله تصوير الأجسام ، وأما الزيادة فى أخبار الآحاد التى لا توجب العلم ، فلا يقدح بذلك فى الإجماع على ما ذكرنا .

إلى هنا ينتهى نص كلام أبى على ، وبما يلفت النظر ويسترعى الانتباه أنه يقرر جواز صياغة عجل أو نجره إلى آخره تقرير المسلمات ، وأن هذا الفعل لا يمكن أن يكون بذاته سببا لاستحقاق غضب الله .

فإذا بدا أمام عينيه أن أحداً سيعترض على هذا الذى يقرره بحديث : « إن من أشد الناس عذاباً ... الخ » خرج من هذا الاعتراض بتأويل الحديث على النحو الذى أوله به .

ولا شك أن هذا رأى خطير يدلى به عالم فى شأن التصوير ، عالم عظيم فى القرن الرابع الهجرى ، ويهيم السيل لمن لم يطمئن إلى حكم التحريم ، أو يؤول أحاديث تعذيب المصورين بمثل ما أولها به أبو على .

* * *

بهذا يقين أن استنباط التحريم من الأحاديث ليس ضربة لازب كما يرى المتشددون ، وأن الأمر لا يعدو أن يكون فهما فيما روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، لنا أن نعارضه بفهم آخر .

ويبقى بعد ذلك أن ننظر فى القرآن الكريم ، لنرى هل فيه دليل أو شبه دليل على منع التصوير أو التماثيل .

١ — يضر بعض الناس ، الأنصاب ، فى قوله تعالى : « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه » ، بأنها الأوثان ، ومع أن هذا التفسير ليس هو أظهر الآراء فى تفسير ، الأنصاب ، بل أظهرها أنها الأحجار التى كانت تنصب وتذبح عليها القرابين .

فإن أحدا لا ينازع في أن اتخاذ الأوثان وصناعتها ترويحاً للوثنية والشرك أمر محرم إجماعاً ، فليكن هذا النوع من التماثيل محرماً ، ولكن لا يصح أن نطلق معه القول بتحريم جميع التماثيل حتى التي لم يقصد بها ولا يفهم منها أى معنى من معانى الوثنية .

٢ — ورد في سورة سبأ إخباراً عن سليمان عليه السلام وما يسره الله له قوله عز وجل : « يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادى الشكور » .

وقد سبق لنا أن ذكرنا أن هناك فريقاً من العلماء يرى إباحة التصوير بجميع أنواعه مجسماً أو غير مجسم استناداً إلى هذه الآية ، والذين يمنعون ويحرمون يستندون إلى أن حكم الإباحة إنما هو في شريعة غير شريعتنا ، وقد حرمت الصور والتماثيل في شريعتنا .

والواقع أن المسألة لا يمكن أن تمر بهذه السهولة استناداً إلى الإحاديث التي شرحناها وناقشنا آراءهم فيها ، وأن الآية الكريمة التي تذكر هذا عن سليمان ، يدل سياقها على تمجيد نعم الله تعالى على سليمان ، وتعدد مظاهر الحضارة والرقى الصناعى في عهده ، ففى تذكر المحاريب والتماثيل والجفان والقدور ، كما ذكرت من قبل تسخير الريح غدوها شهر ورواحها شهر ، وكما ذكرت من قبل نعم الله على داود أبي سليمان من لإلانة الحديد له ، وإسالة عين القطر ، وتأويب الجبال معه والطير .. الخ وقد ختم ذلك كله بقوله تعالى : « اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادى الشكور ، فاعتبر أن هذا كله نعم تستحق الشكر ، وطلب أن يكون هذا الشكر أفعالاً إيجابية ، فلم يقل : اشكروا يا آل داود ، ولكن قال : اعملوا شكراً .

ويعد أن يباح لنبي من الأنبياء شيء ويمجد هذا التمجيد ، ويعد نعمة تستحق الشكر العمل ، ثم يقال إن هذا مما نسخته شريعة الإسلام ، لأن شريعة الإسلام ما جاءت لتنسخ مثل هذا ، وإنما تمنع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، وليس هذا من قبيل الإصر والأغلال ، وإنما هو من قبيل الرقى الصناعى والقرن .

وظاهر أن التماثيل التي كانت تصنع لسليمان ليست تماثيل وثنية وشرك ،
ولمّا أبيضت في أي دين من الأديان طريقة عين .

والخلاصة أن هذه الآية أجدر بأن تدل على الإباحة لا على التحريم ، وشبهه
بهذا ما ورد في الكتاب العزيز حكاية عن عيسى : « إني أخلق لكم من الطين ... الخ »
فهذا رسول كريم استباح بإذن ربه أن يخلق ، أي يصنع تماثلاً كهيئة الطير ولو كان
ذلك قبيحاً من البشر ، لما أذن الله أن يفعله رسول من رسله ، ولا يقال إن هذا
إنما هو مقام المعجزة في شأن عيسى ، لأننا نقول إن المعجزة ليست في صنعته
مكوناً عن هيئة الطير ، ولكن في النفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله .

ومن يتأمل أسلوب القرآن الكريم في إثبات وجود الله وعظمته ، يجد أن هذا
الأسلوب يعين على إفت الأنظار إلى ما خلق الله من شيء في السموات والأرض ،
إلى دقة الصنعة التي تتجلى في النبات ، وتتجلى في الحيوان ، وتتجلى في الجاد .

فإنه تعالى يقول : « قل انظروا ما ذا في السموات والأرض ، ويقول : « قل
سيروا في الأرض ثم انظروا ، فكيف يطلب من الناس النظر والتدبر ومشاهدة
العجائب من خلقه ، وصنع الله الذي أتقن كل شيء للوصول إلى الإيمان بوجود الله
ووحدايته ، ثم يمنع المصور أن يصور هذه الأشياء ، أو الرسام أن يرسمها ،
أو النحات أن يمثّلها ، أليس ذلك كله تمجيداً لصنعة الله وإعراباً عن جلالها ودقتها
بريشة الفنان أو آلة المثل ، وهل يختلف هذا عن تصوير عجائب خلق الله بالشعر
الذي هو أيضاً من الفنون ؟ إن هذا وذاك ما هو إلا مخاطبة للعاطفة عن طريق
ما يسمع إذا قلت شعراً أو نثراً ، وعن طريق ما ينقش إذا رسمت أو مثلت
أو صورت ، وعن طريق ما ينظر إذا سرت في الأرض ثم تأملت .

* * *

ويجدر بي هنا أن أنقل رأى الإمام محمد عبده في ذلك الموضوع (١)
قال الإمام : « لهؤلاء القوم حرص غريب على حفظ الصور المرسومة على

(١) نقلاً عن تاريخ الإمام للسيد رشيد رضا ص ٤٩٨ - ١ .

الورق والنسيج ، ويوجد في دار الآثار عند الأمم الكبرى ما لا يوجد عند الأمم الصغرى ، كالصقليين مثلاً ، يحققون تاريخ رسمها واليد التي رسمتها ، ولهم تنافس في اقتناء ذلك غريب ، حتى أن القطعة الواحدة من رسم « روائيل » مثلاً ربما تساوى مئات من الآلاف في بعض المتاحف . ولا يهمل معرفة القيمة بالتحقيق ، وإنما المهم هو التنافس في اقتناء الأمم لهذه النقوش ، وعد ما أتقن منها من أفضل ما ترك المتقدم للتأخر ، وكذلك الحال في التماثيل ، وكلما قدم المتروك من ذلك كان أعلى قيمة ، وكان القوم عليه أشد حرصاً ، هل تدري لماذا ؟ .

إذا كنت تدري السبب في حفظ سلفك للشعر و ضبطه في دواوينه . والمبالغة في تحريره ، خصوصاً شعر الجاهلية ، وما غنى الأوائل رحمهم الله بجمعه وترتيبه ، أمكنك أن تعرف السبب في محافظة القوم على هذه المصنوعات من الرسوم والتماثيل . فإن الرسم ضرب من الشعر الذي يرى ولا يسمع ، والشعر ضرب من الرسم الذي يسمع ولا يرى ، إن هذه الرسوم والتماثيل قد حفظت من أحوال الأشخاص في الشئون المختلفة ، ومن أحوال الجماعات في المواقع المتنوعة ، ما تستحق به أن تسمى ديوان الهيئات والأحوال البشرية ، يصورون الإنسان والحيوان في حال الفرح والرضا ، والطمأنينة والتسليم ، وهذه المعاني المدرجة في هذه الألفاظ متقاربة لا يسهل عليك تمييز بعضها عن بعض ، ولكن تنظر في الرسوم المختلفة فتجد الفرق ظاهراً باهراً ، يصورونه مثلاً في حالة الجزع والفرح ، والخوف والخشية ، والجزع والفرح مختلفان في المعنى ، ولم أجمعها هنا طمعاً في جمع عينيه في سطر واحد ، بل لأنهما مختلفان حقيقة ، ولكنك ربما تقتصر ذهنك لتحديد الفرق بينهما وبين الخوف والخشية - ولا يسهل عليك أن تعرف متى يكون الفزع ومتى يكون الجزع - وما الهيئة التي يكون عليها الشخص في هذه الحال أو تلك . وأما إذا نظرت إلى الرسم وهو ذلك الشعر الساكت فإنك تجد الحقيقة بارزة لك تتمتع بها نفسك ، كما يتلذذ بالنظر إليها حسك .

ثم يقول : لحفظ هذه الآثار حفظ للعلم في الحقيقة ، وشكر لصاحب الصنعة على الإبداع فيها ، إن كنت فهمت من هذا شيئاً فذلك بغيتي ، وأما إذا لم تفهم فليس

عندى وقت لتفهيكم بأطول من هذا ، وعليك بأحد اللغويين أو الرسامين أو الشعراء المفلقين ليوضح لك ما غمض عليك إذا كان ذلك من ذرعه .

ربما تعرض لك مسألة عند قراءة هذا الكلام ، وهى : ما حكم هذه الصور في الشريعة الإسلامية إذا كان القصد منها ما ذكر من تصوير هيئات البشر في انفعالاتهم النفسية ، أو أوضاعهم الجسدية ، هل هذا حرام ، أو جائز ، أو مكروه ، أو مندوب ، أو واجب ؟ .

فأقول لك : إن الراسم قد رسم ، والفائدة محققة لا نزاع فيها ، ومعنى العبادة وتعظيم التمثال أو الصورة قد يحى من الأذهان ، فإما أن تفهم الحكم من نفسك بعد ظهور الواقعة ، وإما أن ترفع سؤالا إلى المفتى وهو يحبك مشافهة ، فإذا أوردت عليه حديث : « إن أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون » ، أو ما فى معناها مما ورد فى الصحيح ، فالذى يغلب على ظنى أنه سيقول لك إن الحديث جاء فى أيام الوثنية وكانت الصور تتخذ فى ذلك العهد لسييين : الأول : الله ، والثانى : التبرك بتمثال من ترسم صورته من الصالحين ، والأول مما يبغضه الدين ، والثانى مما جاء الإسلام لمحوه ، والمصور فى الحالين شاغل عن الله أو نمهد للإشراك به ، فإذا زال هذان العارضان وقصدت الفائدة كان تصوير الأشخاص بمنزلة تصوير النبات والشجر فى المصنوعات ، وقد صنع ذلك فى حواشى المصاحف وأوائل السور ولم يمنعه أحد من العلماء ، مع أن الفائدة فى نقش المصاحف موضع النزاع ، وأما فائدة الصور فما لا نزاع فيه على الوجه الذى ذكر .

وأما إذا أردت أن ترتكب بعض السيئات فى محل فيه صور طمعاً فى أن الملكين الكاتبين أو كاتب السيئات على الأقل لا يدخل محلا فيه صور كما ورد ، فأياك أن تظن أن ذلك ينجيك من إحصاء ما تفعل ، فإن الله رقيب عليك وناظر إليك ، حتى فى البيت الذى فيه صور ، ولا أظن أن الملك يتأخر عن مرافقتك إذا تعدت دخول البيت لأن فيه صوراً .

ولا يمكنك أن تجيب المفتى بأن الصورة على كل حال مظنة العبادة ، فإني أظن

أنه يقول لك إن لسانك أيضا مظنة الكذب ، فهل يجب ربطه ، مع أنه يجوز أن يصدق ، كما يجوز أن يكذب .

وبالجملة إنه يغلب على ظني أن الشريعة الإسلامية أبعد من أن تحرم وسيلة من أفضل وسائل العلم بعد تحقق أنه لا خطر فيها على الدين ، لا من جهة العقيدة ، ولا من جهة العمل .

° ° °

وإذا تركنا الإمام محمد عبده من علماء هذا العصر ، فإن عالماً آخر فقيهاً مالكياً مصرياً ، هو الإمام القرافي ^(١) صاحب كتاب الذخيرة ، الذي لا نظير له في الفقه المقارن بين المذاهب عامة وفقه المالكية خاصة ، وصاحب كتاب الفروق الذي يدل على عمق في دراسة الشريعة الإسلامية وتبحر في قواعدها .

يقول الإمام القرافي ^(٢) : بلغني أن الملك الكامل وضع له شمعدان كلما مضى من الليل ساعة انفتح باب منه ، وخرج منه شخص في خدمة الملك ، فإذا انقضت عشر ساعات طلع الشخص على أعلى الشمعدان ، وقال : « أصبح الله السلطان » فيعلم أن الفجر قد طلع .

إلى هنا والامر مجرد لإخبار عن الفجر ، لكنه يقول بعد ذلك عن نفسه : وعملت أنا هذا الشمعدان ، وزدت فيه : أن الشمعة يتغير لونها كل ساعة ، وفيه أسد تتغير عيناه من السواد الشديد إلى البياض الشديد إلى الحمرة الشديدة ، ويسقط حصانان من طائرین ، ويدخل شخص ويخرج شخص غيره ، ويفلق باب

(١) هو شهاب الدين أبو الباس أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن الصنهاجي المصري المشهور بالقرافي (٦٢٦ هـ - ٦٨٤ هـ) .

(٢) في كتابه المخطوط بدار الكتب « نقائس الأصول شرح المحصول » مخطوط رقم ٤٧٢ أصول ج أول ص ١٠٨ .

ويفتح باب في كل ساعة لها لون ، وإذا طلع الفجر طلع الشخص على أعلى الشمعدان وأصبعه في أذنه يشير إلى الأذان ، غير أني عجزت عن صنعة الكلام ^(١) .

ثم هو يقول بعد ذلك :

« وصنعت أيضا صورة حيوان يمشى ويلتفت يمينا وشمالا ويصفر ولا يتكلم ، فليت شعري هل نسي هذا الإمام الجليل أو تناسى تلك الروايات الحديثة التي فسروها ذلك التفسير الضيق المتزمت ، وهل سوغ لنفسه وهو إمام جليل فقيه في الشريعة وأصولها أن يخرج على أحكامها عاصيا الله ورسوله بصناعته تلك التماثيل التي وصفها .

وهل يجب علينا أن نعتقد أن الإمام القرافي سيأتي يوم القيامة واقفا على رأس صف طويل من رجال الفنون التصويرية منتظرا أن يلقي به وبهم في أشد العذاب لأنه صور رجلا أو أسدا أو طائرا ؟ .

وإذا كان المسلمون ينظرون إلى مثل هذا العالم الفذ الذي يخدم عقيدة الإيمان بالله مثل هذه النظرة ، فإذا يكون وضعهم بين الأمم والحكم عليهم من أهل الحضارات والمدنيات ؟

(١) وقريب من ذلك ما رواه ابن جبير (ولد سنة ٥٤٠ هـ) في رحلته عن وصف الساعة التي كانت بجامع دمشق وفيها تماثيل صقور ، وكانت هذه الساعة عبارة عن طيقان من نحاس يمدد ساعات النهار ، وعند انقضاء ساعة يسقط من كل طاق صنجتان من نحاس في في الصقرين المصنوعين من النحاس أيضا ، وكانت تحت كل صقر طاس من النحاس المثقوب ، فإذا انتهت ساعات النهار ألقي كل صقر بندقه من فمه في الطاس فترجع بسرعة إلى الغرفة محدثة صوتا عظيما ، وكانت هذه الساعة تضاء بالليل بما يقرب من ذلك في الليل .
ورحلة ابن جبير إلى دمشق في عصر صلاح الدين .

مِنْ ذَخَائِرِ الْفِكْرِ الْإِسْلَامِيِّ

كتاب تذكرة الفقهاء

للشيخ العلامة : الحسن بن يوسف بن علي بن المطهر الحلي

المتوفى سنة ٧٢٦ هـ من كبار علماء الإمامية



هذا كتاب من أنفس كتب الفقه الاستدلالي المقارن ، وقد جرت عادة المؤلفين في الفقه المقارن من علماء السنة أن يعرضوا للذاهب الأربعة ، متحدثين عن آراء علمائهم ، وعن أدلتهم ، دون أن يخرجوا عن نطاقها فيعرضوا للذاهب الأخرى . ولا سيما مذهب الشيعة الإمامية .

وقد أوحى ذلك لكثير من طلاب العلم ، وأساتذة الفقه بمعنى فيه ظلم كثير للفقه الإمامي ، وهو أن هذا الفقه ليس كفقه السنة استيعاباً واستنباطاً ودقة نظر ، وأنه لا يستند إلى أدلة يمكن مناقشتها ومقارنتها .

ولما اتسع نطاق الفقه المقارن في كلية الشريعة ، وأصبح حتماً على الأساتذة والطلاب أن يعرفوا رأي الإمامية في مسائل المقارنة ، وأن يوازنوا بين أدلتهم وأدلة غيرهم من أهل المذاهب الفقهية : كانوا يجدون كثيراً من الصعوبات في الرجوع إلى مصادر هذا الفقه الإمامي ، وإذا عثروا على مرجع من هذه المراجع وجدوه مطبوعاً طبعا حجرياً على نحو غير مألوف عندنا في مصر ، فلم يكونوا يستطيعون الاستفادة منه على الوجه الذي ينبغي .

ولما طبعت وزارة الأوقاف في الجمهورية العربية المتحدة كتاب « المختصر النافع » ،

للشيخ المحقق أبي القاسم نجم الدين جعفر بن الحسن الحلبي المتوفى سنة ٦٧٦ هـ .
وجدوا فيه على وجازته مرجعاً للأحكام في الفقه الإمامي ، وإن لم يكن بالاستدلال
وتفصيل وجه الاستنباط ، فتعلقوا بأهداب هذا الكتاب ، وانتفعوا إلى حد ما
بما فيه من الفقه الإمامي ، وعادوا يبحثون عن مراجع أخرى تهديهم إلى
وجوه الاستدلال والموازنة ، وظلت هذه الحاجة قائمة بينهم لا تجد ما يشق
غلثهم منها .

وكنيت أعرف كتاب « تذكير الفقهاء » للشيخ الحلبي الحسن بن يوسف بن علي
ابن المطهر ، وهو المعروف بالشيخ العلامة ، وهو غير الحلبي المشهور بلقب « المحقق » ،
وصاحب كتاب « المختصر النافع » ، المشار إليه ، ولكنه يتصل به اتصال قرابة ،
واتصال تلق وقراءة ، فقد قرأ « العلامة » ، علي « المحقق » ، كما قرأ على كثير من علماء
عصره ، وبينهم بعض علماء السنة ، وله مؤلفات كثيرة غير هذا المؤلف ، منها كتاب
أسماء « منتهى المطلب » ، وكان يفخر به ويعتبره من أعظم كتبه ، ويقول فيه : « لم يعمل
مثله » ، ذكرنا فيه جميع مذاهب المسلمين في الفقه ، ومنها « تلخيص المرام » ، في معرفة
الأحكام ، و « تحرير الأحكام الشرعية » ، و « مختلف الشيعة في أحكام الشريعة » ،
 وغير ذلك .

وكتاب « تذكير الفقهاء » ، بين أيدينا ، ولكنه رهن محبس ، كما كان الفيلسوف
الشاعر أبو العلاء يصف نفسه : محبس من عدم معرفة علماء السنة به ، وعدم اطلاعهم
عليه ، إلا قليلاً منهم ، ومحبس من هذه الطبعة الحجرية الضيقة التي تجعله بعيداً عن
متناول الذين يهتمون بالفقه ودراساته وأصوله المحررة .

ولذلك تمنيت لو أن هذا الكتاب طبع طبعة حديثة حتى يمكن لعلماء الأزهر
وغيرهم أن يقرؤوه ، إذن لوجدوا فيه علماً غزيراً ، وخيراً كثيراً ، ولا استطاعوا أن
يملأوا جو المقارنة الفقهية بما يذكره من آراء وأدلة ، ولعرفوا أن هناك فقهاً
لا يقل في مستواه العلمي والفكري عن فقههم ، ولما بقي في بعضهم أثر من الرغبة
عن هذا الفقه استهانة به ، أو تعصباً عليه .

وقد تحدثت بهذه الأمانة إلى بعض إخواني المخلصين من علماء كلية الشريعة وغيرها ، ومن علماء جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية ، فأشاروا موقفين بطبع ملحق لبعض أعداد مجلة « رسالة الإسلام » ، يتضمن بعض فصول هذا الكتاب على أن يجرّد ما يجتمع من عدة ملاحق ، فيجمع كأنه جزء من كتاب « تذكرة الفقهاء » .

وسيكون لهذه الملاحق المتتابعة ، ثم لهذا الجزء المجمع من هذه الملاحق رسالة بين العلماء ، هي تعريفهم بهذا الكتاب ، وبهذا الفقه الإمامي ، وإطلاعهم على وجهة نظر أصحابه ، ومعاونتهم على إيفاء المقارنة بجميع أركانها ، حتى يتيسر للمقارن الحكم الصحيح على المذاهب سواء أكان هذا الحكم في جانب هذا المذهب أو ذاك ، فإن الحق أحق أن يتبع ، وإن للحجة والبرهان لسلطانا على القلوب .

وقد اخترنا أن نبدأ في هذا العدد بمقدمات كتاب التكاح من « تذكرة الفقهاء » . وسيجد القراء أن هذا الكتاب يبسط آراء أصحاب مذاهب السنة ، كما يبسط آراء الإمامية ، وأنه يقرر أدلة الفريقين في إنصاف ومعدلة . وسيجد فيه طلاب كلية الشريعة وأساتذتها معينا طيبا للفقه المقارن إن شاء الله تعالى .

والله المستعان ، وهو ولي التوفيق . [المحرر]

كتاب النكاح وفيه مقاصد

المقصد الأول : في مقدمات

المقدمة الأولى : قال في الصحاح : النكاح : الوطء ، وقد يقال للعقد ، وهو يدل على غلبة استعماله في الأول ، قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن ، وهو دليل على تناول النكاح العقد بمجرد ، وقد ثبت في علم الأصول أن المجاز أولى من الاشتراك ، فإن جعل مجازا في العقد فهو من باب استعمال لفظ المسبب في السبب .

المقدمة الثانية : في مشروعيتها : أجمع المسلمون كافة على مشروعية النكاح ، والأصل فيه النص ، قال الله تعالى : « وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ، وقال الله تعالى : « فأنكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، وقال الله تعالى : « والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ، مدح من حفظ فرجه إلا عن زوجه أو ملك يمين .

المقدمة الثالثة : في استحبابه : أكثر علماء الإسلام على استحبابه للآيات الدالة على الأمر الدال على مطلق الترجيح مع أصالة عدم الوجوب لأصالة براءة الذمة ، ولقوله تعالى : « ذلك لمن خشى العنت منكم وأن تصبروا خير لكم ، وقال داود : إنه واجب إذا كان واجداً للطول وكان خائفاً من العنت ، ويكون مخيراً بين أن يتزوج بجمرة أو يتسرى بأمة ، فإن عدهما تزوج بأمة لقوله تعالى : « فأنكحوا ما طاب لكم من النساء ، والأمر للوجوب ، وهو بمنوع خصوصاً هنا ، لأنه قال : « مثنى وثلاث ورباع ، وليس ذلك واجباً إجماعاً ، فانتفت دلالة الآية . إذا عرفت هذا ، فهل هو مستحب مطلقاً ؟ أو لمن تافت نفسه إليه ؟ الأقرب عندي الأول ، وبه قال أبو حنيفة وبعض الشافعية لقوله تعالى : « وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم ، الآية ، وهي عامة .

قال العامة : كان الحسن بن علي عليهما السلام مطلقاً منكاحاً ، وكان يقول : وعد الله الغنى في الفراق والنكاح في هذه الآية ، ومارواه العامة عن النبي صلى الله

عليه وآله وسلم أنه قال : « تناكحوا تناسلوا تكثروا فإنى أباهى بكم الأمم يوم القيامة حتى بالسقط ، وقال عليه الصلاة والسلام : « من أحب فطرقى فليستن بسنتى ، ألا وهى النكاح ، وقال عليه الصلاة والسلام : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء ، فجعله كالواجب الذى رضى حبيته ، ومعناه أن الصوم يقطع الشهوة ، وقال عليه الصلاة والسلام : « من تزوج صدأ أحرز ثلثى دينه فليقت الله فى الثلث الباقي ، قيل : أراد به أكل الحلال ، وقال عليه الصلاة والسلام لمكاف بن وداعة الهلالي : « أتزوجت ؟ فقال : لا ، فقال : إنك إذا من إخوان الشيطان ، أو رهبان النصارى ، فالحق بهم ، وإن كنت منا فمن سفتنا النكاح ، ومن طريق الخاصة قول الصادق عليه السلام ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « من تزوج أحرز نصف دينه فليقت الله فى النصف الآخر ، وعن الباقر عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ما بنى بناء فى الإسلام أحب إلى الله تعالى من التزويج ، وعن الصادق عليه السلام قال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « تزوجوا فإنى مكاثركم بكم الأمم غداً يوم القيامة ، حتى أن السقط يحى مبطئاً على باب الجنة فيقال له ادخل ، فيقول لا حتى يدخل أبواى . قيل : وقال الباقر عليه السلام : لركعتان يصليهما متزوج أفضل من رجل عزب يوم ليله ويصوم نهاره . وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « أرادك موناك العزاب ، وقال عليه الصلاة والسلام : « أكثر أهل النار العزاب ، وقال الشيخ رضى الله عنه : الناس ضربان : ضرب مشته للجوع وقادر على النكاح ، وضرب لا يشتهيه ، فالمشتهى يستحب له أن يتزوج ، والذى لا يشتهى يستحب أن لا يتزوج لقوله تعالى : « وسيداً وحسوراً ، فدحه على كونه حصوراً ، وهو الذى لا يشتهى النساء ، وقال قوم : هو الذى يمكنه أن يأتى النساء ولكن لا يفعله ، وهو أصح قولى الشافعى ، لأن النكاح يشغله عن العبادة ، ولأنه ليس قرينة فى نفسه ، وطلب الولد موهوم ، ثم لو وجد لم يعلم أصلح أم طالح ، فالتخلى للعبادة أفضل منه ، وقوله تعالى : « زين للناس حب الشهوات من النساء ، وهو موضع ذم ، ولأن النكاح عقد معاوضة فأشبه البيع فى تفضيل العبادة عليه ، وليس يجيد لأن التماسل أمر مطلوب للشارع

لما فيه من تكثير أشخاص النوع ، لجعله أصلاً في مشروعية النكاح أولى من جعل اللذة البهيمية أصلاً فيه ، ومدح يحى عليه السلام بذلك في شرعه لا يقتضى أفضليته في شرعنا ، ولأنه عليه السلام كان مكلفاً بالسياحة ومخاطبة أهل زمانه في سائر البلاد فأشغله ذلك عن التعلق بالزوجة وغيرها ، والآية لا دلالة فيها ، لأنها وردت مورد الذم على حب الشهوات بالكلية ، والبيع لا يشتمل على مصالح النكاح ولا يقار بها ، والنكاح من أعظم العبادات ، لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم تزوج وبالع في العدد وفعل ذلك أحبابه ، وإنما ارتكب الأفضل ، ولا يجمع الصحابة على ترك الأفضل والاشتغال بالأدنى ، ولما فيه من المشاق الحاصلة بإيجاب النفقات وشدة السعى على تحصيل رزق عباد الله تعالى ، وتحسين المرأة ، وتحسين الدين وإحرازه ، واحترق عابد التزويج ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « رأيت لو ترك الناس كلهم التزويج من كان يقوم بالجهاد ويتق العدو ، ويقوم بفرائض الله تعالى وحدوده ، ويمنع أنه ليس قربة في نفسه إذا قصد هذا الوجه فيه وطلب الولد الصالح وإن لم يستلزم حصوله ، لكنه مندوب إليه ، ومرغب فيه ، إذا ثبت هذا فلا فرق بين الرجل والمرأة في ذلك ، وشدة الاستحباب لمن تافت نفسه إليه منهما ، لأن الله تعالى أمر به ورضيه وتذب إليه .

المقدمة الرابعة : في خصائص رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

جرت عادة الفقهاء بذكر خصائص النبي صلى الله عليه وآله وسلم هنا في النكاح ، ثم سجدوا البحث إلى خصائصه في غيره ، ولا شك أن الله تعالى شرف رسوله محمداً عليه أفضل الصلاة والسلام وميزه عن سائر خلقه بأن خصه بأشياء فرضها عليه دون خلقه ، لما في أداء الفرائض من الثواب ، فإنه لن يتقرب المتقربون إلى الله تعالى بمثل أداء ما افترض عليهم ، وأشياء حظرها عليه خففها عن خلقه ، وخفف عنه أشياء حظرها على خلقه ، فانقسم ما خص به عليه الصلاة والسلام إلى تخفيف وتغليظ ، والتغليظ ينقسم إلى إيجاب وتحريم ، فأما الواجبات عليه دون غيره من أمته فهي أمور :

(١) السواك .

(ب) الوتر .

(ج) الأضحية ، روى عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « ثلاث كتبت عليّ ولم تكتب عليكم : السواك ، والوتر ، والأضحية ، وفي حديث آخر : « كتب علي الوتر ولم يكتب عليكم ، وكتب علي السواك ولم يكتب عليكم ، وكتبت علي الأضحية ولم تكتب عليكم ، وتردد أصحاب الشافعي في وجوب السواك عليه .

(د) قيام الليل ، لقوله تعالى : « ومن الليل فتهجد به نافلة لك ، وإن أشعر لفظ النافلة بالسنة ، ولكنها في اللغة الزيادة ، ولأن السنة جبر للفريضة ، وكان عليه الصلاة والسلام معصوماً من النقصان في الفرائض ، واختلفت الشافعية ، فقال بعضهم : كان ذلك واجبا عليه ، وقال بعضهم : كان ذلك واجبا عليه وعلى أمته ، ثم نسخ .

(هـ) قضاء دين من مات معسرا ، لقوله عليه الصلاة والسلام : « من مات وخلف مالا فلورثته ومن مات وخلف ديناً أو كلا فإلى ، وعلى هذا مذهب الجمهور ، وقال بعضهم : كان ذلك كرامته ، وهذا اللفظ لا يمكن حمله على الضمان ، لأن من صحح ضمان المجهول لم يصحح على هذا الوجه ، وللشافعية وجهان في أن الإمام هل يجب عليه قضاء دين المعسر إذا مات ، وكان في بيت المال سعة تزيد على حاجة الأحياء ؛ لما في إيجابه من الترغيب في إقراض المحتاجين .

(و) مشاورة أولى النشهى ، لقوله تعالى : « وشاورهم في الأمر ، وقيل لأنه لم يكن واجبا عليه ، بل أمر لاستمالة قلوبهم ، وهو المعتمد ، فإن عقل النبي صلى الله عليه وآله وسلم أوفر من عقول كل البشر ، وهذه الخصائص لا تعلق لها بالنكاح .

(ز) إنكار المنكر إذا رآه وإظهار نكثه ، لأن إقراره على ذلك يوجب جوازه ، فإن الله تعالى ضمن له النصر والإظهار .

(ح) كان عليه تخيير نسائه بين مفارقه ومصاحبته ، بقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتِ تَرْضَيْنَ الدِّينَ وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأَسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً

جديلاً ، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للحسنات منكنا
أجرأ عظيماً ، والأصل فيه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أثر لنفسه الفقر والصبر
عليه ، فأمره بتخير نسائه بين مفارقتها واختيار زينة الدنيا ، وبين اختياره والصبر
على ضر الفقر ، لئلا يكون مكرهاً لمن على الضر والفقر ، هذا هو المشهور ،
وللشافعية وجه في التخيير : لم يكن واجبا عليه وإنما كان مندوباً ، والمشهور الأول ،
ثم إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما خيرهن اخترنه والدار الآخرة ،
فكرم الله تعالى على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم التزويج عليهن والتبدل بين
مكافأة لمن على حسن صنيعهن ، فقال تعالى : « لا يحمل لك النساء من بعد ولا أن
تبدل بين من أزواج » ، ثم نسخ ذلك لتكون المنة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
بترك التزويج عليهن بقوله تعالى : « إنا أحللتنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن » .
قالت عائشة : إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يمت حتى أحل له النساء ، تعني
اللاتي حظرن عليه ، وقال أبو حنيفة : إن التحريم باق لم ينسخ ، وقد روى أن
بعض نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم طلبت منه حلقة من ذهب فصاغ لها حلقة
من فضة وطلاها بالزعفران ، فقالت لا أريد إلا من ذهب ، فأغتم النبي صلى الله
عليه وآله وسلم لذلك ، فنزلت آية التخيير ، وقيل : إنما خيرته لأنه لم يمكنه التوسعة
عليهن ، فربما يكون فيمن من يكره المقام معه ، فزهره عن ذلك .

وروى أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يطالب بأمور لا يملكها ، وكان
نساؤه يكثرن مطالبته ، حتى قال عمر : كنا معاشر المهاجرين متسلطين على نساتنا
بملكنا ، وكانت نساء الأنصار متسلطات على الأزواج ، فاختلط نساؤنا فيمن فتخلقن
بأخلاقهن ، وكلت امرأتى يوماً فراجعتني ، فرفعت يدي لأضربها وقلت أتراجعتني
بالكعاب ، فقالت إن نساء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يراجعنه وهو خير
منك ، فقلت خابت حفصة وخسرت ، ثم أتيت حفصة وسألتها ، فقالت : إن رسول
الله صلى الله عليه وآله وسلم قد يظل على بعض نسائه طول نهاره غضباناً ، فقلت
لا تغتري بآية أبي قحافة ، فإنها حب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحمل
منها ما لا يحمل منك .

وقال عمر : كنت قد نأوت رجلا من الأنصار حضور مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليحدث كل واحد منا صاحبه فيما يجرى ، ففرع الأنصارى باب الدار يوما ، فقلت أجاهتنا غسان ؟ - وكان قد أخبرنا بأن غسان تتعلق خيولها لتغزونا - فقال أمر أفضع من ذلك ، طلق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جميع نسائه فخرجت من البيت ، ورأيت أصحابه يبكون حوله وهو جالس ، وكان أسامة على البيت ، فقلت استأذن لى فلم يجب ، فانصرف ، فنازعنى نفسى وعادت قلبى فلم يجب ، حتى فعلت ذلك ثلاثا فسمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صوتى فأذن فدخلت ، فرأيتته نائما على حصير من الليف فاستوى وأثر الليف فى جنبه ، فقلت : إن قيصر وكسرى يفرشان الديباج والحريز ، فقال : أفى شك أنت يا عمر ؟ أما علمت أنها لم فى الدنيا ولنا فى الآخرة ، ثم قصصت عليه القصة فتبسم لما سمع قولى خفصة لا تغترى بأبنة أبى قحافة ، ثم قلت : طلقت نساءك ؟ فقال : لا .

وروى أنه كان آلى من نسائه شهرا ، فكث فى غرفته شهرا ، فنزل قوله تعالى : يا أيها النبي قل لأزواجك ، الآية ، فبدأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعائشة وقال : لى ملق إلك أمرا فلا تبادرنى بالجواب حتى تؤامرى أبوبك ، وتلا الآية فقالت : أفىك أوامر أبوى اخترت الله ورسوله والدار الآخرة ، ثم قالت : لا تخبر أزواجك بذلك ، وكانت تريد أن يخترن الدنيا فيفارقن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على نسائه ، وكان يخبرهن بما جرى لعائشة فاخترن بأجمعن الله ورسوله ، وهذا التخيير عند العامة كناية فى الطلاق عند العامة إذا نوى معا ، فإن لم ينويا أو لم ينو أحدهما لم يقع به شيء . وقال قوم : إنه صريح فى الطلاق ، وعندنا أنه ليس له حكم ، واختلفت الشافعية بعد ذلك فى أمور :

الأول : هل حرم الله على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم طلاقهن بعد ما اخترنه ؟ فيه وجهان :

أحدهما . نعم ، كما لو رغبت عنه امرأة حرم عليه إمساكها ، ولأنه حرم عليه التبديل بهن فى قوله تعالى : لا يحل لك النساء من بعد ، الآية ، ومعنى التبديل بهن : مفارقتها ونكاح غيرها .

والثاني : لا يحرم ، إذ لا أحكام بإثبات الخصائص ولم يثبت حجر في الطلاق ، وكما لو أراد الواحد من الأمة تطليق زوجته لا يمنع منه وإن رغبت فيه ، وخص بعضهم الوجهين بالطلاق عقيب اختيارهن إياه .

الثاني : لو قدر أن واحدة منهن اختارت الحياة الدنيا هل كان يحصل الفراق ؟
للشافعية وجهان :

أحدهما : كالواحد من الأمة إذا خير زوجته ونوى تفويض الطلاق إليها ، فاختارت نفسها ، وأصحهما : لا ، لقوله تعالى : « فتعالين أمتعن وأسرحن » ، ولو حصل الفراق باختيارها لما كان للتسريح معنى ، ولأنه تخيير بين زينة الدنيا والآخرة فلا يحصل الفراق باختيار الدنيا ، كما لو خير الواحد من الأمة زوجته بين الدنيا والآخرة فاختارت الدنيا .

الثالث : هل يعتبر جوابهن على الفور ؟ فيه وجهان مبنيان على الوجهين في حصول الفراق بنفس الاختيار ، فإن قلنا بحصوله وجب أن يكون على الفور ، وإن قلنا لا يحصل جاز فيه التراخي ، لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما نزلت آية التخيير بدأ بعائشة وقال : إني ذاكر أمراً فلا تبادريني بالجواب حتى تستأمرى أبويك ، واعترض بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم صرح بمدة خيارها هناك إلى مراجعة الأبوين ، والكلام في التخيير المطلق ، فإن جعل على الفور فيمتد بامتداد المجلس ، أو المعتبر ما يعد جواباً في العرف وجهان .

الرابع : للشافعية وجهان في أنه هل كان يجوز للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يجعل الاختيار إليهن قبل المشاورة ببعض ، ووجهان في أنه هل كان قولها : اخترت نفسي صريحاً في الفراق ، ووجهان في أنه هل كان يحمل له التزويج بها بعد الفراق .

وأما المحرمات فقسمان :

الأول : ما حرم عليه خاصة في غير النكاح ، وهو أمور :

(١) الزكاة المفروضة صيانة لمنصبه العلي عن أوساخ أموال الناس التي تعطى على سبيل الترحم ، وتنبه عن ذل الآخذ ، وأبدل باليء الذي يؤخذ على سبيل القهر

والغلبة المنية عن عز الآخذ وذلل المأخوذ منه ، ويشاركه في حرمتها أولو القربى ، لكن التحريم عليهم بسببه أيضاً ، فالخاصة عائدة إليه ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إنا أهل بيت لا تحمل لنا الصدقة » .

(ب) الصدقة المندوبة الأقرب تحريمها على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما تقدم ، وهو أحد قولى الشافعى ، تعظيماً له وتكريماً ، وفى الثانى يجوز ، وحكم الإمام عندنا حكم النبى عليه الصلاة والسلام .

(ج) أنه كان عليه الصلاة والسلام لا يأكل الثوم والبصل والكراث ، وهل كان محرماً عليه ؟ الأقرب لا ، وللشافعية وجهان ، لكنه كان يمتنع منها لئلا يتأذى بها من ينجيه من الملائكة ، روى أنه صلى الله عليه وآله وسلم أتى بقدر فيها بقول فوجد لها ريحاً فغربها إلى بعض أصحابه وقال له كل فإنى أناجى من لا تنأجى .

(د) أنه عليه الصلاة والسلام كان لا يأكل متكثاً ، روى أنه عليه الصلاة والسلام قال : « أنا آكل كما تأكل العبيد وأجلس كما تجلس العبيد ، وهل كان ذلك محرماً عليه أو مكروهاً كما فى حق الأمة ؟ الأقرب الثانى ، وللشافعية وجهان .

(هـ) كان يحرم عليه الخط والشعر تأكيداً لحجته وبياناً لمعجزته ، قال الله تعالى : « ولا تحطه يمينك » ، وقال تعالى : « وما علناه الشعر » ، وقد اختلف فى أنه عليه الصلاة والسلام هل كان يحسنها أم لا . وأصح قولى الشافعى الثانى ، وإنما يتجه التحريم على الأول .

(و) كان عليه الصلاة والسلام إذا لبس لأئمة الحرب يحرم عليه نزاعها حتى يلقى العدو ويقاتل ، قال عليه الصلاة والسلام : « ما كان لنبى إذا لبس لأئمة أن ينزعها حتى يلقى العدو » ، وهو المشهور عند الشافعية ، ولم يوجبه أنه كان مكروهاً لا محرماً .

(ز) كان عليه الصلاة والسلام إذا ابتدأ بتطوع حرم عليه تركه قبل إتمامه ، وفيه خلاف .

(ح) كان يحرم أن يمد عينيه إلى ما متع الله به الناس ، قال الله تعالى : « ولا تمدن عينيك ، الآية » .

(ط) كان يحرم عليه غائنة الأعين ، قال صلى الله عليه وآله وسلم : « ما كان لبي أن يكون له غائنة الأعين ، وفسروها بالإيماء إلى مباح من ضرب أو قتل على خلاف ما يظهر ويشعر به الحال ، وإنما قيل له : « غائنة الأعين » ، لأنه أشبه الخيانة من حيث أنه يخفى ، ولا يحرم ذلك في غيره إلا في محظور ، وبالجمل أن يظهر خلاف ما يضر ، وطرده بعض الفقهاء ذلك في مكيدة الحروب ، وهو ضعيف ، لأن ذلك لا يزرى بأصحاب الأصالة ، فإنه من الحزم والأمانة المحمود ، وقد صح أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا أراد سفراً ورى بغيره .

(ي) اختلفوا في أنه هل كان يحرم عليه أن يصلى على من عليه دين أم لا ؟ على قولين .

(ك) اختلفوا في أنه هل كان يجوز أن يصلى على من عليه دين مع وجود الضامن ؟
(ل) لم يكن له أن يمين ليستكثر ، قال الله تعالى : « ولا تمنن تستكثر » ، أى لا تعط شيئاً لتأخذ أكثر منه ، قال المفسرون : إنه كما من خواصه عليه السلام .
القسم الثانى : ما حرم عليه خاصة في النكاح ، وهو أمور :

(١) إمساك من تكره نكاحه وترغب عنه ، لأنه صلى الله عليه وآله وسلم نكح امرأة ذات جمال ، فلقت أن تقول لرسول الله أعوذ بالله منك ، وقيل لها إن هذا الكلام يعجبك ، فلما قالت ذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم : لقد استعذت بعباد ، وطلقها ، وللشافعية وجه غريب : أنه كان لا يحرم إمساكها ، لكن فارقها تكرماً منه ، ومات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن تسع نساء : عائشة ، وحفصة ، وأم سلمة بنت ابن أمية المخزومية ، وأم حبيبة ، ورملة بنت أبي سفيان ، وميمونة بنت الحارث الهلالية ، وجويرية بنت الحارث الخزاعية ، وسودة بنت زمعة ، وصفية بنت حيي ابن أخطب الخيبرية ، وزينب بنت جحش ، وجميع من تزوج بهن خمس عشرة ، وجمع بين إحدى عشرة ، ودخل بثلاث عشرة ، وفارق امرأتين في حياته ، أحدهما الكلبية ، وهى التى رأى بكشها بياضاً ، فقال لها : الحق بأهلك ، والأخرى التى تعوذت منه ، وقال أبو عبيد : تزوج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثمانى عشرة امرأة ، واتخذ من الإمامة ثلاثاً .

(ب) نكاح الكتابية عندنا لا يصح للسلم على الأقوى ، لقوله تعالى : « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن » ، وقال : « ولا تمسكوا بعصم الكوافر » ، وقال بعض علمائنا إنه يصح ، وهو مذهب جماعة من العامة ، فعندنا التحريم بطريق الأولى ثابت في حق النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، واختلف من سوغ مشروعيته من العامة في حق الأمة على قولين : أحدهما المنع لقوله عليه الصلاة والسلام : « زوجاتي في الدنيا زوجاتي في الآخرة » ، والجنة محرمة على الكافرين ، ولأنه أشرف من أن يضع ماله في رحم كافرة ، والله تعالى أكرم زوجاته ، إذ جعلهن أمهات المؤمنين ، والكافرة لا تصلح لذلك ، لأن هذه أمومة الكرامة ، ولقوله تعالى : « إنما المشركون نجس » ، ولقوله عليه الصلاة والسلام : « كل سبب ونسب ينقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي » ، وذلك لا يصح في الكافرة ، والثاني : الجواز ، لأن ذبائهم له حلال ، فكذلك حرائرهم كأمته ، والمقدمة الأولى ممنوعة ، فإن ذبائهم أهل الكتاب عندنا محرمة . وأما نكاح الأمة فلم يحزله ، خلاف بين الأكثر ، وأما وطء الأمة فكان سائفاً أي مسلية كانت أو كتابية ، لقوله تعالى : « وما ملكت أيمانكم » ، ولقوله تعالى : « وما ملكت يمينك » ، ولم يفصل ، وملك مارية القبطية وكانت مسلية ، وملك صفية وهي مشركة فكانت عنده إلى أن أسلمت فأعتقها وتزوجها ، وجوز بعضهم نكاح الأمة المسلية له بالعقد كما يجوز بالملك ، والنكاح أوسع منه إلى الأمة . ولكن الأكثر على المنع ، لأن نكاح الأمة مشروط بالخوف من العنت ، والنبي معصوم ، وبفقدان طول الحرية ، ونكاحه صلى الله عليه وآله وسلم مستغن عن المهر ابتداء وانتهاء ، وبأن من نكح أمة كان ولده منها رقيقاً عند جماعة ، ومنصب النبي منزّه عن ذلك . لكن من جوز له نكاح الأمة قال خوف العنت إنما يشترط في حق الأمة ، ومنع من اشترط فقدان الطول ، وأما رق الولد فقد ألزم بعض الشافعية وجهاً مستبعداً فيه بذلك ، والصحيح خلافه ، لأنه عندنا يتبع أشرف الطرفين ، والصحيح عند الشافعية أنه لو نكح لم يسترق ولده منها ، وإن قالوا بهجراً الرق على المغرور ، وقال بعضهم : إن عليه القيمة رعاية لحق المولى ، وقال بعضهم : لا يلزمه قيمة الولد بخلاف ولد المغرور ، لأن هناك فات الرق بظنه ، وهناك لا يمكن تقدير الرق ، قال بعضهم :

لو قدر نكاح غرور في حق النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يلزمه قيمة الولد ، لأنه مع العلم بالحال لا ينعقد رقيقاً فلا ينهض الظن دافعاً للرق ، وبعضهم طرد الوجهين في أنه هل كان يحل له نكاح الأمة الكتابية ، وأما وطؤها بملك اليمين فأظهر وجهي الشافعية حله .

وأما التخفيفات فقسمان :

الأول : ما يتعلق بغير النكاح ، وهي أمور :

(أ) الوصال في الصوم كان مباحاً للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وحرام على أمته ، وإن معناه أن يطوى الليل بلا أكل ولا شرب مع صيام النهار ، لا أن يكون صائماً ، لأن الصوم في الليل لا ينعقد ، بل إذا دخل الليل صار الصائم مفطراً لإجماعاً ، فلما نهى النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمته عن الوصال قيل له إنك تواصل فقال : إنى لست كأحدكم ، إنى أظل عند ربي يطعمني ويسقيني ، وفي رواية : إنى أبيت عند ربي فيطعمني ويسقيني ، قيل معناه : يقويني ويغذيبنى بوجه .

(ب) اصطفاة ما يختاره من الغنيمة قبل القسمة بكارية حسنة ، وثوب مرفوع . وفرس جواد ، وغير ذلك ، ويقال لذلك الذي اختاره الصفي والصفية ، والجمع الصفايا ، ومن صفاياه صفية بنت حيي اصطفاها وأعتقها وتزوجها ، وذو الفقار (ج) خمس النية والغنيمة ، كان لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الاستبداد به ، وأربعة أخماس النية كانت له أيضاً .

(د) أبيع له دخول مكة بغير إحرام خلافاً لأمته فإنه محرم عليهم على خلاف . (هـ) أبيع له ولأمته كرامة له الغنائم ، وكانت حراماً على من قبله من الأنبياء ، بل أمروا بجمعها ، فتزل نار من السماء فتأكلها .

(و) أنه كان يقضى لنفسه وفي غيره خلاف ، وأن يحكم لنفسه ولولده ، وأشهد لنفسه ولولده ، وأن يقبل شهادة من يشهد له .

(ز) أبيع له أن يحمي لنفسه الأرض لرعي ماشيته ، وكان حراماً على من قبله من الأنبياء والأئمة بعده ليس لهم أن يحموا لأنفسهم .

(ح) أبيع له أن يأخذ الطعام والشراب من المالك وإن اضطر إليهما ،

لأن حفظ نفسه الشرفه أولى من حفظ نفس غيره ، وعليه البذل والفداء بمهجه ،
مهجة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، لأنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم .

(ط) كان لا ينتقض وضوؤه بالنوم ، وبه قال الشافعية ، وحكى أبو العباس
منهم وجها آخر غريبا ، وكذلك حكى وجهين في انتقاض وضوئه باللبس .

(ي) كان يجوز له أن يدخل المسجد جنباً ، ومنعه القفال من الشافعية وقال :
لا لإخاله صحيحاً .

(ك) قيل إنه كان يجوز له أن يقتل من أمنه ، وهو غلط ، فإن من يحرم
عليه خاتمة الأعين كيف يجوز له قتل أحد من أمنه .

(ل) قيل إنه كان يجوز له لعن من شاء من غير سبب يقتضيه ، لأن لعنه
رحمة ، واستبعده الجماعة ، وروى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال :
« اللهم إني اتخذت عندك عهداً لن تخلفه إنما أنا بشر ، فأى المؤمنين آذيت أو شتمته
أو لعنته ، فاجعلها له صلاة وزكاة وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة ، وهو عندنا
باطل ، لأنه معصوم لا يجوز منه لعن الغير وسبه بغير سبب ، والحديث لو سلم
فإنما هو لسبب .

. القسم الثانى : من التخفيفات ما يتعلق بالنكاح ، وهو أمور :

(ا) الزيادة على أربع نسوة ، فإنه عليه الصلاة والسلام مات عن تسع ، وهل
كان له الزيادة على تسع ؟ الأولى الجواز لامتناع الجور عليه ، والشافعية وجهان هذا
أصحهما ، والثانى المنع ، لأن الأصل استواء النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأمة
في الحكم ، إلا أنه يثبت جواز الزيادة إلى تسع فيقتصر عليه ، وأما انحصار طلاقه في
الثلاث فالوجه ذلك كما في حق الأمة ، وهو أحد وجهى الشافعية ، والثانى المدم ،
كما لم ينحصر عدد زوجاته .

(ب) العقد بلفظ الهبة ، لقوله تعالى : « وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي ،
فلا يجب المهر حيثئذ بالعقد ولا بالدخول ، لا ابتداء ولا انتهاء ، كما هو قضية الهبة ،
وهو أظهر وجهى الشافعية ، والثانى المنع كما في حق الأمة ، وعلى الأول هل يشترط

لفظ النكاح من جهة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ؟ للشافعية وجهان : أحدهما نعم ، لظاهر قوله تعالى : « أن يستنكحها » ، والثاني أن يشترط في حق الواهبة ، وهل ينقصد نكاحه بمعنى الهبة حتى لا يجب المهر ابتداء ولا انتهاء ، وجهان للشافعية ، ولم وجه غريب : أنه يجب المهر في حق الواهبة ، وخاصة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليست في إسقاط المهر بل في الانقضاء بلفظ الهبة .

(ج) كان إذا رغب عليه الصلاة والسلام في نكاح امرأة ، فإن كانت خالية فعليها الإجابة ، ويحرم على غيره خطبتها ، وللشافعية وجه : أنه لا يحرم ، وإن كانت ذات زوج وجب على الزوج طلاقها لينكحها ، كقضية زيد ، ولعل السرفيه من جانب الزوج امتحان إيمانه ، واعتقاده بتكليفه النزول عن أهله ، ومن جانب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ابتلاؤه ببلية البشرية ، ومنعه من خائنة الأعين ، ومن الإضمار الذي يخالف الإظهار ، كما قال تعالى : « وتخفى في نفسك ما الله مبديه » ولا شيء ادعى إلى غض البصر وحفظه عن المحابة الاتفاقية من هذا التكليف ، وليس هذا من باب التخفيفات كما قاله الفقهاء ، بل هو في حقه غاية التشديد ، إذ لو كلف بذلك آحاد الناس لما فتحو عنهم في الشوارع خوفاً من ذلك ، ولهذا قالت عائشة : لو كان صلى الله عليه وآله وسلم يخفى آية لأخفى هذه .

(د) انعقاد نكاحه بغير ولي وشهود ، وهو عندنا ثابت في حقه عليه الصلاة والسلام وحق أمته ، إذ لا نشترط نحن ذلك وللشافعية وجهان : أحدهما : المنع ، لما روى عنه عليه الصلاة والسلام : « لا نكاح إلا بولي وشاهدي عدل » ، وأصحهما الانقضاء ، لأن اعتبار الولي للحفاظة على الكفاء ، ولا شك في أنه عليه الصلاة والسلام فوق الأكفاء ، واعتبار الشهود لخوف الجحود ، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يجحد ، ولو جحدت هي لم يلتفت إلى قولها المخالف لقوله .

(هـ) انعقاد نكاحه في الإحرام ، فيه للشافعية وجهان : أحدهما : الجواز ، لما روى أنه نكح ميمونة محرماً ، والثاني : المنع ، كما يحل له الوطؤ في الإحرام ، والمشهور عندهم أنه نكح ميمونة حلالاً .

(و) هل كان يجب عليه القسم بين زوجاته بحيث إذا كانت عنده واحدة ليلة لزمه أن يميت عند كل واحدة مثلها ، للشافعية وجهان : أحدهما : عدم الوجوب لقوله تعالى : « ترجى من تشاء منهن » ، وإنما كان يقيم تكريما منه عليه الصلاة والسلام . والثاني : الوجوب ، لأنه كان يطاف به على نسائه وهو مريض ويقول : هذا قسمي فيما أملك ، وأنت أعلم بما لا أملك ، يعنى قلبه عليه الصلاة والسلام .

والأصل في ذلك أن النكاح في حقه عليه الصلاة والسلام هل هو كالنسرى في حقنا ؟ إن قلنا نعم لم ينحصر عدد منكوحاته ولا طلاقه ، وانعقد نكاحه بلفظ الهبة ، ومعناها ، وبغير ولي وشهود ، وفي الإحرام ، ولم يجب عليه القسم ، وإلا انعكس الحكم .

(ز) أنه كان يجوز للنبي صلى الله عليه وآله وسلم تزويج المرأة بمن يشاء بغير إذن وليها وتزويجها من نفسه ، وتولى الطرفين من غير إذن وليهما ، وسوغ الشافعية أن ينكح المعتدة في وجه ، وهل كان يجب عليه نفقة زوجاته ؟ وجهان لهم بناء على الخلاف في المهر ، وكانت المرأة تحل له بتزويج الله تعالى ، قال سبجانه في قصة زيد : « فلما قضى زيد منها وطرا زوجنا بها ، وقيل أنه نكحها بنفسه ، وحمل زوجنا بها على إحلال الله تعالى له نكاحها ، وأعتق صلى الله عليه وآله وسلم صفية رضي الله عنها وتزوجها وجعل عتقها صداقا ، وهو ثابت عندنا في حق أمته ، واختلفت الشافعية . فقال بعضهم : أعتقها على شرط أن ينكحها ، فلزمها الوفاء به بخلاف ما في حق الأمة ، وقال بعضهم : جعل العتق صداقا ، وجاز له ذلك بخلاف ما في حق الأمة ، وعندنا أن حكم الأمة حكمه في ذلك ، وجوز بعض الشافعية له الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها ، وأنه كان يجوز له الجمع بين الاختين ، وكذا في الجمع بين الأم وبنتها ، وهو عندنا بعيد ، لأن خطاب الله تعالى يدخل فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

وأما الفضائل والكرامات فقسمان :

الأول : في النكاح ، وهو أمور :

(١) تحريم زوجاته صلى الله عليه وآله وسلم اللواتي مات عنهن على غيره

تحريماً مؤبداً ، قال الله تعالى : « وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً ، ولأنهن أمهات المؤمنين ، وأما التي فارقها في حياتها ، كالتى وجد بكشها بياضاً فردها ، والمستعينة ، ففيها ثلاثة أوجه للشافعية :
أحدها : أنها محرمة أيضاً لقوله تعالى : « وأزواجه أمهاتهم » .

والثاني : لا تحرم لإعراضه صلى الله عليه وآله وسلم عنها ، وانقطاع اعتناها بها .
والثالث : إن كانت مدخولاً بها حرم وإلا فلا ، لأن الأشعث بن قيس نكح المستعينة في زمان عمر ، فآخبر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فارقها قبل أن يمسها غلاماً .

فهذه الأوجه الثلاثة في غير الخيرات ، فأما الخيرات لو قدر اختيار بعضهم زينة الدنيا ففارقها هل تحل للأزواج ، قالت الشافعية فيه الأوجه الثلاثة ، وآخرون أنها تحل قطعاً ، وإلا لم تتمكن من غرضها في زينة الدنيا ، ولما كان للتخيير معنى ، وعلى القول بتحريم من فارقها في أمته الموطوءة إذا فارقها بالموت أو غيره وجهان .

(ب) أزواجه أمهات المؤمنين ، سواء فيه من ماتت تحت النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ومن مات النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهي تحته ، وليست الأمومة هنا الحقيقية ، بل المراد تحريم نكاحهن ، ووجوب احترامهن ، لا في النظر إليهن ولا الخلوة بهن ولا المسافرة ، ولا يقال لبناتهن لأنهن أخوات المؤمنين ، لأنهن لا يحرم على المؤمنين ، فقد زوج رسول الله فاطمة عليهما الصلاة والسلام . بعل رضى الله عنه ، وكذا لا يقال لآبائهن وأمهاتهن أجداد المؤمنين وجداتهم ، ولا لإخوانهن وأخواتهن أحوال المؤمنين وعالاتهم ، وللشافعية وجه : أنه يطلق اسم الإخوة على بناتهن ، واسم الخوة على إخوانهن لثبوت حرمة الأمومة لهن ، وهو في غاية البعد .

(ج) تفضيل زوجاته على غيرهن ، بأن جعل ثوابهن وعقابهن على الضعف .

(د) لا يحل لغيرهن من الرجال أن يسألن شيئاً إلا من وراء حجاب ، لقوله تعالى : « إذا سألتوهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ، وأما غيرهن فيجوز أن يسألن مشافهة .

الثاني : في غير النكاح ، وهو أمور :

- (ا) أنه غاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم .
- (ب) أمته خير الأمم ، لقوله تعالى : « كنتم خير أمة » ، تكملة له عليه الصلاة والسلام وتشريفاً له .
- (ج) نسخ جميع الشرائع بشريعته .
- (د) جعل شريعته مؤبدة .
- (هـ) جعل كتابه معجزاً بخلاف كتب سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .
- (و) حفظ عن كتابه التبديل والتغيير ، وأقيم بعده حجة على الناس ، ومعجزات غيره من الأنبياء انقضت بانقراضهم .
- (ز) نصر بالعرب على مسيرة شهر ، فكان العدو يرهبه من مسيرة شهر .
- (ح) جعلت له الأرض مسجداً ، وتراها طهوراً .
- (ط) أحلت له الغنائم دون غيره من الأنبياء .
- (ي) يشفع في أهل الكبائر ، لقوله عليه الصلاة والسلام : « ذخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي » .
- (ك) بعث إلى الناس عامة .
- (ل) سيد ولد آدم يوم القيامة .
- (م) أول من تنشق عنه الأرض .
- (ن) أول شافع ومشفع .
- (س) أول من يقرع باب الجنة .
- (ع) أكثر الأنبياء تبعاً .
- (ف) أمته معصومة لا تجتمع على الضلالة .
- (ص) صفوف أمته كصفوف الملائكة .
- (ق) كان تنام عيناه ولا ينام قلبه .

(ر) كان يرى من ورائه كما يرى من قدامه ، بمعنى التحفظ والحس ، وكذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « تنام عيناي ولا ينام قلبي » .

(ش) تطوعه بالصلاة قاعدا كتطوعه قائما وإن لم يكن له عذر ، وفي حق غيره ذلك على النصف من هذا .

(ت) مخاطبة المصلي بقوله : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، ولا تخاطب سائر الناس .

(ث) يحرم على غيره رفع صوته على صوت النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

(خ) يحرم على غيره مناداته من وراء الحجرات للآية .

(ذ) نادى الله تعالى الأنبياء وحكى عنهم بأسمائهم ، فقال تعالى : « يوسف أعرض ، « أن يا إبراهيم ، « يانوح ، « وميز نبينا عليه الصلاة والسلام بالنداء بألقابه الشريفة ، فقال تعالى : « يا أيها النبي ، « يا أيها الرسول ، « يا أيها المزمّل ، « يا أيها المدثر ، ولم يذكر اسمه في القرآن إلا في أربعة مواضع شهد له فيها بالرسالة لافتقار الشهادة إلى ذكر اسمه ، فقال : « محمد رسول الله ، « ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، « والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم ، « رسول يأتي من بعدى اسمه أحمد ، وكان يحرم أن ينادى باسمه فيقول : يا أحمد ، يا أحمد ، ولكن يقول : يا نبي الله ، يا رسول الله ، يا خيرة الله ، إلى غير ذلك من صفاته الجليلة .

(ض) كان يستشفى به .

(ظ) كان يتبرك ببوله ودمه .

(غ) من زنا بمحضرتة واستهان به كفر .

(أ) يجب على المصلي إذا دعاه أن يجيبه ولا تبطل صلاته ، وللشافعية وجه : أنه لا يجب ، وتبطل به الصلاة .

(ب) كان أولاد بناته ينسبون إليه وأولاد بنات غيره لا ينسبون إليه ، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « كل سبب ونسب ينقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي ، قيل معناه : أنه لا ينتفع يومئذ بسائر الأنساب وينتفع بالنسبة إليه .

(ج) قال عليه الصلاة والسلام: «سموا باسمي ولا تكنوا بكنيتي، واختلفوا، فقال الشافعي: إنه ليس لأحد أن يكنى بأبي القاسم، سواء كان اسمه محمداً أو لم يكن، ومنهم من حمله على كراهة الجمع بين الاسم والكنية، ويجوز للإفراد وهو الوجه، لأن الناس لم يزالوا يكونون بكنيته عليه الصلاة والسلام في جميع الأعصار من غير إنكار،

المقدمة الخامسة : في حب النساء والتزويج لله تعالى وما يتبعه :

(١) روى الصدوق عن أبي مالك الحضرمي عن أبي العباس عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : سمعته يقول : « العبد كلما ازداد للنساء حبا ازداد في الإيمان فضلا . »

(ب) روى الصدوق عن يونس بن يعقوب عن سمع الصادق عليه السلام يقول : أكثر الخير في النساء .

(ج) يكره ترك التزويج مخافة الفقر لما فيه من سوء الظن بالله تعالى ، وقد روى الصدوق عن الصادق عليه السلام قال : من ترك التزويج مخافة الفقر فقد أساء الظن بالله عز وجل ، إن الله عز وجل يقول : « إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله . » وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « من سره أن يلقى الله طاهراً مطهراً فليقلعه بزوجة ، ومن ترك التزويج مخافة العيلة فقد أساء الظن بالله عز وجل . »

(د) يستحب التزويج لله تعالى ولصلة الرحم ، قال زين العابدين رضي الله عنه : من تزوج لله عز وجل ولصلة الرحم توجبه الله تعالى تاج الملك .

(هـ) يكره تزويج المرأة لما لها وجمالها ، ولكن من تزوجها لدينها ، فقد روى الصدوق عن هشام بن الحكم عن الصادق عليه السلام قال : إذا تزوج الرجل المرأة لما لها وجمالها لم يرزقه الله ذلك ، وإن تزوجها لدينها رزقه الله تعالى ما لها وجمالها .

(و) ينبغي الشفقة على النساء ، فقد روى سماعة عن الصادق عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « اتقوا الله في الضعيفين ، يعني بذلك اليتيم والنفس . »

المقدمة السادسة : في اختيار الأزواج يستحب أن يتخير من النساء من تجمع أربع صفات : كرم الأصل ، والبكارة ، والولود ، والعفيفة ، روى الصدوق عن الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « أفضل نساء أمتي أصبحن وجها وأقلهن ميرا ، وقال الصادق عليه السلام : من بركة المرأة خفة مؤنتها وتيسر ولادتها ، ومن شؤمها شدة مؤنتها وتصر ولادتها . وقال أمير المؤمنين عليه السلام : تزوج سمراء عينا عجزاء مربوعة ، فإن كرمتها فعلی الصادق ، وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : إن لي زوجة إذا دخلت تلقيتي ، وإذا خرجت شيعتي ، وإذا رأيتي مهموما قالت ما يهملك ؟ إن كنت تهتم لرزقك فقد تكفل لك به غيرك ، وإن كنت تهتم بأمر آخرتك فزادك الله هما ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن لله عمالا وهذه من عماله لها نصف أجر الشهيد ، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ما استفاد امرؤ فائدة بعد الإسلام أفضل من زوجة مسلمة تسره إذا نظر إليها ، وتطيعه إذا أمرها ، وتحفظه إذا غاب عنها في نفسها وماله ، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ألا أخبركم بخير نساءكم ؟ قالوا بلى يا رسول الله فأخبرنا ، قال : « إن من خير نساءكم الولود الودود الستيرة العفيفة العزيزة في أهلها الذليلة مع بعلمها المتبرجة مع زوجها الحصان مع غيره التي تسمع قوله وتطيع أمره ، وإذا خلاها بذلت له ما أراد منها ، ولم تبذل له ما يبذل الرجل ، ألا أخبركم بشر نساءكم ، قالوا بلى يا رسول الله فأخبرنا ، قال : من شر نساءكم الذليلة في أهلها العزيزة مع بعلمها المقيم الحقود التي لا تتورع عن قبيح ، المتبرجة إذا غاب عنها زوجها ، الحصان معه إذا حضر ، التي لا تسمع قوله ، ولا تطيع أمره ، فإذا خلاها تمنعت تمنع الصعبة عند ركوبها ، ولا تقبل له عذرا ، ولا تغفر له ذنبا . ثم قال : أولا أخبركم بخير رجالكم ، فقلنا بلى ، قال : من خير رجالكم التقى النقي السمح الكيس السليم الطرفين البر بوالديه ولا يلجئ عياله إلى غيره . ثم قال : أولا أخبركم بشر رجالكم ، قلنا بلى ، قال : من شر رجالكم : الهاب الفاحش ، الآكل وحده ، المانع رفده ، الضارب أهله ، البخيل ، الملجئ عياله إلى غيره ، العاق بوالديه ، وقام عليه الصلاة والسلام خطيباً فقال :

أيها الناس : إياكم وخضراء الدمن ، قيل يا رسول الله وما خضراء الدمن ؟ قال : المرأة الحسناء في منبت السوء . وقال الصادق عليه السلام : الثؤم في ثلاثة : الدابة ، والمرأة ، والدار ، فأما المرأة فشؤمها غلاء مهرها ، وعسر ولادتها ، وأما الدابة فشؤمها كثرة عللها وسوء خلقها ، وأما الدار فشؤمها ضيقها وخبث جيرانها .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تزوجوا الإبكار فإنهن أطيب شيء أفواها ، وأدر شيء أخلاقا ، وأحسن شيء أخلاقا ، وأفتح شيء أرحاما ، وقال الصادق عليه السلام : ثلاثة أشياء لا يحاسب عليهن المؤمن : طعام يأكله ، وثوب يلبسه ، وزوجة صالحة تعاونه ويحسن بها فرجه . وعن علي عليه السلام قال : إياكم ونكاح الزنج فإنه خلق مشوه ، وعن الصادق عليه السلام : لا تنكحوا من الأكراد أحدا فإنهن جنس من الجن كشف عنهن الغطاء ، وقال علي عليه السلام : إياكم وتزويج الحمقاء ، فإن صحبتها بلاء ، وولدها ضياع ، وسأل بعض أصحابنا الباقر عليه السلام عن الرجل المسلم تعجبه المرأة الحسناء أتصلح له أن يتزوجها وهي مجنونة ؟ قال لا ، ولكن إن كان عنده أمة مجنونة فلا بأس أن يطأها ولا يطلب ولدها .

وقد روى العامة أن النبي صلى الله عليه وسلم نذب إلى أربعة :

أحدها : طلب الحسية فقال : تخيروا لنطفكم فلا تضعوها في غير الأكفاء ، وقال : إياكم وخضراء الدمن ، وهي المرأة الحسناء في المنبت السوء .

الثاني : البكر فإنه أخرى بالمؤالفة ، قال الجابر وكان قد تزوج ثيبا : هلا تزوجت بكراً تلاعبها وتلاعبك .

الثالث : الولود ، قال عليه الصلاة والسلام : « انكحوا الولود الودود » ، وقال : « الحصير في ناحية البيت خير من امرأة لا تلد » .

الرابع : الأجنبية ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تنكحوا القرابة القرية فإن الولد يخرج ضاويًا ، أي نحيفًا ، ولعل ذلك لنقصان الشهوة بسبب القرابة » .

المقدمة السابعة : في آداب النكاح ، روى أبو بصير قال : قال الصادق عليه السلام : إذا تزوج أحدكم كيف يصنع ؟ قال : قلت له لا أدرى جعلت فداك ،

قال : فإذا هم بذلك فليصل ركعتين ويحمد الله ويقول : اللهم إني أريد أن أتزوج فأقدر لي من النساء أعفهن فرجا ، وأحفظهن لي في نفسها وفي مالي ، وأوسعن رزقا ، وأعظمهن بركة ، وأقدر لي منها ولداً طيباً يجعله خلفاً صالحاً في حياتي وبعد موتي ، فإذا دخلت عليه فليضع يده على ناصيتها ويقول : اللهم على كتابك تزوجتها ، وفي أمانتك أخذتها ، وبكلماتك استحلتك فرجها ، فإن قضيت في رحمها شيئاً فاجعله مسلماً سوياً ولا تجعله شرك شيطان ، قلت : وكيف يكون شرك شيطان ؟ قال : فقال إن الرجل إذا دنا من المرأة وجلس مجلسه وحضره الشيطان فإن هو ذكر اسم الله تنحي الشيطان عنه ، وإن فعل فلم يسم أدخل الشيطان ذكره ، وكان العمل منهما جميعاً والنطفة واحدة ، قلت : فبأي شيء يعرف هذا جعلت فداك ؟ قال : بحبنا وببغضنا .

مسألة : يكره التزويج والقمر في برج العقرب ، روى الشيخ والصدوق رحمهما الله تعالى عن الصادق عليه السلام قال : من تزوج والقمر في العقرب لم ير الحسنى ويستحب إيقاع العقد ليلاً لما رواه العامة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : أسوا بالإملاك فإنه أعظم للبركة ، ومن طريقة الخاصة قول الرضا عليه السلام من السنة التزويج بالليل ، لأن الله عز وجل جعل الليل سكناً ، والنساء إنما هن سكن ، ولأنه أقرب إلى مقصوده والأقل لانتظاره ، وقال بعض العامة : يستحب عقد النكاح يوم الجمعة لشرفه وكونه يوم عيد وفيه خلق آدم عليه السلام .

مسألة : لا خلاف في جواز الخطبة للنساء في غير موضع النهي ، والحق استحبابها لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فعل ذلك ، فإن النجاشي خطب لرسول الله بنت أبي سفيان ، وفعل الناس في الأزمان المتعددة والبلاد المتباينة يدل عليه ، وليست شرطاً في صحته إجماعاً ، واعلم أن الخطبة إما تصريح أو تعريض ، والمرأة المحطوبة إما خلية عن زوج وعدة أو مشغولة بأحدهما ، والخطاب إما زوج أو أجنبي .

فالتصريح : الخطاب بما لا يحتمل إلا النكاح ، مثل أن يقول في الخطبة : أريد أن أنكحك ، أو إذا انقضت عدتك نكحتك ، وإذا حللت فلا تفوتني على نفسك .

وأما التعريض فهو الإتيان بلفظ يحتمل الرغبة في النكاح وغيرها ، كقوله : رب راغب فيك ، أو حريص عليك ، ومن يجد مثلك وأنت جميلة ، وإذا حللت فأذنيني

ولست بمرغوب عنك ، ولا بيقين أيما ، ورب راغب في نكاحك ، وإن الله لسائق إليك خيراً ، وما أشبه ذلك ، ومن التعريض أن يذكر لفظ النكاح وبهم الخاطب فيقول : رب راغب في نكاحك ، وكذا إن أظهر الخاطب وأبهم النكاح ، لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لفاطمة بنت قيس : إذا حلت فأذنيي ولا تقوتيي نفسك ، وهذا تعريض .

إذا عرفت هذا ، فالمرأة إما خلية عن النكاح والعدة فيجوز خطبتها تعريضاً وقصرحاً ، وأما ذات البعل فيحرم خطبتها على غير الزوج تعريضاً وقصرحاً ، وأما ذات العدة ، فإن كانت عدتها رجعية حرم خطبتها على غير الزوج تعريضاً وقصرحاً لأنها في الحقيقة زوجة ، وأما المطلقة ثلاثاً فيجوز التعريض لها من الزوج وغيره ، ولا يجوز التصريح لها من الزوج ولا من غيره ، وأما المطلقة تسعاً لعدة ينكحها بينهما رجلان وما أشبهها من المحرمات على التأيد كالملاعة ، فلا يجوز لها التعريض من الزوج ، ولا يجوز التصريح في العدة من الزوج ولا من غيره ، وأما المعتدة عدة بائنة كالمختلعة والمفسوخ نكاحها فيجوز التعريض من للزوج وغيره ، والتصريح من الزوج دون غيره ، والمتوفى عنها زوجها يجوز التعريض لها ، لقوله تعالى : ولا جناح عليكم فيما عرضتم ، لا يجوز التصريح لدلالة مفهوم الآية عليه ، ولأنه إذا صرح بخطبتها تحققت رغبته فيها ، فربما كذبت في انقضاء العدة لغلبة الشهوة ، وإذا عرض لم تتحقق الرغبة . والشافعية وجه : في أن المتوفى عنها زوجها إن كانت تعتد بالحمل لم تخطب خوفاً من أن تتكلف إلقاء ولدها ، وللشافعي في التعريض في الخطبة للبائنة قولان : أحدهما الجواز ، لانقطاع سلطنة الزوج عليها ، وحصول البيئونة ، والثاني المنع ، لأن لصاحب العدة أن ينكحها ، فأشبهت الرجعية ، والمفسوخ نكاحها بسبب من الأسباب المقتضية للفسخ كالبائنة ، والتي لا تحل لمن منه العدة المطلقة ثلاثاً ، والمفارقة باللعان والرضاع كالمعتدة عن الوفاة ، ومنهم من جعلها على الخلاف في البائنة ، ولا فرق عند أكثر الشافعية بين أن تكون معتدة بالأقراء أو بالمشهور ، وقيل : يتخصص الخلاف بذوات الأشهر وبالقطع بالمتع في ذوات الأقراء ، لأنها قد تكذب في انقضاء العدة لرغبتها في الخاطب ، ولم طريقان في المعتدة عن وطء الشهة :

أحدهما : طرد الخلاف ، وأصحهما القطع بالجواز ، إذ ليس للواطئ عليها حق نكاح ، وقد بنوا الخلاف في هذه الصورة خلافاً ووفقاً ، على أن المقتضى للتحريم في الرجعية ما هو ، فقال بعضهم : المقتضى أنها بمعرض أن تراجع ، فقد تحملها الرغبة في الخاطب على أن تكذب في انقضاء العدة دفعا للرجعة ، وقال بعضهم : المقتضى أنها بحفوة بالطلاق ، فمساها تكذب في انقضاء العدة إذا وجدت راجيا مسارعة إلى الانتقام من الزوج ، والمعنيان منفيان في المتوفى عنها زوجها ، لجاز التعريض لخطبتها ، وفي الباتنة وجد المعنى الثاني دون الأول ، وكان الخلاف ، والقائلون بهذا النبأ طردوا الخلاف في المطلقة ثلاثا ، وفي المصوغ نكاحها ، وقال بعضهم : إن فسخ الزوج فعلى أول الخلاف ، وإن فسخت هي لم يحز التعريض لخطبتها قولا واحداً ، لأنها رغبت عن صحبتها فلا يؤمن كذبها في انقضاء العدة إذا وجدت راجيا ، إذا ثبت هذا فإن جواب المرأة مثل خطبته ، فيجوز لها التعريض بالخطبة فيما يجوز له التعريض فيه .

مسألة : نهى الله تعالى عن المواعدة سرا ، وليس المراد منه ضد الجهر ، لأنه يجوز التعريض بالخطبة سرا وجها ، وإنما أراد بالسرا الجماع ، لقول امرؤ القيس :
 ألا زعمت بسباسة اليوم أننى كبرت وأن لم يحسن السر أمثالى
 ومواعدة السر أن يقول : عندى جماع يرضيك ونحوه من الكلام ، وكذا إن أخرجه مخرج التعريض بأن يقول : رب جماع يرضيك ، وإنما كره لأنه من المحرم والفحش ، ولأنه ربما دعاها إلى الإخبار بانقضاء عدتها قبل انقضائها ، ولذلك لم يحز التصريح بالخطبة .

تذويب : لو صرح بخطبتها في العدة أو وعدا سرا ، ثم انقضت عدتها فتزوج بها صح النكاح ، وإن كان قد فعل محرما ، لأن النكاح يتجدد بعد المعصية ، فلا يؤثر تقدم المعصية عليه فيه ، كما لو نظر إليها مجردة ، فإنه لا يؤثر في تحريم نكاحها ، وقال بعضهم متى صرح ثم عقد فسخ العقد وليس بشيء .

مسألة : إذا خطب رجل امرأة فصرحت له بالإجابة مثل أن تقول : قد أجبتك

إلى ذلك ، أو تأذن لوليها أن يزوجه من إن كانت ثيبا ، أو تسكت إذا استأذنها وليها فيه ، فيكون سكوتها جاريا مجرى الإجابة والإذن ، أو تكون ممن يجبرها وليها فيصرح الولي بالإجابة ، قال الشيخ رحمه الله : يحرم على غيره خطبتها ، لما روى عنه عليه السلام أنه قال : « لا يخطب أحدكم على خطبة أخيه » ، وبه قال الشافعي لما فيه من الإفساد على الخاطب الأول ، كما نهى رسول الله أن يبيع الرجل على بيع أخيه لهذه العلة ، ولو كان الولي ممن لا يجبر كالآخ والمم وغيرهما فإذا أجابوا لم يحرم بذلك خطبتها ، ولو أذن له المحجب في الخطبة أو ترك التزويج جاز له الخطبة إجماعا ولو ردت الخاطبة فلغير خطبتها ، ولو لم يوجد منها إجابة ولا رد ، ولا ما يكون فيه ركون إلى إجابته لم يحرم خطبتها ، وبه قال بعض الشافعية ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال لغاطمة بنت قيس : إذا حلت فأذنيني ، فلما أحلت قالت : يا رسول الله خطبني معاوية وأبو جهم معا ، قال : أما معاوية فصعلوك لا مال له ، وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه ، انكحى أسامة ، وإنما خطبها لأسامة لأنها لم يوجد منها ما دل على إجابتهما ، وفي قوله عليه الصلاة والسلام : لا يضع عصاه عن عاتقه تأويلان : أحدهما أنه كثير الأسفار ، كما يقال للرجل المقيم ألقى فلان عصاه . والثاني : أنه كثير الضرب للمرأة ، تقول العرب للرجل العفيف الغيور : لا يضع عصاه عن عاتقه ، ولأن في تحريم الخطبة مع عدم الإجابة إضرارا بالمرأة ، لأن كل أحد متمكن من نكاحها بأن يخطبها ولو لم تصرح بالإجابة ، ولكن وجد ما يشعر بالرضا والإجابة ، مثل أن تقول : لا رغبت عنك ، فالأقرب عدم تحريم الخطبة وهو الجديد الشافعي ، لأن خطبة الثاني لا تبطل شيئا مقررًا ، والتقديم أنها تحرم الخطبة ، وبه قال مالك وأبو حنيفة ولو لم يوجد الإجابة ولا الرد لم تحرم الخطبة ، وهو قول بعض الشافعية ، وقال آخرون : فيه القولان ، وجعل السكوت في الباب من أمارات الميل والتأمل والاستشارة ، ثم إن قلنا إن للآب والجد ولاية على البكر كما هو مذهب الشيخ رحمه الله ، ومذهب أكثر العامة ، فالمعتبر رد الولي وإجابته إن كانت بكرا ، والولي الآب والجد له ، دون ردها وإجابتها ، وإن كانت ثيبا فالمعتبر رد المرأة وإجابتها دون الآب والجد ، ولو كانت بكرا والولي غير

الآب والجد كالأخ والم عند العامة فالمعتبر عندهم أيضا رد المرأة وإجابته ، وأما الأمة فالمعتبر رد السيد وإجابته ، وفي المجنونة مع عدم الآب والجد الحاكم ورده وإجابته ، وسكوت الولي لا يمنع الخطبة ، إن قلنا بأن سكوت المرأة مانع ، كما أن السكوت لا يمنع السوم على السوم ، بخلاف سكوت المرأة ، لأنها مجبولة على الحياء ، فلو لا الرضا عند السكوت لبادرت إلى الرد ، وقال بعض الشافعية : إن فيه الخلاف السابق ، ويجوز الخطبة لمن لا يعلم أنها خطبت أو لا . أو لم يعلم أن الخاطب أجيب أم لا ، ولا فرق بين أن يكون الخاطب الأول مسلما أو ذميا إذا كانت المرأة ذمية عند بعض الشافعية ، والوجه جواز الخطبة على خطبة الذمي وإن أجيب ، وكذا في السوم على السوم ، وبه قال بعض الشافعية .

تذنب : لو خطب امرأة فأجابته فخطبها غيره وتزوج بها صح النكاح ، وإن كان فعل محرما ، وبه قال الشافعي ، لأن المنع من ذلك لمعنى في غير العقد ، فلا يمنع صحته ، كما لو عقد في وقت يضيق عليه فيه الصلاة ، وقال مالك وداود : لا يصح النكاح ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « لا يخطب الرجل على خطبة أخيه » ، والنهي يدل على فساد المنهى عنه ، وهو بمنوع ، سلمنا ، لكن فساد الخطبة لا يقتضى فساد النكاح .

مسألة : لو خطب رجل جاز لغيره مع عدم الإجابة والرد الإشادة به أو بغيره وذكر مساوته بالحق وقائلها ، فإن فاطمة بنت قيس طلقها زوجها فبت طلاقها ، فأمرها النبي صلى الله عليه وسلم أن تعتد في بيت ابن أم مكتوم ، وقال لها : إذا حللت فأذنيني ، فلما حلت أخبرته أن معاوية وأبا جهم خطباها ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم ، أما معاوية فصعلوك لا مال له ، وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه ، انكحى أسامة ، فقد تعرض صلى الله عليه وسلم بما يكرهه الخاطبان ، ومعاوية الذي خطبها . هو ابن أبي سفيان ، وقيل غيره ، والمشهور الأول ، وتناول أبو بكر الصيرفي قوله عليه الصلاة والسلام : لا يضع عصاه عن عاتقه بأنه كناية عن كثرة الجماع ، وهو خطأ لبعد اطلاع النبي على هذه الحالة من غيره ، ثم إنه مستبعد من خلقه عليه الصلاة والسلام وحسن أدبه ، مع أن المرأة لا ترغب عن الخاطب بذلك ، بل هو دافع لها إلى الإجابة ، وليس هذا من الغيبة المحرمة ، فإن الغيبة المحرمة التفض

بذكر مثالب الناس وإضحاك الناس بها ، وهتك أستارهم ، وذكر مساوي الإنسان عند عدوه قرباً إليه ، وأشبه ذلك من الأغراض الفاسدة ، فأما إذا أراد نصيح الغير فلا بأس ، قال عليه الصلاة والسلام : « إذا استنصح أحدكم أخاه فلينصحه » .

مسألة : يستحب أمام العقد الخطبة المشتمة على حمد الله تعالى ، والثناء عليه ، والشهادتين ، والصلاة على النبي ، والوعظ ، والوصية بتقوى الله تعالى ، وليست الخطبة واجبة عند العلماء للأصل ، ولما رواه العامة عن سهل بن سعد الساعدي قال : إن الراهبة لما لم يقبل النبي صلى الله عليه وسلم نكاحها ، قام رجل فقال زوجنيها يا رسول الله ، فقال زوجتكها بما معك من القرآن ، ومن طريق الخاصة رواية عبيد قال : سألت الصادق عليه السلام عن التزويج بغير خطبة ، فقال : أوليس عامة ما يتزوج فتياتنا ؟ ونحن نتعرف الطعام على النحوان ، نقول يا فلان زوج فلانا فلانة ، فيقول نعم قد فعلت .

وقال داود : الخطبة في النكاح واجبة ، لقول النبي صلى الله عليه وسلم : « كل أمر ذي بال لم يبدأ فيه بمحمد الله فهو أتر ، ولا دلالة على البطلان فيه ، لأنه عليه الصلاة والسلام أخبر أنه يقع ناقصاً لترك السنة ، إذا ثبت هذا ، فقد روى أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم خطب وقال : « الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، واتقوا الله الذي تسامون به والأرغام إن الله كان عليكم رقيباً ، اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، اتقوا الله وقولوا قولا سديداً ، يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً » .

وخطب الجواد عليه السلام لما تزوج بنت المأمون فقال : الحمد لله ثم النعم برحمته ، والهادي إلى شكره بمنه ، وصلى الله على خير خلقه الذي جمع فيه من الفضل ما فرقه في الرسل ، وجعل صوابه إلى من خصه بخلافته ، وسلم تسليماً ، وهذا أمير المؤمنين زوجتي ابنته على ما فرض الله عز وجل للسبلات على المؤمنين إمساك

بمعروف أو تسريح بإحسان ، وبذلك لها من الصداق ما بذله رسول الله صلى الله عليه وسلم لأزواجه ، وهو اثنا عشر أوقية ونش على تمام الخمسمائة ، وقد نخلتها من مائة ألف ، زوجتني يا أمير المؤمنين ، قال بلى ، قال قبلت ورضيت إذا عرفت هذا فإنه يكفي في الخطبة الحمد لله ، قال الصادق عليه السلام : إن على ابن الحسين عليه السلام كان يتزوج وهو يتعرق عرقاً يأكل ، فما يزيد على أن يقول : الحمد لله وصلى الله على محمد وآله ، ويستغفر الله ، وقد زوجناك على شرط الله ، ثم قال : إن على بن الحسين عليه السلام : إذا حمد الله فقد خطب .

مسألة : قال الشافعي : في النكاح خطبتان : أحدهما تتقدم العقد ، والآخرى تتخلله ، فالمتقدمة ما قدمناه ، وأما المتخللة فهو أن يقول الولي : بسم الله والحمد لله وصلى الله على رسول الله ، أوصيكم بتقوى الله ، زوجتك فلانة ، ويقول الزوج مثل ذلك ، إلا أنه يقول موضع زوجتك قبلت هذا النكاح ، وقال الشيخ : لا يعرف أصحابنا ذلك ، وللشافعية وجهان فيما إذا قال الولي : الحمد لله والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجت منك ، فقال الزوج : الحمد لله والصلاة على رسول الله قبلت ، هل يصح العقد ، أحدهما المنع ، لأنه تخلل بين الإيجاب والقبول ما ليس من العقد ، وأصحهما عندهم الصحة ، لأن المتخلل من مصالح العقد ومقدمات القبول ، فلا يقطع الموالاة بينهما بالإقامة بين صلاتي الجمع ، وكطلب الماء والتميم بينهما ، وقال بعضهم : موضع الوجهين ما إذا لم يطل الذكر بينهما ، فإن أطل قطعنا ببطلان العقد ، ولو كان المتخلل بين الإيجاب والقبول كلاماً لا يتعلق بالعقد ولا يستحب فيه ، جزم بعضهم بالبطلان ، لأن الكلام الأجنبي وإن قل فهو كالسكوت الطويل ، فإن الكلام اليسير يطل الموالاة في الفاتحة كالسكوت الطويل ، واستحب الشافعي أن يقول الولي : أنكحتكها على ما أمر الله تعالى من إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ، قال أصحابه : هذا إذا ذكرناه قبل العقد ، فذاك ، وإن قيد الولي بالإيجاب به وقبل الزوج مطلقاً ، أو مكرراً له ، فوجهان ، أحدهما أنه يبطل النكاح لأنه نكاح بشرط الطلاق على أحد التقديرين ، وأصحهما عندهم الصحة ، لأن كل زوج مأخوذ به بما يجب الدين فليس في ذكره إلا التعرض لمقتضى العقد .

مسألة : يستحب لمن خطب امرأة أن يقدم بين يدي خطبته خطبة ، فيحمد الله ويتقرب إليه ، ويصل على النبي صلى الله عليه وسلم ، ويوصي بتقوى الله تعالى ثم يقول : جسٹم خاطبا کریمتکم ، ويخطب الولي كذلك ، ثم يقول : لست بمغرور عنه أو ما في معناه ، ويستحب الدعاء للزوجين بعد العقد ، فقد روى أنه صلى الله عليه وسلم قال : يا جابر تزوجت ؟ قلت نعم ، فقال : بارك الله لك ، وبارك عليك ، وجمع بينكما في خير .

مسألة : يستحب الإعلان والإظهار في النكاح الدائم والإشهاد ، وليس الإشهاد شرطاً في صحة العقد عند علمائنا أجمع ، وبه قال مالك وأحمد في إحدى الروايتين ، وبه قال ابن عمر وابن الزبير وعبد الرحمن بن مهدي ويزيد بن هارون ، وأهل الظاهر داود وغيره ، وفعله ابن الحسن بن علي عليه السلام ، وابن الزبير وسالم وحزمة ابنا عمر ، وبه قال عبد الله بن إدريس والعنبري وابن ثور وابن المنذر والزهري ومالك ، إلا أن مالكا شرط عدم التواطؤ على الكتمان للأصل ولامتناع اشتراط ما ليس بشرط في القرآن مع ذكر ما ليس بشرط فيه ، فإن الله تعالى لم يذكر الشهادة في النكاح ، وذكر الشهادة في البيع والدين ، مع أن الحكم في الشهادة في النكاح أكثر لما فيها من حفظ النسب وزوال التهم والتوارث وغيره من توابع النكاح ، فلو كان الإشهاد فيه شرطاً لما أمهله الله تعالى في القرآن ، لأنه منافي للحكمة ، ولما رواه العامة عن مالك بن أنس قال : اشترى النبي صلى الله عليه وسلم جارية بسبعة أرواس وقال الناس ما ندرى أتزوجها ، فعلوا أنه تزوجها ، فاستدلوا على تزويجها بالحجاب ، وعز النبي صلى الله عليه وسلم أنه لما تزوج بصفية أولم بتبر وأقط ، فقال الناس : ترى أنه تزوج بها أم جعلها أم ولده ، ثم قالوا : إن حجها فهي امرأته ، ولو كان أشهد ما اختلفوا ، لا يقال إنه من خصائصه عليه الصلاة والسلام ترك الإشهاد أو عدم النقل لا يدل على العدم ، فجاز أنه أشهد ولم ينقل ، لأننا نقول يجب أن يبين أنه من خصائصه لعموم دليل التأسي ، وهو مما يعم به البلوى فلا يترك نقله لو فعله ومن طريق الخاصة ما رواه محمد بن مسلم عن الباقر عليه السلام قال : إنما جعلت البينة في النكاح من أجل المواريث ، وعن زرارة أنه سأل الصادق عليه السلام عن

رجل تزوج منه بغير شهود ، قال لا بأس بالتزويج البتة بغير شهود فيما بينه وبين الله تعالى ، وإنما جعل الشهود في تزويج السنة من أجل الولد لولا ذلك لم يكن به بأس ، وقال الشافعي : لا ينعقد إلا بشهادة عدلين ذكرين ، ورواه عن علي عليه السلام وعن عمر وابن عباس ، وإليه ذهب الشعبي والنخعي والأوزاعي والثوري وأحمد لرواية عمران بن حصين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لا نكاح إلا بولي رشيد وشاهدين عدلين ، ورد عمر نكاحا لم يشهد عليه إلا رجل وامرأة ، وقال : هذا نكاح السر ولا أجيزه ، ولو تقدمت لرجعت .

والجواب : منع الحديثين ، فإن ابن عبد الله مع تقدمه في الحديث قال : هذا من حديث ابن عباس وأبي هريرة وابن عمر إلا أن في نقله ضعفا لم أذكره ، سلنا ، لكن حقيقة هذا الحديث غير مرادة بالإجماع ، لأن الأعيان لا يصح نفيها ، فلا بد من إضمار ، وليسوا بإضمار الصحة أولى منا بإضمار الفضيلة ، وفعل عمر ليس حجة ، سلنا ، لكن رده لأنه لم يثبت عنده شهادة رجل وامرأتين ، وقال أبو حنيفة : ينعقد النكاح بشهادة فاسقين ، وشاهد وامرأتين ، ويثبت عند الحاكم بشاهد وامرأتين ، وأما صحته بشهادة فاسقين فلائها حالة تحمل فصحت من الفاسق كسائر التحملات ، وليس بجيد لأن ما ثبت بشهادة العدلين لا يثبت بشهادة الفاسقين كحالة الأداء وسائر التحملات ليست واجبة وتصح من العبدین بخلاف مسألتنا ، وأما صحته بشهادة رجل وامرأتين فلائنه كالتقصاص بخلاف البيع ، لأن المقصود منه المال ، وقال أحمد أيضا : إنه ينعقد بشاهد وامرأتين ، واعلم أن مالكا لم يشترط الشهادة بل الإعلان وترك التواطؤ بالكتمان حتى لو تواصوا بالكتمان لم ينعقد النكاح وإن حضره الشهود .

مسألة : لا يشترط الولي إلا في الصغير أو المجنون ، فلو باشرت المرأة البالغة الرشيدة العقد على نفسها صح نكاحها على ما يأتي إن شاء الله تعالى ، وإذا تزوج المسلم كتابية لم يشترط الولي عندنا إن سوغناه ، ولا يشترط لإسلام هذا الولي عند الشافعي ، بل يجوز أن يزوجه ولها الكافر إذا كان عدلا في دينه ، لأن هذه ولاية بالنسب ، فصحت من الكافر كولاية المال ، والحضانة ، وقال أحمد : لا يجوز ،

لأن كل عقد افتقر إلى شهادة المسلمين افتقر إلى إسلام الولي ، كالنكاح للسلة ، و فرق الشافعي بينه وبين نكاح المسلة بانقطاع الموالاة بينهما والشهود ، لأنهم لا يراهم لإثبات النكاح عند الحاكم بخلافة الولاية .

مسألة : شرط الشهود الذكورة ، فلا تقبل شهادة النساء في النكاح لامفرادات ولا منضيات ، وبه قال الشافعي خلافاً لأبي حنيفة ، وقد تقدم ، ويشترط أيضاً التكليف والحرية ، فلا ينعقد عندهم بحضور الصبيان والمجانين والعبيد ، لأنه لا يثبت بهم لو حصل جحد ، ونحن نقول إنهما شرط الثبوت لا صحة العقد ، ويشترط أيضاً العدالة ، وبه قال الشافعي لعموم قوله تعالى : « إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ، أوجب التثبت عند مجيء الفاسق ، ولقوله تعالى : « وأشهدوا ذوى عدل منكم ، جعل مناط القبول العدالة ، إذ لو حصل بذونها لم يجز اشتراطها ، لأنه في محل الإرشاد ، ولأن من لا تتعقد بشهادتهم نكاح المسلمين لا ينعقد به نكاح المسلم والذمية كالعبد ، وقال أبو حنيفة : ينعقد النكاح بكافرين ، لأنه لما جاز أن يكون الولي كافراً كذلك الشاهد كنكاح الكافر ، ومنها السمع والبصر والنطق ، فلا ينعقد النكاح عندهم بحضور الأصم الذي لا يسمع أصلاً ، وفي الإجماع للشافعي وجهان : أحدهما الانعقاد ، لأنه عدل فاهم ، وأصحهما عندهم المنع ، كما في الأصم ، لأن الأقوال لا تثبت إلا بالمعاينة والسمع ، وفي الانعقاد عندهم بحضور الأخرس وجهان بناء على الخلاف في قبول شهادته ، ونقل بعض الشافعية أن مذهب الشافعي عدم قبول شهادته ، لأن الشهادة تقتصر على صريح اللفظ ، وهو عمتنع في حق الأخرس ، ونقل بعضهم : أن المذهب قبولها ، لأن إشارته إذا كانت مفهومة قامت مقام عبارته في العقد والطلاق وغير ذلك ، فكذلك في أداء الشهادة ، وهل ينعقد بشهادة أهل الصنائع الدنية : كالحارس والكناس والحجام ، للشافعية وجهان ، وألحق بعضهم الخلاف في الصباغين والصواغين ، ولا ينعقد عندهم بشهادة الأعجمي الذي لا يعرف لسان المتعاقدين ، فإن ضبط اللفظ فوجهان : أحدهما القبول لأنه ينقله إلى الحاكم ، ولا ينعقد عندهم بشهادة المغفل الذي لا يضبط ، فإن كان يحفظ وينمى عن قريب انعقد ، وهل ينعقد لو كان الحاضران عدوى الزوجين أو عدوى أحدهما أو أحدهما عدو أحدهما والثاني عدو الثاني ، فيه للشافعية وجوه ، أحصاها عندهم الانعقاد اكتفاء

بالعدالة والفهم ، ولأنهما من أهل الشهادة في النكاح في الجملة فانهقد بهما ،
والثاني : المنع لتعذر الإثبات بشهادتهما إذا كانا عدوين لهما ، أو أحدهما عدو أحدهما ،
والآخر عدو الآخر . وإذا كانا عدوين لأحدهما لم يمكن الإثبات بشهادة إلا إذا
كان الجحد من غير العدو والاحتياط والتوثيق مقصود من الجانبين ، والثالث :
الفرق بين أن يكونا عدوين لهما ، أو كل واحد منهما عدو لأحدهما فلا ينعقد ،
وبين أن يكونا عدوى أحدهما فينعقد لإمكان الإثبات بهما في الجملة ، وقطع بعض
الشافعية بالانعقاد في هذه الصورة ، وخص الخلاف بالصورتين الأوليين ، ولو كان
الحاضران ابني الزوجين ، أو ابني أحدهما ، أو ابن أحدهما مع ابن الآخر .
فالشافعية هذه الأوجه ، ومنهم من قال : يختص الخلاف بهذه الصورة ، وفي العدوين
ينعقد لا محالة ، والفرق أن العداوة قد تزول ، ويجرى الخلاف بين الشافعية فيما لو
حضر جد الزوج وجد الزوجة ، أو أبو الزوج وجدها ، أو أبوه وأبوها ، وأما أبوها
فولي عاقد فلا يكون شاهدا كالزوج ، ولو كان وكيلاً لم ينعقد بحضوره عندهم ،
لأن الوكيل نائب الموكل ، وقال بعض الشافعية وجهاً رابعاً : وهو أنه ينعقد بابني
المرأة وعدوى الزوج ، لأن الزوج يقدر على الإثبات بشهادتهما ، ولا ينعقد عندهم
بابني الزوج وعدوى المرأة ، لأنه لا يقدر عليه ، والمرأة لا تحتاج إلى الشهادة لإثبات
الحل فإنه يندفع بإنكار الزوج ، نعم قد يحتاج لإثبات المهر والتفقة ، لكن المقصود
الأصلي من النكاح الحل والشهادة شرطت لإثباته عندهم ، وأما لو كان الحاضران
مستورين ، قال بعض الشافعية : لا ينعقد النكاح ، بل لا بد من معرفة العدالة باطناً
ليمكن الإثبات بشهادتهما ، والمذهب عندهم الانعقاد ، لأن النكاح يجري فيما بين
أوساط الناس والعوام ، ولو كلفوا معرفة العدالة باطناً لثق عليهم . وتعذرت العقود
ويلزم على هؤلاء ترك العمل بمذهبهم ، أما الحكم فلا يجوز بشهادة المستورين ، لأن
الحاكم يسأل عليه مراجعة المزكين ومعرفة العدالة الباطنة ، ونفى بالمستورين من
يعرف بالعدالة ظاهراً لا باطناً ، وقيل من يشبهه حاله في الفسق والعدالة ، فعلى هذا
شاعدا النكاح إذا لم يعلم فسقهما وكان ظاهرهما العدالة انعقد النكاح عندهم ، ولا
يجب البحث عن حالهما حين العقد ، قال أبو إسحاق : إنه لو وجب البحث عن حالهما

لم ينعقد النكاح إلا بحضور الحاكم ، لأن العدالة لا تثبت إلا عنده ، وقد أجمع المسلمون على انعقاده بغير حضوره ، ولا ينعقد عندهم بمن لا يظهر إسلامه وحرية بأن يكون في موضع يمتزج فيه المسلمون بالكفار ، والعبيد بالأحرار ، ولا غالب ولا يكتفى بظاهر الإسلام والحرية بالندار حتى يعرف حاله فيهما باطنا ، وفرق بعضهم بأن الحرية يسهل الوقوف عليها بخلاف العدالة والفسق ولو أخبر عدل عن فسق المستور ، قال بعض الشافعية : زال بإخباره السر حتى لا ينعقد النكاح بحضوره ، وهل يزول بمجرد إخباره بناء على أنه رواية ، أو لا لأنه شهادة فلا يعتبر إلا قول من يجرح عند القاضي ؟ تردد الشافعية فيه ، وهذا كله عندنا ساقط ، لأننا لا نشترط الشهادة في العقد .

مسألة : لو بان كون الشاهد فاسقا عند العقد لم يؤثر في صحته عندنا ، وللشافعية طريقان : أحدهما أنه يبين بطلان النكاح لظهور عدم الشرط وهو العدالة ، فأشبه ما لو باننا كافرين أو فاسقين ، والثاني أنه على قولين للشافعي وجه الجواز الاكتفاء بالستر حال العقد ، وهما كالطريقين فيما إذا حكم الحاكم بشهادة شاهدين ، ثم باننا فاسقين هل ينقض الحكم ؟ والأصح البطلان ، وإنما يثبت الفسق بينة تشهد به ، أو بتصادق الزوجين ، ولا اعتبار بقول الشاهدين كنا فاسقين حال العقد ، كما لا اعتبار بقولهما كنا فاسقين حال الحكم بعد الحكم بشهادتهما ، وكذا لو تصادق الزوجان على وقوع العقد حال الإحرام أو العدة أو الردة يعلم بطلان العقد ، ولا مهر قبل الدخول ، ولو فسق الشاهدان بعد العقد لم يؤثر في صحة العقد إجماعا ، لأن الفسق قد يحدث واستتابة المستورين قبيل العقد احتياط واستظهار ، وتوبة المعلن بالفسق حينئذ تلحقه بالمستور ، الأظهر المنع ، لأنها لا تصدر من غرم محقق ؛ فإن حكنا بأنها ملحقة بالمستور ، فلو عادوا إلى فجورهم على القرب فالظاهر أن تلك التوبة تصير ساقطة الأثر ، ولو ادعى نكاح امرأة بولي وشاهدي عدل وأقام شاهدين عند الحاكم ، فإنه يبحث عن حالهما حين الحكم ، ولا يبحث عن حالهما حين العقد ، ولو اعترف رجل وامرأة أنهما نكحوا بولي مرشد وشاهدي عدل مضى النكاح بينهما ، ولم يبحث عن حال الشهود ، لأن النكاح ثبت باقرارهما فاكتفى به .

من القانون الأساسي لجماعة التقريب

المادة الثانية

أغراض الجماعة هي : -

أ - العمل على جمع كلمة أرباب المذاهب الإسلامية ، الطوائف الإسلامية ، الذين باعدت بينهم آراء لا تمس العقائد التي يجب الإيمان بها .

ب - نشر المبادئ الإسلامية باللغات المختلفة وبيان حاجة المجتمع إلى الأخذ بها .

ج - السعي إلى إزالة ما يكون من نزاع بين شعبين أو طائفتين من المسلمين ، والتوفيق بينهما .

فهرس

٢٢٧	كلمة التحرير
٢٢٩	تصريح القرآن الكريم
٢٤٣	للمقول لا للمواظف
٢٥١	حول المساد
٢٦٠	القرآن الكريم (شعر)
٢٦٢	المجتمع الإسلامي كما تنظمه سورة النساء
٢٧٠	من غمرات المقول والمنقول
٢٨٧	قال شيخى
٢٩٧	لا بد من دين الله لدنيا الناس
٣٠٦	طلان العقود في الجريمة الإسلامية والقانون الوضعى
٣٢٢	ظرة جديدة في مكي السور ومدنها
٣٢٩	نصحة قاض لحليفة
٣٣٧	أنا الفنة
٣٤٨	رأى الدين في الصور والتماثيل
٣٦٤	من ذخائر الفقه الإسلامى
٣٦٧	كتاب النكاح من تذكرة الفقهاء للحلى

رِسَالَةُ الْأَسْتَاذِ

محمد استلامية عالمية
مفتى دار القريّة بين الدواوين الإسلامية بالقطر

(المعدادان ٥١ و ٥٢) المجموعة الثانية

محرم - رجب ١٤٢٨ هـ - يوليو - ديسمبر ١٩٦٦ م

- رئيس التحرير : محمد محمد الدفت مدير الإدارة : عبد العزيز محمد عيسى
الإدارة : ١٩ شارع حشمت باشا بالرمالك . القاهرة - تليفون ٨٠٤٦٨٩
قيمة الاشتراك في السنة للأفراد : خمسون قرشاً مضمناً أو ما يكاد لها